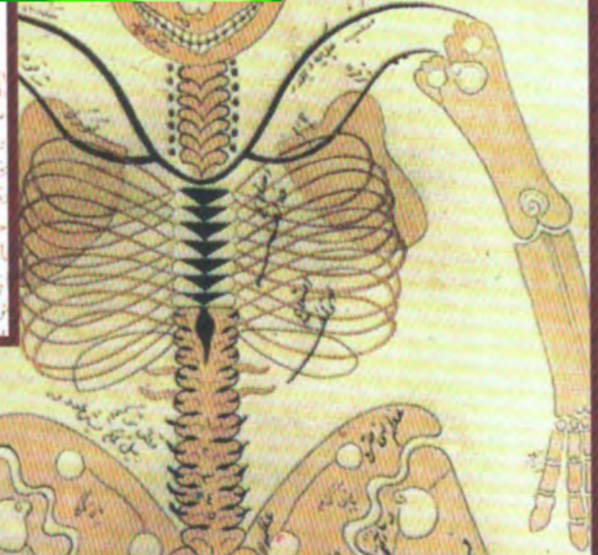
طبعة جديدة 2000

الدكتور رحاب خضر عكاوي

الموجز في تاريخ الطب عند العرب





الدكتور رحاب خضر عكاوي

الموجز في تاريخ الطِّبِّ عِندَ العَرَبِ



دار المناهل



هاتف: ٨١٤٧١٦ - ٨١٤٦٩٧ - ٨١٨٦٠٠ • ص.ب: ١٤/٥٦٤٥

DAR AL-MANAHEL • TEL 814716 - 814697 - 818600 • P.O. Box: 14 / 5645 • BEIRUT - LEBANON.

افتِـــتَاح

الطب منذ فجر التاريخ

قُدِّر الألم للإنسان من مهده ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبَد﴾ ومع الكبد تفنّن الإنسان في البحث عن العلاج منذ التأوهات الأولى التي تأوّه بها أسلافه وأجداده، وينقل التاريخ الموغل في القدم أنّ أول من مارس الطب هو سيدنا آدم عليه السلام عندما ساعد حواء في أثناء وضعها «لأكثر أوجاعك وحبلك وفي الوجع تلدين». وكان لكل شعب طبه، ولكل طب لون وخواص تتغيّر وتصطبغ بميول هذا الشعب المنحدرة في اتجاهات عملية أو سحرية أو كهنوتية، حسب فلسفته ونظرته إلى الكون الذي يعيش كنهه.

في الشرق وفي كنف الحضارتين العظميين اللتين ازدهرتا في حوض النيل والفرات خطا الطب خطوات واسعة في درب الوقاية والعناية والاستشفاء. ولا نعرف تمام المعرفة مدى خاصية واستقلالية كل من هاتين الحضارتين ولا مقدار ما تقابساه في تلك العصور. وكل ما عرفناه أن طبّ الحضارتين هاتين كان له الأثر العظيم فيمن جاورهما. ومهما يكن من أمر تبادل المعارف الطبيّة بين وادي النيل ووادي الفرات، فإن طب كل منهما نحا نحواً مختلفاً يصوّر طبيعة كل من الشعبين، فنشأ الطب الفرعوني المصري على أسس تجريبية اختبارية لا مكان للسحر فيه إلّا في جزء يسير منه، أما الطب في أرض بابل فقد نشأ عى السحر والعبادة بالإضافة إلى شيء من العقاقير.

في مصر نشأ الطب على أسس واقعية أول الأمر، ووصل إلى ذروته في خلال عهد المملكة الوسطى وبداية عهد المملكة الحديثة، وذاعت شهرة الأطباء المصريين،

وسعى من ثمّ أباطرة آسيا إلى ملوك الفراعنة بهدف إيفاد أشهر أطبائهم إلى بلادهم. وما عتَم أن دلف على الطب عناصر دخيلة من الطب السحري والكهنوتي عرقلت تقدمه وإن بقيت تقاليده الجذرية التي كانت الإس الذي انبنت عليه مدرسة الإسكندرية الطبية. وامتدت هذه التقاليد حية حتى عصر جالينوس في القرن الثاني الميلادي، إذ كان العلماء لا يزالون يترددون على مكتبة منفيس ليطلعوا على المخطوطات المحفوظة بها، فقد زار مصر آنذاك أجلّ أطباء اليونان وفلاسفتها أمثال فيثاغورس وأبقراط وأفلاطون.

على أنه بفضل ما امتاز به الإغريق من المنطق والبراعة الجدلية، وبفضل فصلهم الدين عن العلم، سرعان ما آلت الأولية في الطب إليهم. لم تكن نظرة الطب إلى الصحة والأدواء والعلاج عامة بوصفها موضوعات تخضع دراستها للبحث التجريبي والتفكير المنطقي، إلاّ عندما حاول الإغريق، ولأول مرة في تاريخ البشرية، تفسير الكون والاستدلال على قوانينه بالتفكير المجرد والمنطق المقنّن، بل بالتوصل إلى أساليب المنطق لتكون أداة لهذا التفسير، وإنما نهجوا هذا المنهج لإيمانهم بقابلية الكون للتفسير العقلي، وبسببية الأحداث الطبيعية.

هذه النزعة العقلية المجردة لم تكن وليدة أثينا نفسها، وإنما جاءت ثمرة جهود فلاسفة مستعمرات الإغريق في جزر النصف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وشواطئه، ذلك لأن الفلسفة كانت جزءاً لا يتجزّأ من العلم التجريبي الذي لم تحدث أية محاولة لفصلها عنه. ولعل أعمق مفكري هذه الحقبة التي غرست في أثنائها بذور ذهن الإنسان الحالي هما فيثاغورس وأنبادقليس لما تركاه من الطابع الدائم في الفكر البشري، ولأثرهما في الطب الغربي.

وفي الزمن نفسه عاش في مدينة كروتون ألقمايون الذي أطلق عليه اسم أبي الطب قبل الأبقراطي، وكان مذهبُه أن الصحة هي حالة التناسق أو الانسجام التام بين عناصر الجسم المختلفة، وأن المرض يحدث بطغيان عنصر على العناصر الأخرى، وأن الشفاء هو الانتقال مرة ثانية من حالة الاضطراب إلى حالة الانسجام. وقد فطن ألقمايون إلى تأثير المناخ والتغذية والبيئة في الأمزجة، وإلى صلتها بالأمراض، وقد أشار تلاميذه في كتاباتهم إلى الأخلاط الأربعة، وشبّه بعضهم الجسم السليم بالقيثار ذي الأوتار المشدودة بدرجة واحدة، فإذا ارتخى أحد هذه الأوتار أو اشتد، زال الانسجام وماتت الروح قبل موت الجسد. ثم عمد ألقمايون إلى تشريح الحيوان، ووفق إلى اكتشاف عصب البصر وقنوات أستاخيو،

واستطاع أن يميز بين الأوردة والشرايين، وقال إن المخ هو مركز الذهن والحواس الذي ينشأ عنه التفكير والتمييز، وقد تبعه في هذه الآراء أفلاطون وأبقراط بينما خالفه أرسطو وزينون زعيم الرواقيين اللذان نسبا هذه الخواص إلى القلب لا إلى المخ. وأهم الكتب التي خلفها ألقمايون هو كتاب «في طبيعة الإنسان» الذي ظل مدة طويلة المرجع الأساسي للطب قبل الأبقراطي وأثر تأثيراً عميقاً في طب أبقراط نفسه، ويمكن اعتباره النواة التي أنتجت طب مدرة قوّ. وفي الفترة نفسها ازدهرت مدرسة ثانية نافست تعاليمها تعاليم قوّ، هي مدرسة قنيدوس على الشاطىء الأسيوي بمواجهة قوّ، والتي أنجبت بعض الأطباء الذين درسوا في الإسكندرية. وقد تميزت قنيدوس بنظريات كان لها شأن عظيم في التفكير الطّبي المصري القديم من قبل، وربما ورثتها عنه، وهي آراء ما نزال نرى آثارها في الطب الحديث، فعنها انتشرت فكرة البريتوما أي الفضلات المسببة للمرض التي أخذ بها جالينوس فيما بعد، وهي القائلة إن اجتياز هضم الغذاء حدوده الاعتيادية، ينتج عنه ظهور مواد غير طبيعية تسري في الجسم.

وقد عرف القرن الرابع قبل الميلاد حوادث قلبت تاريخ العالم، فعندما دخل الإسكندر المقدوني مصر وآسيا انتقلت الحضارة الإغريقية معه وسارت في إثره فانتشرت في الشرق حتى وصلت إلى الهند وجاورت الحضارة الشرقية وتأثرت بها. وتركزت الحضارة والعلوم في مدينة الإسكندرية. وقد عاد الطب تحت كنف البطالمة اليونان إلى موطنه في مصر، وإذا كانت لغة البطالمة هي الإغريقية، ولئن أصبحت كذلك لغة مصر الرسمية بعد أن اتخذ علماء مصر لأنفسهم أسماء ذات جرس إغريقي، فإنّ أغلبية السكان، بما في ذلك سكان الإسكندرية، كانت من المصريين الأصليين. وقد ظهر في ذلك العصر في الإسكندرية علمان من أعلام الطب هما هيروفيلس الذي مارس التشريح وكان أول من عدّ النبض مستعيناً بساعة مائية، وأيرازستراتوس وكان أول من أنكر نظرية الأخلاط وأولى الأنسجة والأوعية المركز الأول في دراسة الأمراض، فشرح الجثث باحثاً عن السبب العضوي بها.

وفي القرن الثاني الميلادي تألق نجم جالينوس الأسقلبيادي، من أسرة ترقى إلى أسقلابيوس إله الطب عند الإغريق. وتُعدُّ آراؤه وكتاباته الأساس الذي تحوّل به الطب إلى قواعده الجديدة، فإن هذا العالم الفذّ ابتنى تعاليمه على وفرة من المعلومات التي استنبطها من تشريح الحيوان والأجنة وفحص المرضى وملاحظة أحوالهم. وقد تمكن جالينوس من توحيد الطب بشكل سيطر على الفكر الطبي حتى أيام باراسلسوس، فون هوهنهايم في القرن السادس عشر الميلادي. إلّا

أن أتباعه حذوا حذو أتباع أبقراط وتلاميذ هيروفيلوس وأيزارستراتوس فاكتفوا بالنقل والتصنيف، وإن اعتمدوا أحياناً مثله على التشريح بغية التأكد من آرائه الطبية والاستدلال على الأعضاء التي ورد ذكرها في مصنفاته، ولذلك بدت كتاباتهم نسخة عن أصل يتكرر دون أي تجديد أو بحث وتدقيق. وقد ترجمت مؤلفات جالينوس بعد وفاته، ومن بين من قام بترجمتها سرجيوس القس الذي نقل بعضها إلى السريانية وهي اللغة التي كانت سائدة في غربي آسيا، وفي القرن السابع نشأ في المدرسة نفسها ـ أي الإسكندرية ـ طبيبان هما بولس الأجنطي وأهرن القس صاحب الكنّاش باللغة السريانية والذي عُرِّب وكان له شأن كبير في بدايات الطب العربي الإسلامي.

ومع بزوغ فجر الإسلام أبدى النبي ﷺ تقديره للطب والتحفظ والوقاية للتحرز من المرض، ووضع هذا العلم إلى جانب الفقه بين أعلى العلوم مركزاً. وكان العرب عند خروجهم من حدودهم الطبيعية في شبه جزيرة العرب شعروا بالنقص في ثقافتهم بالمقارنة إلى علوم البلاد التي افتتحوها، فهبوا لملء هذا الفراغ ولم يتحرجوا من طلب العلم، وفصلوا هذا العلم عن الدين، وأظهروا نحو غير المسلمين تسامحاً مختلفاً عن تعصّب هؤلاء، وبدأت الجهود لاستيعاب علوم البلاد المجاورة منذ عهد الأمويين في الشام. وقد استقى العرب علومهم من منهلين أولهما كان في البلاد التي افتتحوها كالإسكندرية وأنطاكية وحرّان، والثاني كان ينحدر إليهم سيّالاً من أفواج النساطرة الفارّين من اضطهاد بيزنطة الديني بعد إغلاق مدرستي حرّان وأثينا.

ومنذ نهاية القرن الثاني للهجرة حتى نهاية القرن الرابع، نشطت حركة النقل والترجمة في الأقطار الإسلامية ولا سيما في بغداد مقر الخلافة، وعهد إلى المترجمين بنقل أهم المصنفات اليونانية إلى العربية، والتوفيق بينها وبين متطلبات الحضارة الفكرية الإسلامية، وذلك في علوم اعتبرها العرب ذات أهمية وفائدة كالطب والجغرافية والكيمياء والرياضيات.

ولا شك أن العلوم الطبيعية العربية عرفت شأو كمالها في الطب، فكانت له مكانة لا تنازع وللأطباء كرامة لا تمس، وقد وجهت عناية خاصة لجمع أخبار الأطباء نجم عنها كتب وفيرة في سيرتهم ومصنفاتهم نذكر منها «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل، و«إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لابن القفطي، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة.

وعندما انتشر الطب العربي في الأقطار الغربية، تهافت عليه العلماء درساً ونهلاً، حتى إن أسماء أطباء كابن سينا والرازي والزهراوي وابن النفيس اشتهرت في تلك الديار شهرتها في بلاد الإسلام، وذلك أن طب الغرب عهد ذاك كان قائماً على فتات اهتمام العلماء، ويحتل درجة وضيعة في برامج التعليم في الأديرة على عكس ما هو عليه في الأقطار الإسلامية. وقد ارتكز الطب العربي على مؤلفات اليونان التي نهل منها الأطباء العرب فأثمرت وترعرعت على أيديهم بفضل أبحاثهم وإضافاتهم.

ولعل أعظم شاهد على مدى تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب كتاب «القانون في الطب» لابن سينا، عمدة الطب الغربي وأساس تقسيمه، والذي بقي طيلة خمسمائة سنة النص المعتمد عليه في كليات الطب الأوروبية، لأن الطبيب العربي ابن سينا جمع تعاليم اليونان، ولا سيما تعاليم جالينوس، ثم نسقها في منهج قويم حذا حذوه الأطباء العرب في استنادهم إلى الأصول الإغريقية، مما جعل مصنفاتهم المراجع الأصيلة في الطب العربي في عصور لاحقة.

* * *

تلك كانت لمحة سريعة وعُجالة مقتطفة عن بدايات الطب منذ فجر التاريخ، وقد حاولت فيها أن ألمَّ ببعض هذه البدايات في كل صقع من أصقاع العالم، مشيراً إلى أبرز أطباء كل عصر من العصور وأهم إنجازاتهم، إلى حين بروز الأطباء العرب المسلمين وإسهاماتهم ومآثرهم في العواصم العربية بدءاً بدمشق وبغداد وانتهاءً ببلاد الأندلس، حيث ترعرع الطب العربي وانتشر ليتلقفه الغرب يانعاً مثمراً من طريق مدارس سالرنو وبادوا وبولونيا وبلرم وغيرها.

وكنت في خلال تتبعي إسهامات العرب في الطبّ في عصورهم المتلاحقة حريصاً على ذكر اهتمامهم بالصحة العامة بإنشاء البيمارستانات، فقد اهتم العرب بها وجعلوها مثالاً للقرون التي تلت، فقيل إن مدينة قرطبة في منتصف القرن الرابع الهجري كان فيها ما لا يقل عن خمسين بيمارستاناً، وإنها تفوّقت على بغداد بعدد بيمارستاناتها.

وفي ختام هذه الدراسة الموجزة حاولت الإلماع إلى أثر العرب في التيار الفكري الغربي، لأنّ هذا الأثر مهد للعالم كله السبيل إلى يقظة علمية سارت به شوطاً بعيداً في الحضارة التي عرفها. ولقد كان لبعض المدارس والجامعات الغربية التي تأثرت بالثقافة العربية شأن كبير في اليقظة الطبية في أوروبة، ونخص بالذكر

من هذه المدارس مدرسة سالرنو ومونبلييه وبولونيا وبادوا وغيرها من مراكز الثقافة العالمية.

وأرجو من الله أن يكون في ما قدمته ـ وإن كان غيضاً من فيض ـ عون للباحث والمطلع على إنجازات العرب الطبية في عصورهم المتلاحقة، وإن كان تاريخ الطب العربي لا تجمعه دفّتا كتاب ولا تحصره الألباب.

ولن أنسى فضل أولئك الذين كانوا إلى جانبي في أثناء عملي وآزروني، أمي وأخوتي جميعاً وزوجتي وابنتي. . .

وإلى الأستاذ أحمد عاصي صاحب دار المناهل جزيل شكري لما أولاه من اهتمام بطبع هذا الكتاب وإخراجه على الصورة البديعة هذه.

الدكتور رحاب عكاوي
[illegible]وت ١١/٥/١٩٩٤



الفصل الأول

الطب في مصر الفرعونية

إن أقدم طب عرف في التاريخ هو الطب المصري القديم، وقد ظهر ذلك جليّاً في البرديات والحفريات وعلاج الكسور بالجبائر كما هو موجود في أبهاء المدافن وفي أبوابها. وكان قدماء المصريين أول من مارس الطب على أسس سليمة، ولا تزال آثارهم الطبية تشهد لهم بذلك، فقد عرفوا الجراحة سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد كما أظهرت بعض المقابر قرب ممفيس، هذه الجراحة لم تصل بالطبع إلى المستوى المعروف اليوم ولكنها عرفت طرق التطهير وعمليات في الرقبة.

كان للطب في مصر الفرعونية شأن عظيم، وكان للأطباء في المجتمع المصري مكانة مرموقة، وليس أدلّ على ذلك من أن ينسب التاريخ إلى ملوكهم هذه الصناعة الشريفة والبراعة فيها واستخراج أسرارها من الأرباب. وقد سمت شهرة الأطباء في مصر فملأت أرجاء الدنيا، وأرسل أباطرة الأرض من مثل قورش مؤسّس الأمبراطورية الفارسية إلى فراعنة مصر يرجون أن يرسلوا إلى ديارهم بعض أطبائهم ليعملوا في بلاطهم، وكان محبّو الطب يقصدون مصر من كل مِصر ويلجأون إلى أطبائها يلتمسون عندهم الشفاء. وقد جرى الفراعنة على نقيض من عاصرهم من الأمم في بناء حيواتهم، معتمدين على ملاحظات واقعية ومجربات علمية، ولكن رواسب الماضي السحيق من تراث السلف قد شابت ما حققت تلك الخبرات الواقعية والأساليب التجريبية، وأضحى تراثهم الطبي اليوم خليطاً يمتزج بالخيال.

هذا الواقع العلمي المشوب بشطحات الخيال والسحر جعل أطباء مصر على أنواع، فإلى جانب الطبيب العلماني المسمّى «سونو» أدّى الكاهن دور الوسيط بين

المريض والآله في توصّله لنيل الشفاء وإن كان على نذر قليل من الطب. ثم إن الساحر المشعبذ حاول إخراج الشياطين من جسم المريض أو حلّ ربط أعمال الروح الشريرة المسيطرة. وقد كان الطبيب العلماني نفسه «سونو» يضطر في بعض الأحيان إلى الاستعانة ببعض الشعوذة أو طب الكهنة في أساليبه العلمية المجربة كما يظهر واضحاً من ألقاب بعض من مارس مهنة الطب.

كان الأطباء المصريون يتدرجون في إطار وظائف تراتبية تصاعدية في الإدارات الحكومية وذلك من درجة طبيب إلى كبير الأطباء إلى مفتش عالم. وكان منهم من يلحق بحرم القصر أو يختص بالملك أو زوجته أو الحكام المحليين والنبلاء، ويظهر في قبورهم حاملاً القرابين، مثل عنخ الذي صوّر وهو يحمل الطيور في يده، وفي صورة ثانية نراه يؤدي عملاً رسمياً. ولعلّ أروع ما في هذه المهنة عند قدماء المصريين أنها كانت إنسانية محضاً، فلم تكن تزاول لصالح الموسرين وحدهم من أمراء البلاط وحكامه، ولكنها كانت أيضاً لصالح أفراد الشعب من عمال المحاجر والجيوش المحاربة وعموم الأهالي. وقد أدّى بعض الأطباء دوراً هاماً في بلاطات القصر، فالطبيب «بنتو» بالإضافة إلى لقبه الكهنوتي والطبي ومركزه السامي كان يحمل لقب الذي يدخل القصر ويخرج منه، أي الطبيب الذي كان يسمح له بمقابلة الفرعون في أي وقت. ومّما يدل على مكانته المرموقة في مصر ما وجد بالنص بعد كتابة اسمه من مخصص ممسكاً بيده سوطاً دليل القوة والعظمة واسمه الهيروغليفي. ونجد أيضاً «عنخ سخمت» من الأسرة الخامسة وقد أهدى إليه الملك «ساحورع» باباً وهميّاً من الحجر الجيري المزدان بألوان من الحجارة الكريمة، ويأمر بتدوين قصة هذا الإهداء على قبره مشفوعة بأطيب عبارات المديح والإكرام.

وقد بلغت صناعة الطب في مصر الفرعونية مبلغاً تخطّت عنده الأصول إلى الفروع، وبات الأطباء يتخصّصون في فروع شتى من الطب. فالطبيب «حسي - رع»، وهو أقدم طبيب عرف في التاريخ، يلقب بكبير أطباء الأسنان في القصر، من عهد «زوسر» منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح، كما عرفت مصر أطباء باطنيين وأطباء عيون وأطباء معدة، كما جمع البعض منهم مثل «إيري نختي» بين عدد من هذه التخصصات المتفرعة. كما أن قدماء المصريين فرّقوا بين الطبيب «المختص والمحترف غير الطبيب». فالطبيب «منكارع نخ» لُقّب «إيري أيح» ومعناه صانع الأسنان لتمييزه عن «ني عنخ سخمت» الذي رسم على الحجر نفسه، ولقب «سونو أيح» أي طبيب أسنان.

قال هيرودوت[1]: إنّ المصريين انفردوا بالتحنيط ونجحوا فيه، وإنهم عرفوا الطب معرفة جيدة وتخصّصوا في أفرعه، فمنهم من توفر على أمراض النساء، ومنهم من تخصّص في أمراض العيون. وذكر أنهم اتبعوا في علاجاتهم سبلاً وقوانين عاقبوا بها كل من خالفها، وأنهم تقاضوا أجورهم من مالية الدولة. وكان إذا تعذّر عليهم العلاج الطبي ركنوا إلى العلاج النفسي، ولم يكن لهم من سبيل ثالث، وقد يكون العلاج النفسي ناجعاً، ويمكن أن يكون مهدئاً، وقد يكون غير مجدٍ، وقد يكون ضارّاً بالمعالج.

كانت طرقهم العلاجية قريبة من معالجات طب عصرنا، فقد استعملوا الأمزجة والمراهم والأدهنة والحبوب والاستنشاق، وعالجوا بالحقن الشرجية وغيرها، وتعدّدت وصفاتهم لبعض الأمراض، وتعدد الوصفات دليل على تفشي الأمراض وكثرة محاولات العلاج للشفاء. أما الاعتقاد بأن الطب الفرعوني كان أقرب إلى السحر منه إلى العلم، فإن فحص أوراق البردى الطبية فحصاً منعماً أظهر أن نصوصها علمية مستندة إلى أسس ثابتة لا تتخطّى حدود العلم. فالطب كان يمارس بنظام دقيق، وظهر أن الكثير من عقاقيرهم مفيدة ومستعملة إلى يومنا الحاضر.

اعتبر قدماء المصريين أن الأوعية منتشرة في سائر أنحاء الجسم، وأن نبض هذه الأوعية دليل عليها، ووصفوا هذا النبض بأنه كلام القلب الجوّاني، وأوضحوا أن كثيراً من الأسقام ناجم عن مرض الأوعية، ولهذا فقد حاولوا في أثناء علاجاتهم أن يبرّدوا الأوعية أو يعملوا على تهدئتها وإبطاء دورتها في الجسم. وقد وصلت إلينا أسماء مائة طبيب أو تزيد، بعضهم وجدت آثاره تالفة أو لم يصل إلينا غير اسمه على جزء من بردية أو على صورة، ويمكن افتراض أن كثيراً من الأطباء ضاعت آثارهم إذا ما صحّ قول هوميروس[2]: إنّ كل المصريين أطباء لأنهم من سلالة «بيون» طبيب الآلهة.

قال محمد بن إسحق: «اختلف في أول من استنبط الطب وفي أول الأطباء، فقال إسحق بن حنين في تاريخه، قال قوم إن أهل مصر استخرجوا الطب، والسبب في ذلك أن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مبتلاة بالغنظ والدرد،

(١) Hérodote (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م)، مؤرخ ورحالة يوناني يلقب بـ «أبي التاريخ»، له كتاب التاريخ وهو من أهم المراجع لمعرفة أحوال الأقدمين لما دوّن فيه من أخبار الأمم وأساطيرها.

(٢) Homère (القرن التاسع ق.م)، من أشهر شعراء اليونان الأقدمين.

ومع ذلك فكانت ضعيفة المعدة وصدرها مملوء أخلاطاً رديّة، وكان حيضها محتبساً، فاتفق أن أكلت الراسن شهوة منها له فذهب جميع ما كان بها ورجعت إلى صحتها، وجميع من كان به شيء ممّا كان بها استعمله فبرىء به. واستعمل الناس التجربة على سائر الأوجاع. وقال آخرون: إن هرمساً استخرج سائر الصنائع والفلسفة، والطب هو ممّا استخرجه. وبعض يقول إن أهل «قو»، ويقال قولوس، استخرجوها ويصحّحون ذلك من الأدوية التي ألفتها القابلة لامرأة الملك للذي كان بها. وبعض يقول المستخرج لها السحرة، وقيل أهل بابل، وقيل أهل فارس، وقيل الهند، وقيل اليمن، وقيل الصقالبة»[1].

وقال أبو معشر البلخي المنجم في كتاب الألوف، وهو اسم لإله من آلهة اليونان ، ويعرف عند الرومان باسم مركوريوس وهو عطارد عند العرب، إنّ الهرامسة ثلاثة، أوّلهم: هرمس الذي كان قبل الطوفان، ومعنى هرمس لقب كأن يقال قيصر وكسرى، وتسمية الفرس في سيرها «أبنجهذ»، وهو الذي تدعى الحرّانية حكمته وتذكر أن جدّه جيومرت، وهو آدم، ويذكر العبرانيون أنه خنوخ، وهو بالعربية إدريس. هو أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية، وأن جدّه جيومرت علّمه ساعات الليل والنهار، وهو أول من بنى الهياكل ومجّد الله فيها، وأوّل من نظر في الطب وتكلم فيه، وأنه ألّف لأهل زمانه قصائد موزونة وأشعاراً معلومة في الأشياء العلوية والأرضية، وهو أول من أنذر بالطوفان ورأى أنه آفة سماوية تلحق بالأرض من الماء أو النار. وكان مسكنه صعيد مصر، تخيّر ذلك فبنى هنالك الأهرام ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي، وهو الجبل المعروف بالبربا «باخميم»، نحته وصوّر فيه جميع الصناعات وصنائعها نقشاً، وصور جميع آلات الصناع، وأشار إلى صفات العلوم برسوم حرصاً منه على تخليد العلوم لمن بعده وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم.

هرمس الثاني، من أهل بابل، سكن مدينة الكلدانيين وهي بابل، وكان بعد الطوفان في زمن نبريزباني الذي هو أول من بني مدينة بابل بعد نمرود بن كوش، وكان بارعاً في علم الطب والفلسفة، وعارفاً بطبائع الأعداد، وكان تلميذه فيثاغورس الأرثماطيقي. وهرمس هذا جدّد من علم الطب والفلسفة وعلم العدد ما كان قد درس بالطوفان ببابل.

(١) الفهرست، الفن الثالث من المقالة السابعة ص٣٩٨.

هرمس الثالث، سكن مدينة مصر، كان بعد الطوفان، وهو صاحب كتاب الحيوان ذوات السموم، وكان فيلسوفاً طبيباً، عالماً بطبائع الأدوية القتّالة والحيوانات المُعدية[1].

ويذكر الأستاذ نللينو في «علم الفلك»[2] أن «هرمس» حكيم مصري خرافي لم يكن له وجود أبداً، فكثرت فيه الخرافات بين العرب في عهد الإسلام، فمنهم من قال إنه أخنوخ المذكور في التوراة، ومنهم من قال إنه النبي إدريس، ومنهم من فرّق بين هرامسة ثلاثة، ونسبت إلى الثالث منهم عدة كتب مختلفة في أحكام النجوم والكيمياء والسحر وما أشبه ذلك.

الأطباء في مصر الفرعونية:

يذكر هيرودوت في كلامه على الطب المصري القديم، يقول: «وفن الطب موزع بينهم توزيعاً مبنياً على الحكمة، حتى إن كل طبيب كان يتعاطى فرعاً واحداً من فروع الطب لا أكثر، والأطباء هناك كثيرون جداً، فمنهم للعيون ومنهم للرأس ومنهم للأسنان ومنهم لأمراض البطن وما يجاوره من الأعضاء ومنهم للأمراض الداخلة»[3].

ولعل هذا التخصّص المذكور في نص هيرودوت يلفت النظر خصوصاً أنه يرجع في تاريخه إلى عهد الأهرام، ولا يبعد أن يكون طب تلك الحقبة الموغلة في القدم قد بلغ شأناً عظيماً بات معه من المتعذر على طبيب واحد أن يلم به ولذلك برز التخصّص في فروعه الكثيرة. وهناك مقولة أخرى تشير إلى أن التخصّص في ذلك العصر هو بمثابة بداية التطبّب. فالطب أول ما عُرف كان محصوراً في علاج كل عضو على حدة باعتبار أن كلاً من أعضاء الجسم يشكل وحدة قائمة بذاتها، ثم تطور الطب فاعتبر الجسم وحدة موحّدة، والصعوبة تكمن في الأخذ بأي المقولتين وإن كانت النصوص الواردة في أوراق البردى الطبية تجعل المقولة الأولى أقرب إلى الأذهان.

جاء في كتاب تاريخ الطب[4]: «إن معلوماتنا عن القصور الملكية كثيرة بالنسبة

---

(1) طبقات ابن جلجل ص٥ ـ ١٠.
(2) ص١٤٢.
(3) كتاب التاريخ، الثاني الفقرة ٨٤.
(4) تاريخ الطب، (سيجرست)، ص٣٢٠.

إلى غيرها، ذلك لأن أخبار الملوك وكبار رجال الدولة هي الأكثر إخباراً والأطول نصًّا في الآثار. والمعلومات عن أطباء القصور أكثر من سواها. ففي حوالى ٤٠٠٠ ق.م برز طبيب شهير في البلاط الفرعوني دلّت النصوص الواردة على لوحة قبره أنه لم يكن طبيب السراي فقط بل كان رئيساً للأطباء فيه، وهذا يعني أن هناك طائفة من الأطباء يخدمون في السراي، وأن هذه الطائفة كانت تخرج على الأرجح أخصائيين في فروع الطب. وكان كبيرهم الطبيب «إيري»، الذي كان متخصّصاً في عدة فروع، فقد ورد في النص الجنائزي بصدده أنه كان طبيب العيون بالسراي، وطبيب البطن بالسراي، وطبيب الدُّبر بالسراي. وقد كان الدُّبر وقتئذ بحاجة إلى متخصصين. وهناك كتاب في الطب يعرف باسم «قرطاس تشستر بيتي» كتب خصيصاً في هذا الفرع. وهناك إلى جانب ذلك أطباء متوفرون على الأسنان. وفي عهد المملكة القديمة (٣٢٠٠ ـ ٢٢٧٠ ق.م) برز طبيب اسمه «هاوي» تخصّص في طب الأسنان كما في طب الدُّبر أيضاً.

ويتّضح من خلال دراسة النصوص «البردية» أنه كانت هناك مصلحة حكومية خاصة بأطباء السراي بل بالأطباء عموماً. وكان الأطباء مقسمين إلى درجات بما يتمشّى مع إطار تراتبية الموظفين أو الكهنة. وقد كانت هناك أربع درجات تصاعدية: الطبيب العام غير المتخصّص في فرع من فروع الطب، وكبير الأطباء، ومفتش الأطباء، ثم أخيراً رئيس الأطباء. وورد في نص أيضاً ذكر الطبيب الكبير بين أطباء السراي، كما جاء أن هناك درجة هي «الرئيس الأعلى لأطباء الوجه البحري والوجه القبلي»، وهذا الأخير وجد في الآثار المصرية منذ عهد الأهرام إلى الأسرة الثلاثينية، وذلك على مدى التاريخ المصري القديم.

وقد جمع بعض المؤرخين المحدثين[1] أسماء اثنين وثمانين طبيباً مصرياً قديماً من جميع العصور ورد ذكرهم في الآثار غير من جاء ذكر أسمائهم في القصص القديمة. وقد قسّم الأطباء إلى أربع طوائف:

الأولى، طائفة الأطباء العموميين، ثمانية عشر طبيباً.
الثانية، طائفة المتخصصين، ثمانية أطباء.
الثالثة، طائفة رؤساء الأطباء، ثلاثة وثلاثون طبيباً.
الرابعة، طائفة أطباء السراي الملكية، ثلاثة وعشرون طبيباً.

---

(١) أطباء مصر الفرعونية، يونكهير، سنة ١٩٥٥.

إذاً فأطباء مصر القديمة كانوا متنوعين في التخصّص، وكانوا على درجات متفاوتة ومتباينة، إلّا أنهم جميعاً كانوا مرتبطين برباط ديني موحّد هو عبادة «تحوت» راعي مهنتهم، فقد اعتبر الجميع أن «تحوت» مبدع مهنة الطب، لأنه كان طبيباً وطبيب عيني حوريس، وكان الأطباء في حال اتباع تعاليمه يمنحون مهارة الشفاء كما ورد في بردية إيبرس. وكان الأطباء يعبدونه بالإضافة إلى ذلك لأنه كان إلّه العلم الذي ابتكر الكتابة وصنّف الكتب، وكان الأطباء بالطبع مهرة في الكتابة والقراءة، وقد سبق لكل منهم أن تمرّن على الأعمال الكتابية.

أوراق البردى المصرية الطبية:

شكّلت البرديات جزءاً من تراث مكتبي ضخم مكوّن من اثنتين وعشرين بردية منها ست في الطب، وكانت هذه المجموعة تعرف بالكتب المقدسة للإلّه توت إلّه القصر ورب الكنانة. وكانت تحفظ عادة في المعابد وتعرض فقط في أثناء الاحتفالات الدينية. على أن هذه الأوراق فقدت جميعها، وأغلب الظن أن الذي وصل منها إلينا لا يشكل إلّا مقتطفات وملاحظات من المجموعة الأصل، ولأجل ذلك فليس من الحكمة استنباط حالة الطب في مصر الفرعونية من هذه المقتطفات التي لا يمكن أن تكشف لنا عن عظمة الأسفار الأصلية. ويتضح من أوراق البرديات هذه أنها أُنشئت على التخصّص في الأفرع، وهي مدوّنة بالهيراطيقة، ومن المعروف أن جميع لفائف البرديات التي وصلت إلينا كانت منسوخة من أصول أقدم منها، ومن أهمها بردية كاهون وإدوين سميث وإيبرس وهرست وبرلين ولندن وكارلزبرج وأرمان وتشستربيتي.

والجدير بالذكر أن هناك برديات أُخر عبارة عن لفائف ثانوية مثل بردية غويتزر وبردية دستكار، وتقع كل مجموعة من أوراق البردى في لفائف أفقية تقرأ من اليمين إلى اليسار، فإذا ما انتهى المطلع من قراءتها أعاد لفّها لتكون الصفحة الأولى أول ما يمكن الاطلاع عليه من جديد، وعلى هذا الوجه عثر على جميع اللفائف معدّة للقراءة، ما عدا لفافة هرست التي وجدت ملفوفة بشكل معاكس، ولعل هذا عائد إلى إهمال لفّها بعد الانتهاء من قراءتها. وكانت عملية نسخ اللفائف تتم على أيدي الكتّاب المحترفين وليس بوساطة الأطباء. وكان الخط المدون هو الهيراطيقي، وهو نسخ الخط الهيروغليفي، وكان يكتب بالمداد الأسود ما عدا الأرقام والعناوين والهوامش فإنها كانت تدون بالمداد الأحمر(١).

---

(١) في الطب المصري القديم، نجيب رياض، ص٢٩.

واللافت للنظر أن هذه اللفائف ـ أوراق البردى ـ لم تكن مجرد مؤلفات كتبت لتبقى حبيسة الخزائن الخاصة والمكتبات، ولكنها كانت متداولة بين أيدي المطلعين يومياً بدليل بعض التفسيرات والتعليقات العميمة المدونة في هوامشها، على أنه لم يكن لهذه الكتابات فهارس تسهل عملية الاطلاع على محتوياتها.

أمّا أوراق البردى الطبية ويقال لها القراطيس، فهي:

١ - بردى إيبرس:

وهو أضخمها، عثر عليه بالأقصر سنة ١٨٦٢[1]. يرجع تاريخ القرطاس على الأرجح إلى ١٥٥٠ ق.م، وتدل لغته على أنه نسخ من كتاب أقدم منه، وقد جاء في إحدى عباراته أنها منسوخة في عهد الأسرة الأولى (أي حوالى ٣٢٠٠ ق.م)، وجاء في أخرى أنها من عهد إحدى ملكات الأسرة السادسة (٢٤٢٠ ـ ٢٢٧٠ ق.م). وقيل إن الكتاب الذي نسخ من القرطاس يرجع إلى زمن الأسرة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٧٠٠ ق.م).

يحتوي القرطاس على وصفات عديدة لأمراض شتى، كل وصفة منها تحوي عدة عقاقير، وأمام كل عقار مقدار تركيبه، وفي آخر كل وصفة طريقة العلاج بها، وقد بلغت الوصفات ثمانمائة وسبع وسبعين وصفة. واشتمل القرطاس أيضاً على وصف أعراض المرض وطريقة تشخيصه وعلاجه، وأضيفت عبارات تفسيرية في بعض الحالات. وقد يكون القرطاس مجموعة كتب ـ لا كتاباً واحداً ـ بعضها طبي وبعضها روحي، وجاءت النصوص فيه في أنهر أو أعمدة أو ألواح بلغ عددها المائة والعشرة، كل منها يتألف من ٢٠ ـ ٢٣ سطراً، ويظهر أنها منسوخة من عدة مصادر، ولذا فهي مقسمة إلى أقسام تسعة:

القسم الأول: تعاويذ لزيادة تأثير العلاج.
القسم الثاني: الأمراض الباطنية.
القسم الثالث: أمراض العيون.
القسم الرابع: أمراض الجلد.
القسم الخامس: أمراض الأطراف (العظام).
القسم السادس: أمراض شتى (الرأس، الأسنان، اللسان، الأنف، الأذن)، كما اشتمل على وصف مستحضرات للتجميل.

---

(١) وقيل سنة ١٨٧٣، انظر الطب والأطباء، د. محمود دياب ص٢٣.

القسم السابع: أمراض النساء، ويدخل معها بعض النصائح المنزلية كأدوية لطرد البراغيث وقتل العرسة، وجعل رائحة المنزل زكية، ومعرفة اللبن المغشوش.

القسم الثامن: يتضمن معلومات تشريحية كوصف الأوعية الدموية، ومعلومات فسيولوجية ومرضية وشرح للمصطلحات.

القسم التاسع: الأمراض الجراحية. هذا القسم الأخير لا يتضمن أي شيء عن الإصابات ولكنه يصف طرق العلاج من الجعرة والغدد الدرنية والناسور وأورام الجلد والفتق والقبلة ودوالي الساق وأكياس الأوعية الدموية.

ومع أن الجانب الأكبر من قرطاس إيبرس عبارة عن وصفات طبية، فإن به وصفاً لبعض العمليات مثل عمليات أجريت لاستئصال الفتق والأورام والأكياس الشريانية، ولكن الوعي الجراحي يبدو أكثر ما يكون وضوحاً عندما يذكر قرطاس إيبرس، يقول: «إذا لم تستأصل الأكياس بجدرانها كاملة فإنها لا بدّ أن تعود، والجراح ولو أنه يستطيع أن يعالج أكياس الشرايين فإنه لا يجب عليه ألاّ يضع يده على الأكياس المتصلة بالأوردة». ويظهر أن أطباء مصر القديمة استخدموا الأدوات الحادة والكي في العمليات التي يمكن أن يحدث من جرائها نزيف كعمليات الفتق واستئصال الأورام. وفي القرطاس أيضاً وصف لبعض العلامات الطبيعية التي يستند إليها أطباء العصر الحديث كوسيلة للتشخيص، فهناك ما يشير إلى أن علامة التموّج التي تستعمل اليوم في الكشف على وجود السوائل كانت معروفة في مصر، إذ جاء في القرطاس: «إن على الطبيب أن يرى إن كان جزء من الجسم يتحرك تحت الضغط ثم يعود ثانية أو أنه يرتعش تحت يديه». ولا شك أنهم عرفوا طريقة النقر أيضاً حيث جاء في وصف حالة فتق أربي ما نصّه: «إن على الطبيب أن يضع يده وينقر عليها بأصابعه». وفي القرطاس وصف «إكلينيكي» لبعض الأمراض مثل أمراض الغَدد الدرنية والزائدة الدودية وأكياس الشرايين وخراج الرئة. ورد في القرطاس: «إذا قمت بفحص رجل يشكو من مغص في بطنه وكان بطنه صلباً يابساً من التهاب أو قيح فيه لا يجد طريقاً يخرج منه، فإنه سيتدفق في بطنه وسيحدث له التواء في أمعائه». يعقب طبيب في أيامنا على هذا القول، فيقول: «لو أردت أن أعيد كتابة هذه الحالة ما احتجت إلاّ لتغيير في ترتيب بعض الجمل، فنحن نقول اليوم إن بعض حالات الانسداد المعوي تتسبّب في التواء في الأمعاء، وإن من علاماته أن البطن يصبح مشدوداً يابساً وأن لا شيء يخرج منه لا ريح ولا غائط،

وأنها لـو تركت بـدون علاج لتعفّنت أمعـاؤه. . . وأنه قـد ينتـج عن ذلـك قيـح في بطنه، أي تصبح في حالة غرغرينا».

إن النص في البردية «سيحـدث له التـواء في أمعائـه» وأنه «سيتعفن في بـطنه» دليل على أن الأطبـاء في مصر الفرعـونية كـانوا يقـومون بتشريـح الجثة بعـد الوفـاة ويقارنونها بملاحظاتهم الإكلينيكية، أي ما نعرفه اليوم بالتشريح المرضي، وربما كانـوا يقومون بذلك في أثناء عملية التحنيط.

٢ ـ بردى إدوين سميث:

ويعتبر أهم القراطيس الطبية، عثر عليه بالأقصر سنة ١٨٦٢، وتـاريخ كتـابة (نسـخ) هذين الـبردين (سميث وإيبرس) واحـد تقريبـاً (أي حوالى ١٥٥٠ ق.م). وقـد وصف القرطـاس هذا بـأنه أقـدم كتاب للجـراحة في العـالم، وأنه نسخـة عن مؤلف أصـلي يرجـع تاريخـه إلى ٣٠٠٠ سنة ق.م طـول القرطـاس ـ اليوم ـ ٤,٦٨ أمتار، وربما كان خمسة أمتـار بعد أن اعـتراه بعض التلف وفقدت بعض نصـوصه. أما عرضـه فيتراوح بـين ٣٢,٥ و٣٣ سم، وهو يقـرب من عرض القـراطيس التي يعـود تاريخهـا إلى ما بـين تاريـخ المملكة الـوسـطى (٢١٠٠ ـ ١٧٠٠ ق.م) وعهـد الإمـبراطـوريـة (١٥٥٥ ـ ٧١٢ ق.م). ويحتـوي عـلى اثنـين وعشرين عمــوداً من النصـوص، والمرجـح أن يكون قـد كتبها عـدة كتبة لاختـلاف واضـح في النسـخ، وبمقارنة خطوط القرطاس بخطوط زمن ملوك الرعاة في مصر لوحظ بينهما شبـه كبير، ولذلك ليس من المستبعد أن يرجع تاريخ القرطاس هذا إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد.

ضمّ بردى سميث أمراضـاً شتّى بلغ تعدادهـا أربعة عشر مـرضاً، وبهذا امتاز القرطاس بشرح الحـالات التي يمكن معالجتهـا والحالات التي يبـدو شفاؤهـا عسيراً، ولكنـه لا يحوي وصفـات عديـدة كغيره من القـراطيس الطبيـة المعروفـة. ويتضمن القرطاس أيضاً بعض الملاحظات في آخر كل حالة مرضية جاء فيهـا الكثير من علم التشريـح، وتضمن عبارات طبيـة لم تكن واردة من قبـل، من مثـل لفظ «جمـا» أي عظمة الصدغ، وكلمة «أمعت» أي الجزء الخلفي للفك السفلي المعروف بفرع الفك والذي شبهه الطبيب الجراح القديم بمخلب الطائر.

في الحالة رقم ٣٣ من الحالات المرضية جاء في فقـرة الفحص ما نصّـه: «إذا فحصت شخصـاً عنده فقـرة مهشمة في عنقـه، ووجـدت هـذه الفقـرة سـاقـطة في الأخرى، وهو فاقد الصوت عاجز عن الكلام، فإن سقوطـه ورأسه إلى الأسفـل هو

الذي سبب له تهشّم فقرته وسقوطها في التي تليها، وإذا وجدته فقد وعيه بذراعيه ورجليه بسبب ذلك. . .»[1].

والملاحظ أن طريقة العرض في هذه البردية تتسم بالنظام والدقة، فكل مشاهدة تبدأ بالعنوان التالي: تعليمات بشأن. . . ثم يجيء الفحص مبتدئاً بعبارة: «إذا فحصت رجلاً» مثل الحالة التي أسلفنا، ويتبعه التشخيص «قل فيما يخصّه إنه يشكو» ثم يلي التوقّع الذي يعبر عن احتمالات ثلاثة: الجيد والمشكوك فيه والميئوس منه بعبارات تحمل: سأعالجه أو سأكافحه أو مرض لن أعالجه، ثم يأتي العلاج وهو ينتهي ببعض التعليقات والتفسيرات وعددها سبعون تفسيراً.

٣ - بردي هرست:

من المعتقد أن هذه البردية كتبت في القرن الرابع عشر ق.م، وهي تتكوّن من ثمانية عشر عموداً، وكان اكتشافها قد تمّ سنة ١٨٩٩ م بدير البلاص بالصعيد، وهي تقرب من بردى إيبرس فيما تضمنته من معانٍ، أما تعداد وصفاته فقد بلغ مائتين وستين وصفة. ويلاحظ أن أوائل القرطاس تالفة قليلاً ولكنها باقية في حالة جيدة.

٤ - بردى برلين الطبي رقم ٣٠٣٨:

اكتشف بمدينة منفيس بالقرب من سقارة وكان في ملف من طين، وهو في أجزائه الثلاثة يرجع تاريخ الأول والثالث منها إلى سنة ١٢٧٥ ق.م (عهد الأسرة التاسعة عشرة)، أما الثاني فيرجع إلى عهد الملك «حوسافيتي» من الأسرة الأولى، أي إن القرطاس أقدم من بردى سميث، وقد أتمّ الباقي الملك «سنفرو» من الأسرة الرابعة (حوالى سنة ٢٧٠٠ ق.م).

يتكون القرطاس من إحدى وعشرين صفحة فقدت منها الصفحتان الأولى والثانية، وفيها تشخيصات لأمراض شتى وطرق وفيرة لعلاجها، كما تتضمن صور نحو مائة وسبعين تذكرة طبية بأوصاف ومعالجات وتراكيب عقاقير متنوعة لهذه الأمراض. وفي الجزء الثاني بيان خاص بالأوعية الشريانية لدورة الدم وما يتبعها، في الثالث بحث دقيق عن مجمل أمراض النساء.

---

(١) الطب المصري القديم، د. كمال، ج١ ص١٤.

٥ ـ قرطاس لندن:

يرجح أن تدوينه تمّ في زمن الأسرة التاسعة عشرة (حوالى ١٣٥٠ ق.م) وأغلبه طب روحي، على أن عبارته تدل على أن تاريخه أقدم من هذا التاريخ بكثير. وقد جاء خطه رديء النسخ وهو مهلهل بعض الشيء، يحوي قليلاً من الوصفات التي ورد بعضها في نصوص إيبرس، ويبدو من كتابتها أنها مسحت ثم كتبت ثانية ممّا جعل قراءتها صعبة.

٦ ـ قرطاس كارلزبرج:

ويعود تاريخه إلى سنة ١١٠٠ ق.م، والغالب عليه موضوع أمراض العين، وتكاد النصوص تكون منقولة حرفياً من باب «الرمد» في قرطاس إيبرس.

٧ ـ قرطاس ليدن الطبي:

يحتوي على قواعد للوقاية من الأمراض وإيقاف تطورها وانتشارها ومنع انتقال عدواها.

٨ ـ قرطاس كاهون:

وهو أقدم القراطيس إذ ترجع كتابته إلى حوالى ١٩٠٠ ق.م، اكتشف سنة ١٨٩٣، وقيل سنة ١٨٨٩[١] في اللاهون بمديرية الفيوم. يقع في ثلاث صفحات فقدت من ثانيتها أجزاء كثيرة، وكتب على ظهر القرطاس حساب من وقت أمنحات الثالث (١٨٥٠ ـ ١٨٠٠ ق.م). وتضم الصفحتان الأولى والثانية سبعة عشر تشخيصاً في أمراض النساء، وتتضمن الصفحة الثالثة خمس عشرة علامة للتيقن من الحمل وبيان نوع الجنين (وهي سابقة خطيرة) وهي تشبه ما ورد في قرطاس برلين. وهذا القرطاس مهلهل فاقد أوله وآخره، ولا يعرف بالضبط إن كان تاماً أو تنقصه بعض الصفحات.

٩ ـ قرطاس تشستر بيتي:

وهو غير تام، يرجع تاريخه إلى سنة ١٢٠٠ ق.م تقريباً، ويحتوي على وصفات لأمراض الشرج في ثمانية أعمدة، مهلهل أوله وآخره، وهو يشير من خلال

---

(١) انظر الطب المصري القديم ج١ ص١٤.

نصوصه إلى وجود جراحين أخصائيين في أمراض الشرج، وهو يحوي حالة مرضية واحدة مشروطة أما باقي نصوصه فمجموعة من الوصفات.

٧٠ - قرطاس أرمان:

وهو معروف بين علماء الآثار بقرطاس الأم والطفل، ويرجع تاريخه إلى حوالى ١٥٥٠ ق.م، وهو منسوخ من نص أقدم منه. يتضمن القرطاس عشرين رقية وبعض الوصفات، يحوي أيضاً قائمة بأسماء أعضاء الجسم وأحشائه.

وهكذا فإن الاعتقاد بأن الطب الفرعوني أقرب إلى السحر منه إلى العلم قد سقط بعد فحص القراطيس الطبية المذكورة آنفاً فحصاً دقيقاً أظهر أن نصوصها كانت علمية إلى أقصى حدود العلم، وظهر أن الطب في مصر الفرعونية كان يمارس بنظام وعناية.

المعلومات الطبية في مصر الفرعونية:

ممّا تقدم يتبيّن لنا أن مصر القديمة هي منبع العلوم الطبية في العالم أسره، ومن الأدلة على ذلك أن الكثير من الوصفات الطبية تحوي العديد من أسماء النباتات والعقاقير، وأن بعض العقاقير التي كانت مستعملة في ذلك العهد السحيق قد ثبتت فائدته وعمّ استعماله في عصرنا الحاضر. أضف إلى هذا أن أطباء مصر الفرعونية كانوا يعتبرون أن القلب مركز الأوعية التي تنتشر في سائر أنحاء الجسم، وأن النبض دليل على وجودها. وكانوا يعبرون عن النبض بكلام القلب الداخلي، وهو أمر يشير إلى معرفتهم بعلاقة النبض بضربات القلب واتصاله بحركات العضلة القلبية.

اكتسب أطباء مصر القديمة شهرة عالمية في التحنيط هيأت لهم معرفة أحشاء الجسم الداخلية ممّا كان له الأثر العظيم في تقدمهم في علوم الطب، ومن الأمراض التي أشاروا إليها وكتبوا عنها وذكروا لها وصفات علاجية نذكر الحصوات البولية في المثانة والكلى، البلهارسيا، التهاب المفاصل، الجدري، التهاب الزائدة الدودية، شلل الأطفال، أمراض العمود الفقري، وأمراض العين.

وإذا كان أطباء العصر الحديث قد تكلموا على وجود هرمونات تناسلية في بول المرأة الحامل، وتوصلوا إلى معرفة الحمل ابتداء من تأخر مجيء الدورة الشهرية بأسبوع واحد فقط وذلك بحقن بول المرأة الحامل لأرانب إناث، حيث تتأثر مبايض

الأرانب بما يحويه بول المرأة الحامل من هرمونات تناسلية، وإذا كانوا قد عرفوا وجود فيتامينات في بول المرأة الحامل، فإن قدماء المصريين كانوا يعرفون أيضاً أن بول المرأة الحامل يحوي مواد تنمي النبات بينما البول العادي يميتها. وقد ورد نص في ورقة بردى مصري قديم يرجع إلى سنة ١٣٥٠ ق.م يتضمن معرفة في أن لبول المرأة الحامل صفات حيوية، جاء في هذا النص ما فحواه: ضع بعض حبوب القمح والشعير في كيسين، ثم اجعل المرأة الحامل تتبول فوقهما كل يوم، فإذا نما القمح فإن مولود الحامل سيكون ذكراً، وإذا نما الشعير فالمولود أنثى، وإذا لم ينم أي واحد منهما فليس هناك حمل عند المرأة.

كما كان للجراحة مكانة عظيمة ويتبينّ هذا ممّا ورد في نصوص بردية إدوين سميث، ولعل عملية الختان أقدم العمليات الجراحية في مصر الفرعونية، وحوى القسم الأخير من بردية إيبرس عدداً كبيراً من حالات عمليات جراحية. أما علم الأمراض فقد ورد عنه الكثير في أوراق البردى، وهناك أسماء لأورام كثيرة لا تزال مجهولة حتى يومنا، ولا شك أن كثيراً من تلك الأمراض موجود بين الناس الآن كالديدان المعوية والدرن والرمد الحبيبي والبلهارسيا والخراج والأنكلستوما. وقد تميزت اللغة المصرية القديمة باحتوائها على ما يزيد عن مائة اسم تشريحي للجسم ممّا يؤكد أن قدماء المصريين كانوا يميزون بين أجزاء الجسم في الوقت الذي كان فيه ذلك متعذراً على الأمم الأخرى. وقد استمر الطب المصري محافظاً على جوهره إلى العصر البطلمي[1] ثم تطور تطوراً سريعاً نتيجة للدراسات والأبحاث التي أجريت بجامعة الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان من أعلام الطب في تلك الحقبة هيروفيلوس وأراسيستراتيس.

إن الفضل في ابتكار النشادر بسحق أو حرق قرون الحيوان يعود إلى أطباء مصر القديمة، وقد ورد ذكر بعض العقاقير النباتية في أوراقهم كقشر الرمان والشبت والكزبرة والكمون والكراوية والحلبة. كما ورد في الوصفة رقم ٢٥١ من بردية إيبرس ذكر منافع شجرة الخروع، واسمه دجام في اللغة المصرية القديمة، ومن منافعه إطلاق البطن وعلاج الجروح وإنماء الشعر.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه بعد عرض تاريخ الطب في مصر الفرعونية هو: هل كان لأطباء مصر القديمة أثر في الطب الحديث، وكيف كان هذا الأثر في عصور لاحقة - والجواب بالطبع يتأتى من أن جانباً من طب ديوسقريدس

(١) نسبة إلى بطليموس وهو اسم أطلق على ١٦ ملكاً من ملوك مصر المعروفين بالبطالسة.

(٥٠ب.م) وجالينوس (١٣٠ ـ ٢٠٠ م) وبليني (٢٣ ـ ٧٩ م) كان مصدره بطريقة مباشرة قراطيس مصر الفرعونية. هذه المعلومات المستقاة من القراطيس ترجمت إلى العربية فأصبح هناك طب عربي إسلامي اجتمعت فيه إرشادات الطب القديم وبلغ بها الطب الإسلامي ذروة مجده مع أبي بكر الرازي وابن سينا والزهراوي وغيرهم، واستمرّ هذا الطب خفّاقاً في أنحاء أوروبة حتى القرن الثامن عشر إلى أن نقلته عنهم أوروبة الحديثة وصارت أهم أركان الطب العشبي وتعاليم الطب القديمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وفي ما أورده العلاّمة أيبل عن طب مصرَ الفرعونية دليل على أثر هذا الطب في تطور تاريخ الطب بين الشعوب قاطبة: «وعلى ذلك نرى أن طب الإغريق لم يكن مستحدثاً، بل اقتبس كثيراً من الطب المصري، حتى إنه يمكن اعتباره امتداداً له، فلو أن أقدم بردية طبية كتبت حوالى ١٩٠٠ قبل الميلاد فإن الدرجة التي بلغتها تدل على تطور طويل المدى يرجع على الأقل إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ممّا يجعلنا نجزم أن الطب قد نبع من وادي النيل، ومن هنا يجب أن نعتبر أن مصر لا اليونان هي منبت الطب[١]».

(١) الطب والأطباء، د. دياب، ص٣٤.

الفصل الثاني

الطب الإغريقي

تشير النصوص اليونانية التاريخية إلى بداية تطور صناعة الطب وأنها ترجع إلى زمن الحكيم أسقلبيوس الذي كان أحد الملوك الأربعة الذين صحبوا هرمس وأخذوا عنه الحكمة والتنجيم والطب، وهو الذي أمر بأنه لا يجب تعاطي المهنة إلاّ لمن كان على سيرة رائدها الأول أبقراط في الطهارة والمعرفة والتقى وصدق النية. قيل إن موطنه بلاد الشام أو آسيا الصغرى، وكان الإغريق يكيلون له المديح والإكرام، وينظمون عن حياته أجمل الأغاني والأناشيد الفريدة، مع التهليل لبديع أفضاله، حتى إنهم كانوا يقولون إنه هو الذي يعيد الميت إلى الحياة، وإنه يمنح الشفاء للمرضى والمقعدين وذوي العاهة الذين فقدوا الأمل في الحياة، ولذلك بنوا الهياكل والمعابد تخليداً لاسمه، وأقاموا فيها التماثيل والأنصاب، ثم إن المرضى كانوا يتوافدون بأعداد وفيرة من بلاد اليونان كافة إلى هذه المعابد تيمّناً وطلباً للتبرّك والشفاء. وفي روما اليوم تماثيل لأسقلبيوس على شكل رجل ملتح متزيّن بحمة ذات ذوائب متشمّراً مجموع الثياب يوحي على أنه ينبغي للأطباء أن يتفلسفوا في جميع الأوقات، وهي حقيقة لها أهميتها بالنسبة إلى تاريخ فلسفة الطب ولا سيّما في العصور الوسطى. ويُرى أسقلبيوس وهو يحمل في يده عصا معوجة ذات شعب من شجرة الخطميّ، ممّا يشير إلى أن على المتطبب أن يحقق صناعة الطب للإنسان حتى يبلغ من العمر أرذله، الأمر الذي يحتاج معه إلى عصاً يتوكأ عليها، ويقال في هذا المعنى إن استعمالها يشير إلى تنبيه النيام وأن مهنة الطب تتطلب اليقظة والانتباه، وإنه بعصا شجرة الخطميّ يطرد كل داء، فهو علاج كثير المنافع إذا استخدم مفرداً، أو مختلطاً مع أدوية أخرى أسخن منه أو أبرد، ولهذا نجد اسمه في اليونانية مشتقاً من أسماء العقاقير، كما أن فعلها معتدل بين الحار والبارد، وهي صفة تميز شجرة

الخطميّ عن سواها من الشجر، أما اعوجاجها وكثرة شعبها فيدل على وفرة الأصناف والتفنن الخاص بالمهن الصحية وآدابها وتخصّصاتها العملية. وعلى العصا تلتف أفعى كرمز لطول العمر، والأفعى حادة النظر كثيرة التنبّه، ولا بدّ لمن رام صناعة الطب من أن لا يتشاغل عنها بالكسل أو النوم بل أن يكون في غاية اليقظة والذكاء والانتباه، وهي دليل على أنّ الطبيب لا بدّ أن يتقدم بمعرفته وذكائه فينذر بما هو حاصل وبما من شأنه أن يحدث في المستقبل، بالإضافة إلى أن الأفعى أطول عمراً من جميع الحيوان، يتجدّد شبابها مع السنين وتستعيد حيويتها، فيمكن لممارسي الطب أن تكون أعمارهم أطول. وعلى هامة أسقلبيوس نجد إكليلاً من شجر الغار لأنه يذهب الحزن وفيه قوة على الشفاء.

وخلافاً لهذه المعتقدات القديمة التي جعلت من أسقلبيوس معبوداً، فإن أطباء الإسلام اعتبروا أن أسقلبيوس وجيه عظيم بين أئمة الأطباء والحكماء المكرمين وأنه نصير الفقراء والمرضى ومؤسس الصناعة (الطب) عند الإغريق[1].

كان الطب الإغريقي مزيجاً من الحقيقة والخرافة، فقد روى بندار الشاعر الإغريقي الشهير[2] في التواليف الارتجالية الثلاثة كيف أن أسقلبيوس برع في العلم حتى أخرج بلوتو من عمله بأن جعل الظلّ يتقلص في منطقة «هيديس»، ولما عرضت المشكلة أمام زيوس «المشتري» صعق أسقلبيوس ثم رفعه إلى مرتبة الآلهة في أوليمبوس، ولا بدّ أنها كانت محاكمة ممتعة إذ إن أبوللون كان أيضاً رئيس الأطباء في أوليمبوس بالإضافة إلى كونه إله الصواعق، وكان يمتلك الرماح القاتلة فكان يسبب الأوبئة والطاعون وهي الأمراض التي كان يقوم بمعالجة وبائها ابنه أسقلبيوس على الأرض. وهكذا امتزج الطب مع التاريخ والخرافة حتى لم يعد ممكناً التأكد أن أسقلبيوس حقيقة مثل الطبيب «أمحوتب» في تاريخ الطب الفرعوني. ومن عبارات شاعر الإغريق الشهير هومير يتبينّ أن أسقلبيوس كان شخصية حقيقة وأنه كان خصيباً فكان له ابنتان وثلاثة أولاد. الابنة الأولى «بانيسيا» وكانت تعرف كل العقاقير وتعالج من الأمراض، وقد استعمل اسمها في الطب كونه علاجاً لجميع الأمراض. الابنة الثانية «هيجيا» وهي التي برعت في الصحة العامة، وكان من أبرز أعمالها تغذية الثعابين المقدسة التي كانت تقدم ترياق العلاجات. وقد ازداد الإغريق لأجل ذلك اعتقاداً بالثعابين فأكلوها ليزدادوا معرفة في الطب. ثم الابن

---

(١) تاريخ تراث العلوم الطبية، د. حمارنة ص٦٩ ـ ٧٠.

(٢) ٥٢٢ ـ ٤٤٣ ق.م.

الأول «تلسفورس» ومهمته جعل النقاهة من الأمراض سليمة. والثاني «بوداليريس» اختصّ في الطب الباطني والنفسي. الثالث «مخيون» وكان جرّاحاً وطبيب «منلاوس» الخاص في أثناء حصار طروادة، وقد اعتبره هومير بطلاً لعنايته بالمرضى، وفي أثناء حرب طروادة اخترق سهمه درع «منلاوس» فأسرع مخيون إليه وانتزع العصا من الرمح وترك رأس الرمح مكانه كصمام للجرح ثم امتصّ الدم ووضع على الجرح بلسماً.

وقد حوت إلياذة هومير وصف مائة وسبعة وأربعين جرحاً حربياً واثني عشر جرحاً من المنجنيق. وطبيعي أن هناك أمراضاً أخرى كالدزنطاريا والحميات المعدية كالتيفوئيد والتيفوس والملاريا. ويتضح من أبيات الإلياذة أنه وفي سنة ألف قبل الميلاد كانت مهنة الطب مشرفة، وكانت هناك دور للمعالجة عرفت باسم «أسكليبا» منتشرة في أنحاء اليونان. ثم إن المعابد كانت في الحقيقة دور علاج مهيأة بشكل يتناسب مع مكانة الكهنوت، وقد أنشئت هذه المعابد في الجبال بين الأشجار قرب المياه المعدنية، وكان المرضى إذا وفدوا على هذه الدور هيّئوا نفسياً بالاستماع إلى تراتيل تتضمن أعمال أسقلبيوس ونجاح العلاج في المعابد هذه. ثم تتلى بعض التعابير الدينية وتقدم القرابين ويعطى المريض حماماً في المياه المعدنية، يتلوه علاج بدهان الزيت ثم بالتدليك، وبعد القيام بطقوس دينية يسمح للمريض بأن ينام في المعبد بالقرب من قدس الأقداس، ثم يأتي كاهن في شكل الإلّه ليلاً لزيارة المريض فيقدم النصح الطبي إذا كان المريض واعياً، أما إذا وجده نائماً أو حالماً فإنه ينتظره حتى يفيق من حلمه ثم يسأله عمّا رآه في ذاك الحلم ويفسّر له ذلك، فإذا لم يحلم أخبر المريض بأن الثعابين المقدّسة قد لعقت الجزء المريض من جسمه. ثم يُعلم المريض بنظام غذائي إلى أن يبرأ. أما إذا لم ينم ولم يحلم فقد يعتبر ذلك دليلاً على عدم إيمانه أو عدم قيامه بطقس من الطقوس الدينية، إذ لا يمكن أن يكون ذلك نتيجة خطإ للعلاج الذي يتوهمه المريض. وعلى العموم فإن الإيحاء والعلاج مجتمعين كثيراً ما كانا يأتيان بالنتيجة المرتجاة[1].

•

لم يمارس الإغريق التشريح الداخلي للجسم، على عكس المصريين القدماء الذين استوجب التحنيط عندهم إخراج الأحشاء الباطنية والصدرية، فقد فصلوا الأحشاء ثم غسلوها ثم حنّطوها، وكانوا في الوقت نفسه يذبحون الحيوانات ليأكلوها ويقدموها قرباناً لموتاهم، وما من شك في أنهم قارنوا أحشاء الإنسان بالأحشاء الحيوانية. قلنا إن الإغريق لم يعرفوا التشريح هذا إلى أن أتى أرسطاطاليس

(١) المصدر نفسه ص٤٢.

(٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) الذي أسّس «الليسيوم» وشرّح الحيوان وقارن بين أجسامها وأعضائها، كما وضع أسس علوم النبات والحيوان والأجنّة ووظائف الأعضاء، وقد بقيت تعاليمه متبعة لمدة ألفي سنة من بعده، ولم يجرؤ أحد طوال هذه الحقبة أن يناقش أو يخطىء آراءه. لقد اعتبر أرسطاطاليس القلب مركز الشعور والإحساس والفكر ولم يعتبر المخ سوى غدة تفرز السوائل الباردة التي تمنع ارتفاع الحرارة التي يحدثها «أتون» القلب في الجسم.

تقول الأساطير اليونانية إن أبوللو كان أكبر آلهة الطب وقد خلف أسقلبيوس من زوجته كروس[١]، وهو أول من ذكر الأطباء وأول من تكلم في شيء من الطب عن طريق التجربة. وكان من ذرية أسقلبيوس سبعة أطباء هم: غورس، مينس، برمانيوس، أفلاطون (الأول)، أسقلبيوس (الثاني)، أبقراط، وجالينوس. وقد برز أيضاً ثلاثة علماء وصارت أعمالهم أساساً لكثير من النظريات والمعلومات الطبية، وهم: فيثاغورس (٥٨٠ - ٤٨٩ ق.م)، قيمايون (حوالى ٥٠٠ ق.م) وأمبادوقليس (٤٩٣ - ٤٣٣ ق.م) وإليه وإلى تلامذته تنسب الإشارة إلى بوادر نظرية الأخلاط التي نسبت فيما بعد إلى أبقراط. على أن هذه الفترة الذهبية للطب الإغريقي سبقها ظهور بعض المدارس الطبية المتخصصة. نذكر منها مدرستي قوص وكنديس اللتين أنشئتا في جزيرتي قوص وكنديس، والثابت أنهما من أقدم مدارس الطب اليوناني. ولا يعرف على وجه الدقة تاريخ إنشائهما، وربما كان ذلك في القرن التاسع ق.م، ويحتمل أن يكون ذلك بعد افتتاح مدرسة الإسكندرية من قبل البطالسة المصريين سنة ٣٢٠ ق.م ويقال إن مدرسة كنديس سبقت مدرسة قوص وإنها اشتهرت بتدريس العلامات والأعراض بشكل عام، بينما اشتهرت مدرسة قوص بتدريس الأعراض التي تخصّ كل مرض من الأمراض، وقد برزت في حينه منافسة علمية إيجابية بين المدرستين في مجال البحث والتطبيق الطبين.

وفي أثينا ضجت هذه المدينة في القرن الرابع قبل الميلاد بالعلماء ومدارس التعليم، وازدهرت العلوم الطبية ولمعت أسماء أعلام من الأطباء الذين طبقت شهرتهم الآفاق، نذكر من هؤلاء أبقراط وأرسطو. وقد استمر الطب اليوناني بشكله المتميز حتى استيلاء الرومان على تلك النواحي سنة ٣٠ ق.م[٢].

في القرن السابع الميلادي نشأ في مدرسة الإسكندرية طبيبان هما بولس

---

(١) انظر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٢٩، ٣٣.

(٢) الطب عند العرب والمسلمين، د. محمود قاسم محمد ص٣١.

الأجنطي مؤلف «كتب الطب السبعة» اليونانية وأهرت القس الإسكندري صاحب الكنّاش الموضوع بالسريانية، والذي ترجم إلى العربية وكان له الأثر العظيم في ابتداء صناعة الطب الإسلامي العربي. ولا بدّ لنا من الكلام على علمين بارزين من علماء طب الإغريق لما لهما من صلة في تاريخ الطب العربي.

بقراط بن هيراقليدس، أبو الطب (٤٦٠ ـ ٣٧٧ ق.م):

إن المصنفات الطبية التي نقل معظمها إلى السريانية والعربية هي ما يسمّى بالمجموعة الأبقراطية نسبة إلى أبقراط (بقراط) بن هيراقليدس، رئيس الأطباء وتلميذ أسقلبيوس. ولد أبقراط بجزيرة قوص (قو) القريبة من شاطىء آسيا الصغرى، وكان والده طبيباً تعلم في أثينا ثم سافر ليمارس مهنة الطب في مدن تراقيا، تساليا، ومقدونيا، وتشتهر قوص بمعبد أسقلبيوس الذي لا تزال آثاره باقية إلى الآن. ويعتقد بعض الباحثين أن أبقراط لم يكن كاهناً وإلاّ اعتبر من أكبر المرتدين، ذلك أن كل تعاليمه كانت بعيدة كل البعد عن الدين والفلسفة التي استبدلت المناظرة بالعقيدة. وبعد أن كان المرض معتبراً مسّاً من الشيطان أصبح موضوع بحث إكلينيكي. فقد اعتبر أبقراط أن كل مريض يشكل حالة قائمة بذاتها، ولذلك دوّن أعراض كل حالة وأسمى مرضها، وكان يرجع في فحصه إلى المعلومات المختبرة الماضية، وذلك بعد إثبات كل معايناته الواقعية دون تخمين أو ترجيح، فكان يجمع الأعراض التي يبني عليها تشخيصه أولاً ثم يخرج منها برأي موضوعي علمي مستنداً إلى تجاربه السالفة، فجاء طبّه نقيضاً لما كان متبعاً في عهد الفلاسفة الأطباء الذين شخّصوا الحالة أولاً ثم كيّفوا الأعراض تبعاً لهذا التشخيص، ومن هؤلاء فيثاغورس وأنكساجوراس، وكان هؤلاء يخلطون بين العقل من ناحية وبين القوى الخارقة للطبيعة من ناحية أخرى.

وإذا أنعمنا النظر في الحالات التشخيصية التي دوّنها في كتابه أدركنا أنه لا يمكن أن يكون عمل فرد بل عمل فريق طبي مجتمع معاً. فالكتاب يتضمن اثنتين وأربعين حالة إكلينيكية تداولها من بعد الأطباء دون سواها طيلة ألف وسبعمائة سنة تقريباً. قال أبقراط في أول كتابه: «لقد دوّنت ملاحظاتي عن قصد لأنها ستكون مفيدة لمن يريد أن يتعلم من فشلي في الفحص والعلاج. والواقع أن ٦٠٪ من هذه الحالات انتهت بالوفاة». إن الحالات في كتابه مشروحة بأمانة ودقّة مع اعتراف صريح بالفشل إذا ما تعذر علاج الحالة المرضية عند المريض ممّا يؤدي بالتالي إلى وفاته.

اهتم أبقراط بما نسميه حالة الإنذار فوصف وجه المريض وهو في نزعه الأخير، وقال عنه إنه منكمش ممتقع اللون مسحوب ممّا يشير إلى قرب الوفاة، وقد أطلق على هذه الإنذارات مجتمعة اسم «الهيئة الأبقراطية». والجدير بالذكر أن أبقراط كان شديد الإيمان بقوة الطبيعة الشفائية رغم أنه كان عارفاً بمنافع العقاقير، ولذلك فهو لم يكثر من الوصفات الشفائية، بل كان أكثر ما وصف للمرضى الهواء النقي والطعام الجيد وخصوصاً الملينّ منه وأشار إلى فضل الفصد، وحسنات مزيج العسل بالماء والخل، ونبّه إلى منفعة التدليك والاستحمام والنظافة.

اشتهر أبقراط بقسمه الذي عرف باسمه وهو:

* إني أقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج.
* وأقسم بأسقليبوس وأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً، وأشهدهم جميعاً على أني أفي بهذا اليمين وهذا الشرط.
* وأرى أن المعلم في هذه الصناعة بمنزلة آبائي وأصله من مالي وأعلم أبناءه الطب.
* وأقصد في جميع التدابير منفعة المرضى.
* ولا أعطي دواء قتالاً إذا طلب مني ولا أشير بهذه المشورة.
* ولا أعطي النساء دواء لإسقاط الجنين.
* وأحفظ صناعي على الزكاة والطهارة.
* وأمسك عن الأشياء التي أعاينها وقت علاج المرضى.

وممّا جاء في هذا القسم أيضاً:

«أي بيت أدخله فسأدخله للأخذ بيد المريض بنيّة سليمة. أدخله بريئاً من كل نية خبيثة من الإساءة لأي شخص رجلاً كان أو امرأة، حرًّا كان أو رقيقاً».

«إن كل ما يصل إلى بصري أو سمعي وقت قيامي بمهمتي أو في غير وقتها ممّا يمسّ علاقتي بالناس ويتطلب كتمانه فسأكتمه، وسأحتفظ به في نفسي محافظتي على الأسرار المقدسة».

وقد أكّد الأطباء العرب المسلمون أن أبقراط قد وضع أساساً قوياً للصناعة الطبية مع الاهتمام بأخلاق وأدب الطبيب والتمسك بناموسه ووصاياه، قالوا: إن أبقراط أقرّ بأن صناعة الطب هي أشرف الصنائع كلها إلّا أنّ نقص فهم من ينتحلها صار سبباً لسلب كرامتها في نظر الناس، وليس لها عيب في بلد سوى جهل

وغشّ من يدّعيها، ومن هو ليس بأهل للتسمّي بها. وقد نقلوا عنه أيضاً نظرية أن الجسم يتركب من أربعة أركان أو عناصر (استقصات) ومنها يتكون العالم الذي نعيش فيه، وهي: النار والهواء والماء والأرض، وأنها قابلة للفساد والتغيّر، ولها أربع طبائع حارة ويابسة ورطبة وباردة، وأن الأخلاط هي الدم والبلغم والمرّتان الصفراء والسوداء.

يقول أرسطاطاليس المعلم الأول في كتابه السياسة المدنية[1]: «إن أبقراط ممّا لا شكّ فيه هو طبيب نطاسي وليس هو بالشخص العادي المحدود في تفكيره كما ينظره الإنسان، بل هو أعظم بكثير من مجرد الرؤية إليه».

وجاء في كتاب فيدروس لأفلاطون[2] على شكل محاورة ما نصّه:

سقراط: هل تظن يا فيدروس أنك عقلياً تستطيع أن تسبر غور ماهية الروح من غير معرفة كنه طبيعتها مجملاً؟

فيدروس: إن أبقراط الأسقليبيادوسي[3] يقول بأن طبيعة النفس أو الروح لا يمكن إدراك كنهها حقاً من غير فهم الجسم أيضاً.

سقراط: نعم لقد أصبت القول أيها الصديق، ولكن لا ينبغي أن نكتفي بالإشارة إلى مقالة أبقراط فقط، بل علينا أن نستقصي الأمور بدقة أكثر لنعرف فيما إذا كان الجواب يتفق مع فهم هذه الطبيعة أم لا.

وفي القرن الثاني الميلادي برز أطباء وعلماء مشهورون منهم الطبيب الفيلسوف «روفس الأفسسي» الذي مارس مهنته بنجاح وبرع في فرع التشريح والجراحة وتعريفها وأمراض المسالك البولية ووظائف الأعضاء. وكانت ممارسات روفس الطبية مبنية على الآراء والنظريات التي ناقشها واعتنقها في زمن البطالسة كل من هيروفيلس وأراسستراتوس لأكثر من أربعة قرون خلت، وكان إلى جانب روفس طبيب معاصر له اشتهر حوالى سنة ١٢٥ م هو الطبيب السوري (طبيب العيون) واسمه باليونانية أركيجينيس. ثم برز في زمن تراجان وهادريان (٩٨ ـ ١٣٨ م) سوانيس الأفسسي من المذهب القياسي الإصلاحي في المدرسة الطبية وكان مشهوراً في

---

(١) المقالة السابعة (٧: ١٣٢٦أ ١٥ ـ ١٦).

(٢) Plato's Phaedrus (270 C).

(٣) نسبة إلى أسقليبوس.

التشريح وعلم أمراض النساء، وهو الذي كتب ترجمة سيرة أبقراط وأعماله. ثم تلاه الإسكندر الأفروديسي الذي لقب «جالينوس برأس البغل» لكبر رأسه. أما الطبيب النطاسي الذي ذاعت شهرته فعمّت آفاق المعمورة كرئيس الأطباء القدامى جميعاً بعد أبي الطب أبقراط فقد كان الفيلسوف الطبيب جالينوس (١٣٠ ـ ٢٠١ م)، وكان من أهل برغامس بآسيا الصغرى، والذي كان لحياته وأعماله الأثر العظيم في حضارة الطب الإسلامي وما بعده إلى مطلع العصر الحديث[1].

جالينوس بن نيكون (١٣٠ ـ ٢٠١ م):

أمضى جالينوس أيام صباه في مسقط رأسه برغامس، ولمّا كان والده نيكون مهندساً عارفاً بعلوم الرياضيات والهندسة والمساحة والمنطق والنجوم، فقد حرص على تلقين ابنه أحسن العلوم والمناهج منذ حداثته وتحت إشرافه ثم بإشراف الفيلسوف أرمينوس وغيره، حيث درس علوم الرياضيات والهندسة وفرّق المدارس الفلسفية والطبية في زمنه. يقول جالينوس في مراتب قراءة كتبه: «إن أبي لم يزل يؤدّبني ممّا كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التي تؤدّب بها الأحداث إلى السنة الخامسة عشرة، ثم إنه أسلمني إلى تعليم المنطق، وبعد ذلك قصد بي الفلسفة وحدها، فرأى رؤيا دعته إلى تعليمي الطب، وكنت في السابعة عشرة من العمر آنذاك».

وحوالى عام ١٤٩ م توفي نيكون أبوه وجالينوس في التاسعة عشرة من عمره، فثابر على التحصيل وانتهج في علم التشريح الطرق التجريبية أولاً، وتتلمذ على يد الطبيب الفيلسوف سايتروس ثم لوشوس الذي كان متأثراً بالمدرسة الإسكندرية ومناهجها التعليمية. وحدث عندما التحق جالينوس بمدرسة الجراح ساتيروس في برغامس، وكان لا يزال تلميذاً، أن تفشّى وباء الجمرة الخبيثة بين الناس وانهمك الأستاذ في معالجة المرضى ومكافحة الوباء، وكان جالينوس يقف عند يديه وهو يجري العمليات الجراحية في مدرسته.

انتقل جالينوس إلى «سميرنا» لدراسة الطب على يد الطبيب بيلوبيس بين سنة ١٥٠ و١٥١ م، وكان متأثّراً بطب أبقراط، وهناك درس الفلسفة الأفلاطونية على يد ألبيونوس فأفاد منه كثيراً. بعد ذلك وضع جالينوس كتاباً يبحث في تعاليم ومبادىء أفلاطون وأبقراط معاً. ومن «سميرنا» توجه بحراً إلى بلاد اليونان في الغرب ونزل

---

(١) الفهرست لابن النديم ٤٠٣ ـ ٤٠٨.

في كورنثوس لمتابعة دراسته الطبية على يد الطبيب نوميسيانوس. ومن هناك انتقل إلى الإسكندرية في البلاد المصرية وكانت من أهم المراكز في العلوم ولا سيما الطبية منذ بداية عصر البطالسة، حيث تابع دراسته الطبية حتى العام ١٥٨ م، ثم قفل عائداً إلى برغامس، ويقال إنه ربما عرّج في طريقه على فلسطين وسورية وشواطىء فينيقيا، ثم أبحر إلى آسيا الصغرى حيث أقام حوالى سنتين حصّل في خلالهما مشاهدات وخبرات وممارسات مفيدة جداً. وفي الإسكندرية كان رجال التشريح يقومون ـ في مرحلة من مراحل تاريخ المدينة ـ بتشريح أجسام المجرمين وهم أحياء، وكان البطالسة يقدمون لمدرسة الطب عدداً من المجرمين للتشريح نظراً لاهتمامهم بالطب، ولكن مع وصول جالينوس إلى الإسكندرية كانت تلك الصناعة الوحشية المزرية قد أبطلت، ولهذا فقد عمد جالينوس إلى تشريح القردة لمتابعة دراساته الطبية.

بعد عودته إلى برغامس، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، عيّنه رئيس كهنة الهيكل الطبي في «أسكلبيون» طبيباً للمجلودين، وكُلّف بالإشراف على ما يتناوله هؤلاء من طعام ومعالجة جراحهم الأليمة قدر الإمكان. ثم إن جالينوس افتتح عيادة خاصة به بالإضافة إلى عمله في الهيكل، وفي هذه الفترة دوّن أولى مقالاته الطبية، وصار مشهوراً في أسكلبيون حيث يجتمع أطباء عصره جميعهم. وكان جالينوس منذ البدء حريصاً على ترتيب وتنسيق ما يجمع ويصنف وينشر في الملاحظات والكتب والفهارس في ترجمة حياته. وفي عام ١٦١ م أوصى الأمبراطور بأن يصنف جالينوس له مصنفاً في علم التشريح وعلم الوظائف (وظائف الأعضاء) ففعل ذلك. وفي العشر الأخير من عمره، وكان قد جمع من مصادر جمة واختبارات شتى معلومات وافرة أثبتها في كتب له في الطب والفلسفة، أصيب بنكسة كبيرة بسبب حريق شبّ في هيكل أريني في رومية وهو هيكل السلامة، فتسبّب في إضاعة القسم الأكبر من المكتبة الملوكية مع الأمتعة وممتلكات الأمبراطور وخزانة الأدوية مّما لا يمكن تعويضه، حتى إن الرقائق التي حوت كتب أرسطاطاليس وروفس ومستحضرات تراكيب جالينوس الصيدلانية كلها ضاعت مع النار. ولكن جالينوس أعاد كتابة ما سبق ونشره، ولا سيما كتبه في علم التشريح، وزاد عليها معلومات كثيرة لم تكن قد أضيفت إليها من قبل[1].

التزم جالينوس المبادىء الأساسية في المجموعة الأبقراطية فشرح معانيها

---

(١) عيون الأنباء، ص٨٤ ـ ١٠٨.

وفسّرها وعلّق عليها كالأخلاط والأمزجة والكيفيات، وبين تشريح الأعضاء ومصاعب العمليات الجراحية والآلام الناتجة عنها، حتى إنه اعترف بأن «خير الأطباء وأنجحهم هو الذي يكون فيلسوفاً أيضاً»، وبسبب تخوّفه من أصول التشريح التي أعلنها من قبل الطبيبان هيروفيلس وأراسستراتس في مدرسة الإسكندرية، وذلك لوضع القيود في مسيرة التقدم العلمي الاختباري في طريق الأجيال اللاحقة، فإن جالينوس لم يؤسّس مدرسة طبية ناجحة ولم يتبع نظاماً معيناً للصناعة الطبية، ولعل هذا ما جعل أعماله الجيدة كمًّا مهملاً فاشلاً من الناحية الاختبارية العملية، ولهذا نجد بعض علماء العرب المسلمين أمثال الرازي وابن زهر والبغدادي وابن النفيس ينعون عليه ذلك ويناقضون أقواله وافتراضاته الموحية بالشك، مع أن تواليفه بقيت لأكثر من ثلاثة عشر قرناً مرجعاً أساسياً لطلاب هذه الصناعة وممارستها في تطبيق الطب وفلسفته، وقد ذكر حنين بن إسحاق وابن بطلان أن حكماء وأطباء الإسكندرانيين السبعة بعد عهد البطالسة في عهد الأباطرة الرومانيين وخلال عصر البيزنطيين جمعوا واختصروا وشرحوا كتب جالينوس وفسّروها في ستة عشر كتاباً، وكان طلاب وممارسو المهنة الطبيّة يقتصرون على قراءة هذه الكتب.

طبقاً لفلسفة جالينوس فإن الجوهر الأساسي للحياة هو الروح أو النفس المستمد من الروح الكونية في عملية التنفس، وهو يدخل الجسم عن طريق القصبة الهوائية فيصل بذلك إلى الرئة ومن هناك يدخل في الشريان الشبيه بالوريد الذي يعرف ـ اليوم ـ بالشريان الرئوي إلى البطين الأيسر حيث يقابل الدم. وكان يعتقد أن الكيلوس (أي مستحلب الطعام المهضوم في المعدة) الذي يأتي من القناة الهضمية عن طريق الوريد البابي يصل إلى الكبد، واعتقد أن في استطاعة هذا العضو أن يحيل المستحلب إلى دم وريدي وأن يشربه بروح خاصة أو نفس يوجد بصورة فطرية في جميع المواد الحية طالما كانت محتفظة بالحياة ويشار إلى هذا النفس باسم الروح الطبيعية، فإذا حمل الدم بالروح الطبيعية المستمدة من الكبد وبالمواد الغذائية المستمدة من الأمعاء، فإن الكبد يوزعه، كما كان جالينوس يعتقد، في جميع أجزاء الجهاز الوريدي الذي يتفرع منه هناك حيث يمر في حركة انقباض وانبساط خلال الأوردة، وأحد الفروع الرئيسية في الجهاز الوريدي هو الجانب الأيمن من القلب. أما الدم الذي يدخل هذا الفرع الهام، وهو الجانب الأيمن من القلب، فقد حدّد له نظام جالينوس مصيرين محتملين، فالجزء الأكبر منه يبقى قليلاً في البطين ليتخلص ممّا فيه من شوائب، يحطها الشريان الوريدي الذي يسمّى ـ اليوم ـ الشريان الرئوي إلى الرئة حيث تخرج مع الزفير، فإذا تخلص الدم الوريدي الذي في البطين الأيمن

مّما كان فيه من شوائب يعود إلى التدفق في الجهاز الوريدي العام، ولكن جزءاً صغيراً من الدم يمر في طريق ثان. هذا الجزء الصغير يقطر في القنوات الدقيقة الموجودة في الجدار الحاجز بين البطينين، فيصل إلى البطين الأيسر نقطة نقطة، حيث يلتقي بالنفس أو الهواء الذي تحطّه القصبة الهوائية والشريان شبه الوريدي من العالم الخارجي، وحيث تختلط هذه النقطة الدموية بالهواء في البطين الأيسر تتحول إلى نوع من الأنفاس وهو روح الحياة التي توزعها الشرايين مع الدم الشرياني. ومن هذه الشرايين ما يصعد إلى الدماغ وبذا تحمل روح الحياة إلى قاعدة المخ، وهنا يتجزأ الدم إلى أجزاء دقيقة بوساطة قنوات شبكة الأوعية الدموية المتحدة المصدر، وفي هذا العضو الخفي يحمل الدم بنوع ثالث من الأنفاس وهو الروح الحيوانية، وكانت توزعها الأعصاب التي كان يعتقد ـ جالينوس ـ أنها جوفاء.

وقد نجم بعد وفاة جالينوس أطباء مشهورون منهم أسطفان الإسكندراني، وأنقيلاوس الإسكندراني، وجاسيوس وماريئوس الإسكندرانيان، وهؤلاء الأربعة الأطباء ممّن فسّر كتب جالينوس وجمعها واختصرها وأوجز القول فيها. وقد ترجمت مؤلفات جالينوس إلى اللاتينية والسريانية والعبرية والعربية، وغرفت منها الحركة العلمية في العصور الوسطى، وقد علّق عليها ـ كما ذكرنا ـ الكتاب الإغريق المتأخرون وترجمت هذه التعليقات بدورها إلى اللغات المذكورة، وأصبحت متداولة تحت أسماء مؤلفين إغريق آخرين[١].

(١) الطب والأطباء، ص٤٩.

الفصل الثالث

الطب في بلاد النهرين

تعتبر بلاد النهرين أقدم موطن لمدنيات الشرق كما حدّد بعض الآثاريين، ويعتقد البعض الآخر منهم أن المدنية المصرية الفرعونية كانت سابقة لهذه المدنية وأنها أثرت فيها في كثير من نواحي الحياة. فالبعض الذي تكلم على سبق مدنية بلاد النهرين اعتمد على أنه في الوقت الذي كان فيه قدماء المصريين قبل عهد الأسر يستخدمون الآلات الحجرية منذ ما يقرب من ستة آلاف سنة، كان السومريون، وهم سكان بلاد النهرين، يستخدمون آلات معدنية ويصنعون لأنفسهم أدوات دقيقة. وقد أضاف بعضهم إلى هذا فذكر أنه قبل الطوفان، أي قبل مغادرة النبي إبراهيم (ع) مدينة أور، كان في هذه المدينة خزف ونقوش من عهد سالف، وأن هذا الطوفان الوارد ذكره في الكتب السماوية قد ذكر أيضاً في نصوص سومرية يرجع تاريخها إلى ألفي سنة قبل الميلاد، وهو العهد الذي يوافق عهد المملكة الفرعونية الوسطى (٢١٠٠ ـ ١٧٠٠ ق.م). قال الأثريون إن مدينة أور كانت في بلاد كالديا، وهذا يعني أنها واقعة على أرض سومرية، وإن سكان كالديا هم أول من ابتكر علم الفلك فحدّدوا السنة الشمسية بثلثمائة وخمسة وستين يوماً، غير أن التاريخ يصحّح هذه المعلومة حيث يذكر أن أهالي مدينة «بوتو» عاصمة المملكة الشمالية في مصر القديمة هم أوّل من حدّد أيام السنة الشمسية وكان ذلك قبل عهد الأسر أي قبل ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد.

وفي مدينة أور عثر على الكثير من الكنوز في مقابر الملوك، كما عثر أيضاً على ما يثبت وفاة خدم وحاشية هؤلاء الملوك في مقبرة واحدة وفي وقت واحد. ففي حفرة داخل المقابر هذه وجدت ست جثث لخدم وثمان وستين جثة لخادمات، وكانت هذه

الجثث جميعها مصفوفة على عرض الحفرة، واستدل من ترتيب الجثث أن وفاة أصحابها لم تكن إثر تعذيب أو قتل، والمرجح أن هؤلاء تجرّعوا عقاراً منوماً شديد المفعول، وأنهم اختاروا الموت طوعاً مع ملكهم أو ملكتهم، ثم ناموا وأهيل التراب على جثثهم. والملفت مما في هذه الوفيات التي حصلت منذ ٤٥٠٠ سنة وجود عقاقير منوّمة بالإضافة إلى ما عثر عليه من عقاقير للتجميل، كما في حجرة وفاة ملكة أور. ويمكن لنا أن نطلع بنتيجة هامة هي أن السومريين في مدن أور وكيش ولاجاش كانوا يعرفون علم الأقرباذين[1]. وفي آثار هذه المنطقة (بلاد النهرين) عثر أيضاً على مديات نحاسية ممّا يظن معه وجود جراحين استعملوها في بعض العمليات الجراحية في صناعتهم الطبية.

وفي مدينة كيش وجد نص تصويري يرجع تاريخه إلى ٤٢٠٠ ق.م، ثم عثر على قوالب نقش عليها بعض النصوص الطبية. وفي مدينة لاجاش عثر على خاتم طبيب يعود تاريخه إلى ٣٠٠٠ سنة ق.م وعلى الخاتم أسطوانة صغيرة طينية نقش عليها اسم صاحبها للاستعانة بها على تسجيل اسم الطبيب على قوالب طينية أخرى، كما وجد على هذا الخاتم رسم الإله «إيرو» وهو إله الوباء. وقد ذكر بعض المؤرخين لصناعة الطب[2] أن «أورد كاليدينا» الذي عاش في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وقت ازدهار الطب، يقابل أمحوتب المصري الذي يعتبره البعض ـ كما أسلفنا ـ أول طبيب ذكر في المصادر التاريخية.

سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد دالت المدينة السومرية وبرزت الحضارة الأشورية والبابلية. ولأن العلم كان محصوراً في الكهنة آنئذٍ فقد جمعت هذه المدينة بين الكهنوت والطب في شخص الكاهن... كان العلم يعتمد على ملاحظات بعض الوقائع، وعلى الرغم من عدم تفهّمه فقد كانت مخطوطات الكهنة تذكر الأعشاب الصحراوية وما تفرزه من «راتينج» بتأثير درجة الحرارة، وكما نظر إلى علم الفلك كسحر فلكي اعتبر الطب علماً كهنوتياً، ومع ذلك فكثيراً ما امتزج الطب بالفلك والسحر.

احتفظ الملك أشور بانيبال (٦٦٩ ـ ٦٢٦ ق.م) في دار كتبه الكبيرة في نينوى بأكثر من ثلاثين ألف لوحة طينية، نُقش على ثمانمائة منها نصوص طبية، وقد دلت

---

(١) لفظة إغريقية ومعناها دستور الأدوية ولا سيما الأدوية المركبة والمستحضرات الصيدلانية.

(٢) الطب عند العرب، د. عبد اللطيف البدري، ص١٩.

هذه اللوحات الطبية على أنّ الأشوريين كانوا يعتقدون أن الأمراض من أعمال الأرواح الشريرة، وكان تشخيص المرض لا يتطلب أكثر من مناظرة المريض، أما إنذار المرض فكان يحدّد بالتخمين والاستدلال بالنجوم، وكذلك بأن يقدم إلى المريض كبد شاة ليتنفس فيه وينقل إليه أعراض مرضه، ثم كان الكاهن يفحص الكبد ويستنتج المعلومات عن سير المرض، وكثيراً ما كان الكاهن يتلو بعض الرقى على دم المريض أو لعابه أو بوله، ثم يخلص من ذلك إلى معلوماته الطبية عن حالة المريض. وإلى جانب هذه اللوحات الطبية عثر على أخرى بعضها تاريخي وبعضها ديني وبعضها في السحر والفلك، وكلها كانت مدوّنة بالخط المسماري. وليس أدلّ على انفصال الطب عن السحر في حضارة وادي الرافدين من أن المصطلحين اللذين أطلقتهما النصوص المسمارية على الطب والطبيب وعلى السحر والساحر كانا مصطلحين متميّزين في جميع عهود تلك الحضارة.

يقول بعض الدارسين المحدثين[1] إن المعلومات التي ظهرت من هذه اللوحات أثبتت أن الطب الأشوري كان متقدماً عن الطب المصري، وأن هناك تشابهاً بين نصوص القطرين الطبية حيث يمتزج الطب بالسحر. والحقيقة أن الوصفات الطبية الفرعونية كانت أدق من حيث تسجيلها وعلمها، فكان لكل وصفة عنوان وبكل عنوان أرفق اسم المرض أو وصفه، ثم يلي ذلك ذكر العقاقير وأمام كل منها كميته المقدّرة المفصّلة تفصيلاً دقيقاً، وهو ما تفتقد إليه الوصفات الأشورية.

إنّ ألواح الأشوريين دلّت على أن أهل البلاد عرفوا شيئاً عن تركيب وتشريح الكبد يفوق ما عرفه أهل العصور الوسطى في أوروبة، فالصور التشريحية التي خلفتها تلك العصور المظلمة الخاصة بالكبد كانت ناقصة مضللة[2].

وقد وصل إلينا الكثير من الوصفات الشفائية والعلاجية والعقاقير الطبية التي كانت مستعملة من قبل الأطباء الكهنة في بابل، وفي هذه الوصفات ذكر لرقى عديدة، وبعضها يتضمن عقاقير نافعة للبدن، ولكن هؤلاء الأطباء الكهنة كانوا يمزجون هذه العقاقير أحياناً بمواد خبيثة على زعم أنها تزعج الأرواح الشريرة المسببة للمرض فتهجر جسم المريض ويبرأ. فنحن نسمع أن البابليين كانوا يعتقدون أن

(١) W. Dawson, Magician and Leech, p128.

(٢) الطب المصري القديم ج١ ص٣٦.

رياح الخماسين الحارة التي كانت تمر ببلاد النهرين إنما هي من خوف الهواء من جان خبيث يحدثها، وأن هذه الرياح إذا ما هبّت فإنما تهب لإبعاد هذا الجان ووقاية السكان من ضرره وشرّه. هكذا فسّروا بعض أمراضهم وخلطوا وصفاتهم بالرقى والسحر أحياناً.

على أن إنعام النظر في بعض وصفاتهم يكشف ما يبرّر هذه الوصفات رغم بداءة الوصفة وبعدها عن أسس الطب العصري. لقد عالج الطبيب الكاهن التهاب الملتحمة بشق بصلة ومزجها بالبيرة. والمعروف أن هذا المزيج يدر الدمع، والدمع إفراز قاتل للجراثيم المسبّبة للالتهاب، ثم كانوا يدهنون العين بعد ذلك بالزيت. وكان يمكن أن يكون هذا العلاج سليماً - إلى درجة ما باستعمال المزيج المطهر - ولكن الكاهن كان يعتقد أن هذا العلاج غير كافٍ لدفع ضرر الجن أو الروح الخبيثة، فأضاف إلى العلاج بعض الشعوذة حيث قال: «استخرج أحشاء ضفدع صفراء واضرب مرارتها حتى تصبح سائلاً ثخيناً ثم ضعه على عينك».

كان الأشوريون يعتقدون أن «نرجال»، الذي اعتبره البابليون إلّه المرض من قبل، ممثّلٌ في الذبابة، وكانت الذبابة رمزاً للإلّه المعبود «بعل زبوب»، وهذا يرجع أنهم اعتبروا الحشرات والذُّبان ناقلة للمرض. وإن أهم ما تضمّنه علم الصحة والطب الأشوري البابلي هو انتقال البرص بالعدوى، ولهذا فقد عزلوا المجذومين في مناطق نائية، ويدل على هذا ما ورد في نقش يعود تاريخه إلى ٣٥٠٠ ق.م يفيد أن المجذوم سوف لن يعرف أبداً طريق العودة إلى موطنه.

وإلى جانب الأطباء الكهنة الذين خلطوا العلاج بالسحر والشعبذة وجدت طائفة من الكهان الذين عرفوا الطب الباطني وأطلق عليهم اسم «أشيبو»، كما برزت طائفة من الكهنة الأطباء الذين مارسوا الجراحة فعرفوا باسم «آسو» وكانوا يعالجون الجراح والكسور ولدغات الأفاعي والزواحف، كما عالج البعض منهم، وهم «أشيبو»، بالأعشاب والمعادن. ثم تطور علم الطب في عهد الملك حمورابي (١٩٤٨ - ١٩٠٥ ق.م) خيث حازت طائفة «آسو» على مكانة مرموقة، فبينما كان الكهنة مسؤولين أمام الآلهة، كانت طائفة أطباء «آسو» مسؤولة أمام المملكة، وظهرت إذ ذاك قوانين للإشراف على ممارسة صناعة الطب، وقد حدّد معظم هذه القوانين في قانون حمورابي الشهير.

وقد ذكر هيرودوت أن البابليين كانوا يعرضون مرضاهم في الساحات العامة ليصف لهم العقار كل من أصيب أو سمع بالمرض الذي أصابهم، وكان لا يسمح

لأي شخص يمر بمريض دون أن يسأله عن مرضه[1].

كتب الطبيب الأشوري في أمراض الرأس والعين والأذن والصدر والأسنان وذلك حسب أعراض هذه الأمراض وهو الطريق الذي عرفه الطب الإغريقي أيضاً. وعلّل الطبيب الأشوري كذلك سبب المرض فذكر أن أجساماً غير منظورة تدخل الجسم مع الهواء من طريق التنفس أو الطعام أو الشراب، أو مع الأوساخ من طريق الجلد، وهو ما نعرفه اليوم بالعدوى الجرثومية. أما ما ذكر عن الأرواح الشريرة التي تسبب المرض وتلحق الضرر بالجسم فلا شك أنه قصد ما نعرفه اليوم بالمرض النفسي والعقلي، ولذلك وصف التعاويذ والرقى لطرد الروح المسببة للمرض. ولهذا فقد تنوّع طبّهم إلى معالجات ثلاث: العلاج بالنصح والعلاج بتشخيص المرض ووصف العقار النباتي أو المعدني أو الحيواني، ثم العلاج بالسحر والرقى والتعاويذ والطلّسمات.

وعلى الرغم من أن الأطباء كانوا تحت رقابة الدولة ـ كما أسلفنا ـ وكانوا يجزون ويعاقبون بموجب تشريع الملك حمورابي، فإن ممارسة الطب كانت مباحة للجميع ويستطيع ممارسة المهنة من يقدر عليها دون إلحاق الأذى بصحة الناس، ولذلك كان للمنجمين وذوي الخبرة مكانة في هذه الصناعة، كما كان العلاج بالسحر شرعياً لا يحاسب عليه الساحر ويعتبر تعاوناً لحماية الناس من الأمراض. واللافت أن صورة الأفعى كانت رمزاً للممارسة الطبية عند البابليين، فقد اعتقد هؤلاء أن الأفعى التي تغيّر جلدها الخارجي في كل عام يعود إليها بهذه العملية شبابها ونضارتها وقوتها ويطول بذلك عمرها، فاتخذوها رمزاً للبقاء وتجدد العافية التي يهدف إليها الطب دائماً. وقد عثر في مدينة لكش على لوحة تمثل حيّتين ملتفتين حول دورق وعلى خلفية الصورة دعاء بالشفاء. والجدير بالذكر أن أنظمة الأشوريين تكشف اهتماماً خاصاً بالأعضاء التناسلية وحمل المرأة، فإذا سببت امرأة ضرراً بخصية رجل عوقبت بقطع إصبع من أصابعها، وبقطع إصبعين إذا أتلفت خصيتين. كما كانوا يعاقبون من يسقط حمل امرأة وذلك بدفع غرامة نقدية من المعادن الثمينة وبخمسين جلدة على قفاه، أما إذا كان المسقط للحمل المرأة الحامل نفسها فإنها كانت تقتل بإدخال خازوق ينفذ في جسمها ثم تترك في العراء لتنهش لحمها الوحوش والطيور الجارحة.

ولم يكتشف في آثار بابل ما يدل دلالة قاطعة على أن البابليين أو الأشوريين

---

(١) كتاب التاريخ، ج١ فقرة ١٩٧.

قد مارسوا الختان، كما أن المؤرخين والآثاريين لم يذكروا هذه العملية، فاعتبر هذا الموقف منهم بمعنى عدم ممارسة القوم للعملية، ولكن اتصال شعوب بلاد النهرين بالمصريين واليهود الذين شهروا بهذه العملية يؤكد عكس ذلك.

إن شعوب هذه المنطقة لم تعرف تشريح جسم الإنسان كهدف لتثبيت أجزائه وما فيه من أعضاء، فالمعلومات هذه تكشفت لهم عن طريق تقطيع القرابين والأضحية ومقارنة تلك الأعضاء بما يقابلها عند الإنسان والتي عرفوها من مشاهداتهم للجراح البليغة في المعارك الحربية وغير ذلك، فعرفوا من ذلك شكل قلب الإنسان ومعدته وكبده وطحاله ومثانته وكليته وحالبيه، وعرفوا أجواف هذا القلب وميلانه، كما عرفوا أهمية وعمل كل عضو من الأعضاء. وقد اعتبروا الكبد من أهم أعضاء الجسم، وساعدهم على دراسة هذا العضو كبر حجمه ووضوح أقسامه واستقراره بلا حركة بشكل لا يتغير، فاعتبروه مصدراً للدم وصاروا يفحصون أكباد القرابين يستلهمون منها حالة المريض صاحب القربان وما تخبئه له الأيام من شفاء أو هلاك. ثم عرفوا أيضاً ملحقات الكبد مثل القناة الصفراء والأوردة الكبيرة، عرفوا ذلك على قدر علاقة هذه الملحقات بالعرافة وليس على أساس قيمتها التشريحية، وعن وظائف أعضاء الجسم اعتبروا القلب مصدر الذكاء والكبد مصدر العاطفة والمعدة مصدر المكر والبراعة، ثم جعلوا وظيفة العينين والأذنين لليقظة والتنبّه، وحكموا أن الرحم للحنان[1].

(١) انظر تاريخ الطب، سيجرست ص٤٨١.

الفصل الرابع

الطب في بلاد فارس

يبدأ تاريخ الفرس وحكمهم بعد سقوط دولة الكلدانيين (من حوالى ٦١٢ ـ ٥٣٩ ق.م)، فهذه المملكة التي وصلت إلى أوج مجدها وعظمتها سرعان ما انقضى عهدها بقيام مملكة أخرى هي دولة مادي وفارس. وكان ذلك مع ظهور الملك قورش الذي يسمّى أحشويرش الكبير بعد انتصاراته واتساع ملكه وملك ابنه قمبيز من بعده (ملك الاثنان ٥٣٩ ـ ٥٢٢ ق.م) حيث امتدّ سلطانه من شرقي إيران حتى بلاد النيل، ثم تبعه الملك داريوس الأول وقد بلغت مملكته آنذاك أوج القوة والعظمة واحتلّ بابل والسوسا وميديا، وسبق أن ظهر المصلح الديني زرواستر أو زراطشت (زرادشت في البهلوية)[1] الذي عاش في ميديا (بَلَخ) ونادى بمذهب فلسفي وأنشد مع قومه ترانيم الكاتاس المحفوظة في الأفستا، وهي تعتبر مجموعة الديانة المزدية وكانت مذهب الدولة الساسانية حتى الفتح العربي الإسلامي. وإلى جانب ذلك تطورت في فارس حضارة علمية اشتملت الصناعة الطبية واستمرت في التقدّم حتى عاصرت الحضارة في أثينا وقوس (قوص) وغيرها من الجزر اليونانية عامة، ولا بدّ أنها تأثّرت كثيراً بمجموعة الكتابات الأبقراطية المشهورة، وفي هذه الأثناء أذيع أن ملك فارس استدعى أبقراط وتلاميذه لمعاجلة الوباء والأمراض فأبى.

ولم تنشأ في بلاد فارس القديمة ثقافة طبية علمية إلّا بعد دخول الإسكندر المقدوني إليها حوالى سنة ٣٣٤ ق.م، وكان الطب في هذه البلاد قبل ذلك تقليدياً يعتمد على التجارب الشخصية وليس على قواعد ثابتة، ولكنه عموماً لم يكن خالياً

(١) توفي حوالى ٥٨٣ ق.م.

من بعض النفحات العلمية الشفائية. ويروي ابن فاتك أن الإسكندر عند دخوله فارس أحرق كتب المجوس إلّا كتب الطب والحكمة والنجوم، فقد عمد إلى نقلها إلى اللغة اليونانية وأرسلها إلى بلاده[1]. ويدل هذا العمل على أنّه بالرغم من أن اليونانيين كانوا قادة الفكر في العلوم الطبية عصر ذاك إلّا أنهم أخذوا عن الكتب الفارسية ما لم يعرفوه في علومهم وبحوثهم وما كان جديداً من العلوم التطبيقية عليهم، وهذا يعني أن بلاد فارس كانت تشتمل على قدر معين من المعارف الطبية العملية التي أفاد منها اليونانيون.

وفي عهد الملوك الأخمينيين[2] دخل فارس كثير من الأطباء اليونانيين أسرى كان منهم ديموسيدس الذي عالج دارا الثاني حين أصيب بخلع في كاهله وهو يترجل عن حصانه كما عالج أخته حتى شفيت من مرضها. واستقدم الأخمينيون أيضاً طبيب قوص الشهير ستسياس (٤٠٥ ـ ٣٥٩ ق.م) ليكون في بلاطهم، ويمكن اعتبار ستسياس أول من أدخل الطب اليوناني إلى بلاد فارس، ومن المحتمل أن تكون حملة الإسكندر المقدوني الكبير ذي القرنين الذي انتصر على مملكة الفرس في معركة إبسوس الحاسمة سنة ٣٣٣ ق.م قد أدخلت إلى هذه البلاد من العلوم والفنون اليونانية بقدر ما كانت أخذت من فارس قبلاً إلى اليونان، كما وصل فارس أطباء من مصر الفرعونية.

برز في فارس طبقة الزرادشتية التي اهتمت بدراسة الطب ولمعت في صناعته، وتكوّنت من هذه الطبقة فئات ثلاث من المعالجين، الأولى كانت تعالج بالأدعية والصلاة، والثانية بالأغذية والعقاقير، والثالثة كانت تستعمل الأدوات الدقيقة في إجراء العمليات الجراحية. وقد ذكر الفردوسي في الشاهنامة أن راتا «رؤذانه» والدة القائد الشهير رستم دستان (قيل إنه عاش في حدود سنة ٣٣٠ ق.م) قد وضعت وليدها «رستم» بعملية شق البطن (القيصرية) أجراها كاهن زرادشتي من الفئة التي تمارس الطب الجراحي. والظاهر أن أطباء الفرس الزرادشتيين كانوا يتهيّبون من إجراء العمليات الجراحية قروناً طويلة بعد عهد الأخمينيين، وفي الحقبة التي انتشرت فيها الديانة المزدكية (في النصف الأول من القرن السادس الميلادي)، فكان لا يسمح لطبيب القيام بالعلاج الجراحي على أتباع المذهب الزرادشتي ما لم ينجح في إجراء ثلاث عمليات على مريض من غير أتباع الديانة المزدكية.

---

(١) عيون الأنباء ص١٨.

(٢) سلالة فارسية أسّسها الملك قورش الثاني حوالي سنة ٥٥٠ق.م.

على أن الطب في بلاد فارس لم يعرف شكله العلمي إلاَّ في خلال حكم آل ساسان، أي في القرن الثالث الميلادي، وأبرز ما كان في حضارة ذلك العهد هو القسم المتعلق بمدرسة جنديسابور. ورغم أن هذه المدينة تعد حديثة العهد بالنسبة إلى تاريخ فارس القديم، إلاَّ أنها سرعان ما أخذت بزمام الثقافة في البلاد بسبب إنشاء مدرستها وما عرفته من علماء أفذاذ ذوي أفكار جديدة بالنسبة إلى ثقافة فارس القديمة.

بعد معركته التي كسبها مع الأمبراطور البيزنطي ڤالريان سنة ٢٦٠ م أسّس سابور الأول الساساني عاهل فارس مدينة في منطقة الأحواز ليوطن فيها الأسرى السومريين واليونانيين والنساطرة الذين اقتادهم معه، وأطلق على المدينة اسم جندَيْسابور (أي معسكر سابور)، وكان من بين هؤلاء الأسرى من هم على معرفة بالعلوم اليونانية النظرية والتطبيقية ممّا كانت بلاد فارس تفتقر إليه وتحتاج إلى من يعرفه. وعمرت المدينة واتسعت أرجاؤها وازدهرت وذاع صيتها وانتشرت في أصقاعها الحركات الفكرية واليدوية حتى أصبحت المدينة الأولى في فارس وقاعدة الحكم في عهد سابور الثاني ذي الأكتاف (٣١٠ ـ ٣٧٩ م)، وكان سابور هذا محباً ومعجباً ببراعة اليونانيين في علوم الطب، فلما مرض استقدم لمعالجته الطبيب اليوناني ثيودوسيوس، فكان دخول هذا الطبيب إلى جنديسابور أول الغيث في تقاطر العلماء والأطباء اليونانيين والسريان إلى بلاد فارس، حيث أكرم سابور ضيافتهم وأجزل عطاياهم وابتنى لهم كنيسة يمارسون فيها طقوسهم الدينية، وبنى لهم أيضاً بيمارستاناً على نمط مستشفياتهم في أنطاكية والإسكندرية.

عرف من أطباء هذه الحقبة باديغوراس وكان طبيباً يونانياً يعمل في بيمارستان جنديسابور بالإضافة إلى خدمته في بلاط آل ساسان، وقد ترك آثاراً طبية مكتوبة وصلت إلى بغداد في القرن الثاني الهجري ونقلت إلى العربية. كما وصل إلى العرب كتاب ثان من فارس ليوناني ثان يدعى أكسينوكريتز عاش في القرن الأول الميلادي، ووصل أيضاً كتاب في الأدوية المفردة لمؤلف فارسي اسمه قهلمان، ذكره ابن أبي أصيبعة بين الأطباء المعاصرين للأطباء الإسكندرانيين المتأخرين[1].

وفي عام ٤٣١ م أزيح نسطوريوس عن كرسي الرئاسة في القسطنطينية واعتبر مهرطقاً مارقاً، ونفي حتى وفاته سنة ٤٥١ م، إلاَّ أن التحريم ضد أتباعه واليعاقبة

---

(١) عيون الأنباء ص١٥٩.

(أتباع يعقوب السّروجي) لم يتم، ولكن منذ ذلك الحين كان التحرّك بين أتباع هذه الطوائف وغيرهم من السريان تحرّكاً ملموساً في النواحي العلمية والفلسفية حتى برزت نهضة عظيمة مع تأسيس المدارس والمعاهد الدينية والعلمية في مدن نصيبين والرّها (أوديسا) وغيرها، وبسبب الاضطهاد الديني المتفاقم على النساطرة هاجر الكثير منهم إلى بلاد فارس حاملين معهم الكتب السريانية والإغريقية في عموم فروع المعرفة.

ثم إنه في سنة ٥٢٩ م أمر الأمبراطور البيزنطي جوستنيان الأول بإغلاق أكاديمية أثينا، فهاجر علماء الإغريق كما فعل النساطرة من قبلهم واتجهوا إلى الشرق حيث التقى هؤلاء مع أولئك في جنديسابور، وكانوا يحملون معهم أيضاً ـ كما فعل النساطرة ـ الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، وكان من نتيجة هذا الاختلاط والتفاعل في الآراء والمذاهب الدينية والعلمية والفلسفية أن برز انفتاح وانتعاش تعايشيين حيث امتزجت علوم الغرب بعلوم الشرق، وانبعث حضارة مثمرة بلغت شأواً كبيراً في جوانب شتى وفي العلوم الطبية أيضاً.

وهكذا بحلول القرن الخامس الميلادي أصبحت جنديسابور موطناً لكثير من العلماء النساطرة الهاربين من اضطهاد كنيسة بيزنطية وأمبراطورها زينون، وهم يحملون معهم كتب أبقراط وجالينوس بترجماتها السريانية التي وضعها سرجيوس الرأسعيني. ووصلت جنديسابور ذروة مجدها العلمي في حكم كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) الذي احتل أنطاكية ولاذق وأخذ من كليهما المزيد من العلماء والأطباء ليضمهم إلى أمثالهم في جنديسابور، وكان من أشهرهم الطبيب جبرائيل درستاباذ الذي يقال إنه الجد الأعلى لأسرة البختيشوعيين.

كانت اللغة المستعملة والمدونة في الكتب في بيمارستان جنديسابور هي السريانية واليونانية بالإضافة إلى شيء من الفارسية. ثم دخلت بعد ذلك اللغة الفارسية في كثير من أسماء الأدوية والعقاقير الطبية. ولكن ممارسة صناعة الطب كانت تعتمد الأسلوب اليوناني الذي يتصف بنظرية الأخلاط والأمزجة، وطريق المعالجة بالمسهّلات والمقيّئات والأدوية المدرّة للبول والفصد والحجامة. كما مورست العلاجات الطبيعية بالتدليك والحمامات والرياضة والتغذية. أما في مجال الطب الجراحي فإن أطباء جنديسابور لم يتوسعوا في نطاق فنونه، وكانت أكثر عملياتهم الجراحية محصورة في الجراحات البسيطة كعمليات بتر الأعضاء وشق المثانة وقلع الأضراس وما يشابهها من العمليات.

ويذكر أن الخلفاء العباسيين كانوا يستفتون أطباء جنديسابور، لأن صلة العباسيين بفارس قوية منذ بداية خلافتهم، ولأن الدعوة لهم كانت في فارس، وأم الخليفة المأمون كانت فارسية، وكان الخلفاء يبذلون لأطباء جنديسابور جزيل العطاء، حتى يقال إن مقدار ما أعطى هارون الرشيد لجبرائيل بن بختيشوع بلغ ثلاثة ملايين من الدنانير.

وكان من خصائص أطباء جنديسابور أن يقصروا علمهم عليهم ولم تكن لديهم رغبة في أن يفضوا بعلمهم إلى غيرهم، ويستدل على ذلك بما لقيه حنين بن إسحق في بدء عهده بالتعليم، وهو الذي قام بترجمة المؤلفات الطبية اليونانية إلى العربية.

الفصل الخامس

الطب الهندي

كان أهل الهند ذوي حضارة غنية في فروع شتّى من العلوم والمعارف والصناعات والحيل، ولذلك فقد اعتبرهم أكثر المؤرخين في مصاف الشعوب الراقية كالصينيين والأتراك والفرس والإغريق والرومان والعرب، حتى إن المؤرخ اليعقوبي يعتبر في تاريخه أن الهند قد سبقوا غيرهم من أمم العالم المتحضرة في حقول علمية كثيرة، ومن بينها المهن الصحية والمداواة ومعرفة العلاج والسموم وصناعة الجراحة والكيمياء[1]. وقد اعتبرهم ابن صاعد الأندلسي في كتاب طبقات الأمم في طليعة الشعوب الثمانية التي ذكرها ولا سيما في حب الحكمة وطلب المعرفة والامتثال للعدالة وفهمهم للتاريخ السياسي والحضاري وتمسّكهم وسعيهم لرفع وتأصيل وحفظ الصحة العامة، وكذلك قوام شخصية الفرد كوحدة للعناية به جسماً وروحاً معاً، إضافة إلى أنهم كانوا ذوي فطنة وحب في الاستطلاع والملاحظة مع الاهتمام بالآداب الرفيعة وحفظ الجميل، إلاّ أنهم قصّروا كثيراً في تسجيل أخبارهم وتاريخهم ولم يحافظوا على أسانيد مخلفاتهم لتكون في حلّة قشيبة تليق بسمعتهم الطيبة، حتى أن النسبة الساحقة الغالبة من أسماء علمائهم وفلاسفتهم وأطبّائهم بقيت نكرة غير معروفة لدينا[2].

بعد تعاقب السنين انفتحت بلاد الهند والسند على مصراعيها مع دخول الفاتح الكبير ذي القرنين الإسكندر حوالى سنة ٣٣٠ ق.م، وحدث إذ ذاك تفاعل

(١) طبقات الأطباء، ابن صاعد ـ ص٩ ـ ١٥، ١٦، ٢٢.

(٢) الفهرست، ابن النديم ص٣٥٦، ٤٣٥ ـ ٤٤٩.

حضاري عميق وجذري بعيد الأثر ظلّ قروناً مديدة إلى أن قامت دولة الرومان البيزنطيين[1].

كان الطب من المعالم البارزة في حضارة الهند القديمة، وقد اكتشف من بقاياه مستشفى في سيلان يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، واكتشف مستشفى ثان يعود إلى القرن الثالث ق.م[2]. كما وجدت كتب بقيت تزود العالم بالعلوم الطبية حتى نهاية القرن الوسيط ـ وكان من بين هذه الكتب كتاب من تصنيف الطبيب الشهير «شاراك» الذي عاش في حدود القرن الثاني الميلادي. وقد ترجم هذا الكتاب في أيام حكم آل ساسان إلى اللغة الفهلوية ثم إلى العربية (في القرن الثامن الميلادي) نقله عبد الله بن علي[3]، وصار هذا الكتاب مصدراً من مصادر ابن ربن الطبري في كتابه «فردوس الحكمة» وأبي بكر الرازي في كتابه «الحاوي» وقد عرف مؤلفه باسم شرك الهندي عند الاثنين.

أما الكتاب الهندي الثاني الذي ترجم إلى العربية فهو كتاب سوسروتا، وهو اسم المؤلف الذي صنفه حوالى سنة ٣٠٠ ق.م، وهو أضخم كتاب هندي وصل إلى العرب. وقد ترجمه إلى الفهلوية طبيب هارون الرشيد الفيلسوف الهندي «منكه»، ثم نقل منها إلى العربية. كما ترجم «منكه» كتاب السموم لشاناق وهو كتاب هندي آخر له شهرة عريضة إذ أثار اهتمام الحكام ومن يعمل في خدمتهم بأمر السموم، وفي كتاب سوسروتا معلومات كثيرة عن الطب الهندي وما يستعمل من الأدوية والأدوات الجراحية في العلاج والسموم وكيفية صنع كل واحد منها والتداوي بالوسائل الطبيعية والحقن الشرجية واستعمال المقيئات والترعيف والفصد، وفيه فصل خاص برعاية الحامل ومداراة الماخض وعمليات الولادة العسرة، وفصل في تغذية الطفل وتربيته.

وتذكر لنا كتب التاريخ أن تاريخ وفلسفة الحضارة الطبية عامة في الهند خلفها الطبيب الجراح سسروتا (سوسروتا أو سشروتا) الذي دوّنها بعيد فتوح الإسكندر الكبير في الهند في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وهو الزمن الذي حدث فيه ما يسميه علماء التاريخ «الأعجوبة الإغريقية» التي أينعت معها العلوم الطبيعية والطبية. ثم إن البعض من هؤلاء المؤرخين يشير إلى وجود مدرستين متباينتين بخصوص صناعة الطب والمهن الصحية في الهند، فيذكرون:

---

(١) تاريخ تراث العلوم الطبية، ص٣٥

(٢) Segerist, Hist. Medc. P121 - 168 .

(٣) انظر عيون الأنباء ص٤٧٣

- مدرسة في بيناريس في شرقي البلاد، ورائدها الطبيب المعالج بالأدوية والأغذية وهو أتريا.
- مدرسة في تكسيلا في غربي الهند، الواقعة على نهر جهيلام، ورائدها الجراح المذكور آنفاً سشروتا المعروف بموسوعته الذائعة الصيت والتي تعتبر من أهم مآثر الحضارة الطبية الهندية الكلاسيكية القديمة، وقد استمر استعمالها واللجوء إليها في ممارسة مهنة الطب والصحّة قروناً عديدة.

لم تكن المعلومات الهندية عن التشريح قائمة على حقائق ثابتة ولكنها كانت افتراضية، فقد ذكر الأطباء الهنود أن الهيكل العظمي مركب من ثلاثمائة وستين عظماً وخمسمائة عضلة وثلاثمائة وريد وثمانين رباطاً، وبالطبع هي أرقام تخالف التشريح المعروف، وهذا دليل على أنهم لم يمارسوا التشريح لمعرفة مركبات الجسم الإنساني صحيح المعرفة. وفي الفسلجة كانت لهم نظرية تشبه نظرية الأخلاط عند اليونانيين، إلاّ أن تلك النظرية كانت تستند إلى عوامل ثلاثة (أخلاط) هي البلغم والصفراء والأرياح، وافترضوا لذلك أنها في حالة متوازنة في الجسم، فإذا زاد أحدها أو قلّ حصل المرض وإذا تعادلت حصلت العافية. وافترضوا أيضاً أن العناصر الجسمانية التي تنتهي إليها الأخلاط ستة هي الدم واللحم والعضل والنخاع والبلغم والمني.

لقد عرف الهنود القدماء الكثير من الأمراض ودرسوا خصائصها ومراحلها السريرية ومنها حمى الملاريا وعلاقتها بالبعوض، ووباء الطاعون وعلاقته بالجرذان، ومرض الديابيطس الذي أسموه بول عسل النحل. ويذكر أن أطباءهم كانوا يفحصون بول المريض ليتعرفوا من قدره ولونه وقوامه وحالة ترسّبه ورائحته وطعمه على تشخيص المرض. كما تدل بعض الإشارات في ما أثر عنهم أنهم استعملوا التلقيح في معالجة الجدري. واستعملوا أيضاً في عمليات التخدير القنب الهندي (الحشيشة) والهياسيامس وست الحسن (البلادونا). كما مارسوا عمليات التجميل وترقيع الجلد، وعرفوا العملية القيصرية (شق البطن) عند الولادة العسرة، ورتق الفتق واستخراج الحصوات من الإحليل والمثانة، وقدح العين، واستعملوا لتوقيف نزف الدم في هذه العمليات الضغط والدهون الحارة والكيّ أحياناً. وقد كان لديهم ما يزيد على المائة آلة دقيقة لإجراء العمليات مع أنهم لم يعرفوا خيوط الجراحة، ولا يعرف بالضبط كيف كانوا يعالجون الجراح بعد إجراء العملية، والمرجح أنهم كانوا يستعملون الرفائد والأشرطة[1].

---

(١) مختصر تاريخ الطب العربي، د. السامرائي ص٦٨ - ٦٩ ج١.

الفصل السادس

الطب في الصين والشرق الأقصى

منذ الألف الثاني قبل الميلاد كان هناك في بلاد الصين حضارة مزدهرة، أما مذهب وفلسفة الثاو فقد تأسّس مع ظهور لاو تزو حوالى ٦٠٤ ـ ٥١٠ ق.م، وبعد ذلك برز مذهب وفلسفة كونفو شيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م) الذي دعا إلى مكارم الأخلاق والداعي إلى تكوين حياة عائلية مثالية وأدبية كان لها الأثر الكبير في رفع المستوى الاجتماعي والفكري، علماً بأن صناعة الطب عصر ذاك كانت بدائية بسيطة. وفي القرن الثالث قبل الميلاد ظهرت مجموعة من الكتب والتواريخ، كان بعضها في الطب والمعالجة، كتبت على ألواح البردى والقصب والخيزران، وكان ذلك في عصر الملك هوانج تي، ثم جاء الملك تشي هوانج تي الذي عرف بالملك الأصفر، وهو الذي وحد البلاد الصينية وأنهى عصر الإقطاع وحكم الطوائف فيها.

في القرن الثاني بعد الميلاد برز أعظم أطباء الصين تشانج تشونج تشنج، وهو الزمن الذي شهر فيه الطبيب جالينوس الإغريقي.(١٣٠ ـ ٢٠١ م)، ومثله اشتهر الطبيب الصيني بكتاباته الطبية والفلسفية، وكان أول من نقل العلوم الطبية إلى اليابان، فنالت كتاباته شهرة واسعة أيضاً في بلاد الشمس المشرقة. ثم ظهر في القرن الثالث الميلادي الجراح الصيني هوا تشو الذي كتب حول وظائف الأعضاء والتشريح وعلم الأمراض والعلاج، كما كتب عن العقاقير المخدرة خصوصاً في أثناء إجراء العمليات الجراحية. ثم تلاه الطبيب الجراح هوانج فو الذي كتب عن طريقة الوخز بالإبر لمعالجة المرض وتخفيف الألم، وكتب أيضاً عن النبض وأنواعه واضعاً أساساً للصناعة الطبية عموماً. في القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد بلغت أقطار الشرق الأقصى من الصين واليابان وكوريا عصرها الذهبي في العلوم ومفردات

الطب والفنون بما في ذلك الكتابة وازدياد عمران الهياكل والقصور المشيدة والمزدانة على أساس معماري رفيع. وكان الطبيب تاو هونج تشنج قد تقلد قيادة مهمة الطب والصحة في الصين، فانتشر معه استعمال الإبر الطبية والمعالجة بالوخز والكيّ، واهتم تاو أيضاً بالطب الداخلي والتشريح وأمراض الأطفال والنساء والولادة والحمية والغذاء والعقاقير.

في هذا الوقت بدأت الديانة البوذية تنتشر في الصين واليابان وظهر أطباء مشاهير كان من بينهم شياو يوان فانج الذي وضع دائرة المعارف الطبية، وكان في الوقت الذي واكب فجر الإسلام. وعلاقة المسلمين بالصين في ما يختص العلوم الطبية ذكرها ابن النديم في الفهرست كمثال على التفاعل الحضاري العلمي الذي استمرّ بين المسلمين وحضارة الصين في الزمن الغابر. وما أورده ابن النديم يختص بذكر جالينوس العرب المسلمين الطبيب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (ت٣١٣ هـ). يروي ابن النديم أنه جاء إلى الرازي في بغداد طبيب صيني يطلب إليه راجياً أن يتتلمذ على يده مدة سنة على الأقل وذلك لاكتساب الخبرة والمران، وما كان من الطبيب المسلم إلّا أن قبل الرجاء عن طيب خاطر، وهكذا بدأ الطبيب الصيني يتعلم اللغة العربية ويدرس أصولها، حتى أنه قام بنسخ ونقل وترجمة الكثير من الكتب والمقالات الطبية من العربية إلى الصينية مدة حول كامل. وقبل أن يغادر الطبيب الصيني طلب إلى أستاذه الرازي أن يساعده على النقل والإملاء واستنسخ ما يلزمه بشكل مختصر جداً قسماً لا بأس به من كتب جالينوس الستة عشر المعربة وذلك كي يحملها معه إلى بلاده في الشرق الأقصى، وكان أن الحبر الذي كتب به الخط بيده كان مزيجاً من الليق يشبه هيئة ألواح الأختام وبصفة خاصة دهن الشحوم لأنه يحتفظ برونقه لسنين عديدة[1].

كما أنّ أبا الريحان البيروني الخوارزمي (ت٤٤٣ هـ) وصف في كتابيه «الجماهر في معرفة الجواهر» و «الصيدنة في الطبّ» جواهر ومفردات أدوية كثيرة كانت مجلوبة ومستعملة من بلاد الصين والشرق الأدنى للمعالجة وشفاء الأمراض مع بعض الوصفات الطبية لهذه المفردات الغذائية والدوائية والتي بلغت حداً كبيراً في القرن السادس الهجري نتيجة أبحاث وأعمال عديدة مثل كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» للغافقي، وتلاه كتاب آخر في الموضوع نفسه هو «جامع مفردات الأدوية والأغذية» لابن البيطار.

---

(١) انظر الفهرست ص٤٩٠ ـ ٤٩٣، ٥٠٤ ـ ٥٠٧.

وقد استمرّ التبادل التجاري والطبي بين المسلمين والشرق الأقصى في القرنين الثامن والتاسع الهجريين حتى إبان اجتياح المغول لمناطق أواسط آسيا والشرق الأدنى، وبلغ حداً عظيماً رفيعاً في القرن العاشر الهجري الذي ظهر في خلاله الطبيب الصيدلاني لي تشين تشان، وهو الذي جمع مفردات طبية وأغذية متنوعة بلغ عددها نحو ألف وتسعمائة عقار، ومعظمها في النبات، وكانت تستعمل في المعالجة والاستشفاء في بلاد الصين والشرق الأقصى عموماً، وكان البعض منها مجلوباً من بلاد الإسلام[1].

(١) الصيدنة والمواد الطبية للبيروني والغافقي، د. حمارنة، ص٣ ـ ١٢.

الفصل السابع

الطب الروماني

خلف الرومان أسلافهم اليونانيين إلاّ أنهم لم يستطيعوا انتزاع الزعامة العلمية والطبية منهم، فقد ظلّت روما وما يتبعها طيلة القرون الستة الأولى بعد حكم اليونانيين من دون طبيب يعمل على الأسس العلمية في هذه الصناعة، ولذلك فقد كانوا يعتمدون على التعاويذ والخبرات العادية الشخصية التي تصل إليهم على لسان الأطباء الوافدين إليهم من الخارج. وقد كان من علامات هذا التخلّف أن كان بعض الرومان من يفضل الاحتفاظ بالأفاعي في بيوتهم تيمُّناً بما كان يفعله سدنة معابد السقلبيون في العصور اليونانية القديمة من استقدام الأطباء لفحص المرضى في البيوت. وكان أسياد روما يعتبرون الطبيب مواطناً من الدرجة الثانية، والبعض منهم كان يأمر خدمه بتعلّم هذه الصناعة لخدمته مثلما يؤدي المملوك أعمالاً أخرى في بيت سيده. ولهذا فقد كان أطباء الرومان من مرتبة وضيعة، والجيدون منهم فقط كانوا من اليونانيين الذين وفدوا إلى روما.

وبالرغم من هذه الحالة التي أحاطت بالأطباء في هذا العهد وعدم التفات حكام روما إلى الشؤون الطبية، فقد تمتعت روما والمدن الكبيرة بدرجة لا بأس بها من وسائل الأمن الصحي والطب الاجتماعي، فقد عرفت هذه المدن التدفئة المركزية في البيوت، وكان هذا منذ مائة عام قبل الميلاد. وكانت تنتشر فيها أفضل وسائل نقل المياه النظيفة إلى بيوت السكن والأمكنة العامة، وفيها حجار للمياه القذرة والأوساخ، واستحدث فيها كذلك محلات لاحتواء نساء الدعارة خوف الأمراض المعدية.

لم يتغير مركز الطبيب الروماني عمّا هو عليه من المكانة والندرة إلاّ في عهد

يـوليوس قيصر (١٠٠ ـ ٤٠ ق.م)، ولعـل ذلك عـائـد إلى مشـاهـدة هـذا الحـاكم مكتبات ومعاهد الإسكندرية عندما كان إلى جوار كليوباترة، وعـرف ضرورة تأمـين الأطباء الجراحـين لأفراد جيشـه، ولذلـك منح الـرعايـة الخاصـة لكل طبيب أجنبي يمارس الصنعة في بلاده، وأسّس مراكـز للمعالجة بالمجـان. وقد اتبـع حكام رومـا اللاحقون سبيل يوليوس، فضموا إلى رعاياهم الكثير من الأطباء اليونانيـين المعروفين بالبراعة والإتقان وخصوصاً من شهر منهم في إجراء العمليات الجراحية. وهكذا نبغ أطباء في تاريـخ الطب عمـوماً ممّن نسبت إليهم أعـمال مبتكرة في الـطب الجراحي، نذكر منها عملية الكاتاراكت وذات الدم وشق القصبة الهوائية والعملية القيصرية.

كان الرومـان حديثي عهـد بالـطب والعلوم، فلم يلتفتوا بـاهتمام إلى مـدرسة الإسكندرية ومكتبتها ومعاهدها ولم يساعدوا من يعمـل فيها، ولعـل ذلك عـائد إلى أنهم أرادوا إبـراز روما كعـاصمة تليق بـدولتهم الشاسعـة، وهذا مـا أدّى إلى تأخّـر الحركة العلمية في الإسكندرية وقلة الأطباء فيها. ثم برزت أخبار هذه المـدينة عـلى الصعيد العلمي مع ظهور جالينوس. وفي صدر القـرن الثالث الميلادي ـ بعد وفـاة جالينوس ـ أصـاب المدرسـة خمول في التـدريس والبحث والتأليف من جـرّاء النزاع العقـائدي بـين النصارى والعلماء واليـونانيـين الوثنيـين العريقـين في علوم الـطبيعـة والطب[1]، فساد حكـم الأساقفة روحياً ومدنيـاً على النـاس، ولم يسمع عن معـاهد الإسكندرية إلاّ بعد نهبها سنـة ٣٦٦ م، وبعد ذلـك آل الحكم في الإسكندريـة إلى الأباطرة البيزنطيين.

إن الطب الروماني والطب البيزنطي يشكلان امتداداً للطب اليوناني من نـواح كثيرة، أو لنقل تتمـة للعلوم التي بدأ بـاستنباطهـا فيثاغـورس وأبقراط وهـيروفيليس وإيـراستراتوس وأمثالهم من عصور ما قبـل الرومـان، وهو من حيث الأسـاس طب يوناني باللغة اليونانية. ومن ناحية ثانية فإن الطب الروماني والبيزنطي كان أكثر تنوّعاً من حيث الاختصاصات التي مارسها اليونان. كما لم يصل إلينـا من أطباء هؤلاء إلاّ كتب قليلة كانت في مجموعها من أعمال أبقـراط دون سواه من الأطبـاء، بينما وصـل إلينا من كتب جالينوس (وهو روماني بالتبعية) ما يـزيد عـلى المائـة والأربعين كتـاباً، هذه الكتب نقلت كلها إلى اللغة العربية وصارت كمثيلاتها من الكتب العـربية التي ساهمت في نشر المعارف الطبية في كل العالم الإسلامي.

---

(١) مختصر تاريخ الطب العربي. د. السامرائي ج١ ص١٥١.

ومن أشهر أطباء روما الذين عرفهم الأطباء العرب وقرأوا كتبهم واستفادوا منهم، نذكر:

* **أريتس الكبودي**: وهو طبيب يوناني الأصل عاش في القرن الثالث ـ الثاني الميلادي، وقد اعتبره البعض الطبيب السريري الثاني بعد أبقراط. لم تصل إلينا مؤلفاته الطبية ولكن وصلت بعض الفقرات منها في كتب العصر البيزنطي المتأخر، ومنها نعلم أن هذا الطبيب كان أول من فرّق بين الشلل بإصابة في الدماغ والشلل بإصابة في العمود الفقري، وكان له معرفة بالأمراض العقلية وأنواعها، كما وصف أيضاً مرض الكزاز وذات الرئة وذات المضاعفة بالخراج وداء الفيل والديابيطس.

* **أسقليبيادس**: وكان طبيباً يوناني الأصل، ولد في بتيته بآسيا الصغرى حوالى سنة ١٢٤ ق.م قبل حكم الرومان. يعتبر هذا الطبيب أول من جمع بين أعراض الالتهابات الأربعة: الألم، التورم، الحرارة، والاحمرار، وكان أول من عالج من الأمراض العقلية بوساطة الموسيقى والمهدىء والرياضة، وأول من شقّ القصبة الهوائية من الرقبة لتسهيل عملية التنفس في حال الاختناق عند إجراء هذه العملية.

* **ديوسقريدس**: وقد ولد قبل جالينوس بثلث قرن تقريباً، كان من أعظم الأطباء الذين مارسوا الصناعة الطبية في روما في المئة السنة الأولى بعد الميلاد، وأشهر طبيب عند العلماء العرب في علم الحشائش والمفردات الطبية، أما اسمه فهو مركب من كلمتين: ديسقوري معناه باليونانية أشجار، ودوس معناه الله، أي أن الله هو ملهمه لمعرفة علم الحشائش، وقد أطلق عليه أيضاً لقب صاحب النفس الزكية والحكيم الحشائشي، وكان قومه يسمونه أزدش نياديش، وكان طبيب الأمبراطور نيرون وعمل جراحاً في جيشه. والجدير بالذكر أن كتابه الذي وضعه عن علم الحشائش (هيولى الطب) تضمنْ ما يزيد على التسعمائة وخمسين عقاراً وصف منه مصادر هذه العقاقير وخصائصها الدوائية والطبيعية. وهو أوّل من عرف فعل الأفيون في إيقاف الألم وتسكين السعال، وعرف أيضاً فضل السرخس في قتل الدودة الشريطية. قال فيه جالينوس: «وتصفحت أربعة عشر كتاباً في الأدوية المفردة لأقوام شتى فما رأيت فيها أتم من كتاب ديوسقريدوس»[1]. وقال يحيى النحوي عنه: «هو صاحب النفس الزكية، النافع للناس المنفعة الجليلة، المتعوب،

(١) عيون الأنباء ص٥٩، وتاريخ الحكماء ص١٨٢.

المنصوب، السائح في البلاد، المقتبس لعلوم الأدوية المفردة من البراري والجزائر والبحار، والمصدر لها المعدد لمنفعتها».

* **سورانس الأفسي**: من مدينة أفسس، درس في مدرسة الإسكندرية، ومارس الطب في روما في حدود سنة ١٠٠ م. كان له بعض الابتكارات في صناعة الطب، ولعله عاصر في بعض عمره ديسقوريدس وأبقراط من حيث أعماله الكثيرة في الطب. وكانت ابتكاراته الطبية خصوصاً في الأمراض النسائية والتوليد ولكنها لم تصل إلينا إلاّ ضمن كتب أوريباسيوس وإيتوس الآمدي وبولس الأجيني في فقرات وصلت إلى الأطباء العرب عبر هؤلاء الأطباء فترجموها إلى لغتهم. وكان من أعظم ما ساهم به في صناعة الطب كتابه الخاص في أمراض النساء الذي وضعه للقوابل وأدخل عليه معلومات وفيرة عن التوليد والأمراض النسائية ممّا يدل على المستوى الجيد الذي كان يتمتع به هذا الفرع الطبي في ذلك العهد. ولعل سورانس كان أول طبيب أستعمل آلة ثقب جمجمة الجنين وتفتيت عظامها داخل رحم أمه وذلك في أثناء إجراء عملية الولادة العسرة، كما استعمل آلة خطاف التوليد ومسبر الرحم والناظور المهبلي في الفحوص النسائية. وقد ورد ذكر هذا الطبيب في كتاب الحاوي للرازي في موضوع عضة الكلب الكَلِب (٥/٤٢٢ ـ ٤٣٧).

* **روفس الأفسي**: وقد درس الطب في الإسكندرية أيضاً أيام الملك تراجان الروماني. اعتبره جالينوس بعد أبقراط في صناعة الطب وكان يأخذ عنه كثيراً في مواضيع مؤلفاته. وقد اعتمد العرب على آرائه ورجعوا إلى تواليفه التي نقل معظمها إلى اللغة العربية. كان روفس أول من وصف أغشية العين وعدستها البلّورية والتصالب البصري، ووصف أنبوبي الرحم وورم النسيج المخاطي، وذكر الطاعون الدملي وداء الملوك، واشتغل هذا الطبيب أيضاً بأمراض النساء والجراحة العامة فاستعمل الربط والكيّ ومخثرات الدم لوقف النزيف، وصنف في جميع هذه المواضيع حوالى ستين كتاباً نقل أكثرها إلى اللغة العربيّة من قبل مترجمي بيت الحكمة في العصر العباسي.

* **أركاجينس**: وهو ابن الطبيب السوري فيلوبس الذي كان من أشهر أطباء البلاد السورية عهدئذ. كان أركاجينس في زمن تراجان، اعتبره جالينوس من خيرة الأطباء السالفين وأخذ عنه في كتبه. مهر في الطب الجراحي فطوّر عملية بتر الأطراف وعالج سرطان الثدي والرحم بالجراحة، واستعمل الناظور في فحص المهبل، وذكر أنه كان أول من دوّن مواصفات النبض من حيث امتلاؤه وقوته وحجمه وانتظامه.

* **أنطليوس**: وهو من أطباء الرومان في القرن الثاني الميلادي. كان مشهوراً في إجراء العمليات الجراحية وكتب عن الفصد والحجامة ووقف النزف وترميم الناسور وتوسيع القلفة والمبال الأسفل، وذات الدم وعمليات تجميل الوجه. اعتبره المؤرخون من أطباء مدرسة الإسكندرية وترجمت أعماله إلى العربية، وقد ذكر الرازي في كتابه الحاوي بعضاً من علاجاته وأعماله في قطع الأصابع الزائدة وبتر الذكر المصاب بمرض خبيث، وعن علاج سرطان الثدي ومعالجة خراج الثدي عند الذكور.

* **جالينوس**: وقد أسلفنا ذكره في فصل طب الإغريق. ويجيء اسمه بعد أبقراط في سلسلة عظماء الطب في العصرين اليوناني والروماني. كان غزير الإنتاج في أنواع صناعة الطب المختلفة. استقى معلوماته الطبية الأولى من تراث اليونان القديم وعن الإسكندرانيين الذين سبقوه وزاد عليها ما عنده من معلومات شخصية واكتشافات تجريبية من بحوثه على القرود والخنازير والإنسان.

الفصل الثامن

الطب البيزنطي

كان الأطباء البيزنطيون في القرنين الخامس والسادس الميلاديين تلاميذ مدرسة الإسكندرية أو على الأرجح من أتباع آرائها ولو كان البعض منهم بعيداً عنها جغرافياً أو زمنياً. ومن ترجمة أحد هؤلاء الأطباء وهو سرجيوس الراسعيني (ت ٥٣٨م) نستنتج الكثير من المعلومات التاريخية عن الطب والأطباء في ذلك العهد، ونستنتج أيضاً أن مدرسة الإسكندرية - في أواخر أيامها - كان لها تاريخ حافل مع قرب بزوغ فجر الإسلام، وأن الكتب والمناهج التي اتبعتها في التدريس هي نفسها التي أقرت وعمل بها في مدارس سورية ومدرسة جنديسابور في فارس، وكانت بالتالي صلة الوصل بين طب اليونان والطب العربي بعد ذلك.

من أطباء العصر البيزنطي نذكر شمعون الراهب المعروف باسم طيبويه، وطيماوس الطرسوسي، ومغنس الإسكندراني، وديوسقريدس الكحّال، وأورباسيوس، وأهرن بن أعين، وفيغوريوس، وسرجيوس الراسعيني، وأتيوس الأمدي، وبولس الأجيني، وأبا موسى عيسى بن قسطنطين، وقد هجر هؤلاء الأطباء موطنهم وتفرقوا في مناطق آسيا الصغرى وشمالي العراق وسورية، وقد كان لأكثر هؤلاء مصنفات في الطب ترجم معظمها إلى اللغة العربية والبعض إلى السريانية، ولولا هذه التراجم لضاع هذا التراث بفعل النزاع الذي حصل بين أتباع النصرانية والوثنيين، والتعصب المذهبي الذي حارب أفكار الوثنيين وكتبهم ممّا أدّى إلى ضياعها. وقد سهلت هذه الترجمات بعد ذلك لطلاب العلم من السريان والمسلمين الاطلاع على تراث اليونان الطبي القديم والمخضرم وأشارت إلى طريقة عملهم في هذه الصناعة الشريفة.

وقد أثار اهتمام العلماء العرب بتلك الكتب قربهم من عهد مؤلفيها في بيزنطية واتصالهم المباشر مع البعض منهم في المدن السورية وآسيا الصغرى والإسكندرية. ولا بدّ أن هذه الصلة كانت أحد العوامل التي سهلت رواج هذه الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية، فصارت الكتب الوحيدة المتداولة بين المتطببين والمتعلمين في الردح الأول من وصول الطب اليوناني إلى الديار المسلمة. ونظراً إلى أنها ترجمت إلى لغة الأعراب فقد كانت نافعة من حيث التطبيق واعتبرت كتب الطب الأولى والمراجع التي اعتمدها المؤلفون العرب في وقت لاحق.

وهذه لمحة موجزة عن أشهر أطباء العهد البيزنطي الذي أدركه الإسلام وأخذ منه تقاليد الأمور في الحكم وفي العلوم[1].

* **أورباسيوس**: تعلم الطب في برجامون واشتهر بكتاباته عن الأمراض الغذائية، وأمراض الأطفال، وتشريح الأعضاء الباطنية. صنّف مؤلفاته من كتب الأقدمين فأحسن جمعها وتصنيفها وعمل منها موسوعة في سبعين مقالة اختصرها لابنه أسطاثيوس ليفهم مواضيعها، وله كتاب آخر في العقاقير، وينسب إليه كناش عرف باسمه، وله كتاب «من لا يحضره الطبيب». وقد ذكر الرازي أكثر عقاقير أورباسيوس في أثناء كلامه على الفالج والربو ورطوبات الرئة ورياح المعدة وقروح الأمعاء وكثرة التبوّل في معالجة العنّة والورم الحار في المعدة وحروق النار[2].

* **فيلغريوس**: طبيب يوناني عاش في القرن الرابع ـ الخامس الميلادي. له آثار جيدة في الطب الباطني، وهو أول طبيب كشف عن صلة الحمى المتناوبة وضخم الرحم. ترك في الطب مصنفات شهيرة عرف منها تسعة عشر كتاباً كانت من مصادر الرازي في الحاوي.

* **يحيى النحوي أبو سعيد**: كان من أشهر الأطباء الإسكندرانيين المتأخرين وأكثرهم تصنيفاً. أصله من مصر، تاق إلى العلم بعد أن بلغ الأربعين من عمره فالتحق بدار العلم في الإسكندرية ودرس فيها النحو وأتقنه ومن هنا جاءت تسميته، ثم درس اللاهوت وأصبح أسقفاً في إحدى كنائس الإسكندرية، ثم إنه درس الطب والفلسفة إلّا أنه شُهر فيلسوفاً أكثر منه طبيباً، وكان في مرتبة أدنى في مهنة الطب من باقي زملائه الذين شاركهم في تأسيس مدرسة الطب الجديدة في

---

(١) مختصر تاريخ الطب العربي، ج١ ص٢٠٨.
(٢) انظر الحاوي، الأمراض السالفة الذكر.

الإسكندرية، ومع ذلك فقد أضحى طبيباً مشهوراً ممّن رتّب مجاميع جالينـوس الستة عشر، كما صار أحد المدرسين في المدرسـة المذكـورة. عمل أكـثر الوقت في تفسيـر كتب جالينوس وترتيبها. وقـد أحاطت بشخصيتـه بعض الأخبار الخيـالية، منهـا أنه أدرك ظهور الإسلام وأنه اتصل بعمرو بن العاص حين دخل مصر فاتحاً[1].

كانت آثار يحيـى النحوي الطبية اختصارات وتفـاسير لكتب جـالينوس إلاَّ في مقالة واحدة وضعها هو في النبض، ووضع كتاباً آخر في تاريـخ الأطباء قـديماً أخـذ عنه اللاحقون ممّن أرّخوا لأطباء اليونان الأولين. وقد كانت آثاره هـذه معيناً أسـاسياً في تاريخ الطب ومصدراً من المصادر التي اعتمدهـا العلماء العرب في معـرفة الـطب الإغريقي.

* **سرجيوس الراسعيني**: ويسمّى سـرجيس أيضاً. ولد في رأس العين شمالي جزيرة ما بين النهرين ولذلك لقب بالراسعيني. التحق بمدرسـة الإسكندريـة ودرس الـطب وتعلّم الصناعـة الطبيـة، كمـا اتصـل برجـال الـدين اليعـاقبـة فيهـا وأخـذ بمذهبهم، ولما عـاد إلى رأس العين نصب قسيسـاً فيها وصـار رئيس أطبائهـا. وفيها عمل في نقل كتب الطب اليونانية إلى اللغة السريانية، فقام بـترجمة كتب جـالينوس ومجاميعه التي وضعها الإسكندرانيـون. هذه الترجمات حملهـا النساطـرة فيما بعـد إلى فارس بعد هجرتهم منها وأدخلوها إلى مدرسة جنديسابور كـما أسلفنا في حـديثنا عن طب بلاد فارس.

* **أثيوس الآمدي**: طبيب يوناني من مواليد آمد بـإقليم ديار بكـر. عمل في خدمة الأمبراطور جستانيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) وعلى يده اعتنق النصرانية، ويعد آخر طبيب يوناني اعتنق هذه الديانة. وضـع أثيوس المـوسوعـة الطبيـة المعروفـة في خمسة عشر كتاباً باللغة اليونانية، وقد استنـد فيها إلى كتب روفس وسـورانس وجالينـوس فيما يتعلق بالأعمال الجراحية والأمراض النسائية وغيرها، وقـد أتى في هذه المـوسوعـة على ذكر الكثير من العمليات الجراحية كاستئصال اللوزتين وعملية البـواسير وبعض عمليـات العين وذات الـدم، وفيها عـرض باستفـاضة لأورام الغـدة الـدرقيـة وداء الكلب، وأهم مـا في هذه المـوسوعـة ما جـاء في الجزء السـادس المتعلق بالأمـراض النسـائية والتـوليد والـذي استفاد منـه الطبيبـان العربيـان الرازي والـزهـراوي فيـما بعد[2].

---

(١) تاريخ الحكماء، القفطي، ص٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) مختصر تاريخ الطب ج١ ص٢١٦.

* **ألكسندر التوالي**: عاش بين سنة ٥٢٥ و ٦٠٥ م، استقر في روما بعد تنقله في الأقطار الشرقية. أحدث ابتكارات عديدة في صناعة الطب. داوى من السل ـ كجالينوس ـ بعرض المسلولين للهواء الطلق وتغذيتهم جيّداً وإرسالهم في رحلات بحرية على متن السفن. له من الكتب: كناش في أمراض شتى، كتاب الحيات والديدان، كتاب المعدة، الماليخوليا، كتاب البول، كتاب علل العين، كتاب البرسام.

* **أهرن بن أعين**: الطبيب الفيلسوف ورجل الدين المشهور بلقب القسّ. ذكر المؤرخون أنه كان من تلامذة مدرسة الإسكندرية وكان في زمن قريب من الفتح الإسلامي لمصر، ويُقال إنه ربما أدرك خلفاء المسلمين الأول. عاش في سورية أكثر سني عمره، وصنّف في سنة ٦٠٠ م كناشاً باللغة السريانية حوى وصفاً مسهباً لمرض الجدري، وهو بهذا الكناش كان من أوائل من عرض لهذا المرض وكتب عنه. وقد قام جاسيوس فيما بعد بترجمة الكناش إلى السريانية، ثم ترجمه ماسرجويه إلى العربية بعد أن زاد عليه مقالتين من عنده، وقد شهرت هذه الترجمة الأخيرة في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي (ت ٧١٩ م)، ولعل هذه الترجمة من أوائل الترجمات التي نقلت الطب اليوناني إلى لغة الأعراب.

* **بولس الأجيني**: الملقب بالقوابلي عند الأطباء العرب لأنه كان جراحاً قديراً في أمراض النساء والتوليد. وهو يوناني الأصل من جزيرة أجينا غربي أثينا، عاصر صدر الإسلام ويقال إنه أدرك بعض أطباء المسلمين. له كناش يسمّى «كناش الثريا» ويعد موسوعة في الطب يقع في سبعة أجزاء أخذ فيه الكثير عن جالينوس وأورباسيوس وأثيوس الآمدي وبعض أطباء اليونان القدماء. له أيضاً كتاب في تدبير الحبالى، وكتاب تهزيل السمان، وكتاب علل النساء التي ذكرها الرازي في الحاوي في مواضع عدّة.

•

وقد كان بولس القوابلي هذا خاتمة الأطباء البيزنطيين المشهورين الذين يؤلفون حلقة الأطباء المؤلفين في العصر اليوناني الروماني بدءاً بالقرن الخامس قبل الميلاد إلى منتصف القرن السابع الميلادي، تاركين أثراً عميقاً هاماً في تطور الصناعة الطبية. هذه الآثار التي ساهم الأطباء المسلمون في بحثها وترجمتها وتنسيقها، فاكتست كتابتهم حللاً قشيبة رائعة من ترجمات وتواليف سبقت في شمولها أوج الحضارات القديمة وفاقت سواها بجمعها بين العلم والدين والعقل والإيمان، وتحوّل ما عُرف عنه أنه «الأعجوبة الإغريقية» إلى ما يمكن اعتباره «العصر الإسلامي العربي» الزاهر

في العلوم والفلسفة والشرائع والفنون والمعارف الطبية. فالنصوص العربية والوثائق الأصلية والمخطوطات الهامّة تلقي ضوءاً ساطعاً على مآثر ومعطيات العصور السالفة وخصوصاً ما يتعلق بعلوم الأحياء ومهنة الطب وحفظ الصحّة، ممّا ليس له نظير في حضارات أخرى سابقة حتى عصور النهضة الأوروبية[1].

(١) تاريخ تراث العلوم الطبية ص٦٨.

الفَصْل التَّاسع

الطب العربي قبل الإسلام

إنّ العرب الذين أسّسوا مدنيات قديمة راقية وأنشأوا حضارة باهرة لا شكّ أنهم عرفوا الطبّ وأنه كان راقياً تماماً مثل حضارتهم التي أُثرت عنهم، لكن هذا الأثر لم يصل إلينا شيء من أخباره، وكل ما وصل إلينا عن الطب العربي قبل الإسلام هو طب عرب الجاهلية. ويرى المؤرخون المنصفون أنّ كلمة الجاهلية التي أطلقت على زمن العرب قبل الإسلام ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم، ولكن من الجهل الذي هو الاستخفاف والتعيير والغضب والتجبّر والمفاخرة بالأنساب، وقد استدلوا على ذلك بما جاء عن النبي ﷺ مخاطباً أبا ذر وقد عيّر رجلاً بأمه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، أي إن فيك روح الجاهلية من حيث استخفافك الغير وتعيير الرجل بأمه.

كان العرب في الجاهلية أقساماً وأصنافاً متغايرة، انقرض البائدة منهم كعاد وثمود وطسم وجديس، وانقطعت أخبارهم وأنباء أحوالهم مع أنهم كانوا أمماً عريقة خلفوا في الأرض ملكاً عظيماً وخبْراً شهيراً لا ينكر لهم ذلك أحد من أهل العلوم بالقرون السالفة. وقد ذهبت هذه الأخبار لقدم عهدهم وانقراضهم، وأما غير العرب البائدة فقد تفرعوا من عدنان وقحطان. فبنو قحطان ـ وهم عرب اليمن ـ كانوا على أحسن حال من التمدّن، وقد سكنوا البلاد وبنوا القصور وشيّدوا الحصون، وكانت لهم مدن مشهورة عظيمة، وكان لهم ملوك استدلوا على كثير من معمور الأرض، وكانت معارفهم على قسمين؛ منها ما هو عربي نشأ وترعرع في بلادهم كاللغة والشعر والخطابة والأنساب، ومنها علوم انتقلت إليهم من البلاد المتاخمة كالروم والكلدان والفرس والرومان، ومن ذلك صناعة الطب، كما انتقل

إليهم فيما انتقل علوم وهمية أكثرها خرافي ومنها العيافة والزجر والسحر والطلسمات والقيافة والفراسة والعرافة والكهانة وما أشبه ذلك.

وأما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن فكانوا أيضاً على قدر من المعارف الطبية وغيرها، ثم نشأ الجهل فيهم وقلّ العلم فأضاعوا صناعتهم وتفرّقوا في الأنحاء واستقرّ قسم كبير منهم في الحجاز، ووقع النزاع بين القبائل فلم يعد هناك علم عقلي كالطب والحساب أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم وكان يقال لهم «الجاهليون» أو «عرب الجاهلية»، لأنهم كانوا أهل بداوة ولم يسهموا في شيء من المدنية التي أنشأها جيرانهم الأنباط واللخميّون والغساسنة والتدمريون.

العلوم الطبية عند عرب الجاهلية:

كان عرب الجاهلية على معرفة بالقيافة والفراسة وبعض التجارب ممّا يتصل بالطب وما يمكن تسميته بالعلوم الصحيحة. كانوا يعتقدون أن سبب المرض روح شريرة لا يقي منها ولا يشفيها إلاّ السحر وعمل التمائم والرقى على أيدي الكهان والعرافين وزاجري الطير والعيافين والسحرة والمشعبذين ممّا يعرف بالعلوم الباطلة، وكان لهم بالإضافة إلى ذلك تجارب علاجية في بعض الحالات.

والقيافة عندهم على وجهين: قيافة الأثر وقيافة البشر. وقيافة الأثر تتم بتتبّع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في المقابلة، ويروى أن أهل القيافة كانوا يفرقون بين أثر قدم الشاب وقدم الشيخ وقدم الرجل وقدم المرأة، وكذلك البكر والثيب[١].

أما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد فيما بينهما في النسب والولادة وفي سائر أحوالهما وأخلاقهما. وكان بين العرب قبائل شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكماً في الآثار والإنسان كبني مدلج. وللعرب في معرفة الأثر أعاجيب لا تصدق، ولكن الذي يرى ما بقي منها بين أعراب السودان لا يقف عن التصديق بتاتاً، وكان لهم في ذلك أنهم يجيئون بالرجل ـ قيافة البشر ـ والولد ويغطون جميع بدنهما ما عدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكماً فصلاً قائلاً: هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحاً، وينفي هذا النسب إن لم يجد تشابهاً، ولا يهمه إن كانا قد اتفقا في اللون أو اختلفا فيه.

---

(١) الطب عند العرب، الشطي ص٧.

وأما الفراسة فهي الاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله، فهي بذلك صناعة صائدة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله. وهو علم مأخوذ في الأصل من تكرار المشاهدة المستديمة، فقد عدّوا ما استمر أصلاً يرجع إليه وقاعدة يمكن الاستناد إليها. ويحتاج هذا العلم إلى ذكاء ولذلك حُرّمت دراسته على الأغبياء. وزعموا أن كبر الرأس تدبير وعقل، وأن نتوء الجبهة فهم وإدراك، وأن صغرها واستدارتها جهل، وأن استدارة الوجه حمق وسوء خلق، وطوله وقاحة، وغلظ الصوت إقدام، وأن دقة الكتفين ضعف عقل، وأن طول الذراعين كبر ورياسة، وأنه متى كان الرجل منتصب القامة أبيض اللون مشرباً بالحمرة ليّن اللحم مفرج الأصابع عظيم الجبهة أشهل العين فهو حكيم عاقل حسن الرأي.

وقد اعتمد العرب بعد كل هذا على بعض التجارب البسيطة وعلى العادة والتقليد، وهو طب يتجلّى فيه ضعف التعليل والحكم بسبب الاعتماد على العادة المعروفة لا على أسس ثابتة علمية، وبسبب عدم القدرة على فهم الارتباط بين السبب والمسبب والعلة والمعلول. فإذا مرض أحدهم وتألّم وصفوا له علاجاً، فيفهم أن لديهم نوعاً من الربط بين الداء والدواء، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق المحقق، بل هو عادة القبيلة أن يتناول أفرادها المرضى هذا الدواء عند هذا الداء.

لقد شعر الإنسان منذ وجوده بنعيم العافية وجحيم المرض، ولهذا فقد سعى منذ البداية إلى المحافظة على صحته وذلك بتجنّب ما يؤذيها والتعلّق بما يديمها ويحفظها عليه. وقد عزا الأمراض التي تنتاب هذه الصحة أو البؤس الذي يحل به إلى عوامل معروفة كافح في سبيل التخلص منها. رأى أن هناك أسباباً للداء وكذلك للشقاء لا تزال مجهولة لديه، فكان أن نسبها إلى قوى خارقة مرسلة من أرواح خبيثة وعين مؤذية غير خاضعة لسلطته ولا تتأثر بمشيئته ولا تصل إليها قدرته، وعمل على مقاومتها بما أوحي إليه من وسائل بدائية غريبة اقتنع بحسن أثرها وامن بمنفعتها. من هذه الوسائل كانت الكهانة والعرافة والزجر والعيافة والتنجيم والسحر والطلسمات والرُّقى والتمائم وعلم الحروف وغير ذلك ممّا لم يزل معروفاً في يومنا هذا.

هذه الوسائل أنتجت ثلاث فئات من الأطباء في تلك العهود القديمة: فئة أولى عالجت ـ أو وقت ـ الأمراض بالنصح والهداية، وفئة ثانية داوت بالعقاقير، وفئة ثالثة اعتمدت في الوقاية الشفاء على سبل خارقة للعادة منها التبرّك بالهياكل عند

اليونان، وتقديس هياكل الأبطال عند الرومان، والتوسل إلى الأصنام عند عرب الجاهلية، وقد تطورت هذه الخرافات وتنوعت ولعب فيها السحرة والعرافون والكهنة دوراً كبيراً.

هذه الخرافات الطبية التي انتقلت إلى العرب من طريق الأنباط والكلدانيين والعبريين، نذكر منها:

○ **الكهانة**: وهي ادعاء علم الغيب وإعطاء الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ومعرفة أسرار المرء وما يتعرض له في حاضره ومستقبله من مرض وشقاء وبرء وشفاء. وكان العرب يلجأون إلى الكهان لمعرفة الحوادث، وكان بعض هؤلاء الكهان يزعم أن له تابعاً من الجن ورئياً يأتي إليه بالأخبار، وكانوا يروّجون لأقاويلهم بالأسجاع التي تروق السامعين.

○ **العرافة**: وهي الاستدلال على الأمور الماضية أو الحاضرة أو الآتية بأسباب ومقدمات، ويسمّى محترف هذه الوسيلة العرّاف، وهو يستعين عادة بكلام من يسأله أو حاله أو فعله، وقد عرف العرب قديماً عدداً من العرافين منهم عراف اليمامة رباح بن عجلة وعراف نجد الأبلق الأسدي. وقد أطلق العرب على العراف اسم الطبيب، فقد قيل في عراف اليمامة:

فقلت لعراف اليمامة داوني ... فإنك إن داويتني لطبيب

وفي كل من عراف اليمامة وعراف نجد نسمع قول الآخر:

جعلت لعراف اليمامة حُكمَه ... وعراف نجد إن هما شفياني

○ **الزجر**: وهو ما يحدث عند بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان أو الفكر فيه بعد غيابه، وهو الاستدلال أيضاً بأصوات الحيوان وحركاتها وسائر أحوالها وخصوصاً طيرانها على حاضر الإنسان ومستقبله. فقد كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سمّوه سانحاً، وما تياسر سمّوه سارحاً أو بارحاً، وما استقبلهم منها فهو الناطح، وما جاءهم من خلفهم فهو العقيد. ويسمّى المتكهن بالطائر عائفاً. وقد اقتبس العرب هذه العلوم الوهمية من الفرس الذين كان لهم مذاهب عديدة في العيافة والاستدلال بها.

○ **التنجيم**: وهو ما نسبوه إلى النجوم من خير أو شرّ، فزعموا أن بين طلوع النجوم وغروبها أمراضاً وأوبئة وعاهات تصيب الناس والإبل.

○ **السحر**: وهو إرادة الباطل في صورة الحق، وقد زعم الساحر أن هناك

رُقًى وتمائم وعُقداً تؤثر في الأبدان والقلوب فتمرض أو تقتل أو تفرق بين الأحبّة. وعرف البعض السحر بأنه إظهار أمر مؤذ خارق للعادة من روح شريرة لأن السحر يقوم على فعل الشرّ غالباً. والسحر على أنواع:

١ - النيرنج وهو التخييل والتمويه.
٢ - الخلقطيرات وهي خطوط تعقد عليها حروف وأشكال.
٣ - الشعبذة أو الشعوذة على اسم رجل تنسب إليه، وهي أخيلة مبنية على خفّة اليد أو أخذ البصر في تقليب الأشياء.

○ **الطلسمات**: وهي إظهار أمر غريب عجيب بالاستعانة إلى الجمع بين مفعول العقاقير الأرضية وتأثير الكواكب العلوية، ولهذا فهم يستعينون بالتنجيم، وقد تطلق على خطوط أو أعداد يدعي راسمها أنه يربط بها قدرة الكواكب العلوية بالطبائع السفلية.

○ **علم الحرف**: وهو علم يبحث في خواص الحروف إفراداً وتركيباً، وموضوعه الحروف الهجائية ومرتبته الروحانيات والفلك والنجامة ويحتاج إلى الطب من وجوه كثيرة منها معرفة الطبائع والأمزجة والكيفيات. ويزعم أصحاب هذا العلم أن للحروف جسماً وروحاً ونفساً وقلباً وعقلاً وقوة كلية وقوة طبيعية، وأنهم يمزجون بعلمهم بقوى الحروف والكلمات قوى الكواكب فيرشدهم هذا المزج إلى علم المغيبات ويدلهم على المقدّرات. وقد توهموا أن لهذه الحروف أنواعاً منها النارية والهوائية والمائية والترابية على حسب تنوّع العناصر. فالألف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب، ثم يعود ذلك على التوالي من الحروف والعناصر إلى أن تنفد. ويلجأ إلى الحروف النارية لدفع الأمراض الباردة ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها إما حسّاً أو حكماً، ويلجأ إلى الحروف المائية لدفع الأمراض الحارة من حميات وسواها، ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حسّاً أو حكماً أيضاً.

جاء في مقدمة ابن خلدون عن تاريخ هذه العلوم ما نصّه: «ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب وغيره، كانت كتبها كالمفقود بين الناس إلاّ ما وجد في كتب الأمم الأقدمين».

هذه العلوم الآنفة الذكر كانت معروفة في أهل بابل من السريانيين

والكلدانيين وفي أهل مصر القبط وغيرهم، وكان لهم فيها الكثير من التواليف والآثار التي لم يصل إلينا منها مترجماً إلاَّ النزر اليسير.

○ الحجر والخرز: فقد أخذ العرب الجاهليون عمّن سبقهم من الأمم السالفة ما توهّموا معه دفع الضرر واستجلاب الخير من وسائل ووسائط تقع على الحجر والخرز أحياناً. فاليشب ـ حجر كريم يماني شبيه بالزبرجد ـ يقي من العطش، واليشم ـ حجر صاف ـ ينفع من الصرع، والفيروز يمنع حدوث المشاكل، أما العقيق ففيه شفاء من عضة الحيوان، والزمرّد يحول دون أذى العائن (الإصابة بالعين). أما الخرزات فمنها التميمة وهي خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق، قيل إنها قلادة يجعل فيها سيور وتعاويذ كان عرب الجاهلية يعلقونها على أولادهم والمصابين بالحمى والصرع لاتقاء المرض والعين. والعقرة وهي خرزة تشدّها المرأة على حقويها ـ موضع شدّ الأزار على الخاصرة ـ فتمنع الحمل. والخصمة وهي خرزة تمكن من الدخول على السلطان. والوجيهة وهي خرزة حمراء مثل العقيق تعلق لتقي من الأمراض. وكثيرة الدخول على السلطان. والوجيهة وهي خرزة حمراء مثل العقيق تعلق لتقي من الأمراض. وكثيرة هي أسماء الخرز التي كانت تعلق ويستعان بها على المرض والعلاج.

أمّا بعض أوهام عرب الجاهلية في الوقاية والعلاج فمنها أن الغلام إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها قائلاً: يا شمس أبدليني بسن أحسن منها زعماً منهم أنه إذا لم يفعل ذلك فربما نبتت سنّه الثانية مشوّهة أو غير صحيحة. وكانوا يعتقدون أن دم الرئيس أو الملك يشفي من عضة الكلب الكَلِب، لذلك كانوا يأخذون بضع قطرات من دم الملوك ويمزجونها بالماء ويسقونها المصاب بالكَلَب فيبرأ، ومنها أيضاً أنهم يحملون الملوك على الأعناق إذا مرضوا لأنه أسهل للملك ممّا لو وضع على الأرض. ومن مزاعمهم الخرافية أن الفرد منهم إذا عشق ووجد وطرقه داء العشق كوى بين إليتيه فيذهب داؤه. وفي هذا يقول أعرابي:

شكوت إلى رفيقيَّ اشتياقي ... فجاءاني وقد جمعا دواء
وجاءا بالطبيب ليكوياني ... ولا أبغي عدمتهما اكتواء
ولو أتيا بسلمى حين جاءا ... لعاضاني من السقم الشفاء

وكان عرب الجاهلية يعلقون على الصبي سن ثعلب أو هرة خوفاً من النظرة والخطفة، وكانوا يزعمون أن جنية أرادت صبي القوم فلم تقدر عليه فلامها قومها من الجن فقالت تعتذر إليهم: كان عليه نفرة، ثعالب وهررة، تعني أنه كان عليه ما

ينفرني منه لأتعرض له، وكانت هذه الأشياء التي تعلق على الصبيان تسمّى النفرات. ثم إنهم زعموا أنه إذا بثرت شفة الصبي حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت حيّه: الحلاّ... الحلاّ، فترمي إليه النساء كِسَرَ الخبز وقطع اللحم والتمر في المنخل، ثم يلقيها بدوره إلى الكلاب فتأكلها فيبرأ، فإن أكل صبي من صبيان الحي من ذاك الذي ألقي للكلاب بثرت شفته. ومن زعمهم وأوهامهم أن الرجل منهم إذا أصيب بالقوباء عالجها بالريق، وأنه إذا ولد طفل في الليلة القمراء تقلّصت غرلته فكان كالمختون.

إذاً فالإنسان منذ فجر الحضارة قد بحث عن الدواء لاستبعاد الداء، وإذا كانت الشعوب قد عرفت الطب منذ عصر سحيق، فإن العرب قد ساهموا أيضاً كغيرهم في استنباط العلاج الشافي كأساس من الأسس التي لا يستغني عنها أي مجتمع مهما بلغت درجة تطوره وارتقائه، وإذا كان هناك ثمة اختلاف بين شعبين في أمر الطبابة فهو كيفية العلاج لا أهمية النتيجة. لذلك نجد أن عرب الجاهلية قد تداووا بأشياء وجرّبوها كالأعشاب المختلفة والكيّ، كما أنهم لجأوا أحياناً إلى وسائل وهمية أساسها السحر والكهانة. وقد استمرت هذه الطرق البدائية تمارس عبر عصر الجاهلية الطويل وصولاً إلى العصرين الأموي والعباسي، وأما بالنسبة إلى العلاج المستند إلى السحر والتنجيم والشعبذة فقد اندرس مع انبلاج فجر الإسلام ونبذه أمور السحر والشعوذة.

وفي عود إلى ما ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان[1] نقرأ: قال أبو اليقظان (عامر بن حفص) وغيره: كان الأسود بن أوس بن حمرة أتى النجاشي ومعه امرأته، وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة، فقال النجاشي: لأعطينك شيئاً يشفي من داء الكلب. فأقبل حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت فأوصى امرأته أن تتزوج ابنه قدامة بن الأسود (زواج أو نكاح مقت) وأن تعلمه دواء الكلب ولا يخرج ذلك منهم إلى أحدْ، فتزوجته وعلمته دواء الكلب فهو إلى اليوم فيهم. فولد الأسود قدامة، وولد قدامة المُسْحِل ـ وقيل المحل ـ وأمّه بنت الحارث، فكان المحل يداوي من الكلب، فولد المحل عقبة وعمراً، فداوى ابن المحل عتيبة بن مرداس وهو ابن فسوة الشاعر، فبال مثل أجراء الكلب علقاً، ومثل صورة النمل والأدراص، فقال ابن فسوة حين برأ:

ولولا دواء ابن المحلّ وعلمُهُ ... هررتُ إذا ما الناس هرَّ كلابُها

(١) م٢ ص١٠ ـ ١١.

ممّا تقدم نعرف أن من الأمراض التي عرف العرب الجاهليون علاجها مرض الكلب، وأنهم اتصلوا بشعوب باقي أمم المعمورة وذلك بحثاً عن طرق العلاج والمداواة واستلهام أسس الطب، وقد استطاعوا أن يضيفوا ما تعلموه إلى ما عرفوه من طرق بدائية علاجية مارسوها بحكم طبيعة حياتهم واتصالهم بالأرض ونباتها.

ومن الطبيعي أن يكون الطب عند عرب الجاهلية في الحواضر أرقى من طب البوادي، وإذا كان الأعراب هم الكثرة الغالبة من سكان الجزيرة العربية، فإن الطب عند العرب كان بسيطاً وبدائياً يستند في معظمه على استعمال التعاويذ والتمائم وتناول المواد الخام القريبة من متناول الأيدي كالأعشاب الصحراوية وأبوال الإبل ورماد الحرائق ودماء الذبائح والطرائد والشمع والعسل إلى ما هنالك. وكان من الطبيعي أيضاً أن يكون الطب العربي من الصنائع التي لا خيار للفرد إلّا أن يلجأ إلى استخدامها ليقي نفسه من المرض. وقد توصل الأعراب إلى المعلومات المتعلقة بالطب من طريق المشاهدة والتجربة. عرفوا بالمقارنة بعض الأمراض إلى ما يظهر على ماشيتهم أو على صحرائهم من تغييرات غير معتادة. أطلقلوا على الحالة التي أسموها «الجدري» هذا الاسم لأنهم لاحظوا أن بثور هذا المرض شبيهة بالسلع التي تظهر على أعناق الإبل، أو على النتوءات التي تظهر على سطح الأرض إذا جدرت، أي إذا ارتفعت في بعض مواضعها بسبب اندفاع النبت من تحتها. ثم عرفوا «الحصبة» فأخذوا اسمها من الأرض الحصباء وهي ذات الحصى الناتئة على أديمها، وعالجوا هذين المرضين ببذور الحشائش والحرمل والحنظل. وأطلقوا اسم «البرقان» على الصفرة التي تطفح على البشرة وبياض العين، وهي صفة كانوا يطلقونها على الزرع إذا اصفرّ لونه. ولأن الإصابة بالطاعون كالطعنة القاتلة فقد أسموه بهذا الاسم وأسموه «عوس» أيضاً وزعموا أنه ضرب من وخز الجن. ثم إنهم أطلقوا على المرض الجلدي الذي يسبب تساقط الشعر من فروة الرأس اسم «داء الثعلب» لمشابهته بما يفعله هذا الحيوان من العبث بالنبت وتخريب الحقول أو لأن فرو الثعلب يتساقط في كل حول كما يحدث في المرض هذا. وعرفوا احتباس البول في المثانة وأسموه «الأسر» أي الانحباس، ووصفوا مرض السل في الصدر وأسموه «سلال» وداء اليأس، لأن المصاب به ميئوس من حياته، ولعلهم نسبوه إلى إلياس بن مضر إذ قيل إنه أول من مات بهذا الداء[1].

ولا شكّ أن العرب كانوا يخلطون في ماضيهم السحيق بين عرض المرض

(١) انظر العرب قبل الإسلام، جواد علي ٤٠٧/٨

والمرض نفسه، ولذلك فإنهم حسبوا العرض مرضاً، كما أن الألم كان في حدّ ذاته مرضاً، ووضعوا لكل مرض اسماً اشتقوه من أعراضه وأوصافه، فألم الرأس الذي يصدع، أي يفلق قطعتين من شدّة الألم، سمّوه صداعاً، وأسموا الصداع النصفي «شقيقة» لأنه يصيب أحد شقي الرأس، وسمّوا المرض الذي يسبب بتر الأصابع وقطع النسل «جذام» وهو مشتق من الجذم أي القطع، وأسموه أيضاً «دار الأسد» لأنه يفترس أيضاً أطراف الجسم، ولمّا عرفوا أن هذا المرض معدٍ بالتماسّ، عمدوا إلى عزل المجذومين وإبعادهم خشية انتقال المرض إلى الأصحّاء. وسمّوا الماء المتجمّع في أنسجة الجسم وفي البطن «الاستسقاء» وهو مأخوذ من السقي بالماء. ثم إنهم عرفوا المرض المعروف باسم «عرق النسا» وأسموه بهذا الاسم لأنه يُنسي من شدّة الألم آلام كل مرض آخر يزامنه[1]. كما أنهم عرفوا «الهيضة» وسمّوها «الفضجة».

وإذا كان عرب الجاهلية قد توصلوا إلى معلوماتهم الطبية بالمشاهدة والتجربة وعرفوا البعض منها بالمقارنة فإنهم عرفوا أيضاً أمراضاً أخرى غير التي ذكرنا وأطلقوا عليها أسماء، تماماً كما فعلوا في اشتقاق أسماء الأمراض السالفة، لا يزال الكثير منها معروفاً باسمه في أيامنا هذه. ومن هذه الأمراض داء الفيل، النملة، الجرب، اليرقان، الباسور، الناسور، المغس أو المغص، الفالج، البرص، البهق، الذبحة الصدرية، ذات الجنب، وجع المفاصل، الرمد، الماء الأبيض والماء الأسود في العين، الإسهال، اضطراب التبول، الحميات على اختلافها، كما أنهم تعرّفوا إلى أمراض القلب والكبد والرحم وأسموها قُلاب وكُباد ورُحام وكذلك الزُكام والزُحار والظُهار والفُواق.

وأمام هذا السجلّ الضخم من الأمراض التي ألفها العرب وعرفوا أعراضها وأوصافها برزت أدوية للمعالجة تمثلت في شرب العسل وشرطة المحجم والكيّ بالنار، وكانت الوسيلة الثالثة آخر ما يلجأ إليه المتطبب في العلاج من المرض، ومن هنا جاء المثل العربي المأثور: آخر الدواء الكيّ المنسوب إلى لقمان بن عاد (لقمان الحكيم). وكان العسل الدواء الأكثر استعمالاً في معالجة الإمساك والبطنة والإسهال.. كما أنهم لجأوا إلى الهليون لاستدرار البول عند الاحتباس وتخفيف وجع القولنج، واستخدموا عنب الثعلب في قطع دم الحيض المستديم واستعملوا الحمص لإخراجه في حال انقطاعه وعدم نزوله. ثم إنهم استعملوا الثوم لإخراج ديدان

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص٥٦.

البطن وعلاج أمراض المعدة وبعض أمراض القلب، وأكلوا البصل والكمون لعلاج بعض الحالات الصدرية، وتناولوا السفرجل لأنه يقوي القلب ويطيب النفس، وأكلوا الزبيب لأنه يجدد النشاط ويذهب التعب ويصفي اللون.

ومن الأدوية التي شاعت عند عرب الجاهلية الترياق، وكانوا كثيراً ما يتناولونه لتلطيف النفس وقطع الألم، وكانوا يسمّون الخمر ترياقاً أو درياقاً لهذا السبب، واستعملوا الحبة السوداء في علاج حالات عديدة تتعلق بالجهاز الهضمي، وتوصلوا إلى معرفة أن الكمأ مفيد في علاج أمراض العين وعلاج بعض حالات التسمّم. والملفت أنهم استعملوا البنج ـ عشب صحراوي يستعمل للراحة والتخدير ـ لجلب السبات. وكانوا يهتمون بصحة الأسنان فاستعملوا المساويك لتنظيفها، واستعملوا الكحل في العين زينة وتجميلاً وفي حالة العين الرطبة، وكذلك استعملوا الإثمد لتقوية الإبصار وتكثير شعر الأهداب، وكانوا ينقعون العين بماء بارد كل صباح، ويضعون القدمين في ماء بارد أو حار لمعالجة بعض أمراض العين، أما الماء الأسود في العين فإنهم كانوا يعالجون منه بالنقب، أي عمل ثقب في العين ليدخل إليها النور الباصر. واستعملوا الفصد والحجامة لأوجاع الرأس وأمراض العين، كما استخدموا بعض الديدان (العلق) لامتصاص الدم من خلال الجلد الذي تعلق به تماماً كما في الحجامة والفصد في هذه الحالات، وقالوا: خير الدواء العلق والحجامة[١].

واستعمل عرب الجاهلية الكيّ لأوجاع المفاصل، وفي حالة الاستسقاء، والجروح، وأوجاع البطن، والعقم، وتوقيف النزف الدموي، وفي حال النزف الشديد لجأوا إلى الضغط بالرفائد واستعمال الرماد، وعرفوا استعمال الجبائر في حالات الكسور، والتمسيد للخلوع، واستعملوا الحقن للإمساك[٢].

وقبل دخول الإسلام إلى ديارهم عرف العرب عملية الختان، والمرجح أنهم تعلموا هذه العملية من اليهود ومارسوها على الصبايا من الذكور والإناث، وكان يختص بإجرائها الحلاقون والحجّامون، وقد اشتهر من الخاتنات أم عطية الأنصارية التي ظلّت تمارس هذه العملية بعلم النبي ﷺ وتلقّت منه درساً يتعلق بهذه العملية. وقد عرفوا أيضاً قلع الأسنان وبعض عمليات التجميل، وممّا يروى في ذلك أن عرفجة بن سعد أصيب في أنفه يوم الكلاب فوضعت له أنف من

---

(١) مختصر تاريخ الطب ج١ ص٢٣٦.

(٢) العرب قبل الإسلام ٨/٣٩٩.

الفضة[1]، كما أنهم استعملوا الخيوط المعدنية في ربط الأسنان المتخلخلة[2].

وإلى جانب هذه الممارسات الطبية التي عرفها عرب الجاهلية وأدركوا خصائصها بالمشاهدة والتجربة والمقارنة وإن لم تكن دوماً ذات فائدة علاجية، فإنهم كانوا يمارسون بثقة بعض الأساليب الغريبة التي لا يمكن أن تفيد المعالج في حال من الأحوال، وهي أساليب يطغى عليها عالم الخيال والوهم والخرافة، ولا نعرف تماماً ما إذا كانت هذه الأساليب قد انتقلت إليهم من أساطير الأمم السالفة، أم أنها من اعتقادهم وأوهامهم في حياتهم المنعزلة عن الحضارة والمدنية. هذه الأساليب وإن لم تكن إلاّ محض هراء ووهم فإنها كانت تبعث على الراحة والطمأنينة، وممارستها على المريض تعطيه الأمن والقناعة وكأنه يتناول عقاراً شافياً. فالعرب كانوا يعتقدون بالإصابة بالعين ولذلك كانوا يعلقون على مرضاهم التعاويذ والتمائم والرقى، ويجعلون على أبواب دورهم الأحذية البالية وحدوات الخيل وصورة العين المجعولة في وسط الكف. وكانوا يعتقدون أن سبب الإصابة بالجُنَّة هو دخول روح شريرة إلى رأس المجنون، ولذلك كانوا يضربونه ويعذبونه لإخراج هذه الروح. ولأنهم عرفوا العدوى ـ مثل الجذام والجدري وغيرهما ـ فقد كانوا إذا أراد أحدهم دخول قرية تفشى فيها مرض من الأمراض المعدية يتوقف على مدخل القرية وينهق كالحمار، لاعتقادهم أن الحميات عامة تهاجم البشر دون البهائم، فينهق الواحد منهم ليوهم الحمى أو المرض الضارب أنه من الحيوان لا من البشر فلا تقربه، وتسمّى هذه الوسيلة الخرافية «التعشير». ومن اعتقاداتهم الوهمية ضرورة قتل الحية التي تظهر في الدار أمام الحامل لأن رؤيتها دون قتلها تسبب الإجهاض. وكانوا يعتقدون أيضاً أن عظام الموتى والخرق الملوثة بدم حيض المرأة تقي من الإصابة بالجُنَّة، وكان من زعمهم أن المرأة التي لا يعيش لها ولد (المرأة المقلاة) تعالج بأن تتخطّى جثة شريف قتيل سبع مرات. وكانوا يعالجون من لسع الأفاعي بأن يمسك الملسوع قلادة امرأة ويبقى يهزّها طول الليل لكي لا يتسلّل الوسن إلى عينيه، فلا ينام لأن النوم ـ حسب زعمهم ـ يساعد على تفشي السم في أطراف البدن.

إن الطب العربي في الجاهلية مدوّن في كتب التواريخ العامة وبعض كتب الأدب التي تناولت عادات العرب وطريقة حياتهم ومآكلهم ومشاربهم وكل ما له علاقة بحفظ صحتهم وعلاج أمراضهم، وهكذا لم يكن يسيراً الاطلاع على كتب

---

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ٦/٣٥٤.
(٢) العرب قبل الإسلام، ٨/٤٥١.

مخصصة في الطب العربي القديم لتحديد ما إذا كان هـذا الطب قـد نقل إليهم من بابل أو مصر أو اليونان، أو أنـه كان مـوروثاً عن الآبـاء والأجداد وتـطور بالتجـربة والممارسة. على أن الظاهر من خلال استقراء المعلومات الطبية التي توافرت، وحـالة العرب في الجزيرة بعيداً عن البلاد المتحضرة المتاخمة لهذه الجزيرة، يشـير إلى أن هذا الطب ذو أصل محلي لا علاقة للطب الأجنبي فيه، لأن ما أثر عن ممارساتهم الـطبية يتـوافق كل الاتفـاق مع نـوعية الحيـاة التي كانـوا يحيونها داخـل عـزلتهم وأسـاليب عيشهم، وليس هناك ما يشير إلى دخول الـطب الرومـاني البيزنـطي القريب العهـد منهم إلى جزيرتهم، وإن كان قد وصل فعلاً فليس من دليل يؤكد هـذا الوصـول أو عدمه.

ومن الـطبيعي ـ كما أسلفنـا القول ـ أن يكـون الـطب في حـواضـر الجـزيـرة العـربية، أي تلك الحـواضر المتاخمـة للأمبـراطوريتـين الفارسيـة والبيزنـطية كـالحيرة عـاصمة المنـاذرة وبصرى عاصمـة الغساسنـة ومـدن اليمن، أعـلى مـرتبـة من طب الأعراب سكان الجزيرة في الداخل، أي سكـان الصحراء. هـذا عائـد إلى اختلاط الحضر بالأعـاجم الذين كـانوا وقتئـذ أكثر معـرفة من العـرب بالـطب، وأن يكون سكان الحواضر أكثر حاجة إلى تعلم هذه الصناعة فتعلموها بالدراسة والتقليد، كـما سافر البعض منهم طلباً لهذه العلوم إلى اليمن وفارس، وهناك اسـتزادوا من معارف الصنعة وتدربوا على ممارستها ورجعوا إلى جزيرتهم. وربما كان الأطباء في تلك المدن من الفرس أو الروم، وعلى هذا الأساس يحتمل أن يكون إسحاق بن حنين العبادي عمل صيدلانياً تحت إشراف أولئك الأطباء.

والجـدير بـالذكـر أن المعلومـات المتوافرة عن أطبـاء عمق الجـزيـرة العـربيـة وصحـرائها أكـثر مما تـوفّر عن أطبـاء الحواضر والمـدن في أطراف الجـزيـرة المتـاخمـة لحضارتي الفرس والرومان، وكان معظم الأطباء الذين ورد ذكرهم في التواريـخ من داخـل الجزيـرة نشأوا في العصر الجـاهلي وامتـدت بالبعض منهم الأعـمار فأصحبـوا مخضـرمين وشهـدوا صدر الإسلام وشطراً من عصر بني أمية. هذا الطب التقليـدي الموروث كان أساس المعارف الطبية عند العرب على امتداد القرن التالي لبـزوغ فجر الإسلام، أي إلى مـا بعد احتكـاك العرب بـالعجم من الفـرس والـروم، ولم يـطرأ جـديد عـلى الطب التـطبيقي في خلال تلك المـدة إلّا بعض التفـاصيـل الـطفيفـة، وأغلبها في الشكل أكثر مما هو في الموضوع. فالتحوّل الجذري في هـذه المعارف عنـد العرب حصل في صدر العصر العباسي بالتحديد[1].

---

(١) مختصر تاريخ الطب ج١ ص٢٤٢.

طبقات الأطباء العرب في الجاهلية:

لقمان بن عاد:

كان يقيم في بلاد الشام، لقب بالحكيم، قيل إنه كان عبداً حبشياً، فقد جاء في الخبر: ذكر أنّ لقمان النوبي الحكيم بن عنقاء بن بروق من أهل أيكة، أعطاه سيّده شاة وأمره أن يذبحها ويأتيه بأخبث ما فيها، فذبحها وأتاه بقلبها ولسانها، ثم أعطاه شاة أخرى وأمره بذبحها ويأتيه بأطيب ما فيها، فذبحها وأتا بقلبها ولسانها، فسأله عن ذلك فقال له: يا سيدي لا أخبث منهما إذا خبثا ولا أطيب منهما إذا طابا.

وعن الشريشي عن أبي إسحاق الثعلبي: كان لقمان من أهون مماليك سيده عليه، فبعثه مولاه مع عبيد له إلى بستانه يأتونه بشيء من ثمر، فجاءوه وما معهم شيء، وقد أكلوا الثمر وأحالوا على لقمان فقال لمولاه: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً فاسقني وإياهم ماءً حميماً ثم أرسلنا لنعدو، ففعل، فجعلوا يقيئون تلك الفاكهة ولقمان يتقيأ ماء، فعرف مولاه صدقه وكذبهم.

وقد روي عنه أنه بينما هو مع مولاه إذ دخل بيت الخلاء فأطال فيه الجلوس، فناداه لقمان قائلاً: إن طول الجلوس على الخلاء يرفع الحرارة إلى الرأس يتّجعُ منه الكبد ويورث الباسور، فاجلس هوينى وقم هوينى. ومن أقواله المأثورة:

ـ ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب عيش.

ـ لا تقلق نفسك بالهموم ولا تشغل قلبك بالأحزان.

ـ كل داء حُسم بالكيّ آخر الأمر.

وقد ورد ذكر لقمان في القرآن الكريم، قال عزّ وجلّ: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾[1] وقال تعالىٰ: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه﴾[2].

كوسم ودامیان:

وهما أخوان توأم عربيان عاشا في سورية حوالى السنة ثلاثمائة بعد الميلاد، وقد اعتبرا أبوي الطب والصيدلة في ذلك العهد. خبرا الطب والصيدلة وعالجا المرضى بتوفيق عجيب، وورثا عن ممارستهما ثروة كبيرة أنفقاها في عمل الخير وعلاج المرضى. وكانا قد اعتنقا الدين المسيحي وبشّرا به، فعذّبا بسبب ذلك من قبل الحكام الرومان المناهضين للدين الجديد، وقد استشهدا تحت التعذيب وبقي ضريحاهما محجة للمرضى المزمنين. وقد جاء في الخبر أن الأمبراطور جوستنيان نال

---

(١) سورة لقمان الآية ١٢. (٢) سورة لقمان الآية ١٣.

بقدسية مثواهما البرء من مرض خطير ألمّ به، لذلك عمّر المدينة التي طبًّا فيها وجمّلها بكنيسة زينت باسمهما كما شاد على شرفهما كنيسة ثانية في العاصمة وألحق بها صيدلية ومستشفى، وقد نقل رفاتهما في زمن البابا فيليكس إلى روما حيث شيّدت فيها كنيسة خلدت ذكراهما. وقد شغلت سيرة داميان وكوسم عدداً من الرسامين فأوحت إليهم تخليد صورهما في لوحات فنية رائعة تمثل إحداها داميان قائماً بعمل صيدلاني، وكوسم منكباً على قارورة يفسر فيها تشخيص المرض[1].

زهير بن خباب بن هبل الحميري:

كان من معمّري العرب، ويقال إنه كانت فيه خصال لم تجتمع في غيره من أهل زمانه، منها أنه كان سيّد قومه وشريفهم وخطيبهم، وحازي (كاهن) قومه وفارسهم، وله البيت فيهم والعدد منهم، ولم يكن في العرب أنطق منه ولا أوجه عند الملوك، وكان لسداد رأيه يسمّى كاهناً، وكان طبيبهم، والطب في ذلك الزمن شرف، عاش حتى هرم وذهب عقله، فلم يكن يخرج إلّا ومعه بعض ولده أو ولد ولده، وقيل إنه عاش ثلاثمائة وخمسين سنة، كما زعم أن زهيراً عاش أربعمائة وعشرين وسنة.

ابن حذيم:

طبيب عربي من تيم الرباب، اختلف الرواة في اسمه، فقال البعض إنه «حذيم» واستندوا في ذلك إلى المثل السائر فيه وهو: أطبّ من حذيم، وقال البعض الآخر إنه «ابن حذيم»، وفي الحالين فإن كلمة حذيم تدل على الحذق، ولما كان الطبيب هذا حاذقاً في الصنعة فقد عرف بصنعته دون اسمه.

كانت لحذيم قدم راسخة في علم الطب وله فيه باع طويلة، يقال إنه كان أطب من الحارث بن كلدة بل إنه كان أطب العرب.

بنت عامر بن الظرب العدوانية:

حكم عامر بن الظرب العدواني العرب في الجاهلية، وكانت ابنته من حكيمات العرب حتى جاوزت في ذلك مرتبة «أصحر» بنت لقمان و«هند» بنت الخُسّ بن حابس وأختها «خمعة».

زينب طبيبة بني أود:

أول طبيبة اشتهرت في الجراحة في الإسلام هي زينب طبيبة قبيلة بني أود،

(١) الطب عند العرب ص٢٢.

والتي كانت عارفة بالأعمال الطبية خبيرة بـالعلاج والمـداواة، وكانت متميّـزة في طب العيون وجراحتها، حتى ذكرهـا الشعراء والمحـدثون العـرب. فقال فيهـا أبو سـماك الأسدي الذي مدح فطنتها وطبّها وحذقها:

أمخـترمـي ريـب المـنـون ولم أزر طبيب بني أود عـلى النـأي زينبـا

وقـد ذكر هـذا الأصفهاني في الأغـاني ونقله ابن أبي أصيبعة في عيـون الأنبـاء نقلاً عن حماد بن إسحق عن محمد بن خلف المرزبان.

الأطباء الذين عاصروا فجر الإسلام

بقي الطب العربي في فجر الإسلام وعلى امتداد عصر الخلفاء الراشدين تماماً كما كان عليه العرب قبـل الإسلام بـاستثناء بعض المعلومـات التي حصّلها طبيب أو أكـثر من الأطباء العـرب الـذين زاروا اليمن وبـلاد فـارس لتعلم هـذه الصنـاعـة. وكـانت المعلومات والأفكـار التي تعلمها هؤلاء الأطبـاء لا تختلف في جـوهـرهـا عن معارفهم القديمة، وكانت في معظمها تـطبيقية في الـوقاية الصحية، والقليـل منها في قواعد العلاجات الجراحية البسيطة كالحجامة والفصـد والكيّ وقلع الأسنان والختـان والإخصاء. أما في ما يتعلق بالتشريح وعلم الأعضاء فالمرجـح أن هذين العلمـين لم يلقيا اهتماماً كافياً من الأطباء العرب لكثرة تعقيدهما، فاكتفوا بالفروع التطبيقية.

ومع بزوغ فجر الإسلام حدث انقلاب كبير في حقل الـطب وحفظ الصحة، ذلك أن النبي ﷺ جاء كداعية عظيم لصناعة الطب والأطباء. وبعد أن كـان اهتمام العرب وشغلهم الشاغل أمورهم المعـاشية في الـدرجة الأولى، ثم شغلهم في لغتهم في الدرجة الثانية، أصبح دينهم الجديد أول مشاغلهم الحياتية والفكـرية، وأضحت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ هي كل شيء لديهم. وعلى هذا الأساس المتين قومت المعارف الطبية فأصاب الأطباء مركزاً محترماً تقدموا بـه على غـيرهـم ممن كان يمارس العرافة والكهانة والشعوذة والسحر، وصارت تعليماتهم الصحيـة ـ بعـد أن أيّـدها رسـول الله ﷺ ـ سنناً يعملون بهـا. وممّا قـال ابن صـاعـد الأنـدلسي في طبقـات الأمم: «إن العـرب في صـدر الإسـلام لم تعن بشيء من العلوم إلاّ بلغتهـا ومعرفة أحكام شريعتها حاشا علم الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد غير منكـورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرّاً إليها»[1].

(1) انظر مختصر تاريخ الطب ج1 ص264.

لقد مهّد الرسول الكريم ﷺ للناس ولوج عالم الطب واللجوء إلى الأطباء يستشفون بهم ويتناولون علاجاتهم الطبية. فها هو رسول الله ﷺ عندما كان يعود سعد بن أبي وقاص في مرضه بمكة، يقول له: «ادع الحارث فإنه رجل يتطبب». وقد كان الحارث يومئذ طبيب العرب وكان وثنياً يوم نصح الرسول سعداً باللجوء إليه، وهذا يعني أن الرسول ﷺ طلب الانتفاع بطبه ولو كان من غير الكتابيين طالما لديه من العلم ما ينفع. وبهذا لم يترك النبي ﷺ مجالاً للمتزمتين في الدين أن يفضلوا العلوم الشرعية على العلوم الطبية، وذلك حين قال: «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان»، ولا شك أن النبي ﷺ قد نطق بهذه الكلمة القاطعة في معرض حديثه عن أصناف المعرفة فقدم علوم الطب على غيرها من العلوم، وبهذا أيضاً أضفى على هذه الصنعة بركته وشرّفها بالاهتمام بها[1].

وإذا كان للسحر وما شابه مكانة شائعة بين العرب في الجاهلية في المعالجات الطبية على وجه الخصوص، فإن الإسلام أبان كذب السحرة وضررهم وأزاح بذلك عدداً كبيراً من المشعوذين الذين كانوا يمارسون الطب بالشعبذة والحرف والعرافة والقيافة وغير ذلك.

وممّن اشتهر من المتطببين الذين عاصروا الإسلام الحارث بن كلدة الثقفي وابنه النضر وابن أبي رمثة والشمردل وضماد والشفاء ورفيدة وأم عطية وكعيبة والحارث، فلنقرأ عنهم ما قيل فيهم.

الحارث بن كلدة[2]:

أبو وائل الحارث بن كلدة بن عمر بن علاج الثقفي، ينتسب إلى ثقيف بالطائف، وهو أشهر الأطباء العرب قبل الإسلام وفي عهد الخلفاء الراشدين. تعلم الطب في مدرسة جنديسابور، من أعمال بلاد فارس، وتمرّن هناك وعرف الداء والدواء. طبّ بأرض فارس وعالج وحصل على مال كثير وشهد أهل فارس بعلمه، وكان قد عالج أحد أجلائهم فبرأ وأعطاه مالاً وجارية سمّاها الحارث سمية[3]. ثم

---

(١) المصدر نفسه ص٢٦٦.

(٢) توفي نحو ٥٠ هـ، بقي أيام الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية، واختلفوا في إسلامه، له كتاب «محاورة في الطب» بينه وبين كسرى أنوشروان، وهو ما اقتطفنا منه هذه الصفحات.

(٣) قيل إنها صارت بعدئذ أم زياد بن أبيه من أبي سفيان، انظر تاريخ الحكماء للقفطي ص١٦٣.

إن نفسه اشتاقت إلى بلاده فرجع إلى الطائف واشتهر طبّه بين العرب. وكان الرسول ﷺ يوصي بالتطبيب عنده. وقد ذكره ابن جلجل في طبقاته فقال عنه: «إنه تعلم الطب في ناحية فارس واليمن وتمرّن هناك، وكان يضرب العود. وكان للحارث معالجات كثيرة ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة، وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره، من ذلك أنه لما وفد على كسرى أنوشروان أذن له بالدخول عليه، فلما وقف بين يديه منتصباً قال له: من أنت؟ قال: أنا الحارث بن كلدة الثقفي. قال: فما صناعتك؟ قال: الطب. قال: أعرابي أنت؟ قال: نعم من صميمها وبحبوحة دارها. قال: فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وسوء أغذيتها؟ قال: أيها الملك، إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ويقوم عوجها ويسوس أبدانها ويعدل أمشاجها، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه ويميّز موضع دائه ويحترز من الأدواء كلها بحسن سياسته لنفسه.

ثم قال كسرى: فما الذي تحمد من أخلاقها ويعجبك من مذاهبها وسجاياها؟ قال الحارث: أيها الملك، أنفس سخية وقلوب جزية ولغة فصيحة وألسن بليغة وأنساب صحيحة وأحساب شريفة، يمرق من أفواههم الكلام أعذب من هواء الربيع، مطعمو الطعام في الجدب، وضاربو الهام في الحرب، لا يرام عزّهم ولا يضام جارهم ولا يستباح حريمهم ولا يذلّ أكرمهم، ولا يقرّون بفضل الأنام إلاّ للملك الهمام الذي لا يقاس به أحد.

قال: فاستوى كسرى جالساً وجرى ماء رياضة الحلم في وجهه لما سمع من محكم كلامه، وقال لجلسائه: إني وجدته راجحاً، ولقومه مادحاً، وبفضيلتهم ناطقاً، وبما يورده من لفظه صادقاً، وكذا العاقل من أحكمته التجارب. ثم أمره بالجلوس فجلس، فقال: كيف بصرك بالطب؟ قال: ناهيك، قال: فما أصل الطب؟ قال: الأزم، قال: فما الأزم؟ قال: ضبط الشفتين والرفق باليدين، قال: أصبت، قال: فما الداء الدوي؟ قال: إدخال الطعام على الطعام هو الذي يفني البرية ويهلك السباع في جوف البرية، قال: أصبت، قال: فما الجمرة التي تصطلم منها الأدواء؟ قال: هي التخمة إن بقيت في الجوف ثقلت وإن تحلّلت أسقمت، قال: صدقت، قال: فما تقول في الحجامة؟ قال: في نقصان الهلال في يوم صحو لا غيم فيه والنفس طيبة والعروق ساكنة لسرور يفاجئك وهمّ يباعدك، قال: فما تقول في دخول الحمام؟ قال: لا تدخله شبعان، ولا تغش أهلك سكران، ولا تقم بالليل عريان، ولا تقعد على الطعام غضبان، وارفق بنفسك يكن أرضى لبالك، وقلّل من طعامك يكن أهنأ لنومك. قال: فما تقول في الدواء؟ قال: ما لزمتك الصحة فاجتنبه، فإن

هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها غمرت وإن تركتها خربت، قال: فما تقول في الشراب؟ قال: أطيبه أهنؤه وأرقه أمرؤه وأعذبه أشهاه، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً ويثير عليك من الأدواء أنواعاً. قال: فأي اللحمان أفضل؟ قال: الضأن الفتيّ، والقديد المالح مهلك للآكل، واجتنب لحم الجزور والبقر، قال: فما تقول في الفواكه؟ قال: كُلْها في إقبالها وحين أوانها، واتركها إذا أدبرت وولّت وانقضى زمانها، وأفضل الفواكه الرمان والأترج، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج، وأفضل البقول الهندباء والخس، قال: فما تقول في شرب الماء؟ قال: هو حياة البدن وبه قوامه، ينفع ما شرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر، أفضله وأرقّه أصفاه، قال: أفتأمر بالحقنة؟ قال: نعم، قرأت في بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقي الجوف وتكسح الأدواء عنه، والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد، وإن الجهل كل الجهل أن يأكل الإنسان ما قد عرف مضرّته يؤثر شهوته على راحة بدنه، قال: فما الحمية؟ قال: الاقتصاد في كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ويسدّ مسامها.

قال كسرى: لله درُّك من أعرابي؟ لقد أُعطيت علماً وخُصّصت فطنة وفهماً. وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به.

نستنتج ممّا تقدم أن الحارث بن كلدة قد جمع في محاورته مع ملك الفرس كل ما كان معروفاً عن الطب في ذلك العهد، فقد تكلم في الصحة والمرض والدواء والغذاء والشراب والحقنة والحجامة والفصد والباه والرياضة والاستحمام والأخلاط والأمزجة، وفي أكثر كلامه تعابير جديدة ومعلومات حديثة بالنسبة إلى طب العرب في الجاهلية. وقد كان عصر الحارث في الجزيرة عصر جهل مطبق، والذين كانوا يقرأون ويكتبون قلة إلى جانب ندرة الكتب الطبية الّتي كانت ما تزال مخطوطة على ورق البردى أو رقوق البرجامون. ولذلك كانت العلوم الطبية عند العرب داخل الجزيرة هي المعارف التي يتناقلها أصحاب التجارب الطبية رواية وليس من الكتب المدونة. والواضح أن الحارث كان من المتعلمين المثقفين العالمين بالقراءة والكتابة، ودليل ذلك ما ورد في محاورته من قوله: قرأت في بعض كتب الحكماء[1]. . . وهذا يعني أن الحارث أشار إلى الكتب اليونانية أو السريانية التي تعلم لغتها في اليمن أو جنديسابور فاعتمدها واستند إلى تلك الكتب في دراسة الطب.

(١) عيون الأنباء ص١٦٤.

وللحارث أقوال في الطب والحكمة أثرت عنه بالإضافة إلى ما ورد في محـاورته المشهورة، منها:

- أربعة أشياء تهدم البدن: الغشيان (أي الجماع) على البطنة، ودخول الحمّام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز.
- البطنة بين الداء والحمية رأس الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد[1].

وروى داود بن رشيد عن عمرو بن عوف، قال: لما احتضر الحارث بن كلدة اجتمع إليه الناس فقالوا: مُرنا بأمر ننتهي إليه بعدك، فقال: لا تتزوجوا من النساء إلاّ شابة، ولا تـأكلوا الفـاكهـة إلاّ في أوان نضجهـا، ولا يتعـالجن أحـد منكم مـا احتمل بدنه الداء، وعليكم بـالنورة في كـل شهر فـإنها مذيبـة للبلغم مهلكة للمـرّة منبتة للحم، وإذا تغدّى أحـدكم فلينم على إثـر غدائـه، وإذا تعشّى فليخط أربعين خطوة[2].

ومن كلامه أيضاً: دافع بالدواء ما وجدت مـدفعاً ولا تشربـه إلاّ من ضرورة بإنه لا يصلح شيئاً إلاّ أفسد مثله.

النضر بن الحارث بن كلدة:

هـو النضر بن الحـارث بن كلدة بن عبـد منـاف بن عبـد الـدار، ابن خـالـة النبي ﷺ. كـان قد سـافر إلى البـلاد أيضاً كـأبيه وعـاشر الأحبار والكهنـة واشتغل وحصّـل من العلوم القديمـة أشياء جليلة القـدر، واطلع على علوم الفلسفـة وأجزاء الحكمة، وتعلّم من أبيه أيضاً ما كان يعلمه من الـطب وغيره، وقيل إنه تعلّمـه في الحـيرة. ولما رجـع النضر إلى الحجاز في صـدر أيام بعثـة النبي ﷺ أخـذ يقـرأ عـلى الناس أخبار العجم ويقول: إنّ محمداً يـأتيكم بأخبـار عاد وثمـود وأنا آتيكم بخـبر الأكاسرة، وكان يـريد بـذلك أذى النبي ﷺ، كـما أنه حـارب إلى جانب قـريش في معركة بدر فأسره المسلمون وقتله علي (ع) بأمر من النبي ﷺ، فحـزنت عليه أختـه قتيلة[3] ورثته بأبيات من الشعر فيها تلميح إلى قرابته من الـرسول ﷺ، ويقـال إنها عـرضت للنبي ﷺ وهـو يـطوف فـاستـوقفتـه وجـذبت رداءه حتى انكشف منكبـه، وقالت:

---

(١) عيون الأنباء ص١٦٥

(٢) المصدر نفسه ص١٦٦

(٣) قُتيلة بنت الحارث، عرة من شواعر العرب المحسنات ذات حزم ورأي وجمال.

أمحمـد ولأنـت صنـو نـجيبـة | من قـومها والفحل فحل معـرق
مـا كـان ضرّك لـو مننت وربّمـا | مـنّ الفتى وهـو المغيظ المحـنـق
والنضر أقـرب من أصبت وسيلة | وأحـقهـم إن كـان عـتق يعـتق

ويقـال إن الرسـول ﷺ بكى حتى أخضلت الدموع لحيته وقـال: لـو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه، ثم قال: لا تقتل قريشاً صبراً بعد هذا[1].

وقـد نزلت في النضر هـذا الآيـة الكريمـة: **﴿ومن النـاس من يشـتري لهـوَ الحـديث ليُضـلّ عن سبيـل الله بغـير علم ويتخـذهـا هُـزواً أولئـك لهم عـذاب مهين﴾**[2].

أبو رمثة التميمي:

وهـو رفاعـة بن يثري أبو رمثـة التميمي، كان معـاصـراً للحـارث بن كلدة، وكان طبيباً معروفاً ناجحاً بالمداواة مـزاولاً لأعمال اليـد وصناعـة الجراح، رفيق اليـد ولكنه لم يكن فائقـاً في العلم. وقد روي عن نعيم بـن عـماد بن معاويـة بن الحارث الخـزاعي (ت٢٢٨ هـ) عن سفيـان بن عيينـة الهـلالي (١٠٧ ـ ١٩٨ هـ) عـن عبد الملك بن سعيد بن حيان بن أبجر الكـناني عن أياد بن لقيط السـدوسي عن أبي رمثة، قال: «أتيت النبي ﷺ مع أبي رمثة فرأى خاتم النبوة الذي بـظهره فـظنّه ألماً فقال: يا رسول الله ألا أعالجه لك فإني طبيب، قال: أنت رفيق، والله الطبيب».

وقيل إن أبا رمثة رحل إلى الديار المصرية ثم إلى شمالي إفـريقية حيث تـوفي، وهو من الأطباء العرب الأولين الناجحين[3].

ضماد بن ثعلبة الأزدي:

كان يعرف شيئاً من الطب، ويذكر أنه استدعي لمعالجة النبيّ ﷺ، فلما كلّمـه وسمع من الحديث أسلم على يديه فكان مبدأ الصداقة بينهما.

الحارث بن كعب:

طبيب عاصر الإسلام وشهد النبي ﷺ، وقيل إنه حضر وفاة الخليفة عمـر بن الخطاب بعد الطعنة القاتلة، وكان ربما شارك في مداواته منها.

---

(١) أعلام النساء م٤ ص١٨٩.
(٢) سورة لقمان الآية ٦.
(٣) طبقات ابن جلجل ص٥٧ ـ ٦٠.

كعيبة بنت سعد الأسلمية:

من فواضل نساء عصرها، بايعت النبي ﷺ بعد الهجرة، وكانت لها في المسجد خيمة تداوي المرضى والجرحى، فتداوى في خيمتها سعيد بن معاذ حين رُمي يوم الخندق، وشهدت كعيبة يوم خيبر مع رسول الله ﷺ وأسهم لها سهم رجل.

الشمردل بن قباب الكعدي (وقيل الكعبي) النجراني:

كان في وفد نجران إلى الرسول ﷺ، وكان معه حديث في الطب.

نُسيبة بنت الحارث الأنصارية:

ويقال نسيبة بنت كعب وهي أم عطية الأنصارية، كانت من فواضل نساء الصحابة، غزت كثيراً مع رسول الله ﷺ تمرّض المرضى وتداوي الجرحى، وشهدت غسل إبنة النبي ﷺ، وكان جماعة من الصحابة وعلماء التابعين بالبصرة يأخذون عنها غسل الميت، وقد اشتهرت أيضاً بالختان.

الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس بن خلف القرشية:

صحابية جليلة ذات عقل وفضل وجودة رأي. كان الخليفة عمر بن الخطاب يقدّمها في الرأي ويرضاها ويفضلها وربما ولّاها شيئاً من أمر السوق. أسلمت قبل الهجرة وهاجرت إلى المدينة فكانت من المهاجرات الأول وبايعت النبي ﷺ فكان ﷺ يأتيها ويقيل عندها في بيتها، وقال لها النبي ﷺ: علّمي حفصة رقية النمل[1] كما علّمتها الكتابة[2] وأقطعها رسول الله ﷺ داراً عند الكحّالين فنزلتها مع ابنها.

رفيدة الأسلمية:

صحابية جليلة كانت ترافق المسلمين في حروبهم على المشركين فتضمّد جراحهم وتمرّضهم، ثم أُقيمت لها خيمة في مسجد الرسول ﷺ لهذا الغرض، وتعتبر أول من عمل في التمريض من المسلمات، وخيمتها أول مستشفى في الإسلام أيضاً. وكانت تحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين.

---

(١) النملة قروح تخرج في الجنب.

(٢) كانت الشفاء كاتبة تكتب في الجاهلية.

الفصل العاشر

الطب في فجر الإسلام
وعصر الخلفاء الراشدين

إن العرب عند خروجهم من الجزيرة لنشر الدين الحنيف كان يغلب عليهم طابع البداوة إلى جانب خبراتهم في التجارة كبيع الأفاويه والعطور، وخبرتهم في المغازي وفنون الحرب، وتدربهم على قرض الشعر والتغني بمآثر الأهل والدار، والرغبة في المعالجة الناجعة. وفي نهضتهم الحضارية في فجر الإسلام وقيام الفتوحات في زمن الخلفاء الراشدين، وجد العرب أنفسهم يخالطون أقواماً ذوي تراث عريق ومدنية راقية في بلاد كالشام ومصر والعراق وفارس وما خلّفه الرومان في شمالي إفريقية وكذلك في الأندلس حيث انتشرت حضارات شتى مع أن بعضها دخل طور الركود نسبياً، إلّا أن الصناعات التطبيقية ظلّت نشيطة قوية، وكذلك الحرف اليدوية والفنية والتجريبية بينهم مع معرفة بأصول المعاملات الرسمية حتى صارت ملازمة لأهلها ومتداولة في الأوساط المعنية بها. ولا شكّ أن الطاقات المدّخرة قد وجدت في الإسلام ودار الخلافة مكاناً للانطلاق والازدهار في ظلّ الحضارة العربية التي مهّدت لها سبيل الظهور والتكامل. وها هي قد سبقت معاهد ومدارس نشطت في مدن كثيرة ساهم بها علماء عرفوا لغات تلك الأمم الناهضة آنذاك، يضاف إلى ذلك استعداد العرب لتقبل هذه المدنية ممّا جعلها في متناول الأجيال الصاعدة في الأمة الإسلامية، حتى ظهر بينهم المترجمون النابهون في العلوم والمعارف. ومنذ أن استتبّ حكم الخلفاء فإن الصناعة الطبية احتلت مكانة رفيعة مرموقة حازت على إعزاز الحكام والولاة ومناصرتهم إلى حد كبير. وهذا الإكبار والإجلال يعود إلى أسباب كثيرة أهمها:

أولاً: شرف هذه الصناعة التي كانت موضع التقدير بين الخاصة والعامة.

ثانياً: احتياج الناس إلى الطب في أمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف ذات اقتصاد وتجارة رائجة وأسواق مزدهرة، مع كثرة الأسفار ووجوب الحج إلى بيت الله الحرام في كل سنة، بالإضافة إلى ما كانت تتعرض له الأمة من ثورات وحروب وزلازل وأحداث طبيعية وانتشار الأوبئة، كلها أمور تزيد من الحاجة إلى الرعاية الصحية والمداواة في العواصم والأرياف وفي ساح المعركة ومع الجيش الغازي لمواساة الجرحى ومعالجة المرضى. هذا ما شجّع الكثيرين على دراسة النباتات الطبية والمعادن وأعضاء الحيوان النافع وترتيب أسمائها وتعريفها والتحدث عن فوائدها في العلاج وطرق جمعها وادخارها وتحضيرها واستعمالها لتحقيق المنفعة بها على أفضل وجه. ثم إن الإيمان والشعور الديني الصادق والواجب الشرعي هو الذي أوحى بتأييد وتشجيع مهنة الطب ورفع كيانها.

ثالثاً: الناحية الدينية الشريفة التي كانت ترفض المقلدين المشعوذين المرائين المتاجرين بالدين، كالتخويف من القيام بالتشريح ودراسة علم الأعضاء ومعرفة الأدوية والجراحة للتمرين والخبرة والمعرفة، فلولا الخوف من المجتمع ورهبة الشعور الديني المُساء فهمه لكان من الرازي والزهراوي وابن زهر وعبد اللطيف البغدادي وابن القف الكركي وابن النفيس وغيرهم من عباقرة الطب مساهمة أكثر وبذل وعطاء علمي أبعد أثراً يقدمون به للعالم ثمرة عبقريتهم واجتهادهم في الظروف والأزمنة التي عاشوا فيها[1].

رابعاً: انتشار صناعة الورق والتي على إسّها تمّ بناء المكتبات ودور الورّاقين والناسخين وما يحتاج إليه التصنيف والكتابة من أدوات ولوازم لتيسير أمور التثقيف والتنوير في العلوم والمعارف الكثيرة.

ثم إن العرب في بداية نهضتهم في صدر الإسلام كانوا أبعد الأمم عن سياسة الملك بسبب طبيعتهم البدوية ولذا فقد كانوا من أصعب الأمم بأن ينقاد بعضهم لبعض بسبب الأنفة إلاّ إذا جاء بصبغة دينية من دعوة نبي أو إذعان لولاية. ومع أن ديار الحجاز عرفت التجارة وبعض الصنائع إلاّ أن العرب بسبب ذلك كانوا أبعد الناس عن الصنائع في أيام البداوة إلى أن بزغ الإسلام، فكانوا يتعلمون الصناعات من الفرس والروم والقبط والنبط، في الوقت نفسه كان بين العرب من يمارس العرافة والكهانة والزجر والقيافة والفراسة وما إلى ذلك من

---

(١) تاريخ تراث العلوم الطبية ص١١٢ ـ ١١٣.

الخرافات التي أبطلها الدين الإسلامي.

أما الطبابة فهي على حد قول ابن خلدون[1] صناعة ضرورية في البدو والحضر لما عرف من فائدتها وثمرتها البالغة الأهمية في حفظ صحة الأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالأدوية حتى يحصل لهم الشفاء من عللهم، واعتقد العرب أن أصل الأمراض كلها إنما هي في الأغذية الضارة لقول رسول الله ﷺ في الحديث: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة»، أي الاحتماء من الطعام، والجوع الذي هو الدواء العظيم، والتحاشي من إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم ما تناول المرء أولاً، فإن الله سبحانه وتعالىٰ خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء ليستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دماً ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم بالنمو وبالهضم بالحرارة الغريزية فيصير كيموساً ودماً خالصاً وبخاراً يغذو الروح الحيواني. وأما الحميات فهي رأس علاج الأمراض، بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة، ثم بعدها يتناول الأغذية الملائمة. وأهل البداوة مأكلهم قليل في الغالب مع الرياضة بركوب الخيل وطلب الصيد، فيحسن عندهم الهضم ويجود، فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد عن الأمراض فتقل حاجتهم إلى الطب. ويرى ابن خلدون أيضاً أن الصناعة الطبية تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصحّ، فيحافظ صاحبها حفظ الصحّة وبرء الداء بالأدوية والأغذية وأمزجتها وقواها، وإمام هذه الصناعة هو جالينوس فاقتدى به الأطباء في الإسلام مثل الرازي وابن المجوسي وابن سينا وابن زهر. أما أهل البادية فطبّهم ما زال مبنياً على تجربة مقتصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه وبعضه يصحّ إلاّ أنه ليس مبنياً على قانون طبيعي ومنهج علمي صحيح ولا على موافقة المزاج، فكان عندهم من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون. والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل، وهو ليس من الوحي في شيء بل هو أمر عادي للعرب، ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة ما قيل فيه: «فإنه إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال أنتم أعلم بأمور دنياكم، فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إلاّ إذا استعمل على جهة التبرّك وصدق العقد الإيماني، فيكون له أثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب

(١) المقدمة ص١٢٢ ـ ١٢٧، ٤٠٤ ـ ٤١٥، ٤٩٣.

المزاجي، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية كما وقع في مداواة المبطون بالعسل والله الهادي إلى الصواب لا رب سواه[1].

وقد خلط معظم المؤلفين في تاريخ الطب والإسلام بين ما جاء في القرآن من آيات دالة عليه وبين ما أتت على ذكره الأحاديث النبوية الشريفة، وبين ما حرمه الدين الإسلامي وأباحه. وإذا كان النزر القليل من المؤرخين قد تعمّد الإساءة عن قصد وسوء نية للنيل من رفعة الإسلام والمسلمين، فإن البعض الآخر من المنصفين كان مخلصاً صادقاً في تحريه وكتابته ولكن لم تتح لهم سبل التدقيق في موضوعات عظيمة الشأن وافق الإسلام فيها بين الدين الحنيف وبين الطب.

من بين هؤلاء الذين عرفوا للإسلام مكانته وقدره والذين ساهموا في موضوع الكتابة عن الطب العربي الدكتور سان جورجيو داريللانو الذي اختصّ بكتابة بحث طويل في كتاب تاريخ الطب، فتساءل عمّا كلف به المسلمون من فروض وواجبات وسنن ومستحبات صحية التأثير، أدينية هي بحتة أم دينية وصحية؟ وبعد أن عالج هذا الموضوع بإسهاب قال إن الفروض والواجبات وغيرها من سنن ومستحبات تتصل بالصحة في الإسلام ترمي إلى إصابة هدفين وتحقيق غايتين في آن معاً، غاية دينية وغاية صحية، وقد شاركه في هذا الرأي رونان، فقال: لقد أعطى الإسلام الواجبات الصحية صبغة دينية. وكان سيريل إلجود من جملة الذين كتبوا في هذا الموضوع فزعم أن التعاليم الطبية التي جاء بها القرآن الكريم نادرة لا تفي بالطلب، وأن منها وصايا حكيمة تتصل بالصحة الفردية، وقال إن أحاديث الرسول ﷺ عن الصحة وأعماله المتعلقة بها جمعت في كتاب سمّي «الطب النبوي» وكان أشهرها ما قام بجمعه جلال الدين الأسيوطي، وقد نقله إلى اللغة الفرنسية بيرون.

ثم إن إدوارد براون أستاذ اللغة العربية في جامعة كمبردج يزعم أن آراء الرسول ﷺ عن الطب مستوحاة من آراء الحارث بن كلدة، وأما القرآن فلم يتعرض ـ على حد زعمه ـ إلى الموضوعات الطبية إلاّ فيما يتعلق بالجروح، ومعلومات غامضة عن علم المضغة! وتعرض أيضاً لهذا البحث رينيه ساند في كتابه «نحو الطب الاجتماعي»، قال: إن تعاليم الإسلام الدينية تحسن الصحة، فهي تدعو إلى القناعة وعدم الإسراف في الأكل والشرب، وإلى النظافة والاغتسال بالماء الطاهر

---

(١) تاريخ تراث العلوم الطبية ١١٥ ـ ١١٦.

خمس مرات في اليوم قبل كل صلاة، وإن الصلاة مجموعة من حركات رياضية، وإن الإسلام يأمر بتجريد المرضى المصابين بأمراض معدية، وإن العلوم الإسلامية خصّصت شطراً كبيراً من أبحاثها بحفظ الصحة. كرّست بعض المجلات الطبية مثل مجلة «سيبا» عدداً مصوراً بحث فيه «تورنر» موضوع الإسلام والطب، قال: لقد كان شأن الإسلام في تقدم العلم كلها عظيماً خاصة في الطب. ثم قال: لقد حرّم الإسلام الخمر والقمار وجعل الإحسان فرضاً واجب الأداء، وكان لذلك أثر كبير في بناء المستشفيات والمصحات، وقد فرض الإسلام على المسلمين الغسل والاغتسال في مناسبات شتى، ممّا أدّى إلى اشتهار المسلمين بأنهم من أنظف أهل الأرض. ويقول عدد كبير من المؤلفين المعاصرين إن الطب الإسلامي لم يعطَ من الأهمية ما يستحقها، وإن غوره لم يسبر تماماً حتى يومنا هذا[1].

لقد أزاح الدين الإسلامي عدداً كبيراً ممّن يمارسون الطب بالدجل والشعوذة، ويبدو أن عملية الكيّ كانت من أكثر العلاجات العملية في الطب، وكان الناس يستطبون بها من غير سبب أو مسوّغ، ولذلك فقد دعا الرسول ﷺ إلى التقليل من ممارستها ممّا أدّى إلى قلة ممارسيها، وقال الرسول ﷺ أيضاً عن أولئك المرائين المدعين «إن من يطبب ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن» أي إن من يمارس صناعة الطب ويخطىء ولم يكن من ممتهنيه يقع عليه العقاب، أما من كان ممارساً للصنعة فلا يعاقب على خطئه فيها إلّا بقدر تقصيره في الخدمة وإهماله قواعد التطبّب، وهكذا انتبه الناس إلى أخطاء منتحلي الطبابة فخاف هؤلاء السلطات التي تعمل بوحي الحديث النبوي الشريف. لقد ركّز الرسول ﷺ على قواعد حفظ الصحة، وبقيت أقواله الشريفة تحتل مكانتها في الممارسات الطبية على امتداد العصور الإسلامية. على أن النبي ﷺ لم يحاول أن يعمل في الطب ولكنه أضفى عليه شرف مكانته والاهتمام به، وفي هذا تعضيد لصناعة الطب والأطباء.

وقد كان الطب في عهد الخلفاء الراشدين يمارس مْن قبل بعض الأعراب تارة ومن غير المسلمين تارة أخرى، حيث بدأ العرب المسلمون يختلطون بغيرهم في ذلك العصر إثر الفتوحات الإسلامية، فنجد في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) أن أحد الأعراب أصابته جراح فجيء به إلى الخليفة جريحاً فأرسله إلى طبيب نصراني كي يداويه[2].

---

(١) الطب عند العرب ص٣٣.

(٢) كتاب المغتالون، ابن حبيب ص١٥٦.

لقد أدرك الإسلام مدارس سورية المتأخرة التي كان يعمل بها العالمون بمعارف البيزنطيين الذين يحملون تراث الفكر اليوناني قبل أفول عصره في أواخر القرن السادس الميلادي. كذلك كانت مدينة الحيرة عند ظهور الإسلام عاصمة علمية ومركزاً حضارياً، وكانت تجتمع إلى معارفها العامة المتّسمة بالطابع العربي علوم الفرس وصنائعهم التي تعلمتها من بلاد فارس، وقد انضوت جميع هذه العلوم والمعارف تحت لواء الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، وكانت المصدر الوحيد الذي استقى منه العلماء في عصر لاحق ـ عصر بني العباس ـ مبادىء العلوم اليونانية النظرية والتطبيقية. أما حكام عهد الراشدين فإنهم لم يلتفتوا إلى هذه العلوم باهتمام نظراً لانشغالهم بالفتوح ونشر الدين الحنيف، فظلّت هذه العلوم بعيدة المنال عن أيدي المسلمين واعتباراتهم الآنية أو المهمّة[1]. ولا شك أن المعلومات الطبية عند العرب المسلمين في تلك الحقبة لم تكن أكثر من المعلومات التقليدية المعروفة التي مورست من قبل بعض المتطببين الأعراب، والمرجح أن الأطباء قد ساهموا كل حسب اختصاصه في خدمة جيش المسلمين في أثناء الفتوحات أو في المدن التي استقرّوا فيها، ولعل المسلمين أيضاً ـ نظراً لانشغالهم وندرة أطبائهم ـ قد استعانوا بالأطباء الفرس أو الرومان أو الهنود في حالات استدعت ذلك.

نخلص إلى أن الطب عند العرب في فجر الإسلام وعلى امتداد عصر الخلفاء الراشدين كله هو الطب الذي مورس من قبل بعض المتطببين قبل الإسلام بالإضافة إلى بعض المعلومات التي خبرها واستفاد منها بعض من زار اليمن وفارس لتعلم هذه المهنة، وكانت هذه المعلومات في جوهرها لا تختلف عن معلومات الأطباء التقليدية القديمة ومعظمها تطبيقي في الوقاية الصحية، أما القواعد الجراحية كالحجامة والفصد والكيّ والختان والإخصاء فقد كانت قليلة نادرة.

•

الآسيات في فجر الإسلام

كانت المرأة العربية سباقة في ميادين العمل الاجتماعي والفردي بالإضافة إلى أنها كانت من أحسن ربّات البيوت تدبيراً لمنزلها وعناية بأطفالها وسعياً وراء تأمين راحة زوجها، وإلى جانب هذا كانت عاملة تكسب معاشها إذا أعوزتها الحاجة تلجأ

---

(١) مختصر تاريخ الطب العربي ج١ ص٢٥٢.

إلى عمل شريف يعود عليها بالرزق الذي يكفل لها كفاف عيشها والقيام بحق بيتها وأولادها خير قيام. وكانت لا تتأخّر عن المساهمة في مجال الخدمة الاجتماعية، وقد اختصّ في الغالب بهذا العمل فئة من نساء العرب رزقها الله من بسطة العيش ما مكّنها من التفرّغ كلياً لأعمال اجتماعية نبيلة وشجاعة، تلك هي أعمال الخدمات الاجتماعية التي برزت فيها المرأة في مجال الإسعاف الصحي إبان السلم والحرب، وقد أجاز الدين الحنيف هذا العمل وحبّبه إلى نفوس العاملات، ونصّ الإمام أحمد بن حنبل على أنه يجوز للمسعفة أن تخدم الرجل وتشاهد منه عورة في حال المرض والمداواة. وقد وردت الأخبار المتفرقة في أعمال هذه الفئة من النساء في ميدان التضحية والإسعاف في بطون الكتب التي تناولت تاريخ مرحلة حياة العرب المظلمة.

كان العرب يطلقون اسم الآسيات (الأواسي) على النساء العربيات اللائي كنّ يعملن في تضميد الجراح وجبر الكسور وإيقاف النزف وغيرها من أعمال الإسعاف في الحروب، وقد قيل فيهنّ:

هم الأسون أم الرأس لما تواكلها الأطبة والأساء

كان إسعاف الجرحى من اختصاص فضيلات النساء يتخذنه واجباً وحباً في التضحية، وكنّ يسرن في المعارك جنباً إلى جنب حاملات أواني الماء وما يحتجن إليه من اللفائف والجبائر وغيرها من وسائل الإسعاف، وكن ينفذن بين الرجال فيرافقن الغزاة مسعفات معالجات، يرعين الجرحى ويجبرن كسورهم، ومنهن من كنّ يشتركن في المعركة وكانت لهن مواقع مشهورة وسيرة معروفة. فمنذ فجر الإسلام كان هناك مجاهدون ومجاهدات ذادوا عن حياض الدعوة وشرفها كما حدث في وقعتي بدر وأحد وغزوة خيبر، ففي أثناء تلك المعارك نجد سيدات مسلمات فاضلات خدمن الدين والوطن بالغالي، وعملن كآسيات وطبيبات وقدّمن الدواء والماء، وكن يقمن في خيم أقيمت كالعيادات في أثناء الحرب أو بجانب المسجد في أثناء السلم، من مثل ما قامت به رفيدة في يثرب وابنة الطبيب سعد الأسلمي وكعيبة وأمينة بنت قيس الغفارية وأم عطية الأنصارية ونسيبة بنت كعب المازنية مع زوجها وأولادها حتى إنها أصيبت في معركة أحد بعدة جراح خلال أدائها واجبها.

وقد تركت لنا كتب التاريخ بعض فقرات في أخبار الآسيات في فجر الإسلام وإن لم تكن موفية لحقّهن وتفانيهن في خدمة الدين والمسلمين. نذكر من هؤلاء الآسيات الممرضات:

○ **أم سنان الأسلمية:**

مجاهدة جليلة جاءت النبي ﷺ لما أراد الخروج إلى خيبر فقالت له: يا رسول الله أخرج معك في وجهك هذا أخرز السقاء وأداوي المرضى والجرحى إن كانت جراح وإلّا تكون فأنصر الرجل. فقال رسول الله ﷺ: اخرجي على بركة الله تعالىٰ فإن لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهنّ من قومك ومن غيرهم، فإن شئت فمع قومك وإن شئت معنا. فقالت أم سنان: معك. فقال رسول الله ﷺ: تكوني مع أم سلمة زوجتي. فكانت معها وشهدت فتح خيبر.

○ **أم سليم:**

روى أنس بن مالك أن الرسول ﷺ كان يخرج غازياً ومعه أم سليم ومعها نسوة من الأنصار يستقين الماء ويداوين الجراح.

○ **أميّة بنت قيس أبي الصّلت الغفارية:**

أسلمت وبايعت بعد الهجرة وشهدت مع الرسول ﷺ خيبر، فقالت: جئت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار، فقلنا: إنا نريد يا رسول الله أن نخرج معك إلى خيبر فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال رسول الله ﷺ: على بركة الله.

○ **أم أيمن:**

من اللائي حضرن أُحداً، وكانت تحمل السقاء للعطشى وتداوي الجرحى وتواسيهم.

○ **حمنة:**

كانت شجاعة ذات قدم ثابتة في المعارك، فقد كانت تغشى الموقعة فتحمل الجريح وتعود به حيث تأسو جراحه.

○ **الرُبَيّع بنت معوِّذ بن عفراء الأنصارية:**

سيدة جليلة صحبت النبي ﷺ وغزت معه، فكانت تداوي الجرحى وتردّ القتلى إلى المدينة. بايعت الرسول ﷺ تحت الشجرة.

○ **نسيبة بنت كعب المازنية:**

اشتركت في غزوة بدر فعملت آسية تضمد الجراح، وخرجت أيضاً يوم أُحد ومعها زوجها وولداها وفي يمينها السقاء والضماد وأخذت تسقي العطشى وتضمد جراح الكلمى، وكانت غرة الحرب للمسلمين ثم غُلبوا بعد ذلك وتناولتهم سيوف

الأعـداء طعنـاً في ظهـورهم فـولّـوا الإدبـار إلاّ عشرة منهم وقفـوا يـدافعـون عن الرسول ﷺ. ولما رأت نسيبة ما حلّ بجيش المسلمين لم تطق الاكتفاء بالمواساة بـل انتضت سيفها واحتملت قوسهـا واندفعت إلى سـاحة القتـال وحولهـا نفر قليـل من المجاهدين من بينهم زوجها وولداها فكانت من أظهرهم أثراً وأعظمهم موقفاً، حتى التحم الرسول ﷺ أشدّ خصومه فشرعت السيف وأخذت تضرب به وكانت لا تـرى الخطر يدنو منه حتى تكون سداده، وقال فيها الرسول ﷺ: مـا التفت يميناً وشمـالاً إلاّ وأنـا أراهـا تقـاتـل دوني. وظلّت نسيبـة تجـالـد الأعـداء حتى أصيبت وجرحت وانهارت فـارتمت مصروعة إلى الأرض، وثبت الـرسول ﷺ وانجـلى من المعركـة مـا انجـلى وتساءل عن نسيبـة فإذا هي عـلى الأرض مجروحـة خائـرة، فضمد جـرحهـا وسقيت الماء وبرئت.

وروى ابنهـا عمارة عنهـا، قال: جـرحت يومئـذ جرحـاً في عضدي إذ ضربني رجل كأنه الرقـل ـ أي النخلة العاليـة ـ ومضى عني وجعل الـدم لا يـرقأ، فـأقبلت أمي إليّ ومعها عصائب في حقويها أعدتها للجراح فربطت جرحي ثم قالت: انهض يا بني فضارب القوم، فجعل النبي ﷺ يقـول: من يطيق مـا تطيقـين يا أم عـمارة؟ فأصيبت نسيبة في هذا اليوم بثلاثة عشر جرحاً وهي تقاوم رغم ذلك[1].

(١) انظر في خبر الأسيات أعلام النسـاء.

الفصل الحادي عشر

الطب النبويّ

لقد أوحى الله تعالىٰ إلى رسوله الكريم فيما أوحى إليه بتعاليم وردت في آيات قرآنية تضمن صلاح الناس وإصلاحهم في مختلف وجوه حياتهم الجسمية والعقلية والنفسية، كما حدّث النبي ﷺ بأحاديث تفسّر ما جاء في الآيات المتضمنة لهذه التعاليم الصحية وتبيّنه، وأظهر من الأعمال المتصلة بالصحة القدر الوفير، وبيّن في أقواله وإرشاداته فضل الصحة ونعمة العافية بقوله: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من معافاة».

والنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يُوحى، وهنا يصحّ لنا أن نبحث في ما إذا كان الرسول الكريم عالماً بمهنة الطب، وهل يجوز اعتباره طبيباً في ما حدّث به وقام به من عمل وإرشاد؟

إنّ أول ما يتبادر إلى أذهاننا مقولة بعض المؤرخين الذين استنتجوا من نصّ ابن خلدون في صدد الطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل، وهو ليس من الوحي في شيء بل هو أمر عادي للعرب، ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة ما قيل فيه: «فإنه إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم، فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إلاّ إذا استعمل على جهة التبرّك وصدق العقد الإيماني، فيكون له أثر عظيم في النفع، وليس ذلك في الطب المزاجي، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية كما وقع في مداواة

المبطون بالعسل، والله الهادي إلى الصواب لا ربّ سواه[1].

نقول إنهم استنتجوا من كلمات ابن خلدون أن الرسول ﷺ لم يكن عالماً بصناعة الطب، وذهب بعضهم في التمادي بأن استنتج أن الطب النبوي ما هو إلاَّ مجموعة من الأحاديث التي عُزيت إلى الرسول الكريم ﷺ. وقد كان في مقدمة هؤلاء الزاعمين بهذا القول إدوارد براون الذي ادّعى أن تعاليم النبي ﷺ عن الطب مستوحاة في قسم منها من آراء الحارث بن كلدة الطبيب العربي، وأن القرآن لم يتعرض إلى الموضوعات الطبية إلاَّ في ما يتعلق بالجروح وبمعلومات غامضة عن علم المضغة. وجاء سيريل إلچود وكان من جملة المتعرضين لهذا الموضوع، فزعم أن التعاليم الطبية التي جاء بها القرآن الكريم قليلة ونادرة لا تفي بالطلب، وأنها وصايا حكمية تتصل بالصحة العامة.

إن هذا الزعم ليس صحيحاً بل هو مدحوض ومرفوض، ذلك أن ابن خلدون إن لم يكن مقدّراً لطب الرسول ﷺ لما نعت الحديث النبوي الشريف: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء» بأنه حديث جمع الطب كله. وإذا ما ادّعوا أن ابن خلدون قال إن الرسول إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات فإنه لم يهدف إلى نفي معرفة الرسول الكريم بالطب كما ادّعوا، ولو سلمنا معهم جدلاً بصحة ما حملوه على لسان هذا المؤرخ العربي، فإن هذا لا يحملنا على تبني رأيه، وما هذا المؤرخ إلاَّ بحاثة يخطىء ويصيب كغيره من الباحثين. على أن هناك طائفة من المؤرخين الغربيين كانت منصفة في آرائها عن الطب النبوي، وكانت آراؤها مغايرة لادعاءات براون وأصحابه.

إن المؤلفين الغربيين المعاصرين أجمعوا على أن الرسول الكريم ﷺ نفخ في حب العلم ومنها الطب روحاً جديدة، وذلك بقوله مشجعاً على امتهان صنعة الطب: «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان»، فقدم علم الطب على علم الدين، لأن الطب يدل على سبل الاحتفاظ بالصحة ودرء المرض عنها وردّها إذا فقدت، ولا يخفى أن صحة الجسم والعقل والنفس هي أساس السعادة في الدنيا، حتى أنه ليس من الخطإ أن نظرنا إلى القول إن الصحة من النعيم والمرض من الجحيم، . كما أنه ما من دين إلٓهي إلاَّ وقد جاء بتعاليم صحية وطبية، ومن جملة هذه الأديان دين الإسلام.

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص١٢٢ ـ ١٢٧، ٤٠٤ ـ ٥.

اعتبر المؤرخ المعاصر سان جورجيو داريللانو ـ كما أسلفنا ـ أن الرسول ﷺ من أنبل الأطباء، ويقول عنه إنه كان في أثناء غزواته يعنى بالجرحى ويستصحب الأسيات، ثم ينقل بعد ذلك في صدد طبّه كلمة «رونان» وهي: لقد عانى محمد ﷺ الطب كسرائري، هذه الشهادة تدعمها شهادة طبيب عاش في زمن النبي ﷺ، هو الشمردل الذي كان في وفد نجران من بني الحارث بن كعب، ونزل بين يدي النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني كنت كاهن ـ أي طبيب ـ قومي في الجاهلية، وإني كنت الطبيب، فما يحلّ لي؟ قال الرسول ﷺ: «فصد العرق ومجسة الطعنة إن اضطررت، وعليك بالسّنا[1]، ولا تداو أحداً حتى تعرف داءه». قال الشمردل: والذي بعثك بالحق أنت أعلم مني بالطب. وقد ذكر الأصحاب الأجلاّء أن الرسول ﷺ كان يديم التطبيب، وكان يأمر بالحمية، وينهى عمّا يؤذي، ويصف الأدوية، ويحدث في حفظ الصحة. وقد تعلمت منه الطب زوجه عائشة حتى قال فيها هشام بن عروة: «ما رأيت أحداً أعلم بالطب من عائشة». فقد ذكر ابن الجوزي في صفوة الصفوة عن هشام بن عروة، قال عروة لعائشة: «يا أمتاه، لا أعجب من علمك بالشعر وأنت ابنة أبي بكر الصديق وكان أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب! فضربته على منكبه وقالت: إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره، فكانت تقدم إليه وفود العرب من كل وجه فينعت لهم الأنعات فكنت أعالجه، فمن ثمّ». وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يديم التطبيب حقاً في حال صحته ومرضه وأنه أمر بالمداواة في عدة أحاديث صحيحة.

والزعم الآخر الخاطىء الذي ذهبوا إليه في مذاهب شتى أنهم ادّعوا أن الرسول ﷺ كان طبيباً يداوي النفوس،ولم يكن طبيباً يداوي الجسوم. إن هذا الزعم هو الآخر باطل وترفضه الحقيقة الثابتة كون النبي ﷺ كان في واقع الأمر يداوي بالطب الجسماني والطب النفساني وفي آن معاً، وقصة لدغة العقرب صحيحة الرواية ثابتة الإسناد في سند ابن أبي شيبة، حيث جاء: بينا رسول الله ﷺ يصلي إذ لدغته عقرب في أصبعه، فانصرف وقال: لعن الله العقرب ما تدع نبيّاً ولا غيره، ثم دعا بإناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة في الماء والملح ويقرأ في جملة ما يقرأ: قل هو الله أحد، والمعوّذتين، فجمع بذلك بين العلاج الجسمي المعروف في ذلك الوقت وهو الملح، والعلاج النفساني المألوف آنئذ وهو الرقية، ولكنها رقية من

(١) نبات، وهو دواء شريف مأمون العاقبة، قال فيه الرسول ﷺ: «لو أن شيئاً فيه شفاء من الموت لكان السّنا».

القرآن الكريم وليست دجلاً وطلسماً.

ويخلص سان جورجيو هذا البحث بصدد الطب النبوي قائلاً: لقد دحضت هذه الروايات التي نقلت عن شهود عيان زعم القائلين بأن النواحي الصحية مهملة في الإسلام، وثبت أن تعاليم الإسلام صحية ودينية في آن معاً. ثم يزيد: وفي كل حال إن الأمر الذي لا شكّ فيه هو أن الرسول كان واسع الاطلاع في الطب، وأن المعالجة والصحة كانا من الموضوعات الرئيسية التي عالجها النبي الأمين حتى يصحّ أن يقال فيه إنه لم يكن أول طبيب في الإسلام فحسب، بل كان أيضاً أول من وضع كتاباً ممتازاً في الطب سمّي «الطب النبوي». وهذا ما عرض له أيضاً «إلجود» المذكور آنفاً الذي قال إن أحاديث الرسول عن الصحة وأعماله المتعلقة بها جمعت في كتاب سمّي «الطب النبوي» وكان أشهرها ما قام بجمعه جلال الدين السيوطي، وقد نقله إلى اللغة الفرنسية بيرون.

وإذا اعتبرنا أن الرسول ﷺ حدّث بأقوال تفسّر ما جاء في الآيات القرآنية الكريمة وتبيّنه، فقد أظهر الرسول ﷺ في أقواله وأعماله فضل الصحة والعافية أيضاً. أما الإعجاز الطبي في القرآن فإن العرب قد تلقوا في زمن البعثة آيات أدركوا دلالتها على القدرة الإلهية، وحسب القرآن الكريم إعجازاً أن النظريات العلمية الحديثة لم تنقض شيئاً ممّا جاء فيه، وإنما جاءت دليلاً على أنها كانت معجزة أن تنزل في زمانها، وأنها سبقت العلم التجريبي الحديث المؤيّد.

ففي النظافة المبعدة للأمراض يقول الله عزّ من قائل في وجوب الوضوء **﴿يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾**[1].

فالنظافة تبعد عن المرء الكثير من الأمراض، وفي الوضوء حكمة بالغة، إذ إنه يجب على كل مسلم أن ينظف الأعضاء الظاهرة من جسمه خمس مرات في اليوم، وفي هذا التكرار نظافة مستمرة للجسم. فكلما تعفرّ الإنسان وتغيّر ريحه وسال عرقه وبخر جاء ميعاد الوضوء فاغتسل وأزال عن أعضائه الأوساخ والغبار. إن الأوساخ مساعد كبير على نقل المرض ووجود الحشرات الناقلة للمرض ينقل الحمى التيفوسية، وأمراض أخرى ينقلها الذباب كالتيفوئيد والزنطاريا والكوليرا، وأمراض جلدية عديدة ناتجة عن عدم النظافة. وإن نظافة الفم مرات خمس في اليوم من أهم

(١) سورة المائدة الآية ٦.

أسباب الوقاية من تسوس الأسنان وإصابة اللثة. وغسل طاقتي الأنف بالماء البارد يمنع من الزكام. ناهيك عمّا يتطلبه الوضوء من نظافة الثياب والوقوف بين يدي الله بقلب خاشع وجسد نظيف ونفس هادئة وادعة.

وأما الصلاة فهي عماد الدين وركن من أركان الإسلام، تنظّم حياة الأفراد وتعودهم على الطاعة والنظافة لجميع أعضاء الجسد بالاستحمام والوضوء وكذلك الملبس ليحفظ الإنسان كرامته. ومقيم الصلاة يصارع الشرّ في نفسه وهو يقف خاشعاً بين يدي الله خمس مرات في اليوم، ففي صلاته يطمئن قلبه وتخشع نفسه، ولها أثر مباشر في أعضاء الجسم وجميع أجهزته، لأنها رياضة سهلة للكبير والصغير، ولأنها تحرك عضلات الجسم كله وكذلك المفاصل والعمود الفقري. يقول الله تعالى: **﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾**[1]. فللصلاة أثر عظيم في حياة المسلمين وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وكلنا يعلم أثر الفحشاء في التسبّب بالأمراض العصرية المخيفة.

وقد فرض الله سبحانه وتعالى الصيام على الناس لأغراض دينية، منها تعلم النفس الصبر وتحمّل الجوع والعطش ليشعر الصائم بألم المعوز الفقير، فيتألم لألمه ويتصدق عليه بالطعام ولا يبخل عليه بالزكاة. قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات﴾**[2]. فالصيام إضافة إلى تعويد الإنسان النظام والقناعة والصبر وكبح الشهوات، فإن له فوائد صحية منها:

١ ـ علاج زيادة الوزن الناشىء من كثرة الغذاء وقلة الحركة، أو بإسراف الناس على أنفسهم في التهام الطعام فيزدادون وزناً ويبطئون في حركتهم لا علاج لهم في الطب الحديث غير الصيام ونظامه.

٢ ـ علاج اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمّر في المواد الزلالية والنشوية، فإذا أخذ الغذاء المناسب حسب حالة الإنسان كان أنجع وسيلة لتطهير الأمعاء، لأن الصيام ينفع في هذه الحالة وخصوصاً عدم شرب الماء بين أكلة وأكلة، ويكون بين الأكلتين مدة طويلة كما هو الحال في الصيام.

٣ ـ البول السكريّ ينتشر انتشاراً كبيراً في عصرنا الحديث ويكون مصحوباً في

---

(١) سورة طه الآية ١٣٢.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ١٨٣، ١٨٤.

بدئه بزيادة الوزن، والصيام في هذه الحالة خير علاج إذ إن السكر يهبط مع قلة الوزن، ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف وبعشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي بكثير. ولا يزال الصيام ـ مع اعتماد نظام محدد في التغذية ـ أنجع علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين وخصوصاً إذا كان الشخص يزيد في الوزن الطبيعي[1].

٤ ـ ارتفاع الضغط الذاتي الذي يكثر في هذه الأيام مع الانفعالات النفسية وحياة الترف التي يحياها البعض فتزداد متاعبهم وينتج ارتفاع الضغط في الدم عندهم، وخير وسيلة في علاج حالتهم هذه الصيام وخصوصاً إذا كان الشخص ذا وزن ثقيل.

٥ ـ يفيد الصيام في علاج التهاب الكلى الحاد المزمن المصحوب بتورّم.

٦ ـ أمراض القلب المصحوبة بتورّم أيضاً يفيد الصيام في العلاج منها.

٧ ـ إن التهاب المفاصل المزمن وخصوصاً المصحوب بسمنة كما عند الكثر من السيدات اللائي تخطين سن الأربعين، يتحسن الحال عندهن بالصيام أفضل من جميع حالات العلاج العصري من كهرباء وأدوية. يقول الله في كتابه العزيز **﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾**[2]. فالصحة هي تفاعل الإنسان مع بيئته بحيث يكون سليماً لا يشعر بأي أعراض سواء أكانت بيئية أم جسمانية. لأن المرض عبارة عن عدم تفاعل الإنسان مع بيئته، فيشعر عندئذ بالآلام سواء النفسية منها أو الجسدية. فالألم الجسدي يتمثل في شخص أصابه حرق أو عدوى جرثومية، في حالته هذه يتفاعل الجسد بالنسبة إليها تفاعلاً يظهر بشكل مرئي واضح، وهناك تأثيرات نفسية خارجية تؤثر في الجسد بحيث تنتج ضغطاً عليه يظهر بأعراض على مخّه وغدده الصمّاء ومختلف أعضائه بتفاعلات كيماوية، وهو التأثير النفسي، الذي إذا استمرّ يصبح المرض النفسي مرضاً عضوياً في الجسد.

وقال الله سبحانه وتعالى: **﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله﴾**[3].

---

(١) الطب والأطباء ص٨٦.

(٢) سورة البقرة الآية ١٠.

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٣.

فالآية الكريمة تنص على تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير. فالحيوان الميت الذي نفق لمرض أو شيخوخة إنما نفق وما يزال يحمل في جسمه بعد الموت مواد غير طبيعية تسممية ضارة بجسم الإنسان الحي حتى بعد تعقيمها من الجراثيم عن طريق الحرارة. فالجسم يشبه في حالتنا هذه حالة الغذاء المتخمّر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة بقي ضاراً بالإنسان وربما أدّى تناول قطعة منه إلى الوفاة. والدم سائل أغلبه وأهم عنصر فيه كريات الدم الحمر وفيه من إفرازات الجسد ما هو معدٍ للإفراز بالبول والعرق. فالدم مزيج من مواد مفيدة للجسم ومواد تضرّ به إذا لم تفرز، وإذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم مريضاً كان شرب الدم ـ مع الطعام منه ـ أشدّ ضرراً. وإذا ظلّ هذا الدم في جسم الحيوان قبل أكله أحدث تفاعلات في أنسجة هذا الحيوان كالعضلات ويصبح تناولها مضرّاً بالإنسان الحيّ. والميت من الحيوان بالشيخوخة كالميت من المرض، لأن الشيخوخة انحلال للأنسجة وتلفها، ويصبح تناولها بعد ذلك تناولاً لأنسجة مريضة متحلّلة.

أما لحم الخنزير فقد أظهر العلم الحديث أنه كثيراً ما يصاب بالطفيليات وينقل أمراضاً شتى مثل الستينيا والبلانتيديوم، وهو الحيوان الوحيد الذي يصاب بالتركينا (نوع من الديدان خطير)، والإنسان الذي يصاب به يحدث عنده تسمّم عمومي وإسهال مثل الكوليرا وقد يؤدي إلى وفاته.

وبالانتقال إلى مساوىء شرب الخمرة، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾**[1]. فشارب الخمر يستفيد بقدر يسير وينتشي، فإذا زاد على ذلك أحدث ضرراً وإصابة بخمول وأصيب بأمراض شتى، إذ تسبب الخمر لمتعاطيها الإدمان عليها ويتعدّى ضررها إلى الإضرار بكثير من أجهزة الجسم كالجهاز الهضمي والجهاز العصبي والدموي أيضاً. فالآية تنص على حقيقة ثابتة هي أن الخمر فيها منافع عرضية ولكن الإثم فيها أعظم من منافعها، ولذلك نهى الله عنها. والميسر كالخمر، فالنشوة التي يشعر بها المقامر إنما هي على حساب أعصابه وقلقه، والربح الزهيد الذي يجنيه لا يذكر أمام الخسارة الفادحة الجسمية التي تصيبه من جراء إدمانه وإفلاسه.

ويقول الله عزّ وجلّ: **﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء**

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٩.

في المحيض ولا تقربوهنّ حتى يطهرن﴾[1].

فالحيض من المواد السامة التي إذا بقيت في الجسم أضرّت به. وقد ثبت علمياً أن الحيض يضرّ بالمرأة والرجل على حد سواء، والضرر هنا معنوي ومادي، فالمرأة في حالة الحيض تفتح أوعيتها الدموية في الرحم وتصبح مهيأة لتقبل أي عدوى، كما أن الرجل يتعرض للإصابة بالتهاب من دم الحيض الذي هو خليط من خلايا بطانة الرحم والدم وإفرازات الغدد، وفيه الكثير من الجراثيم، وانتقال جزء من دم الحيض إلى القناة البولية في الذكر يحدث فيها التهاباً ينتقل بعدها إلى البروستاتا والمثانة والحالبين وإلى حوض الكلى ثم إلى الكلى نفسها. أما الضرر المعنوي فهو ما يثيره وضع الحائض من التقزّز مما هو عليه جهاز المرأة وحالتها غير المعدّة لقبول العملية الجنسية، فضلاً عمّا يصيب الذكر كما أسلفنا.

ويقول الله سبحانه وتعالى: **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾**[2].

فعلى المطلقات أن ينتظرن ثلاثة شهور قمرية، وما أثبته العلم الحديث أنه في خلال هذه المدة يكون الجنين في الرحم قد نما والتصق غشاؤه بالغشاء الداخلي للرحم كله، ولا مجال لوجود فراغ عند ذلك لنزول الدم، وإذا نزل فإنه يكون يسيراً. والمعنى من الآية الكريمة واضح، وأنه يجوز أن ينزل دم الحيض في الأشهر الثلاثة الأولى قبل التصاق غشاء الجنين بغشاء الرحم.

ويقول تعالى في محكم آياته: **﴿والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة﴾**[3]. فالله في هذه الآية الكريمة يأمر الوالدات بأن يرضعن أولادهنّ. فالوالدة كل والدة مكلفة بإرضاع طفلها لما يعود عليه الإرضاع بالنفع لها ولوليدها. فالإرضاع من الثدي يعد من الضروريات اللازمة لانكماش الرحم في فترة النفاس حتى تعود إلى حجمها الطبيعي قبل الحمل. والانقباضات الرحمية التي تحدث نتيجة الإرضاع توقف أي ميل إلى النزف في الجيوب الوريدية التي تفتح بانفصال المشيمة والأغشية الجنينية المختلفة. والإرضاع ـ كما هو معروف ـ يسبب انقطاع الحيض عند المرضعة وهذا مما يساعد على إراحة الأعضاء التناسلية ومنع احتقان الدم في الرحم وسهولة انكماشها. وقد ثبت علمياً أن معظم الإصابات

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٢.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٣.

بتضخم الرحم ترجع إلى إهمال الوالدات إرضاع أولادهنّ. أما الفطام الطبي فهو تدرّجي، ويجوز أن يفطم الطفل الصغير لأقل من عامين من ولادته إذا كانت صحته تساعده على الفطام، أما إذا كانت صحته ضعيفة غير مساعدة على ذلك فقد تحصل له بعض المضاعفات كإسهال أو قيء أو فتور عام في الجسم، ففي هذه الحال يستمر في إرضاعه حولين كاملين. وحكمة هذه المدة أن الطفل بعد هذين الحولين يمكن أن يستغني استغناء شبه كامل عن لبن الأم ويصبح قوياً يتحمل أي مضاعفات في جسمه.

وحكمة أخرى طبية في قوله تعالىٰ: **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً﴾**[1].

عرفنا أن الزوجة المطلقة تطهر بثلاثة قروء، وهنا نص في الآية الكريمة ينص على جعل مدة عُدّة المتوفّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً. فقد كشف العلم الحديث حكمة هذه الآية وبيّن أنّ الدورة الطمثية للحيض عند السيدة إنما هي مدة ثمانية وعشرين يوماً، فإذا فرض أن الرجل قد جامعها قبل ميعاد الحيضة مباشرة وحملت، واستمرّ الحمل ثلاثة شهور، فيكون الجنين قد تكوّن في أحشائها، وبذلك تصبح مدة الانتظار أربعة شهور قمرية، ثم ما زاد عن هذه المدة ـ عشراً ـ زيادة في الاستيثاق من وجود الحمل.

وقال الله تعالىٰ في محكم آياته: **﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين﴾**[2].

إن من عظمة الخالق عزّ وجلّ أن أخذ من ظهور بني آدم ذرّيتهم، وقد أثبت علم الأجنّة الحديث أن الخصية تتكون من جزء أسفل الكليتين في الظهر وتبقى في مكانها تحت الكليتين حتى الأشهر الأخيرة من حياة الجنين في بطن أمه ثم تتخذ طريقها بعد ذلك هبوطاً حتى تصل إلى الصفن في مركزها الطبيعي عند الولادة، وقد يتأخر هبوطها أحياناً ويولد الطفل وخصيتاه في البطن، وتسمّى هذه الحالة «الأخصية غير النازلة». وكذلك أثبت علم الأجنة أن المبيض في أنثى الجنين يكون في الظهر تحت الكلية ثم يهبط من مكانه بجوار الرحم. وهذا ما تنص عليه الآية

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٤.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

الكريمة أن ذرية الإنسان من ظهره ذكراً كان الطفل أو أنثى.

وقال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: **﴿يـأيها النـاس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقـة ثم من مضغة مخلقـة وغير مخلقـة لنبيّن لكم ونقرّ في الأرحام ما نشـاء إلى أجل مسمّى ثم نخـرجكم طفلاً ثم لتبلغـوا أشدّكم ومنكم من يتوفّى ومنكم من يـرد إلى أرذل العمر لكيـلا يعلم من بعد علم شيئـاً وترى الأرض هامدة فـإذا أنزلنـا عليها الماء اهتزّت وربـت وأنبتت من كـل زوج بهيج﴾**[1].

وإذا أراد الله تعالىٰ شيئاً قال له كن فيكون، وهكذا خلق آدم من تراب، أما بقية الخلق فكانت من تكوّن الجنين في الـرحم من تلقيح بـويضات ذكـرية لبـويضة أنثى وهو ما يسمّى نطفة، ثم تتحول النطفة لتصبح شكلاً مستطيلاً، شبيهاً بالعلقة تماماً، ويستمر هذا الشكل في الأسابيع الأولى للحمل حيث لا يمكن رؤيته إلاّ تحت أنواع دقيقة من المجهر الذي عُرف مؤخراً بعد ألف سنة من نزول الآية الكريمة، مما يـدل على إعجـاز القرآن الكـريم وسبقه لمكتشفـات العلم الحـديث. هـذه العلقـة تلتصق في جدار الرحم حيث تنمو لتصير على شكل قطعة لحم ممضـوغة ومن حـولها الأغشية الثلاثة، وفي هذه الفترة يبدأ الجنين بالتكـوّن من خلية واحـدة تنقسم ثانيـاً إلى نوعين من الخلايا[2]:

١ - **نوع جنيني غير مخلق**، وهو الخلايا غير المتميزة، وهي التي لديهـا القدرة عـلى النمو غير المحدود والقدرة على التوالد والتكاثر حتى تتكون الطبقات الجرثومية الثلاث الظاهرة والمتوسطة والداخلة.

٢ - **نوع مخلق متميّز**، ويبدأ بتكوين الطبقات الثـلاث التي تتطور لتنشىء الشكـل المعروف للإنسـان، وهي تتخذ شكـلاً متميزاً ومتنـوّعاً في الأنسجـة والأعضاء والوظائف. وإذا ظلّت الخلية الجنينية غير المتميزة كامنة يمكن أن تتوالد وتظهر تحت تـأثير عـوامل مختلفـة كشكل سرطـاني يلتهم أي عضو سليم يتـطوّر الجنـين في نموه، وفي أي طور من هذه الأطوار تحدث عوامل بالنسبة إلى الرحم وبالنسبة إلى جسم الحامل يتسبب عنها إجهاضهـا، فإذا استقـرّ الجنين في الـرحم بتثبّته في جدارها مـدة عشرة أشهر قمـرية تهيّـأ الجسم كله والرحم لنـزوله إلى عـالم

(١) سورة الحج الآية ٥.

(٢) الطب والأطباء ص٩٣.

الحياة بقدرة الخالق الجبار.

ويقول الله عزّ وجلّ: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[1].

بعد نزول الآية الكريمة بألف وأربعمائة سنة تقريباً توصل العلم الحديث بفضل ما ابتكره من مجاهر دقيقة وبفضل علم التشريح المقارن والتصوير بالأشعة إلى حقائق قررتها الآيات المذكورة. فقد خلق الله الإنسان من عناصر التراب المتنوعة، وهو الخلق الأول، ثم خلق بني آدم من طريق التناسل من حيوان منوي ذكري داخل سائل متدفق بوساطة تلقيح الحيوان المنوي لبويضة الأنثى، ثم تتكون بعد هذا التلقيح العلقة لتصبح مضغة ثم جنيناً. في هذا الجنين ـ حسب العلم الحديث ـ توجد الطبقة المتوسطة من الطبقات الجرثومية الثلاث، وهي تنقسم إلى خلايا تتكون منها العظام والعضلات، وتتصل خلايا الطبقة الصلبة العظمية وتمتد إلى أماكنها الكثيرة، وتصبح الخلايا الأخرى للطبقة الجرثومية عضلات تنمو مع التغضرف. وفي خلال الأسبوع الثامن يظهر التكلّس والتعظّم للغضاريف، وتكون العضلات قد بدت بسرعة في مختلف أنحاء الجسم لتتخذ الشكل النهائي لها. ثم بعد أن يكسو اللحم العظام يكون الإنسان قد أنشيء خلقاً جديداً كما تنص الآية الكريمة بظهور جميع أعضاء الجسم.

ومن عظمة الله أن دلّ في محكم آياته على أن الماء يكوّن الجزء الأكبر الأهم من جسم الإنسان، يقول الله تعالى: **﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾**[2]. فالماء قوام تكوين كل كائن حي، وجسم الإنسان يحتوي على نحو سبعين بالمائة من وزنه ماء، وهو أكثر ضرورة للإنسان من الغذاء، فالإنسان القادر على العيش دون طعام نحو ستين يوماً لا يمكنه أن يعيش لأكثر من عشرة أيام بدون ماء. ذلك أن الماء هو أساس تكوين الدم والسائل اللمفاوي والسائل النخاعي وإفرازات الجسم من بول وعرق ودموع ولعاب، وهو يدخل في تركيب الصفراء والحليب وسوائل المفاصل التي هي سبب رخاوة الجسم وليونته. والماء يذيب المواد الغذائية بعد هضمها ليسهل امتصاصها، كما أنه يذيب الفضلات العضوية والمعدنية في البول والعرق. ولو فقد الجسم عشرة بالمائة من مائه لتعرض الإنسان للموت. يقول الله عزّ وجلّ:

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢، ١٣، ١٤.

(٢) سورة النور الآية ٤٥.

﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حيّ**﴾[1]، ولولا الماء لأصاب الموت كل حيّ على وجه البسيطة.

ومن حكمة الله البالغة أنه أشار في كتابه الكريم إلى تحريم اللواط، فبالإضافة إلى أن اللواط محرم دينياً فهو في الوقت نفسه ناقل لأمراض شتى عرف العلم الحديث مساوئها واكتشف ما تحمله من أمراض معدية خبيثة منها مرض السيدا الذي أرعب العالم كله وأصاب من الناس ما أصاب. يقول الله تعالىٰ: ﴿**أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم**﴾[2]. إنّ إتيان الذكور هو اللواط، واللواط جرعة فسق بشعة تتقزّز الأسماع من ذكره، وتنزل بالآدمية إلى الحضيض وتؤدي لو أنها شاعت إلى تعطيل سنّة الزواج الذي هو أصل استمرارية الحياة والذي يتوقف عليه التناسل والتكاثر وتعمير الأرض. إن اللواط ينقل العديد من الأمراض مثله مثل الزنى كالزهري والسيلان والقرحة وأمراض الجلد كالجرب، كما أن الشرج يصبح فاقداً للسيطرة على عملية التبرز. قد تنتقل الجراثيم من شرج المجني عليه إلى عضو الجاني فيحدث فيه التهاب في مجرى البول. ثم إن المجني عليه قد يستعذب هذه العملية البشعة ويعتاد عليها فيتنخّث ويميل إلى الذكور من نوعه منذ صغره إلى أن يصبح رجلاً، وتبدو عليه معالم التخنيث، وقد يصاب هو نفسه بأزمة نفسية في كبره تنشأ عنها معالم رجولة مفرطة لتغطية النقص الذي نشأ عنده.

ومن بديع آياته الكريمة قوله عزّ وجلّ: ﴿**فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت**﴾[3]. فالآية الكريمة تشير إلى حقيقة علمية لم تكن معلومة عند نزول القرآن الكريم، ألا وهي دوران مقلة العين عند اقتراب الموت أو في حالة الذعر الشديد. ومن أسباب دوران المقلة أن شدة الفزع تذهب الوعي فيتعطل الإدراك وتنشط المراكز العصبية اللاواعية في منطقة مهاد المخ ليصبح المذعور في حال شبيهة بحال الذي يغشاه الموت، إذ تدور مقلته وتتسع حدقته وتثبت على اتساعها حتى يموت.

من جميع ما تقدم ندرك أن الآيات الكريمة في القرآن الكريم نزلت لكي تبيّن لنا مدى الإعجاز الطبي فيه، والإنسان المتبحّر في آياته يجد أنها معجزات بالنسبة

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٠.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٦٥، ١٦٦.

(٣) سورة الأحزاب الآية ١٩.

إلى العصر الماضي ومعجزات بالنسبة إلى العصر الحاضر مع ما عرف العصر الحديث من آلات واختراعات سهّلت المعارف وقرّبت المجهول. وفي القرآن الكريم أيضاً ما يشير إلى التطبّب والاستشفاء من كل داء، فالله الذي خلق الداء خلق له الدواء إلاَّ الموت، قال الله تعالىٰ في سورة النحل: **﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾**.

وقد فسّر القرطبي قوله تعالىٰ: **﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾**، قال: هناك تسع مسائل:

١ ـ قوله تعالىٰ: **﴿يخرج من بطونها شراب﴾** يعني العسل، فقد ورد عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال في تحقير الدنيا: «أشرف لباس ابن آدم فيه لعاب دودة ويعني الحرير، وأشرف شرابه رجيع نحلة».

٢ ـ قوله تعالىٰ: **﴿مختلف ألوانه﴾** يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل، وهذا دليل على أن القدرة نوعته بحسب تنويع الغذاء كما يختلف باختلاف المراعي.

٣ ـ قوله تعالىٰ: **﴿فيه شفاء للناس﴾** الضمير للعسل. قال الجمهور: أي في العسل شفاء للناس، وقيل: الضمير للقرآن، أي في القرآن شفاء، أو في ما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء. قال القاضي أبو بكر بن العربي: من قال إنه القرآن بعيد، ما أراه يصحّ عنهم، ولو صحّ نقلاً لم يصحّ عقلاً، فإن مساق الكلام كله للعسل.

٤ ـ اختلف العلماء في قوله تعالىٰ: **﴿فيه شفاء للناس﴾** هل هو على عمومه أم لا، فقالت طائفة: هو على العموم في كل حال ولكل إنسان. فقد روي عن ابن عمر (رض) عنهما أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلاَّ جعل عليه عسلاً، حتى الدمل إذا خرج عليه طلاه بالعسل. وقالت طائفة: إن ذلك على الخصوص ولا يقتضي العموم في كل علّة وفي كل إنسان، بل إنه خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض وعلى حال دون حال.

٥ ـ الماء حياة كل شيء، وقد رأينا الشفاء بالعسل على أن النبي ﷺ قد حسم الإشكال وأزاح عنه وجه الاحتمال حين أمر الذي يشتكي بطنه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلاَّ استطلاقاً أمره بعود الشراب إليه فبرىء وقال الرسول ﷺ: صدق الله وكذب بطن أخيك.

٦ ـ لسنا نستظهر على قول نبيّنا ﷺ بأن يصدقه الأطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وصدقناه.

٧ ـ قوله تعالىٰ: ﴿**فيه شفاء للناس**﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء.
٨ ـ ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أنه لا زكاة على العسل.
٩ ـ قوله تعالىٰ: ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يتفكّرون**﴾ أي يعتبرون، ومن العبرة في النحل إمعان النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها، فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة وحذقها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالىٰ.

لقد كانت سورة النحل حافلة بآيات النعم وعطايا الله للإنسان على الأرض ودليلاً وحجّة على تيسير سبل انتفاع الإنسان بما خلق الله على وجه الأرض، وما أنزل عليها وما أودعه البحار والأنهار، وما أخفاه في التراب والجبال، كل هذا في صورة ظاهرة بيّنة تنطق بعظمة الخالق ومنّه على المخلوق، وتسخيره له دواب المعمورة وطيرها وحشراتها ونباتها وكل ما عليها. فلينظر الإنسان إلى هذه النحلة الضئيلة الجسم وليعرف نفعها ومثابرتها، وليعلم حكمة الله وآيته في صنعها وإنتاجها العسل الذي فيه شفاء من كل داء.

ومن رحمة الله بالإنسان أن منحه القدرة على الفهم والإدراك والتمييز بين الحق والباطل وبين الخير والشرّ، وبين ما يحقّق له الفائدة وما يصيبه بالضرّ والبلاء.

الرسول ﷺ والطب:

كان النبيّ ﷺ يداوي نفسه ويأمر بذلك لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، وكان غالب أدويته مفردة لا مركبة تماشياً مع القاعدة التي ما زالت متبعة حتى الآن، وهي العدول عن الدواء المركب إذا كان الحصول على الشفاء ممكناً بالدواء المفرد. ولقد ورد في ذلك أحاديث عديدة تبرّر اعتبار الرسول ﷺ أول عربي وضع كتاباً عن الطب في الإسلام.

روي عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل داء دواء، فإذا أصاب الداء الدواء برىء بإذن الله». وهذا يدل على أن النبي ﷺ يحثّ المسلمين على تعلّم الطب ويشير عليهم بالاجتهاد في إيجاد العلاج لكل داء. ولقد قال الإمام الشافعي: «لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب». وكان يتلهّف على ما ضيّع المسلمون من الطب ويقول: «ضيّعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى».

أخرج البزار في مسنده والحاكم في المستدرك وابن السني في الطب النبوي وأبو نعيم في الطب النبوي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله من داء إلاّ أنزل له دواء، علم ذلك من علمه وجهله من جهله إلاّ السام وهو الموت».

وأخرج الحاكم وصحّحه عن صفوان بن عسال، قال: قالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: تعلمنّ أن الله لم ينزل داء إلاّ أنزل له دواء غير داء واحد. قالوا: وما هو؟ قال: الهرم.

وأخرج أحمد في مسنده عن رجل من الأنصار، قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً به جرح، فقال: ادعوا لي طبيب بني فلان، فدعوه فجاء، فقالوا: يا رسول الله، ويغني الدواء شيئاً؟ فقال: سبحان الله، وهل أنزل الله من داء في الأرض إلاّ جعل له دواء[1].

وأخرج ابن السنّي وأبو نعيم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا».

وأخرج الحاكم في المستدرك وصحّحه ابن السني وأبو نعيم عن أبي هريرة، قال: أصيب رجل من الأنصار يوم أحد، فدعا له رسول الله ﷺ طبيبين في المدينة، فقال: عالجاه. فقالا: يا رسول الله، إنّما كنّا نعالج ونحتال في الجاهلية، فلما جاء الإسلام فما هو إلاّ التوكّل، فقال: عالجاه، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، ثم جعل فيه شفاء. فعالجاه فبرأ.

وأخرج أبو داود في سننه كتاب الطب والترمذي والحاكم وصححاه والنسائي وابن ماجه وابن السني وأبو نعيم عن أسامة بن شريك، قال: قالوا: يا رسول الله، هل علينا من جناح أن لا نتداوى؟ قال: تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلاّ وضع له دواء غير داء واحد، الهرم.

وفي مسند ابن أبي شيبة أن عُيينة بن حصن دخل على رسول الله ﷺ وهو يحجم في فأس رأسه، فقال: ما هذا؟ قال: هذا خير ما تداويتم به.

وفيه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «خير ما تداويتم به الحجامة والقسط[2] العربي، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العذرة»[3].

وهكذا نجد أن الله تبارك وتعالىٰ لم يبتلِ عباده ببلاء حتى جعل لهم دواء

---

(١) العلاج بالثوم والبصل والحبة السوداء، د. رحاب عكاوي ص٢٥.

(٢) نبات، حار يابس ينفع الفالج، وهو ترياق لنهش الأفاعي واشتمامه على الزكام يذهبه، ودهنه ينفع وجع الظهر.

(٣) العذرة وجع الحلق، قيل: دم يهيج في حلق الإنسان يتأذى منه اللحمتان (اللوزتان) في أعلى الحلق على فم الحلقوم، والعذرة أن تدفع المرأة تلك المواضع بأصبعها.

شافياً يعالجون به، وجعل لهم لكل صنف من الأدواء صنفاً من الدواء، ولو أراد عزّ وجلّ لأرسل على الناس أدواء ذهبت بهم عن آخرهم، لكن رحمته وسعت كل شيء، وعنايته بالمؤمنين تلطفت بهم فتداووا كما أشار عليهم الرسول ﷺ فبرأوا وشفوا المرضى بما وهبهم الله من إعمال الفكر وإيجاد الدواء الشافي من كل علّة.

الأحاديث النبوية المتعلقة بالطب:

إن الأحاديث النبوية الشريفة في التداوي والأمر به كثيرة، وقد قام العلماء الأجلاء بجمع ما ورد عن النبي ﷺ من أقوال في الطب العلاجي وبوّبوا لها في مؤلفاتهم. وأفرد الإمام البخاري كتاباً خاصاً ضمن صحيحه الجامع أسماه «كتاب الطب» بلغت أحاديثه مائة وثمانية عشر حديثاً منها مائة حديث موصول وثمانية عشر حديثاً معلقاً، بالإضافة إلى ستة عشر أثراً عن الصحابة رضوان الله عليهم، وكذلك فعل الإمام مسلم في الجامع الصحيح، وجمعت كتب السنن الأربعة (سنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه) وموطأ الإمام مالك وصحيح ابن حبّان ومسند الإمام أحمد ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة أحاديث كثيرة في الطب. وأفرد أيضاً كثير من العلماء ما جاء عن النبي ﷺ في الطب في كتاب أو رسالة مستقلة[1].

أول من قام بعمل ذلك هو الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم[2]، وقد وضع الرضا رسالة موجزة في حفظ الصحة والمسمّاة «الرسالة الذهبية» وتعد أول رسالة في الطب النبوي.

ثم تلاه عبد الملك بن حبيب الأندلسي المالكي المتوفى سنة ٢٣٨ هـ، ويعد كتابه أول كتاب في الطب النبوي يذكر فيه الأحاديث والأبواب. وصنّف في الطب النبوي أبو بكر أحمد بن أبي عاصمْ الضحّاك الشيباني المتوفى سنة ٢٨٧ هـ، ثم الإمام ابن السني أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري صاحب الإمام النسائي وراوي السنن الصغرى المتوفى سنة ٣٦٤ هـ. ثم ظهر كتاب أبي القاسم الحسين بن محمد النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦ هـ. كما ظهر في الوقت عينه كتاب المحدّث جعفر بن محمد المستغفري النسفي المتوفى سنة ٤٣٢ هـ. كما عرف كتاب الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ. ومن أشهر كتب

(١) السنا والسنوت، د. البار ص٦.
(٢) ١٥٣ - ٢٠٣ هـ.

الطب النبويّ أيضاً كتاب الموفق عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٨ هـ المسمّى «كتاب الأربعين الطبية» ثم كتابه الآخر «الطب من الكتاب والسنّة». ثم ظهر كتاب ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي المتوفى سنة ٦١٩ هـ وكان معاصراً للبغدادي. ثم ظهر كتاب محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي الدمشقي المتوفى سنة ٧٠٩ هـ، وقد جمع فيه مؤلفه أربعين حديثاً في الطب من الصحاح والحسان. وفي الفترة عينها تقريباً ظهر كتاب الكحّال علي بن عبد الكريم بن طرخان الحموي المتوفى سنة ٧٢٠ هـ، وكتابه من أجلّ الكتب وأوسعها في الطب النبوي أسماه «الأحكام النبوية في الصناعة الطبية» وتلاه كتاب في الطب النبوي للإمام الذهبي محمد بن أحمد بن قيماز المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، وكان الذهبي قد اعتمد على كتابي الموفق البغدادي والحموي في تأليف كتابه «الطب النبوي». ويعتبر كتاب «الطب النبوي» للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ أشهر كتب الطب النبوي إطلاقاً. وممّن كتب في الطب النبوي الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وله كتب في الطب منها: كتاب الأشياخ ومختار اللفظ في الطب ولقط المنافع في الطب والطب الروحاني. وكتب ابن ساعد السنجاري محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري المعروف بابن الكنفاني المتوفى سنة ٧٤٩ هـ كتباً في الطب منها كتاب في الطب النبوي، ثم كتب في الطب أيضاً بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني المتوفى سنة ٧٣٣ هـ. على أن أجمع كتاب في كتب الطب النبوي هو كتاب جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ المعروف بـ «النهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي» لأنه حوى معظم ما دوّنه الأولون السابقون بالإضافة إلى ما عرف عن مؤلفه من تبحّر في علم الحديث. وللسيوطي كتب أخرى في الطب النبوي والطب عموماً منها: «الواعون في أخبار الطاعون»، «مختصر المنهج السوي» أسماه «الطب النبوي» «رسالة في علم التشريح» «شرح كليلت الطب»، وله أيضاً مقامات أدبية طبية تحدث فيها عن فوائد الأزهار والفواكه والنقول أورد فيها الأحاديث النبوية والمعلومات الطبية. ثم قام المحدث الشيخ محمد بن أحمد بن علي بن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ هـ بتصنيف كتاب في الطب النبوي أسماه «المنهل الروي في الطب النبوي» أغلب ما فيه منقول عن أستاذه السيوطي[1].

والنبي ﷺ بقدر ما كان حريصاً على هداية الناس إلى طريق الخير والسعادة،

---

(١) السنا والسنوت ص٩ ـ ١١.

كان أيضاً حريصاً على سلامتهم من المرض والحزن. فالرسول ﷺ حرص علينا في دنيانا ألا نمرض وألا نحزن فدعانا وأمرنا بكل أمر فيه خيرنا سعادتنا ونهانا عن كل ما يضرّ بنا أو يسبب لنا الألم، ولهذا كانت رسالته ﷺ شريعة المبعوث لصلاح الدنيا مشتملة على صلاح الأبدان كاشتمالها على صلاح القلوب ومرشدة لحفظ الصحة ودفع آفاتها، ولو رزق العبد التبحّر في كتاب الله وسنّة رسوله لاستغنى بهما عن كل ما سواها ولاستنبط جميع العلوم الطبية الصحيحة منها. وقد كان الطب النبوي الذي حرص على سلامة الأبدان وطهارة القلوب هو أكمل الطب وأصحّه وأنفعه. وكلنا يعرف أن العقل السليم في الجسم السليم، وسلامة الجسم تتحقق بالغذاء الجيد من الطعام والشراب والوقاية من الأمراض، لذلك كانت الوقاية هي طريق صلاح الأبدان وحفظها، فنجد الدعوة صريحة للوقاية من الأمراض الجلدية والمعدية، فقرأنا عن النظافة والوضوء والتطهر والصلاة في آيات القرآن وسنّة رسوله الكريم. ورد في الصحيحين ما معناه: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». وقال النبي ﷺ في الوقاية من السمنة وما تسببه من أمراض ومضاعفات: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء». وفي المسند وغيره ورد عنه ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بدّ فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه».

ذكر في الخبر أن المقوقس ملك مصر أهدى للنبي ﷺ طبيباً، ومكث هذا الطبيب مدة طويلة في المدينة المنورة دونما عمل، فلم يذهب إليه من يشكو مرضاً، واحتار الطبيب في ظاهرة عدم وجود مرضى، فتوجه إلى النبيّ ﷺ يسأله، قال: يا رسول الله، لقد بقيت بينكم مدة طويلة ولم يتردّد عليّ أي مريض! فأجابه الرسول ﷺ: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

ويقول الرسول ﷺ فيما عرفه علم الوراثة بعد زمن طويل: «تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس». وكان يقول: «أنا خيار من خيار من خيار». ويقول علماء العرب إن مراتب الغذاء ثلاث: إحداها مرتبة الحاجة، والثانية مرتبة الكفاية، والثالثة مرتبة الفضلة. يقول الإمام الذهبي في صدد الغذاء: إن أخذ الغذاء في وقت الحاجة سبب لدوام الصحة، وأما أخذه من غير حاجة إليه فيورث الأمراض. وروي عن النبي ﷺ قوله: «من اكتفى بدون الشبع حسن اغتذاء بدنه وصلح حاله ونفسه».

علاج الحمى:

قال الرسول ﷺ: «إنما الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء». فالحمى الحادثة عن شدّة حرارة الشمس ينفعها الماء البارد، وهي الطريقة التي ينقذ بها سنوياً مئات ممّن يصابون بالرعن ـ ضربة الشمس ـ في موسم الحج. إن الاستبراد بالماء من الأساليب المستعملة في مكافحة الحمى حتى يومنا هذا، وكانت هي الوسيلة الأساسية في العلاج من الحمى التيفية قبل ظهور الأدوية المعروفة بـ «أنتي بيوتيك».

علاج المرضى بتطبيب النفس وتقوية القلب:

روى ابن ماجه: «إذا دخلتم على المريض فنفّسوا له في الأجل فإن ذلك لا يرد شيئاً وهو تطمين لنفس المريض». قال الذهبي: الأعراض النفسانية تؤثر في البدن فتغيّره، وهذه الأعراض هي الغضب والفرح والغم والخجل، أما الغضب فإنه يؤذي وكذلك الغم والهم فإنهما مؤذيان، وفي رواية «من كثر همّه سقم بدنه». ورُوي: «ما على أحدكم إذا ألحّ به الهمُّ إلاَّ أن يتقلّد قوسه».

فتفريج نفس المريض وإدخال البهجة إلى قلبه له تأثير عجيب أحياناً، ويذكر الذهبي أن الفرح من شأنه تقوية النفوس، ويبحث عن الوسائل المفرحة للنفس فيذكر السماع أولاً فيقول: هو طيب الأنفس وراحة القلوب وغذاء الأرواح، وهو من أجلّ الطب الروحانيّ وسبب السرور حتى لبعض الحيوان، وأنت ترى أهل كل صناعة متعبة يستخرجون لأنفسهم ألحاناً يخففون بها عن أنفسهم، وترى الطفل إذا بكى سكت بالحداء، والإبل تطوي الفلاة بالحداء، والهزار يلقي بنفسه في الأماكن التي فيها صوت مطرب.

علاج حالة التسمّم:

رُوي في كتب السير أن الرسول ﷺ احتجم يوم أكل من الشاة المسمومة في خيبر، وأمر أصحابه أن يحتجموا فمات أحدهم، فحجمه أبو هند بالقرن والشفرة. ومعالجة السم تكون بالاستفراغات والعقاقير التي تعارض فعل السم وتبطله إما بكيفياتها وإما بخواصها. وقد مرّ معنا ذكر فعل النبي ﷺ عندما لدغته العقرب فبادر بعد قتلها إلى وضع موضع اللدغة في إناء فيه ماء وملح. وقد جاء في الحديث كما رواه ابن ماجه: «سيّد إدامكم الملح»، وقد أثبت الطب الحديث ضرورة الملح للجسد.

وقـال رسول الله ﷺ: «إن في الجسـد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

وجـاء في الحديث الشريف أن رسـول الله ﷺ قال: «إذا مـرّ بالنـطفـة اثنتـان وأربعـون ليلة بعث الله إليـهـا ملكـاً فصـوّرهـا وخلق سمعهـا وبصرهـا وجلودهـا وعظامها». هـذا الحديث النبـوي الشريف سبق ما جـاء في أحدث الكتب عن علم الأجنّـة والحمل والـولادة. فلنسمع مـا ورد في كتاب «إيـدن وهولانـد» ص٦٢: في الاثنـين والأربعين يـوماً الأولى لا يمكن تمييـز الجنين، وفي حـوالى نهاية الشهـر التالي تظهر معـالم الجنين التي تميـزه من البويضـة. وجاء في الصفحـة التاليـة (٦٣): بعد الأسبوع السادس تكون معالم الجنين قد تكـوّنت (وفي الشهر التـالي يكون الجنـين ٣ سم). وهذا هو المقصود بتصوير النطفة على شكل إنسان. كـما جاء في كتاب ليسلي برنارد آري عن الإنسان: في الأسبوع السـادس يكون قد ظهر ما يلي:

١ ـ أعضـاء الحواس.
٢ ـ تلتئم ألياف حلقات العضلات في استمرار حتى تتكـوّن تجمعاتهـا في الأطراف والصدر وحول العين، وهذا هو المقصود بتكوين اللحم.
٣ ـ تظهر ألوان الشبكة وتنفصل العدسـة ويظهـر الجسم الزجـاجي والمشيمة، أي الطبقة الوعائية الثانية للعين، وهو المقصود بتكوين البصر.
٤ ـ تتشكل الأذن الخارجية والداخلية وتتعمق تجاويف الفم وهو المقصود بسمعها.
٥ ـ يبدو أول ظهور للتغضرف أي التحوّل إلى نسيج غضروفي الذي ينمو فيصبح عظمـاً، وهذا هو المقصود بعظامها.

وحسب مـا جاء في كتب الـطب الحديث التي تكلمت عن تـطور النـطفـة في الأسـابيع الأولى من الحمـل يكون الـرسول الكـريم ﷺ قـد سبق في أحـاديثـه أهم أبحاث في علم الأجنة والولادة، فالرسول ﷺ لا ينـطقُ عن الهوى إن هـو إلاَّ وحي يوحى.

حديث الرسول ﷺ عن وباء الطاعون:

سُئل أسامـة بن زيد: مـاذا سمعت من رسول الله عن الـطاعون؟ قـال: «إذا سمعتم به بأرض فـلا تدخلوا عليـه، وإذا وقع بـأرض وأنتم بها فـلا تخرجـوا فراراً منه». فالحديث الشريف يطابق مـا نسميه الحجـر الصحي الحديث، وهـو أنه يمنـع قدوم أي شخص من أرض بها وبـاء لأنه يكـون بمثابـة ناقـل للعدوى من دولـة إلى

دولة أخرى. وقد جاء في موطأ مالك عن عبد الرحمن بن عوف، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا نزل الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

لقد كان الطب النبوي سباقاً إلى وضع القواعد الصحية السليمة في المحافظة على الناس وعدم نقل العدوى إليهم وعدم انتشار أي وباء وذلك بتعاليم وأحاديث كثيرة. وقد قال الرسول ﷺ ما معناه: «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد». ولعل في ذلك حكمة لأننا نجد أن الرذاذ الذي يتطاير من فم المجذوم عندما يعطس يمكن أن ينقل العدوى إلى الأشخاص الأصحاء، لذلك كان الواجب أن نفرّ منه خشية أن يعطس ويخرج الرذاذ في وجوهنا، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «كلّم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين». وكثيرة هي الأمراض التي تنتقل عن طريق النفس والزحام، ولهذا نسمع قوله تعالىٰ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يوردنّ ممرض على مصحّ». لأن العدوى ربما انتقلت بالنفس أو المصافحة وخصوصاً إذا كان المريض قد لامس البول أو البراز دون غسل يديه غسلاً جيداً، أو من خلال الرذاذ المتطاير من فمه أو أنفه عند الكلام أو العطس. قيل لرسول الله ﷺ: الرجل يلقى أخاه، أينحني له؟ قال: «لا. قيل: أيلتزمه ويقبله؟ قال: لا. قيل: أيصاحفه؟ قال: نعم».

حديث الرسول ﷺ في الغَيْل[2]:

روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا تغيلوا أولادكم فإن الغَيْل يدرك الفارس فيعثره عن فرسه». وقد نسخ هذا الحديث بالحديث القائل: «هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضرّ أولادهم ذلك شيئاً».

ونحن نعلم أن لا مجال للخوف من لبن المرضع إذا كانت تستطيع أن تغتذي بما يوفر لها ولجنينها ورضيعها العناصر الغذائية اللازمة التي تعادل خمسة آلاف وحدة حرارية، على أنه قد يطرأ على لبن الحامل في النصف الثاني من الحمل تحول لبئي يجعل اللبن غير صالح للرضيع. هذا التحوّل يدل على ظهور جسيمات تدعى الجسيمات اللبئية، وقد تبينّ أن الإلباء يقع في غير الحمل ويسببه ركود غدة الثدي

(١) سورة المجادلة الآية ١١.

(٢) اللبن الذي ترضعه المرأة وهي حامل.

واحتباس اللبن فيها، وإن الاستمرار على تنشيط الثدي بمصّه من قبل الرضيع يعوق التحوّل اللبئي، ولا يكون هـذا التحوّل عـادة إلاّ في الأشهر الثلاثة الأخيرة، لأن أنواع الأغذيـة التي تقدم للرضيـع تلهيه عن ثـدي أمه فـلا يمصّه كـالسابق فيحتبس إفرازه ويسهل تحوّله إلى لبإ.

الرسول ﷺ ومحاربته السحر والتكهّن:

لقـد حارب الـرسول ﷺ الإيمـان بالتـطير والطيرة والتـولـة والتـمائم والعيـافـة والتكهّن والعرافة والسحـر وما شـابه ذلـك. جاء في الحـديث الشريـف: «الطيرة من الشرك»، «التولة والتمائم والرُّقى من الشرك»، «من علّق تميمة فقد أشرك»، «والعيافة والـطَّرْق[1] من الجبت»[2]. وقال النبي ﷺ في الكهـانة والعـرافـة: «من أتى كـاهنـاً فصدقه فيما يقول فقـد كفر»، «من أتى عـرّافاً أو كـاهناً فقـد كفر»، «المنجم كـاهن والكاهن ساحر والساحر كافر».

وقد قاوم الإسلام السحر مقاومة شديدة، حتى إن الفقهاء بحثوا في جواز قتل الساحر لتصرّفـه بالإفسـاد وما ينشـأ عنه من الفسـاد. وهكذا جعلت الشريعـة باب السحر والطلسـمات والشعوذة ومـا إلى ذلك بـاباً واحـداً لما فيهـا من الضرر وخصّته بالحظر والتحريم.

العلاج من الكَلَب:

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا ولغ الكلب في إنـاء أحدكم فاغسلوه سبعاً أولاهنّ بالتراب». إن سميـة الكلب تسري في لعابـه، ومن علامـات مرض الكلب الكلِب أن تحمرّ عيناه ويخرج لسانه ويسيل لعابه ويطأطىء رأسـه نحو الأرض وترتخي أذناه ويندس ذيله بين رجليه ويعدو دوماً ويكون كالسكران، ويحمل على من يراه ولا ينبح إلاّ قليلاً مع بحة في صـوته، وتهـرب منه الكـلاب ويمتنع من الأكل ويهرب من الماء، وإذا عضّ إنسانـاً عرض لـه من الأعراض نحـو ما عـرض للكلب. وعلاجه يكون في شقّ موضع العضة ثم توضع عليه المحاجم ويمصّ مصّـاً قويّاً، ويجتهد ليبقى الجرح مفتوحاً.

---

(١) ضرب بالحصى على سبيل التكهّن.

(٢) السحر الذي لا خير فيه.

الطب النبوي والعسل:

يعتبر عسل النحل من أنجع الأدوية في العلاج من الأدواء، وهو أفضل غذاء في الأغذية المستخدمة للشفاء من الداء. ولم يكن معوّل المعالجين القدماء إلاّ عليه، ذكروه في أحاديثهم وفي وصاياهم وفي كتبهم التي أثرت عنهم، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ ومنها قوله: «عليكم بالشفاءين القرآن والعسل». وعن أبي هريرة (رض) مرفوعاً قول النبي ﷺ: «من لعق ثلاث غدوات كل شهر لم يصبه عظيم البلاء».

ويروى أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه، وفي رواية استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلاً. فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فلم يغنِ عنه شيئاً، مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول له: اسقه عسلاً. فقال في الثالثة (أو الرابعة): صدق الله وكذب بطن أخيك، فاستمسك بطنه. واستطلاق البطن يعني الإسهال كما عرّفه الطب الحديث، وقد أصرّ النبي ﷺ في ردّه على الرجل أن يسقي أخاه المريض العسل مرة تلو الأخرى، فذلك حتى يتم تطهير معدته من العفونة التي حلّت فيها لأن سقية واحدة لن تكفي المريض، وتكرار شرب العسل سيزيل الإسهال لا شكّ كما يحدث في أثناء تناول العقار لأيام عديدة في أيامنا هذه.

وقد علّق الدكتور علي الكحال على هذا الحديث بقوله: «إن الإسهال في معدة المريض ناتج عن إصابته بالتخمة»، وقد أمر النبي ﷺ أخاه بإعطائه العسل لدفع ما فضل من الطعام في المعدة والأمعاء. وكثيراً ما يلجأ الناس إلى معالجة الإسهال بالعسل ولا سيما ممزوجاً بالماء الحار.

وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع وهو أن الدواء يجب أن يكون مقدّراً وبكمية حسب حال الداء، فإن قصّر عنه لم يزله كلية وإن جاوزه أوهى قوى المريض وأحدث ضرراً زائداً. فلما أمره أن يسقيه العسل سقاه مقداراً لم يفِ لمقاومة الداء ولم ينفع في طرد العفن، فلما أخبره علم أن الذي تنوول ليس يفي بالحاجة المطلوبة، كرّر له أن يسقيه وأكّد عليه معاودة إعطائه العسل ليصل إلى المقدار المحدد، ولما تكرر الشرب وعادل مقدار الداء شفي بإذن الله وزال استطلاق بطنه.

وفي قول النبي ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك» دليل دامغ على تحقيق نفع هذا الدواء الشفاء، وأن بقاء الداء ليس يعد لقصر الدواء في حد نفسه ولكن لكذب البطن وكثرة العفن والفساد الضارب فيه، وفي قول الرسول ﷺ قطع بصدق

نصحه الطبي، وهو ليس كطب المعالجين والعقّارين، ولكنه طب إلهي صادر عن الوحي ليس يخالطه اللبس والظن والتخمين.

ويقول الزرقاني في شرح المواهب اللدنية في تناوله لهذا الحديث: إن معنى قول النبي ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك»، أن بطن المريض أخطأ حيث لم يصلح لقبول الشفاء بسرعة لكثرة المادة الفاسدة فيه، ولذلك أمره النبي ﷺ بمعاودة شرب العسل للاستفراغ، فلما كرّر ذلك برىء. وفي معرض الحديث عن استطلاق البطن، تناول الدكتور محمود ناظم نسيمي[1] الوصفة النبوية هذه وخلص إلى أن لها ميزات ثلاثاً:

١ ـ المعالجة المثلية بمعالجة الإسهال بمسهل، وذلك لدفع الفضلات ومحتوى الأمعاء الفاسدة أو طرف المحتوى المتعفن بتكاثر الجراثيم في عفونة الأمعاء.

٢ ـ اختيار العسل، وهو ملين، على المسهلات الشديدة التي تخرش الأمعاء. وأكثر الأطباء إذا رغبوا في إعطاء مسهل في حوادث الإسهال عند الشباب والكهول ـ الطارئة غير الطفيلية ـ فإنهم يفضلون الملين بمقادير متوسطة أو صغيرة.

٣ ـ اختيار العسل من بين الملينات، لأن في العسل مواد مطهرة تؤثر في الجراثيم فتثبط نموّها وتقتل بعض أنواعها.

لقد آمن الصحابة بطب القرآن الكريم وطب النبي ﷺ، فها هو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي يقول حين أتوا إليه لمعالجة في مرضه: ائتوني بماء، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾[2]، ائتوني بعسل، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿فيه شفاء للناس﴾[3]، ثم قال: ائتوني بزيت، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾[4]، فجاءوه بكل هذا فخلطه وشربه فبرىء بإذن الله تعالىٰ.

وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير، ففي شرطة محجم أو شربة عسل

(١) الطب النبوي والعلم الحديث.
(٢) سورة ق الآية ٩.
(٣) سورة النحل الآية ٦٩.
(٤) سورة النور الآية ٣٥.

أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي».

ومثله ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاث: في شرطة محجم أو شربة عسل أو كيّة نار، وأنهى أمتي عن الكيّ».

في هذا الحديث النبويّ الشريف معنى بديع نفهم منه أن علاج المرض كان يتم بإحدى طرق ثلاث: فإما بعملية جراحية بوساطة مشرط، وإمّا بتناول العقاقير المعروفة، وإما بالكيّ بالنار، ونجد أن النبي ﷺ ينهى عن الكيّ فهو لا يريدنا أن نزيل العذاب بعذاب آخر.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتداوون بعسل النحل ويوصون الناس بالتداوي به بعد أن عرفوا من كتاب الله وسنّة رسوله أن فيه شفاء من كل داء. وروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل».

* * *

لقد عرف الطب القديم سرّ منافع العلاج بالعسل فاستخدموه في علاج وتطهير الجروح، ويذكر أنه منذ ألفين وخمسمائة سنة استخدم بقراط العسل بنجاح في علاج الجروح. وقد كتب بلليني العالم الروماني الشهير أن دهن السمك إذا مزج بالعسل كان علاجاً ممتازاً للجروح، وكان ينصح باستعمال العسل للخراريج الموجودة بالفم. وكان الطبيب العربي ابن سينا يعتبر أن للعسل خاصية الامتصاص، وكان ينصح باستعماله في الجروح البسيطة في هيئة لبخة مصنوعة من العسل والدقيق بدون ماء. ونصح ابن سينا أيضاً بتناول العسل بعد مزجه بشراب الورد في المراحل الأولى للسل الرئوي، أما السعال المزمن فقد كان علاجه يتم بمزيج من العسل والجوز.

* * *

علاج الإمساك:

ومن هدي الرسول ﷺ في علاج الإمساك من حديث أسماء بنت عميس، قالت ما معناه: «قال رسول الله ﷺ: بماذا كنت تستمشين؟ قالت: بالشبرم. قال: حار جار. ثم قالت: استمشيت بالسنا. فقال: لو كان شيء يشفي من الموت لكان السنا».

علاج البثرة:

ذكر ابن السني في كتابه عن الطب النبوي عن بعض أزواج النبي ﷺ، قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد خرج في إصبعي بثرة، فقال: عندك ذريرة[1]؟ قلت: نعم. قال: ضعيها عليها، وقال: قولي اللهم مصغر الكبير ومكبر الصغير، صغر ما بي».

ويذكر عن الإمام علي (رض) أنه قال: «دخلت مع رسول الله ﷺ على رجل يعوده، بظهره ورم، فقالوا: يا رسول الله، بهذه مدة، قال: بطوا عنه[2]. قال علي: فما برحت حتى بطت، والنبي ﷺ شاهد».

فإن تكوّن هذا الصديد مؤلم ومرهق للجسم وقد يتسرّب إلى أماكن أخرى، ولذلك كان إخراجه مبكراً واجباً لسلامة الجسم.

الحجامة في الطب النبوي:

روي عن رسول الله ﷺ وذلك عن عبد الله بن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «الحجامة تزيد الحافظ حفظاً، والعاقل عقلاً، فاحجموا على اسم الله تعالىٰ ولا تحجموا الخميس والجمعة والسبت والأحد واحتجموا الاثنين، وما كان من جذام ولا برص إلاّ ونزل يوم الأربعاء».

إن إنعام النظر في هذا الحديث الشريف وما فيه من معانٍ جليلة يدل على أن في الحجامة شفاء، فهي قد تكون شفاء لبعض أمراض القلب وبعض أمراض الدم وبعض أمراض الكبد. ففي حالة شدة احتقان الرئتين نتيجة هبوط القلب، وعندما تفشل جميع الوسائل العلاجية من مدرات البول وربط الأيدي والقدمين لتقليل اندفاع الدم إلى القلب ليتمكن من القيام بضخ القليل من الدم، لأن القلب الهابط لا يستطيع دفع الكثير من الدم، فقد يكون في إخراج الدم بالفصد عاملاً هاماً في سرعة علاج القلب الهابط. كما أن الارتفاع المفاجىء في ضغط الدم المصحوب بشبه غيبوبة، قد يكون إخراج الدم أيضاً علاجاً لمثل هذه الحالة خصوصاً إذا لم ينفع العلاج. وبعض حالات أمراض الكبد الناتجة عن التليف الكبدي الصديدي لا ينفع معها علاج إلاّ بإخراج الدم.

---

(١) دواء هندي يتخذ من قصب الذريرة.

(٢) أي اعملوا فتحة في الورم لإخراج الصديد الموجود.

والحجامة يوماً في الأسبوع لها دلالة بديعة، فقد ثبت أن الجسم يمكن أن يجدّد المفقود منه بعد أسبوع من فصده الدم، لذلك كان إخراج الدم بفصده مرة كل أسبوع، علماً أن تكرار فصده في أقل من أسبوع قد يكون له الضرر البالغ ونقص نسبة الحديد في الجسم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «الحجامة على الريق دواء وعلى الشبع داء، وفي سبعة عشر من الشهر شفاء». فقد يُصاب بعض الناس بالغثيان والقيء عند رؤية الدم المفصود، ولذلك من الواجب أن يكون المريض الذي نأخذ منه الدم صائماً حتى يقل عنده الشعور بالغثيان ولكي لا يتقيّأ، ولكن إذا كان قد تناول طعاماً فقد يزداد عنده الشعور بالغثيان ويتقيأ ويصاب بالهبوط. ولذلك كان من الحكمة قول الرسول ﷺ: «احجموا الاثنين» لكي تستقر الحالة المرضية.

الرسول ﷺ وعلاج عرق النسا:

روى أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ثم تشرب على الريق في كل يوم جزء».

إن آلام عرق النسا شديدة تحدث نتيجة التهاب عصب النسا الموجود في الفخذ، وقد يكون السبب في هذه الآلام انزلاق غضروفي يضغط على هذا العصب حين خروجه من بين الفقرات القطنية، وقد يكون علاجه في مثل هذه الحالة هو الجراحة لإزالة هذا الغضروف خشية الضغط المستمر على هذا العصب حتى يفقد حيويته تماماً. وقد تكون مكوّنات الأعشاب متكاملة ناجعة في علاج هذه الآلام، والشاة الأعرابية التي تتغذى على ما حولها من أعشاب، والمواد المستخدمة من الأعشاب هذه تختزن في أماكن اختزان الشحم أي في الألية، لذلك كانت ألية الشاة وما تحتويه من مستخلصات النبات شفاء لهذه الآلام[1].

الطب النبوي والمحرّمات:

إنّ قليلاً من الخمر يشفي المعدة وينشط شرايين القلب ويسرّي عن النفس الهمّ، هذا ما يعتقده بعض الناس ممّن يبررون تحليل ما حرّم الله تعالىٰ، ويدعون أن الخمر تفتح الشهية وأن من الممكن الاستعانة بها في بعض المعالجات الطبية. ولهذا فإننا نرى بعض الذين أصيبوا بتكوّن الحصى في الكلى دائبين على احتساء «البيرة» ظناً منهم أنها تفيد في تفتيت هذه الحصى وإن إدرار البول مفيد في هذه

---

(١) انظر الطب النبوي، د. علي مؤنس ص١١١ ـ ١١٢.

الحالة، وليس تعاطيها بمحرم ما دامت منفعتها ظاهرة ـ هذا بالنسبة إليهم ـ وأن معاقرتها ليست من باب الإدمان وإنما هي وسيلة العلاج الطبي.

يقول الرسول ﷺ: «إنّ الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تداووا بالمحرم». وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود أن الرسول ﷺ قال: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرّم عليكم». وروى أبو هريرة في السنن أن النبي ﷺ «نهى عن الدواء الخبيث». ويذكر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من تداوى بالخمر فلا شفاه الله».

وفي صحيح مسلم عن طارق بن سويد الحضرمي، قال: «قلت: يا رسول الله، إنّ بأرضنا أعناباً نعتصرها فنشرب منها. قال: لا. فراجعته، قلت: إنا نستشفي للمريض. قال: إن ذلك ليس بشفاء، ولكنه داء».

وكان الرسول ﷺ يقول: «لا يقولنّ أحدكم للعنب الكرم»، فقد كره تسمية شجرة العنب كرماً، وفي قول للنبي ﷺ ما معناه: «لا تقولوا الكرم وقولوا العنب والحبلة»، وذلك لأنّ العرب كانوا يسمّون شجرة العنب الكرم لكثرة منافعها وخيراتها، فكره الرسول ﷺ أن يطلق على أصل الخمر أحسن الأسماء وأكرمها.

وليست الخمرة فقط من المحرّمات بل كل ما يضرّ بالرأس والذهن ويخمر العقل من النبات والعقاقير المخدرة الباعثة على الإدمان، وكذلك الأدوية المحرمة التي تعافها النفس كالسموم ولحم الأفاعي[1].

لقد حثّ الرسول ﷺ على المداواة وانتقاء أحذق الأطباء، وألمحت الأحاديث الشريفة التي ذكرنا إلى إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها والردّ على من أنكر التداوي والحثّ عليه والأخذ برأي الأطباء المهرة. كما ضمن الطب النبوي المسؤولية الطبية وتضمين من طبّ الناس وهو جاهل بالصنعة، يقول الرسول الكريم ﷺ: «من تطبّب ولم يُعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن». والذي يُستخلص من هذا الحديث أنّ من طبّب الناس وهو جاهل بالطب ضمن الأضرار التي تلحق بالمريض من جرّاء تطبيبه.

وقد فسّر أهل اللغة كلمة التطبّب، وهي من التفعُّل، أن المقصود منها هو المتكلّف في الطب، غير المأذون في صنعته، ولهذا اعتبر خطؤه مضاعفاً لأنه دخل على الصناعة بجهله فأتلف الأنفس كما أنه غرّر بدعواه الباطلة الناس، وهو لهذا

(١) الطب النبوي، د. مؤنس ص١٠٤.

مسؤول من ناحيتين: ناحية جهله من جهة، وتغريره بالناس من جهة أخرى، لذلك يضمن التلف أو العطل والضرر، ونذكر قول الرسول ﷺ للطبيبين حين أتيا لمعالجة أحد الجرحى: أيكما أطبّ، وهو دليل اختيار الطبيب الحاذق العارف بالصنعة.

نخلُص إلى أن الرسول الكريم ﷺ دعا الناس إلى التداوي واللجوء إلى خيرة الأطباء يستشفون بوصاياهم وعلاجاتهم الطبية. قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص وكان يعوده في أثناء مرضه بمكة: «ادع الحارث فإنه رجل يتطبّب»[1]، وكان هذا طبيب العرب آنذاك، وإذا كان الحارث وثنياً يوم نصح الرسول ﷺ سعداً باستشارته، فما أعظم المغزى من هذا الحديث الشريف، فالنبي ﷺ لم يلتفت إلى كون الحارث بن كلدة من غير الكتابيين طالما كان لديه من العلم ما ينفع الناس.

ثم إن الرسول ركّز على قواعد الاغتذاء والشراب، وقال ﷺ: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء»، هذا القول الشريف الذي بقي محتلاً مكانته الرفيعة في الممارسات الطبية طيلة العصور الإسلامية. ولم يترك النبي ﷺ كما بيّن في أحاديثه مجالاً للمتزمتين بالدين الحنيف السمح أن يفضلوا علوم الشريعة على العلوم الطبية، حيث ذاعت كلمته الشريفة: «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان»، ولا شك أن الرسول الكريم ﷺ سجّل للتاريخ هذه الكلمة الفاصلة في معرض كلامه عن أصناف المعارف، فقدّم علم الأبدان وجعله في مقدمة العلوم جميعاً لأنه العلم الذي يحفظ الصحة والجسم والجسم السليم فيه العقل السليم.

وقد أضحى طب العرب وخصوصاً الطب النبوي في فجر الإسلام أساس المعارف في الطب العربي على مدى القرن الذي تلى إلى أن اطلع العرب على تراث اليونان الطبي في زمن الخليفة المنصور.

وكان الطب في عهد الخلفاء الراشدين امتداداً للطب النبوي يمارس من قبل بعض الأعراب ومن غير المسلمين، حيث بدأ العرب المسلمون يختلطون بغيرهم من الأمم إثر الفتوحات الإسلامية، فنجد في عهد عثمان بن عفان (رض) أن أحد الأعراب أصابته جراح فجيء به إلى عثمان فأرسله إلى طبيب نصراني كي يداويه. ونستنتج من هذا أن الطب العربي عرف التأثير الخارجي مروراً بالعهد الإسلامي الذي سبق العهد الأموي. أما الطب في العهد الأموي فقد استمرّ يمارس جنباً إلى جنب مع الطب الذي عرفته ديار الإسلام.

---

(١) عيون الأنباء ص٢٦٥.

الفصل الثاني عشر

الطب في العصر الأموي

دامت الخلافة الأموية بعد الخلفاء الراشدين إحدى وتسعين سنة (٤١ هـ ـ ١٣٢ هـ)، وتوالى على الخلافة فيها أربعة عشر خليفة كان معاوية بن أبي سفيان أولهم وآخرهم مروان الثاني، وكانت دمشق عاصمة الخلافة الدائمة، وقد حاول الخليفة مروان الثاني أن ينقل عاصمة الخلافة إلى حرّان، وكانت مدينة قديمة عريقة في التاريخ شهرت بعلمائها وفلكييها، ولكن خلافته لم تطل ليسعد بهذا الأمل في نقل قاعدة الحكم من دمشق.

شهدت خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) وابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) توسيع رقعة الأمبراطورية الإسلامية، حيث وصل المسلمون في فتوحاتهم إلى حدود الصين شرقاً وشواطىء المحيط الأطلسي غرباً، وضمّت هذه الأمبراطورية بالإضافة إلى الجزيرة العربية حوض السند وبعضاً من الهند وسمرقند وبخارى وخوارزم والري وأذربيجان وخوزسْتان وبلاد ما وراء النهر وبلاد سورية وفلسطين وما بين النهرين بما فيها حرّان والرها ونصيبين وأنطاكية والرقة وديار بكر وأقساماً من آسية الصغرى. كما ضمّت أيضاً شمالي إفريقية بما فيها مصر وقبرص وتونس والمغرب الأقصى ومعظم أراضي إسبانيا.

عمّ الدين الإسلامي معظم البلاد التي انضوت تحت لواء الإسلام، وتكلم أبناؤها اللغة العربية، وتعلم العرب المسلمون منهم أنواع المعارف والمهن. وكان لاختلاط الأمويين بشعوب هذه البلاد من الفرس والأروام، الذين

ألفوا حياة الترف ورفاهة العيش، أن صار بعض خلفائهم ميّال إلى لذائذ العيش وحياة اللهو والترف، وأبقى بعض الخلفاء أيضاً على الروم المتخصصين بالكتابة والطب ممّن كان يشغل هذه الوظائف في أثناء حكم الرومان قبل الفتح العربي الإسلامي. على أن هذا النهج الذي نهجه الخلفاء الأمويون لم يرق العرب، ولم يقبل هؤلاء أن يشارك العجم في تولي إدارة شؤون المسلمين، واستهجنوا حياة الترف التي استلذّها الخلفاء، فكان أن ثارت عرب الجاهلية تعصّباً للإسلام، وثارت خراسان، وتراكمت المشاكل على آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد الذي قتل سنة ١٣٢هـ لينتهي به عصر بني أمية في دمشق الذي دام تسعين سنة كرست للفتوحات وتوسيع رقعة الأقطار الإسلامية ونشر لغة القرآن الكريم. ثم بدأ حكم خلفاء بني العباس الذي شهر بالاشتغال بالعلوم والمعارف والفنون، فكان لهم الفضل في إيصال العرب إلى مراتب الحضارة الإنسانية.

الأعمال الفكرية في عهد الأمويين:

لم تصل الأعمال الفكرية في العهد الأموي إلى مستوى حضاري علمي مرموق وذلك لحداثة عهدهم بالحياة خارج جزيرتهم العربية، وكل ما يمكن أن يسجّل في زمانهم كان في تدوين الأحاديث النبوية الشريفة الذي أصبح علماً قائماً بذاته فكان أحد أسس علم الفقه وأصول الشريعة الإسلامية. كما سُجّل في هذا العهد بدء تدوين التاريخ المبني على الرواية. على أن هذه العلوم لم يكن لها مدارس ومدرسون، وإنما كانت تعتمد على حلقات الاستماع في المجالس التي كان يديرها مشائخ العلم (المؤدّبون) الذين كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والأمراء، أما طبقات الشعب الأخرى فكانت تلوذ بحلقات الدرس في الكنائس والمساجد، وكان هؤلاء يعتبرون أن معايشة البدو في الصحراء تشكل أفضل مدرسة لتعلم مفردات اللغة الصحيحة والشعر والفروسية.

ولعلّ من نتائج احتكاك العرب المسلمين بنصارى سورية والعلماء الروم فيها أن ظهرت إلى العلن الحركات الفلسفية التي عرفت دينياً باسم الفرق، وكان منها المعتزلة والخوارج. وكان من أبرز رجال الفكر اليوناني والمسيحي في سورية يوحنا الدمشقي (ت ١٣١ هـ)، والذي كان يدعى «يوحنا فم الذهب» أو «دفاق الذهب» لفصاحته، وكان ملمّاً باليونانية والآرامية ويجيد العربية، إلاّ أن اليونانية هي اللغة الغالبة على لسانه. شغل يوحنا مناصب عالية في عهد الأمويين حتى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٦ هـ) ثم ترهبن وانقطع إلى اللاهوت بالقدس. وعرف أيضاً من

رجال تلك الحقبة الكيميائي مريانوس، وهو أحد معلمي الأمير خالد بن زياد بن معاوية في الكيمياء، ثم يحيىٰ النحوي الديلمي المعروف بالبطريق وكان فيلسوفاً عالماً بالطبيعيات، وكان له دير في ديلم العجم، وكاتب الخليفة الرابع الإمام علي (رض) وحصل منه على أمان بالإبقاء على الدير، وقد ذكر أن خالد بن يزيد تعلم الطب عليه.

العلوم الطبية في العهد الأموي:

كانت الإسكندرية وأنطاكية وجنديسابور مراكز ثقافية في العلوم عموماً وفي الطب خصوصاً، ولذلك اعتمد خلفاء بني أمية على الأطباء الروم في هذه المدن فكانوا أول الحكام العرب الذين أدخلوا الأطباء الأعاجم والأروام إلى حاشيتهم. ويعتبر العصر الأموي بداية اتجاه العرب إلى دراسة العلوم الدنيوية ومنها الطب، وكانت البلاد التي افتتحوها زاخرة بهذه العلوم. وقد عرف أبناء الشام مبلغ ما يكتسبه المرء من هذه الثقافة والصناعة الطبيّة، فتطلعوا إلى النهل من هذه المعارف وارتحلوا إلى مراكز العلم للتزوّد منها. ولكن العصر الأموي كان قصير المدى بالنسبة إلى تاريخ الشعوب، فالأعوام التسعون لم تكن كافية لاستيعاب هذه المعارف الواسعة عموماً وعلوم المنطق والفلسفة والطب خصوصاً. فالطب علم يحتاج إلى تمرّس وطويل وقت وتجربة وتدقيق ومشاهدة، ولا يمكن أن يقوم هذا العلم على التقليد كغيره من الصناعات العلمية، ولهذا لم يظهر في تلك الحقبة أطباء مشهورون كما ظهر في عهود لاحقة، يستثنى من ذلك بعض الأطباء الذين عملوا في بلاط الخليفة معاوية.

إن انهماك الأمويين في الفتوح كان سبباً آخر لم يساعد على انتشار العلوم التطبيقية بين العرب، ولذلك لم تتقدم هذه الصناعة أكثر ممّا كان معهوداً في زمن الخلفاء الراشدين اللهم إلاّ بالنزر اليسير الذي أثر عن البعض منهم ممّن خدم الخليفة معاوية وبرع في علم السموم الذي أخذوه عن الروم في مدرسة جنديسابور. كانت المعلومات الطبية محصورة فيما يتعلق بحفظ الصحّة وأسس الوقاية من المرض وبعض العمليات الجراحية البسيطة المتمثلة بالكيّ والفصد والحجامة وقلع الأسنان والختان، وهي كانت معروفة في العصر الجاهلي وزمن الخلفاء الراشدين. ويروى أن الطبيب الرومي «بدراقس» اقتلع ورماً غدياً بعملية جراحية من أسفل عين سكينة بنت الحسين (ت ١١٧ هـ) فعاد وجهها إلى ما كان عليه سوى ندبة الجرح، وتعدّ

هذه العملية مثل من الجراحات التي لا تدل على أن عامتها يومئذ كانت بمستوى هذه العملية[1].

إن أروع ما حدث في العصر الأموي من الناحية الحضارية هو ترجمة بعض الكتب العلمية اليونانية إلى اللغة العربية، إذ فتح الباب أمام العرب للمرة الأولى للولوج إلى ما لدى اليونانيين من معارف لم تكن معروفة لديهم، وكان من أوائل تلك الكتب التي ترجمت من العلوم التطبيقية التي أقدم عليها المترجمون بدافع الحاجة إلى ما تتضمّنه وحداثة ما فيها من المعلومات، ولذلك فقد ترجموا منها كتب الطب والكيمياء بناء على رغبة الأمير خالد بن يزيد لمعرفة حكم اليونان والكيمياء، فقد جمع خالد الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا بمصر وأمرهم أن ينقلوا الكتب اليونانية والمصرية الخاصة بهذه العلوم إلى اللغة العربية، ويقول فون كرامر في الفهرست (ص٣٥٤) إن هذه الترجمات كانت أول ما نقل في الإسلام من لغة إلى أخرى. كما ترجم في خلافة مروان بن الحكم كناش أهرن بن أعين الإسكندراني، وذكر أن هذه الترجمة حُفظت في خزائن الخلافة إلى أن نشرها بعد ذلك بثلث قرن الخليفة عمر بن عبد العزيز، كذلك استقدم هذا الخليفة طبيبه وصديقه عبد الملك بن أبجر من مصر ليمارس الطب ويعلمه في أنطاكية، فكان هذا أول نقل للمعارف اليونانية إلى اللغة العربية في ديار الإسلام.

لقد تميزت الخلافة الأموية باتساع حدود السلطنة العربية، وكان غرضها الأول نشر الدين الإسلامي، كما كانت زمن تثبيت لقواعد الدولة والانتقال من طور البداوة إلى زمن الحضارة، وقد بذرت في هذا العهد بذور الحضارة التي أينعت في عصر العباسيين فآتت فيه أشهى ثمارها وأطيب أكلها. ولقد امتدت بعمل الأمويين حضارة الإسلام العربية وثقافته العلمية من المغرب الأقصى إلى إسبانية ومنها إلى فرنسة وأوروبة ولقد بلغ الإسلام بثقافته العربية في الأندلس عصره الذهبي أيام عبد الرحمن الثالث وولده الحكم الثاني، حيث لمعت أسماء ابن رشد وابن زهر والزهراوي الذين أثروا تأثيراً بالغاً في الفكر الأوروبي في زمن لاحق.

لقد تمّ نقل العلوم اليونانية ولا سيما الطبية منها إلى اللغة العربية بأمر الخلفاء الأمويين، ثم قدمت هذه العلوم بعد مرور قرون خمسة إلى أوروبة، والواقع أن طبع ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية كان شغل الطباعين الشاغل في بدء عهد

---

(١) مختصر تاريخ الطب العربي ج١ ص٢٩٢.

الطباعة، واستمرّ ذلك إلى زمن استطاع فيه الغربيون الحصول على أصول يونانية للكتب المترجمة فأهملوا حينئذ الكتب العربية وما حوته والتفتوا إلى المصادر الأصلية ذاتها. وقد تبين لهؤلاء أن العرب كانوا قد أضافوا إلى العلوم اليونانية إضافات كثيرة وزيّنوها بنظريات مبتكرة ولذلك أعادوا الكرّة عليها. على أن هناك ناحية أخرى عظيمة الأهمية في دراسة تاريخ الطب العربي، وهي صلة هذا الطب بالإسلام، إذ غير خاف أن النبي ﷺ حقق معجزة بجمع قبائل العرب المتحاربة تحت لواء دين الإسلام الواحد، ونفخ في هذه القبائل روحاً جديدة وحّدتهم ودفعتهم إلى العلم والإيمان والطاعة والسعي إلى بلوغ المراتب العليا. وقد بثّ فيهم الرسول ﷺ قوة جبارة ونشاطاً حاداً في إبراز إمكانياتهم مما أدّى إلى تقدّمهم في كل ميدان، ولا سيما في تنمية العلوم حتى إنه يصحّ أن يقال[1]: إذا كان اليوناني أباً للعلم فإن العربي جاء وحلّ محله في هذه الأبوّة، وكانت طريقة العربي مناشدة الحقيقة بكل استقامة وبساطة وحلّها بوضوح دون أن يترك شيئاً في ظل الإبهام.

يقول هـ.ج.ويلز: إن هذه الخاصية التي جاءتنا نحن الأوروبيين من اليونانيين، وهي نشدان النور، إنما جاءتنا عن طريق العرب، ولم تصل إلى أهل العصر الحاضر من طريق اللاتين. لقد كان باستطاعة العرب القادمين من الصحراء بتلك العقول الذكية المولعة بالاطلاع، وتلك الجرأة النادرة المثال والإخلاص الذي لا مثيل له، أن يفتحوا العالم أجمع لو بقوا سائرين سيرتهم الأولى، ولو لم تنشب في وسط العالم العربي من أول الأمر رغبة التخلص من الحكام بالغيلة، والحروب الداخلية والفتن العديدة التي استنفد الخلفاء والحكام معظم أوقاتهم في إخمادها.

ركّز العرب الأذكياء في مدنيتهم الوثابة مدنيات وثقافات قديمة، وقد بلغ العلم العربي قمة عصره الذهبي بين سني ٧٥٠ و ٨٥٠ م وكان مركزه دمشق وبغداد. لقد سبق الطب العربي بنهضته الطب الغربي مئات السنين، وكانت في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة مدارس تبث أنوارها في العالم كله يقصدها الطلاب من الشرق والغرب. وكان كثير من طلبة العلم في قرطبة من المسيحيين، وكان الطلاب يدرسون معاً من ولد السيد الرفيع إلى ولد الصانع الوضيع، وكانوا يجرون النفقات على التلاميذ الفقراء ويؤدّون الرواتب الجمة للمعلمين، وكان خلفاؤهم يقولون عن العلماء: إنهم صفوة الله في خلقه ونخبة من

(١) الطب عند العرب ص٦٣ ـ ٤.

عباده صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وكانوا مصابيح الدجى وسادة البشر.

ويقول: إن العرب بلغوا شأواً فاقوا فيه اليونانيين بكثير، درسوا علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة، وكانت طرق طبهم العملية نظير طرقنا الحاضرة، ولا نزال نحن إلى يوم الناس نستعمل كثيراً من أدويتهم، وكان جرّاحوهم يعرفون التخدير ويجرون العمليات الجراحية الصعبة.

وفي الوقت الذي فتح فيه العرب آسية الغربية كان الطب الإغريقي قد فقد حيويّته وقوّته التي كانت له من قبل، ولم يبق منه إلاّ تقاليد بالية في أيدي شارحي الأسفار القديمة ممّن يكتبون اليونانية أو السريانية وسواهم من محترفي الطب. وكان أطباء البلاط الأموي من هذا النفر، وقد تفرّد منهم ابن أثال النصراني طبيب معاوية، وتياذوق طبيب الحجاج الذي يدل اسمه على أنه إغريقي. وقد تحدّر إلينا بعض أقوال تياذوق ولكن لم يصل إلينا شيء من الكتب الثلاثة أو الأربعة المنسوبة إليه.

وقد اشتهر في العصر الأموي طبيب يهودي بصري الأصل فارسي الجنس يدعى ماسرجويه وكان يعرف السريانية، وقد تولى في أيام الخليفة مروان بن الحكم ترجمة كناش سرياني كان قد وضعه في الأصل باللغة اليونانية قس من أهل الإسكندرية اسمه أهرُن فنقله من السريانية إلى العربية. وهذا أول كتاب طبي علمي بلغة الإسلام كما أسلفنا. وقد قام نفر من الخلفاء ببعض المشاريع الصحية ومنها أن الوليد عزل المجذّمين عن سواهم من الناس ودبّر أمر العناية بهم. ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أمر بنقل تدريس الطب من الإسكندرية، حيث كانت تقاليد الطب اليوناني لا تزال زاهية، إلى أنطاكية وحرّان[1].

وكانت الكيمياء في ذلك العهد كالطب بين تلك العلوم القليلة التي أخذ بها العرب في أول عهدهم ومارسوها بحيث استطاعوا أن يتحفوا العالم بكثير من الخدمات فيها. وقد ورد في الفهرست[2] أن الأمير خالد بن يزيد المسمّى حكيم آل مروان كان أول من أمر في الإسلام بنقل كتب الكيمياء والطب والتنجيم إلى العربية من اليونانية والقبطية.

---

(١) تاريخ العرب، د. حتي ص٣١٩ ـ ٢٠.

(٢) فهرست ابن النديم ص٢٤٢، ٣٥٤.

إنّ زمن الدولة الأموية كان زمن الاهتمام بصناعات وحرف كثيرة توارثها أقوام وشعوب من سكان الهلال الخصيب، بالإضافة إلى أصول التجارة والملاحة، أما من الناحية الخاصّة بالمهن الصحية والعلوم الطبية والمداواة فقد كانت بدايتها متواضعة وساذجة إلّا أنها كانت وليدة العصر والبيئة عصر ذاك، والتي واكبها فتوحات واسعة وامتدادات كبيرة مع النقلات والمواصلات والتحركات نحو النزوح والاستيطان هنا وهناك وسط أنباء وأحداث جسام[1].

لقد استمرّ طب الأعراب ـ كما أسلفنا ـ يمارس جنباً إلى جنب مع الطب الذي عرفته بلاد الإسلام من غير المسلمين في العهد الأموي. فمن الأعراب الذين سمعنا عنهم ربضة بن النعمان الشيباني، فقد ورد في ترجمة شاعر من شعراء الأمويين ويدعى العديل بن أنوج من بني بكر بن وائل أنه أصيب بضربة سيف في رأسه فأخذ عند أخواله من بني شيبان فداواه ربضة[2]. والملاحظ في هذا العهد نزوح الأطباء من الأعراب إلى المدن الكبيرة لممارسة الصنعة، ممّا دفع الناس إلى السفر باتجاه تلك المدن طلباً للطبابة. فنحن نسمع أن الفرزدق الشاعر مرض في أواخر أيامه بالدبيلة[3]، فأتى به أهله البصرة وأحضروا له طبيباً من بني عبد القيس[4] وهم من العرب النصارى. وأصيب عمر بن أبي ربيعة الشاعر المعروف بضربة على أسنانه بمكة فأتى البصرة وعالجها. كما أصيب الشاعر المتوكل الليثي برمد شديد بالحيرة فمرّ به أحد القساوسة وعالجه بأن ذرّ في عينيه دواء الرمد[5].

وقد تعدّى الاهتمام بالطب من الحكام إلى كبار رجالات العرب في ذلك العهد فكان عندهم شيء من الإلمام بمبادىء الصحة العامة كجزء من الثقافة العامة التي لديهم. فنجد أن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب (رض) يقول: «الغلام يشب كل سنة أربعة أصابع»[6]. ويقول إياس بن معاوية القاضي المزني: «صحة الأبدان مع الشمس». قال الجاحظ في هذا الكلام: «ذهب إلى أهل العمد والوبر»[7]، أي إنه ذهب بتفكيره إلى ساكني الخيام من البدو فاستنتج من حيويتهم

(١) تاريخ تراث العلوم الطبية ص١١٩.
(٢) انظر الأغاني م٢٢ ص٣٥٦.
(٣) مرض في الجوف.
(٤) الأغاني ٢١/٤١٢.
(٥) الأغاني ١٢/١٦٢.
(٦) العقد الفريد ٧/٢٢١.
(٧) الحيوان ٥/١٠٥.

أن الشمس التي يتعرضون لأشعتها هي سبب تلك الحيوية.

ولا بدّ لنا في ختام هذا الفصل عن الطب في العهد الأموي من ذكر تراجم من عرف من المتطبّبين وذكر مآثرهم وبعض أخبارهم.

الأطباء في عصر بني أمية

إنّ المعلومات التي وصلت إلينا عن أطباء العصر الأموي نادرة جدّاً فيما خصّ مآثرهم في صناعة الطب، فهي معلومات موجزة في بعض المصادر وفي البعض منها غموض ولبس، وعدد الأطباء الذين شهروا آنذاك قليل جدّاً بالنسبة إلى اتساع أقطار الدولة الإسلامية التي امتدت من حدود الصين مع الهند وفارس شرقاً إلى شواطىء المحيط الأطلسي غرباً. فنحن نسمع فقط عن بضعة أطباء في العاصمة دمشق وواحد في الكوفة وواحد في البصرة وآخر في أنطاكية، ثم لا نسمع عن طبيب واحد في ديار الأندلس أو المغرب أو تونس أو بلاد فارس.

على أنّ عدم معرفتنا بالأطباء في تلك الأقطار المترامية الأطراف لا يشكّل دليلاً على عدم وجود الأطباء هناك، فمن غير المعقول أن لا يكون في جنديسابور ومدرستها وفي نيسابور وطبرستان بعض الأطباء من أبناء بختيشوع أو من آل ابن ربن الطبري. ونعلم أيضاً أن النصارى في الأندلس وفي تونس كانوا يدرسون ويقرأون في كتاب عرف باسم «إبريشيم» أو «أفروشيم» وهو الكتاب الذي عُرف دون شك بكتاب الأفورزم (أي الفصول) للطبيب الإغريقي أبقراط، وكانت قراءته بلغة القوم عصرئذ. ولا شك أيضاً أن أولئك الذين انكبوا على مطالعة هذا الكتاب كانوا من ذوي المهن الطبية وعلى معرفة بها، ولعل عدم ذيوع أسمائهم عائد إلى ضعف ممارستهم للصناعة الطبية التي كانت تحتاج إلى ممارسة طويلة وتجربة متكرّرة لا يكفيها جيل أو جيلان من أعمار ممارسيها. أضف إلى ذلك أن مهنة الطب وطبيعة علومها ومركزها التاريخي كانت مهنة مُحدثة طارئة بالنسبة إلى الفكر والعقل العربيين، فلم يمارسها إلاّ الندرة النادرة من الأطباء الذين مالوا إليها طمعاً بالكسب المادي ليس إلاّ. ولولا أن صفحات التاريخ حملت إلينا أخبار اتصالهم بالخلفاء والأمراء في عصر الأمويين لما استطعنا أن نلم ببعض تراجمهم.

إن معظم الأطباء الذين شهروا في ذلك العهد كانوا من النصارى، وكانوا في غالبيتهم من الأروام الذين حفظوا تراث اليونان فيما بعد. لعل هذا عائد إلى تمكّن

هؤلاء النصارى من اللغة اليونانية واختلاطهم بأطباء سورية الأروام والذين سبقوا المسلمين في النهل من العلوم الطبية والطبيعية التي خلّفها أسلافهم الإغريق. والمعلوم أن الكتب اليونانية لم تكن قد ترجمت إلى اللغة العربية، وهذا يعني أن الأطباء في دمشق امتهنوا الصنعة على أيدي أطباء الروم مباشرة، أو أنهم قرأوا كتب الطب التي صنفها الأطباء البيزنطيون المتأخرون، أو لعلهم أيضاً درسوا الطب في مدرسة جنديسابور أو في حلقات الرهبان في الأديرة، ويرجح أن عائلة أبي الحكم الدمشقي التي امتازت بالورع والتقوى كانت من تلاميذ مدارس الأديرة تلك. هذه العائلة الدمشقية كانت من أبرز الأسر التي مارست التطبيب في عصر بني أمية، ولعلها الأسرة الوحيدة التي برز منها ثلاثة أطباء هم الأب أبو الحكم الدمشقي والابن الحكم والحفيد ابن الحكم. وقد امتد العمر بثلاثتهم طويلاً، وربما كان الحفيد ابن الحكم أشهرهم في الطب، وقد أدرك هذا الأخير العصر العباسي وعاش أكثر عمره فيه. ونذكر أيضاً من أطباء هذا العصر ابن أثال وتياذوق والأمير خالد بن يزيد بن معاوية وزينب طبيبة بني أود وفرات بن شحناتا وماسرجويه البصري وعبد الملك بن أبجر الكناني.

خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان:

كان خالد من نوادر أقرانه في الثقافة الغزيرة، فقد كان خطيباً شاعراً أديباً فصيحاً جيّد الرأي. فقد عرفنا في فصول سابقة كيف أن الثقافات الأجنبية بدأت تدخل إلى بلاد العرب وخصوصاً إلى بلاط بني أمية في دمشق، حيث كان النصارى يعملون في ديوان معاوية ويحفظون له حساب الخراج ويترجمون له الكتب. وكان من بين الكتب التي وصلت إلى البلاط الأموي كتاب ملك الصين الذي أهداه إلى معاوية، وكان محتوياً على جزء جيّد في العلوم التطبيقية، وكان وصل بدوره إلى يدي خالد بن يزيد فبدأ اهتمامه به وبالعلوم الطبيعية ومنها الكيمياء. فاستقدم جماعة من مصر لهذا الغرض وأمرهم بترجمة كتب الطب والفلك والكيمياء، وكان من بين الذين ترجموا له شخص يدعى أصطفن.

يقول ابن النديم[1]: «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممّن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح

(١) الفهرست ص٢٤٢.

بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة».

يقول عنه في موضع آخر[1]: «خالد بن يزيد... الذي عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، وكان جواداً يقال إنه قيل له لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذاك إلاّ أن أغني أصحابي وأخواني، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلاّ أن أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحداً عرفني يوماً أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة. ويقال ـ والله أعلم ـ إنه صحّ له عمل الصناعة، وله في ذلك عدّة كتب ورسائل وله شعر كثير في هذا المعنى».

وذكر ابن خلكان خالداً، قال[2]: «وله فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ما جرى له مع مريانُس المذكور وصورة تعلمه منه، والرموز التي أشار إليها».

والكتب المتأخرة تروي أن خالداً درس الطب على يدي يحيىٰ النحوي الملقب بالبطريق، والذي عاش بالديلم بفارس على عهد علي (رض)، وبرغم الذي ذكر في ذلك فإنه لم يعرف أن الأمير خالداً قد مارس هذه الصناعة أو كتب فيها مثلما عرف بأعماله في صناعة الكيمياء، فقد اشتهر بهذه الصنعة ودخل عن طريقها في تاريخ العلوم التطبيقية عند العرب، وتزايدت عنده دراسة الكيمياء بعد أن التقى مريانُس الكيمياوي، وهو راهب رومي من القدس استضافه الأمير في قصره بحمص (وقيل بالإسكندرية) وكانت دراسة الكيمياء يومئذ مقصورة على طبقة من الناس ولا يحصل أحد عليها من شيوخ الصنعة إلاّ من كان تقيّاً يخاف الله وأميناً على أسرار علومها، وكان خالد شهماً وحكيماً وذا نزعة شعرية وفنية، قال عنه عمر بن عبد العزيز: «ما ولدت أمية مثلْ خالد». فرأى مريانس أن الأمير خالداً كفوء لتعلم الصناعة فأطلعه على أسرارها وكشف له عن خفاياها. وقد وضع خالد رسالة ضمّنها ما دار بينه وبين معلمه في ذلك اللقاء. وإذا لم يصحّ اعتبار خالد بن يزيد من الأطباء الحاذقين فلا يصحّ أيضاً عدم إلحاقه بركب من اشتغل بعلوم مهنة تلك الفئة.

---

(١) الفهرست ٣٥٤.

(٢) وفيات الأعيان ٢/٤.

وقد ذكر بعض المحدثين[1] خالداً فنفى أن يكون هذا الأمير عالماً بالكيمياء أو الطب، واعتقد أن شهرته بالكيمياء لا أساس لها من الواقع، ولعل ذلك عائد إلى تأثّر بالعلاّمة ابن خلدون الذي سبق إلى هذا الاحتمال، والواقع أن الاثنين ليسا على حق في شيء في ما زعماه، فالواقع أن ابن النديم في الفهرست وابن خلكان في وفياته، وغيرهما من المؤرخين، أكّدوا على اشتغال خالد بالكيمياء وبراعته في هذه الصنعة، وهؤلاء أقدم عهداً من ابن خلدون، والراجح أن علمهم بأخبار خالد بن يزيد أوثق.

قال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب في وفيات سنة ٨٥ هـ: «كانت له معرفة بالطب والكيمياء وفنون من العلم، وله رسائل حسنة أخذ الصناعة من راهب رومي ومات ٨٥ هـ».

لقد بدت شخصية خالد بن يزيد غريبة للذين لم يدققوا في دراسة العصر الأموي من الناحية العلمية، فقد وجد هؤلاء أن المؤرخين القدماء يتحدثون عن أمير أموي يهتم بالكيمياء والعلوم الطبيعية، دون أن يتطرق أولئك المؤرخون إلى العوامل التي مهّدت لهذا الاهتمام بالعلوم. لذلك وجدنا أن بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون في مقدمته والمستشرق ألدو ميلي في «العلوم عند العرب وأثرها في تقدّم العلم العالمي» ينكرون وجود مثل هذه الشخصية التي برزت من العدم لتلمع في أعمال الطب والكيمياء في زمن بدا معه أنّ لا وجود للمتعلمين والحكماء والعلماء. ولكن الحقيقة أن ظهور خالد كان نتيجة حتمية لمقدمات سبقت ظهوره، ثم إن الحقيقة التاريخية تتأكد ويصبح من المستحيل إنكارها إذا ورد ذكرها بأساليب شتى في مصادر متعدّدة.

يقول ابن النديم: «وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء». وذكر الجاحظ أيضاً، قال: «وكان أولُ من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء»، ممّا يدل على أن كتباً كثيرة ترجمت لخالد بن يزيد، وهناك كتب في الفلسفة أيضاً ترجمت له، ففي أثناء حديث للجاحظ على أن الكتب المترجمة من لغة إلى لغة أخرى لا تكون بالبلاغة نفسها للكتاب الأصلي، يقول: «فمتى كان رحمه الله ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة وابن فهر وابن هيلي وابن المقفع مثل أرسطاطاليس، ومتى كان خالد ـ يعني خالد بن يزيد ـ مثل أفلاطون»[2].

---

(١) الدو ميلي، العلوم عند العرب، ص٩٩.

(٢) الحيوان ١/٧٦.

يقول علي سامي النشار[١]: «ومن الدلائل على علم المسلمين بالمنطق اليوناني في عهد بني أمية ما يذكر أن خالد بن يزيد (٩٠ هـ) أمر بعض العلماء اليونانيين الذين كانوا يقيمون في الإسكندرية بترجمة الأورجانون من اليونانية إلى العربية»، والأورجانون هو مجموعة كتب أرسطو في المنطق.

وقد أورد ابن النديم ذكر بعض كتب خالد بن يزيد في الفهرست فذكر له كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصيّة إلى ابنه في الصنعة[٢].

وذكر له بروكلمان[٣] أيضاً كتاب السرّ البديع في فلك الرمز المنيع (وتعتبر هذه الكتب الخمسة من الكتب المفقودة، وله رسالة في الكيمياء، ورسائل (خالد) لمريانس الراهب، واختبارات (خالد) وهو ديوان شعر في الكيمياء، ديوان النجوم، وفردوس الحكمة في الكيمياء.

وفي ديوان خالد المعروف بـ «كتاب ديوان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان» وما جرى بينه وبين الراهب مريانس من الأسئلة العجيبة، وذلك لما أرسل خالد غلامه «غالب» وراءه إلى جبال بيت المقدس وأحضره بين يديه. وجعل يسأله، نقول إن هذه الرسالة تحتوي على عبارات تتعلق بالطب وردت على لسان مريانس أستاذ خالد بن يزيد، فهو يقول مثلاً: «وذكرت منها النطفة وتغيرها حتى تصير دماً ثم مضغة ثم تتخلّق بعد ذلك خلقاً حتى تصير إنساناً تاماً». ويقول في صفحة أخرى: «الماء يذهب برائحة الميت الذي لا روح فيه». ويقول أيضاً: «واعلم أنك إن لم تحكم علاج الجسد الوسخ حتى تنقيه وقد حلّ الروح فيه حتى يقع فيه الصنيع، وهو نقي طيب الرائحة ليس فيه وسخ ولا نتن، فإنك لم تحكم من العمل شيئاً، واعلم أنّ الروح سريعة المشي في جسدها، وإن كلفتها المشي في غير جسدها لم تجب إلى الدخول فيه».

هذه العبارات ممّا ورد في الرسالة المذكورة تتطرق إلى مفاهيم في الطب، رغم أن الموضوع كان في السيمياء وليس في الطب، وذلك لأن العلوم الطبيعية مرتبطة ببعضها.

---

(١) مناهج البحث ص٤.
(٢) الفهرست ص٣٥٤.
(٣) تاريخ الأدب العربي ١: ٢٦٢ - ٢٦٣.



ديوان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

بن أبي سفيان وما جرى بينه وبين الراهب مريانس

الراهب من الاسئلة العجيبة والغرائب

ديوان خالد بن يزيد

وما جرى بينه وبين الراهب مريانُس

«غلاف مجلدة المخطوط بخزانة الكتب الظاهرية بدمشق»

وقد ذكر حسن إبراهيم حسن[1] أن خالداً طلب من مترجميه أن يعربوا كتب جالينوس في الطب «ووضع بذلك أساس التعاليم الطبية». ولم يشر المؤلف إلى المصادر التي نقل كلامه منها، ولا دليل لدينا على أن خالداً سمع بجالينوس ليطلب ترجمة كتبه. ففي العصر الأموي لم يتصل المسلمون بالمدارس الطبية الكبرى ولا تعرفوا إلى ما لدى اليونان من علوم، وإنما كل ما استطاعوا معرفته هو بداية التعرّف على ما لدى جيرانهم النصارى المقيمين بمصر والشام والعراق من معارف في العلوم المختلفة[2].

ويشير صاحب كتاب «نشأة العلوم الطبيعية» إلى آراء حسن إبراهيم حسن التي لم يجد لها مصدراً بقوله: «ومن آراء حسن إبراهيم حسن التي لم أجد أي مصدر يوثقها، قوله: كما استعان الأمويون ببعض الأطباء الذين كانوا يعملون في هذا المعهد الطبي ـ يقصد مدرسة جنديسابور التي مرّ ذكرها ـ كابن أثال والحكم الدمشقي وتياذوق وغيرهم»[3].

* * *

ابن أثال:

متطبّب نصراني من طراز غير طراز بني الحكم الدمشقي، لا في سعة ممارستهم الطبية ولا في آدابها، مع أنهم جميعاً درسوا (على الأرجح) في مدرسة جنديسباور المعروفة بتعصّبها لتقاليد الصنعة وآدابها. ولما رجع ابن أثال إلى دمشق ـ مسقط رأسه ـ التحق بحاشية الخليفة معاوية (٤١ ـ ٦٠ هـ). يقول ابن أبي أصيبعة[4]: «كان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب. ولما ملك معاوية بن أبي سفيان اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه والمحادثة معه ليلاً نهاراً. وكان ابن أثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وما منها سموم قواتل، وكان معاوية يقربه لذلك كثيراً. ومات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم. ومن ذلك، حدثنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي ابن الكريم، قال: حدثنا أبو غالب محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون عن أبي الحسن علي بن أحمد بن

(١) تاريخ الإسلام ٥١٢/١.
(٢) نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين، لطف الله قاري، ص١١٨ ـ ١١٩.
(٣) المصدر نفسه ص١١٩.
(٤) عيون الأنباء ص١٧١.

الحسين بن محمويه الشافعي اليزدي عن أبي سعد أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن أبي القاسم الصيرفي البغدادي عن أبي غالب محمد بن أحمد بن سهل بن بشران النحوي الواسطي عن أبي الحسين علي بن محمد بن عبد الرحيم بن دينار الكاتب عن أبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني الكاتب قال في «الأغاني»: أخبرني عمي، قال: حدثنا أحمد بن الحرث الخزاز، قال: حدثنا المدائني، عن شيخ من أهل الحجاز، عن زيد بن رافع مولى المهاجرين خالد بن الوليد، عن أبي ذئب عن أبي سهيل أن معاية لما أراد أن يظهر العقد ليزيد قال لأهل الشام: إن أمير المؤمنين قد كبرت سنّه ورقّ جلده ودقّ عظمه واقترب أجله، يريد أن يستخلف عليكم فمن ترون؟ فقالوا: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فسكت وأضمرها. ودسّ ابن أثال النصراني الطبيب إليه فسقاه سماً فمات. وبلغ ابن أخيه خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد خبره وهو بمكة وكان أسوأ الناس رأياً في عمّه لأن أباه المهاجر كان مع علي (رض) بصفين، وكان عبد الرحمن بن خالد مع معاوية، وكان خالد بن المهاجر على رأي أبيه هاشمي المذهب. فلما قتل عمّه عبد الرحمن مرّ به عروة بن الزبير، فقال له يا خالد!أتدع لابن أثال نقي أوصال عمّك بالشام، وأنت بمكة مسيل إزارك تجره وتخطر فيه متخائلاً؟ فحمي خالد ودعا مولى له يقال له نافع، فأعلمه الخبر وقال له: لا بدّ من قتل ابن أثال. وكان نافع جلداً شهماً. فخرجا حتى قدما دمشق، وكان ابن أثال يتمشى عند معاوية، فجلس له في مسجد دمشق إلى أسطوانة، وجلس غلامه إلى أخرى، حتى خرج، فقال خالد لنافع: إياك أن تعرض له أنت، فإني أضربه، ولكن احفظ ظهري واكفني من ورائي، فإن رأيت شيئاً يريدني من ورائي فشأنك. فلما حاذاه وثب إليه فقتله. وثار إليه من كان معه فصاح بهم نافع فانفرجوا. ومضى خالد ونافع وتبعهما من كان معه، فلما غشوهما حملا عليهم فتفرقوا، حتى دخل خالد ونافع زقاقاً ضيقاً ففاتا الناس. وبلغ معاوية الخبر، فقال: هذا خالد بن المهاجر، انظروا الزقاق الذي دخل فيه. ففتش عليه وأتي به فقال له: لا جزاك الله من زائر خيراً، قتلت طبيبي؟ فقال: قتلت المأمور وبقي الآمر. فقال له: عليك لعنة الله، أما والله لو كان تشهّد مرة واحدة لقتلتك به. أمعك نافع؟ قال: لا. قال: بلى والله، وما اجترأت إلاّ به. ثم أمر بطلبه فوُجد، فأتي به فضرب مائة سوط، ولم ينح خالداً بشيء أكثر من أن حبسه، وألزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم، أدخل بيت المال منها ستة آلاف وأخذ ستة آلاف، فلم يزل ذلك يجري في دية المعاهد حتى ولي عمر بن عبد العزيز فأبطل الذي يأخذه السلطان لنفسه وأثبت الذي يدخل بيت المال.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي في كتاب «الأمثال»: إن معاوية بن أبي سفيان كان خاف أن يميل الناس إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فاشتكى عبد الرحمن فسقاه الطبيب شربة عسل فيها سم فأحرقته. فعند ذلك قال معاوية: لا جد إلّا ما أقعص[1] عنك من تكره. قال: وقال معاوية أيضاً حين بلغه أن الأشتر سقي شربة عسل فيها سم فمات: «إن لله جنوداً منها العسل»[2].

* * *

أبو الحكم الدمشقي:

عاش أيام الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وعمل في بلاطه في تركيب الأدوية، ويقال إنه استغله لمآرب خاصة غير طبية ربما كانت في تحضير بعض السموم. كما خدم أبو الحكم يزيد بن معاوية قبل توليه الخلافة وبعدها. وخدم أيضاً كلاً من الخليفة عبد الملك بن مروان، وحضر وفاته سنة ٨٦ هـ، وابنه الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ)، والمرجح أن وفاة أبي الحكم كانت في أيامه، وكان قد طعن في السن وزاد عمره على المائة سنة، ولم تعرف له مؤلفات في الطب.

كان طبيباً نصرانياً عالماً بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال مذكورة ووصفات مشهورة، وكان معاوية يستطبه. حدث أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم، قال: حدثني أبي قال: حدثني عيسىٰ بن حكم الدمشقي المتطبب، قال: حدثني أبي عن أبيه، قال: ولي الموسم في أيام معاوية بن أبي سفيان يزيد بن معاوية، فوجهني أبوه معه متطبباً له. وخرجت مع عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس إلى مكة متطبباً له.

وقال يوسف بن إبراهيم: حدثني عيسىٰ بن حكم عن أبيه، أن جده أعلمه أنه كان حَمّى عبد الملك بن مروان من شرب الماء في علته التي توفي فيها، وأعلمه أنه متى شرب الماء قبل نضج علته توفي. قال: فاحتمى عن الماء يومين وبعض الثالث. قال: فإني عنده لجالس وعنده بناته، إذ دخل عليه الوليد ابنه فسأله عن حاله، وهو يتبيّن في وجه الوليد السرور بموته، فأجابه بأن قال:

ومستخبر عنّا يريد بنا الردى ... ومستخبرات والدموع سواجم

---

(١) أقعصه: رماه أو ضربه فمات مكانه.

(٢) عيون الأنباء ص١٧٤.

وكان استفتاحه النصف الأول وهو مواجه للوليد، ثم واجه البنات عند قوله النصف الثاني، ثم دعا بالماء فشربه فقضى من ساعته.

* * *

حكم الدمشقي:

لحق بأبيه في معرفته بالمداواة والأعمال الطبية والوصفات البديعة. وكان مقيماً بدمشق وعمّر طويلاً. قال أبو يوسف بن إبراهيم: حدثني عيسىٰ بن حكم أن والده توفي وكان عبد الله بن طاهر بدمشق في سنة عشر ومائتين، وأن عبد الله سأله عن مبلغ عمر أبيه فأعلمه أنه عمر مائة وخمس سنين، لم يتغير عقله ولم ينقص علمه. فقال عبد الله: عاش حكم نصف التاريخ.

قال يوسف: وحدثني عيسىٰ أنه ركب مع أبيه حكم بمدينة دمشق، إذ اجتازوا بحانوت حجّام قد وقف عليه بشر كثير، فلما بصر بنا بعض الوقوف قال: أفرجوا هذا حكم المتطبب وعيسىٰ ابنه. فأفرج القوم، فإذا رجل قد فصد الحجام في العرق الباسليق، وقد فصده فصداً واسعاً، وكان الباسليق على الشريان، فلم يحسن الحجام تعليق العرق فأصاب الشريان، ولم يكن عند الحجّام حيلة في قطع الدم. واستعملنا الحيلة في قطعه بالرفائد (الخرق توضع على الجرح) ونسج العنكبوت والوبر فلم ينقطع بذلك. فسألني والدي عن حيلة، فأعلمته أنه لا حيلة عندي. فدعا بفستقة فشقّها وطرح ما فيها، وأخذ أحد نصفي القشر فجعله على موضع الفصد، ثم أخذ حاشية من ثوب كتان غليظ فلفّ بها موضع الفصد على قشر الفستقة لفّاً شديداً، حتى كان يستغيث المفتصد من شدّته، ثم شدّ ذلك بعد اللفّ شدّاً شديداً، وأمر بحمل الرجل إلى نهر بردى، وأدخل يده في الماء ووطّأ له على شاطىء النهر ونوّمه عليه، وأمر فحُسي محات (جمع محتة وهي بياض البيض) بيض نيمرشت (مسلوقة قليلاً)، ووكل به تلميذاً من تلامذته، وأمره بمنعه من إخراج يده من موضع الفصد من الماء إلّا عند وقت الصلاة أو يتخوف عليه الموت من شدّة البرد. فإن تخوّف ذلك أذن له في إخراج يده هنيهة ثم أمره بردّها، ففعل ذلك إلى الليل. ثم أمر بحمله إلى منزله ونهاه عن تغطية موضع الفصد وعن حلّ الشدّ قبل استتمام خمسة أيام، ففعل ذلك، إلّا أنه صار إليه في اليوم الثالث وقد ورم عضده وذراعه ورماً شديداً، فنفّس من الشدّ يسيراً، وقال للرجل: «الورم أسهل من الموت».

فلما كان في اليوم الخامس حلّ الشداد فوجدنا قشر الفستقة ملتصقاً بلحم الرجل، فقال والدي له: «بهذا القشر نجوت من الموت»، فإن خلعت هذا القشر قبل انخلاعه وسقوطه من غير فعل منك تلفت نفسك». ثم إن القشر سقط في اليوم السابع وبقي في مكانه دم يابس في خلقة الفستقة، فنهاه والدي عن العبث به أو حكّ ما حوله أو فتّ شيء من ذلك الدم. فلم يزل الدم يتحات (أي يتناثر ويتساقط) حتى انكشف موضع الفصد في أكثر من أربعين ليلة وبرأ الرجل[1].

تروي الأخبار عن حكم الدمشقي أنه كان على ذهنية علمية في معالجة المرضى، متمكّناً من الصنعة، عمّر طويلاً ولم يتغير عقله كما ذكر ابنه. أدرك حكم العباسيين في ثلثي عمره الأخير وتوفي سنة ٢١٠ هـ في خلافة المأمون، ولم يترك أعمالاً مكتوبة في الطب أيضاً.

* * *

عيسىٰ بن حكم الدمشقي:

ويكنى بأبي الحسن، كان متديّناً بنزعة كهنوتية ويحتمل أنه لقب «مسيح» لهذا السبب، واشتهر بهذا الاسم وحده في التاريخ الطبي القديم. عاش أكثر عمره في زمن العباسيين، وخدم هارون الرشيد وعالج جاريته «مصفى» المعروفة باسم «غضيض» من قولنج توفيت به.

قال يوسف بن إبراهيم: حدثني عيسىٰ بن حكم أنه عرض لغضيض أم ولد الرشيد قولنج، فأحضرته وأحضرت الأبح والطبري الحاسبين، وسألت عيسىٰ عمّا يرى معالجتها به، قال عيسىٰ: فأعلمتها أن القولنج قد استحكم بها استحكاماً إن لم تبادره بالحقنة لم يؤمن عليها التلف. فقالت للأبح والطبري: اختارا لي وقتاً أتعالج فيه. فقال لها الأبح: علتك هذه ليست من العلل التي يمكن أن يؤخر لها العلاج إلى وقت يحمده المنجّمون، وأنا أرى أن تبادري بالعلاج قبل أن تعملي عملاً، وكذلك يرى عيسىٰ بن حكم. فسألتني فأعلمتها أن الأبح قد صدقها. فسألت الطبري عن رأيه فقال: إن القمر اليوم مع زحل، وهو في غدٍ مع المشتري، وأنا أرى لك أن تؤخري العلاج إلى مقارنة القمر المشتري. فقال الأبح: أنا أخاف أن يصير القمر مع المشتري وقد عمل القولنج عملاً لا يحتاج معه إلى علاج. فتطيّرت من ذلك غضيض وابنتها أم محمد وأمرتا بإخراجه من الدار وقبلت قول

---

(١) عيون الأنباء ص١٧٦ ـ ١٧٧.

الطبري. فماتت غضيض قبل موافاة القمر المشتري. فلمّا وافى القمر المشتري قال الأبح لأم محمد: هذا وقت اختيار الطبري للعلاج فأين العليل حتى نعالجه؟ فزادتها كلماته غيظاً عليه، ولم تزل سيئة الرأي فيه حتى توفيت.

قال يوسف (بن إبراهيم): نزلت على عيسى بن حكم في منزله بدمشق سنة خمس وعشرين ومائتين، وفي نزلة صعبة، فكان يغذوني بأغذية طيبة ويسقيني الثلج، فكنت أنكر ذلك، وأعلمه أن تلك الأغذية مضرّة بالنزلة، فيعتل عليّ بالهواء ويقول: أنا أعلم بهواء بلدي منك، وهذه الأشياء المضرّة بالعراق نافعة بدمشق. فكنت أغتذي بما يغذوني به. فلما خرجت عن البلد خرج مشيّعاً لي حتى صرنا إلى الموضع المعروف بالراهب، وهو الموضع الذي فارقني فيه، فقال لي: قد أعددت لك طعاماً يُحمل معك يخالف الأطعمة التي كنت تأكلها، وأنا آمرك أن لا تشرب ماء بارداً، ولا تأكل من مثل الأغذية التي كنت تأكلها في منزلي شيئاً. فلمته على ما كان يغذوني به، فقال: إنه لا يحسن بالعاقل أن يلزم قوانين الطب مع ضيفه في منزله[1].

وكان يوسف بن إبراهيم وعيسىٰ بن حكم قد تجاريا ذكر البصل، فبادر عيسىٰ إلى ذمّه ووصف معايبه. وكان عيسىٰ بن حكم وسلمويه (طبيب الخليفة العباسي محمد المعتصم بالله) بن بيان يسلكان طريق الرهبان ولا يحمدان شيئاً مّما يزيده في الباه، ويذكران أن ذلك ممّا يتلف الأبدان ويذهب الأنفس، فلم يستنجد يوسف بن إبراهيم الاحتجاج عليه بزيادة البصل في الباه. فقال يوسف له: قد رأيت له في سفري هذا، أعني فيما بين سرّ من رأى ودمشق، منفعة. فسأل عنها، فأعلمته أني كنت أذوق الماء في بعض المناهل فأصيبه مالحاً فآكل البصل النيء ثم أعاود شرب الماء فأجد ملوحته قد نقصت. وكان عيسىٰ بن حكم قليل الضحك، فاستضحك من قولي ثم رجع إلى إظهار جرح منه، ثم قال: يعزّ عليّ أن يغلط مثلك هذا الغلط، لأنك صرت إلى أسمج نكتة في البصل وأعيب عيب فيه فجعلتها مدحاً. ثم قال لي: أليس متى حدث في الدماغ فساد فسدت الحواس، حتى ينقص حس الشم والذوق والسمع والبصر؟ فأعلمته أن الأمر كذلك. فقال لي: إن خاصية البصل إحداث فساد الدماغ، فإنما قلّل حسّك بملوحة الماء ما أحدث البصل في دماغك من الفساد.

---

(١) عيون الأنباء ص١٧٨.

وقال يوسف بن إبراهيم: قال لي عيسىٰ وقد شيّعني إلى الراهب، وهو آخر كلام دار بيني وبينه، إن والدي توفي وهو ابن مائة سنة وخمس سنين لم يتشنج له وجه، ولم ينقص من ماء وجهه لأشياء كان يفعلها، وأنا الآن مزوّدكها فاعمل بها، وهي:

ـ أن لا تذوق القديد.

ـ ولا تغسل يديك ورجليك عند خروجك من الحمام أبداً إلاّ بماء بارد أبرد ما يمكنك.

ـ والزم ذلك فإنه ينفعك.

فلزم يوسف ما أمره به عيسىٰ من هذا الباب.

ألّف عيسى بن حكم الدمشقي كتاباً في مفردات الأدوية والأعشاب، ومقالة في فوائد أعضاء الحيوان، وأما أشهر تصانيفه فهي الرسالة الياقوتية الكافية المعروفة بالهارونية، إذ كانت إهداء للخليفة هارون الرشيد في بغداد، وتحتوي على خمسة وأربعين باباً مثبتة، في أولها: «تأليف عيسىٰ مسيح بن حكم المتطبب الدمشقي، ألّفها لأمير المؤمنين هارون الرشيد، الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد... أما بعد، لما رأيت من حرص أمير المؤمنين... المزيد في إحياء علوم الدين وما تصلح به أجساد المسلمين (بصناعة الطب) ورأيت من سبقنا إلى هذا الفن من المتقدمين، استخرجت هذه الرسالة من جميع كتب الأوائل، واقتصرت عن التطويل».

وفيها يذكر المؤلف مشاكلة الحيوان ببدن الإنسان، وفيها شرح في الهوام وأنواع الحيوان من المعز إلى الجمل، وإلى الأفعى، ثم أقول في العناصر الأربعة، وفصول في المياه والحمام، ومناهج وطرق المداواة والمعالجة العلمية أو الشعبية. فكان يذكر مثلاً حول أمر تسهيل الولادة، بأن يعلق حجر اليشب الأخضر إلى فخذ المرأة عند المخاض، أو أن يعطي وصفة سعوط نافع من أوجاع الشقيقة، أو سرد لأنواع الأحجار الكريمة النافعة في العلاج، مثل الزمرد والزبرجد، ثم فصل في الأوزان والمكاييل، ويرتب الأدوية المفردة هجائياً من الألف إلى الياء.

وفي آخر الرسالة يقول: «هذا ما بلغته أجوبتي واختبرته ووقفت على أثره، وما لم أخبرته، أخذته عن الثقات من أهل الدين والورع».

وذكر له ابن أبي أصيبعة[1] من الكتب: كُنّاش، وكتاب منافع الحيوان.

---

(١) عيون الأنباء ص١٧٨.

أما الكناش الذي ذكره ابن أبي أصيبعة، فقد أتى على ذكره الرازي في علاج الربو (الحاوي ٣٦/٤) وعلاج الشوصة (الحاوي ١٨٧/٤) وعلاج رطوبة المعدة (ح ٨٥/٥) والفواق (ح ١٧٧/٥) وتقلب المعدة (ح ٢١٨/٥) واضطرابات الأمعاء (ح ١٨٩/٦)، وفي أدوية خفقان القلب (ح ٣٤/٧، ٣٥، ٣٦) وفي اليرقان من الكبد ١٥٩/٧) وفي الأدوية المدرّة للبن (ح ٢٣١/٧) وفي فوائد اللبن الرائب للدق وضعف المعدة والإسهال (ح٢٧٤/٧) وعلاج مغس [مغص] المرار (ح٥٧/٨) ونفخ البطن (ح١٥٤/٨) وفي أدوية اختناق الرحم وميلها (ح٦٩/٩) وفي طرق منع الحمل (ح١٤٦/٩) وفي أدوية قرحة المثانة (ح٤٥/١٠) والأدوية التي تفت الحصى (ح٣١/١٠) وفي مداواة الباه (ح٢٨٦/١٠) ومداواة البواسير (ح٦٢/١١) ووجع الظهر (ح٢٤٧/١١) وغيرها من المعالجات. كما أخذ عن هذا الكناش ابن البيطار في كتابه «مفردات الأدوية».

وفي موضع آخر من كتابه[1] يقول ابن أبي أصيبعة: «وهو المشهور بمسيح صاحب الكُنّاش الكبير الذي يعرف به وينسب إليه».

وكان أبو بكر الرازي يشير إلى عيسىٰ بن حكم في كتابه الحاوي باسم اليهودي، وقد ورد ذكر اسمه (اليهودي) في الكتاب أكثر من مائة وثلاثين مرة.

* * *

ماسرجويه:

طبيب بصري كان إسرائيلياً من أصل فارسي في زمن عمر بن عبد العزيز وربّما قيل في اسمه ماسرجيس، وكان عالماً بالطبّ تولّى لعمر بن عبد العزيز[*] ترجمة كتاب أهرن القسّ في الطب، وهو كُنّاش فاضل أفضل الكنانيش القديمة. قال ابن جلجل[2]: كان يهودي المذهب سريانياً، وهو تولّى في الدولة المروانية تفسير كتاب أهرُن بن أعين القسّ إلى العربية، ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه ووضعه في مُصلّاه، فاستخار الله في إخراجه إلى المسلمين للانتفاع

---

(١) المصدر نفسه ص١٧٧.

(*) وقيل إنه ترجمه في أيام مروان بن الحكم، وحفظت هذه الترجمة في خزائن الدولة إلى أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز.

(٢) طبقات الأطباء والحكماء ص٦١.

بـه، فلما تمّ له ذلـك أربعين صبـاحاً أخـرجه إلى النـاس وبثّه في أيـديهم. وقـال: حدثني أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بهذه الحكايـة في مسجد القـرموني سنـة تسع وخمسين وثلاثمائة.

وقد ذكر محقق طبقات جلجل فؤاد سيّد في ترجمـة ماسرجـويه أن ابن جلجـل أورد هذا النص الهامّ جداً عن ترجمة ماسرجويه لكتاب كناش أهـرن القس بن أعين من السريانية إلى العـربية. وقـد اهتم العلماء والمشتغلون بتـاريخ العلوم بهـذا النص لأهميته في تاريخ العلم ولدلالته على قـدم الترجمـة، ووجود خـزائن للكتب في صدر الـدولة الإسـلامية. وواضـح أن ابن جلجل أول من دوّن هـذا النص، فقد تلقـاه شفاهاً من محمد بن عمر بن عبد العزيز وهو من أحفـاد عيسىٰ بن مزاحم الـذي كان مـولى للخليفة عمـر بن عبد العـزيز ثم انتقـل إلى الأندلس وأنسل بها، ومنـه عرف أبناؤه وأحفاده هذا الخبر. وعن ابن جلجل نقله المؤرخون وأثبتوا أنه مصـدره كما في عيون الأنباء وأخبار الحكماء ومختصر الدول[1].

ذكر أيوب بن الحكم البصري حـاجب محمد بن طـاهر بن الحسـين، وكان ذا أدب ومـروّة وعلم بأخبـار الناس، قـال: كـان أبـو نـواس الحسن بن هـانيء يعشق جارية لامرأة من ثقيف تسكن الموضع المعروف بحكـمان من أرض البصرة يقال لهـا جنان، وكان المعروف بأبي عثمان وأبي ميّة من ثقيف قرابة لمولاة الجاريـة، وكان أبـو نواس يخرج في كل يوم من البصرة يتلقّى من يقـدم من ناحيـة حكمان فيسـألهم عن أخبار جنان. قال: فخرج يوماً وخرجت معه، وكان أول من طلع علينا ماسرجويـه المتطبّب، فقال له أبو نواس: كيف خلّفت أبا عثـمان وأبا ميّـة؟ فقال مـاسرجويـه: جنان صالحة، فأنشأ أبو نواس يقول[2]:

أسـأل الـقـادمـين مـن حـكـمان	كـيـف خـلـفـتـمُ أبـا عـثـمان
وأبـا مـيّـة الـمـهـذّبَ والمـا	ـولَ والمـرتجى لـريب الـزمـان
فـيـقـولـون لي جـنـانٌ كـما سرّ	ك من حـالهـا فسـلْ عن جنـان
مـا لهـم لا يـبـارك الله فـيـهـم	كـيـف لم يخـفَ عـنهـم كتـماني

وحدّث أيوب بن الحكم أنّه كان جالساً عند ماسرجـويه وهـو ينظر في قـوارير البول، إذ أتـاه رجل من الخوز فقال: إني بليت بداء لم يبـل أحد بمثله، فسـأله عن

(١) المصدر السابق، هامش رقم١٠ ص٦٢.
(٢) تاريخ الحكماء ص٣٢٥.

دائه، فقال: أصبحُ وبصري مظلم عليّ وأنا أصيبُ مثل لحس الكلاب في معدتي، فلا تزال هذه حالي حتى أطعم شيئاً، فإذا طُعمت سكن عني ما أجد إلى وقت انتصاف النهار ثم يعاودني ما كنت فيه، فإذا عاودت الأكل سكن ما بي إلى وقت صلاة العتمة ثم يعاودني فلا أجد له دواء إلاّ معاودة الأكل. فقال له ماسرجويه: على دائك هذا غضب الله فإنه قد أساء لنفسه الاختيار حين قرنها بسفلة، ولوددتُ أن هذا الداء تحوّل إليّ وإلى صبياني فكنتُ أعوضك مّما نزل بك مثل نصف ما أملك. فقال له: ما أفهم عنك؟ فقا له ماسرجويه: هذه صحّة لا تستحقّها أسأل الله نقلها عنك إلى من هو أحق بها منك.

وقد نقل دي لاسي أوليري في كتابه «مسالك الثقافة اليونانية إلى العرب ص٥٢) أن كتب أهرن بن أعين وهي مكتوبة باليونانية، قد نقلت إلى اللغة السريانية بقلم جاسيوس، والكناش الذي ترجمه ماسرجويه البصري إلى العربية كان أحد كتبه التي وجدت باللغة السريانية، وبأي حال كانت ترجمة ماسرجويه هذه من السريانية لا من اليونانية، أي إن ماسرجويه لم يكن على أكثر الاحتمال يتقن اليونانية أو كان يعرفها بضعف.

* * *

تياذوق:

طبيب رومي دمشقي، كان أقدر الأطباء الأروام في ممارسة الصنعة، وكان كريم الخلق لطيف العشرة، سريع الخاطر والجواب. كان في أول دولة بني أمية ومشهوراً عندهم بالطب، وصحب الحجاج بن يوسف الثقفي المتولي من جهة عبد الملك بن مروان، فلمس الحجاج منه صدقاً ودراية وحذقاً في الصنعة، فألحقه بمجلسه واعتمده طبيباً له في الكوفة، وكان يعتمد عليه ويثق بمداواته، وكان يجري عليه الجامكية (المال السلطاني).

وفي الأخبار أن لتياذوق ملحاً تدل على بديهته الحاضرة وخفة روحه وحلاوة مجلسه. يروى أن الحجاج سأله ذات يوم: أي شيء دواء أكل التين؟ وكان الحجاج مولعاً بأكل التين مّما يسبب له إسهالاً وألماً في المعدة، فأجابه تياذوق على الفور: عزيمة مثلك أيها الأمير. فانقطع الحجاج من يومها عن أكل التين، ولم يعد يشكو من الإسهال.

ومن نوادره أن الحجاج شكا من صداع في رأسه، فبعث إلى تياذوق

وأحضره، فقال: اغسل رجليك بماء حار، وادهنهما، وخصيّ للحجاج قائم على رأسه، فقال: والله ما رأيت طبيباً أقل معرفة بالطب منك! شكا الأمير صداعاً في رأسه فوصفت له دواء في رجليه! فقال له: أما أن علامة ما قلت فيك بيّنة. قال الخصيّ: وما هي؟ فقال: نُزعت خصيتاك فذهب شعر لحيتك. فضحك الحجاج ومن حضر.

ومنها أيضاً أن الحجاج شكا ضعفاً في معدته وقصوراً في الهضم إلى تياذوق، فقال: يكون الأمير يحضر بين يديه الفستق الأحمر القشر البراني، ويكسره ويأكل من لبّه، فإن ذلك يقوي المعدة. فلما أمسى الحجاج بعث إلى حظاياه وقال: إن تياذوق وصف لي الفستق، فبعثت إليه كل واحدة منهم صينية فيها قلوب فستق، فأكل من ذلك حتى امتلأ، وأصابته بعقبه هيضة كادت تأتي على نفسه. فشكا حاله إلى تياذوق، وقال: وصفت لي شيئاً أضرّ بي، وذكر له ما تناوله.. فقال له: إنما قلت لك أن تحضر عندك الفستق بقشره البراني فتكسر الواحدة بعد الواحدة، وتلوك قشرها البراني وفيه العطرية والقبض فيكون بذلك تقوية المعدة، وأنت فقد عملت غير ما قلت لك! ثم داواه ممّا عرض له.

ومن وصاياه الطبية للحجاج في المداواة وحفظ الصحة وتناول الأغذية والأشربة وغيرها: لا تنكح إلاّ شابة، ولا تأكل اللحم إلاّ فتياً، ولا تشرب الدواء إلاّ من علة، ولا تأكل الفاكهة إلاّ في أوان نضجها، وأجِد مضغ الطعام، وإذا أكلت نهاراً فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة. فقال له بعض من حضر: إذا كان الأمر كما تقول فلم هلك بقراط؟ ولم هلك جالينوس وغيرهما ولم يبق أحد منهم؟ قال: يا بني قد احتججت فاسمع! إنّ القوم دبّروا أنفسهم بما يملكون وغلبهم ما لا يملكون ـ يعني الموت ـ وما يرد من خارج كالحرّ والبرد والوقوع والغرق والجراح والغمّ وما أشبه ذلك.

وأوصى تياذوق الحجاج أيضاً، فقال: لا تأكلنّ حتى تجوع، ولا تتكارهنّ على الجماع، ولا تحبس البول، وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك.

وقال له أيضاً: أربعة تهدم العمر وربما قتلن: دخول الحمام على البطنة، والمجامعة على الامتلاء، وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق، وما مجامعة العجوز ببعيدة منهنّ.

وروي أن الهيثم بن عدي قال: «قلت لتياذوق: أوصني بشيء أحفظه عنك فإني مسافر، فقال: لا تنامنّ حتى تعرض نفسك على الخلاء، ولا تذق طعاماً وفي

معدتك طعام، واتق ما تخرجه النعجة والنحلة، فإن اعتللت فأنا الضمين، إلاّ علّة الموت»[1]. وهناك ملاحظتان على هذه الرواية كما ذكر صاحب كتاب «نشأة العلوم الطبيعية عند العرب»[2]: الأولى أن الهيثم ولد قبل سنة ١٣٠ هـ وتوفي سنة ٢٠٧ هـ، أي إنه لم يدرك تياذوق على الأرجح، لأن تياذوق توفي سنة ٩٠ هـ، والثانية أن ما تخرجه النعجة والنحلة (أي اللبن والعسل) يوصى بشربهما لا بتجنبهما.

وقيل إن بعض الملوك لما رأى تياذوق وقد شاخ وكبر سنّه، وخشي أن يموت ولا يعتاض عنه، لأنه كان أعلم الناس وأحذق الأمة في زمانه بالطب، قال له: صف لي ما أعتمد عليه فأسوس به نفسي وأعمل به أيام حياتي، فلست آمن أن يحدث عليك حدث الموت ولا أجد مثلك، فقال تياذوق: أيها الملك بالخيرات، أقول لك عشرة أبواب إن علمت واجتنبتها لم تعتل مدة حياتك، وهذه عشر كلمات[3]:

١ - لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام.
٢ - ولا تأكل ما تضعف أسنانك عن مضغه فتضعف معدتك عن هضمه.
٣ - ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين، فإن أصل الداء التخمة وأصل التخمة الماء على الطعام.
٤ - وعليك بدخول الحمام في كل يومين مرة واحدة فإنه يخرج من جسدك ما لا يصل إليه الدواء.
٥ - وأكثر الدم في بدنك تحرص به نفسك.
٦ - وعليك في كل فصل قيئة ومسهلة.
٧ - ولا تحبس البول وإن كنت راكباً.
٨ - واعرض نفسك على الخلاء قبل نومك.
٩ - ولا تكثر الجماع فإنه يقتبس من نار الحياة؛ فليكثر أو يقل.
١٠ - ولا تجامع العجوز فإنه يورث الموت الفجأة.

فلما سمع الملك ذلك أمر كاتبه أن يكتب هذه الألفاظ بالذهب الأحمر ويضعه في صندوق من ذهب مرصّع، وبقي ينظر إليه في كل يوم ويعمل به، فلم يعتل مدة حياته حتى جاءه الموت.

---

(١) المحاسن والمساوىء ١/٤٧٥.
(٢) لطف الله القاري ص١٢٢.
(٣) لعلّها رواية الهيثم بن عدي في المحاسن والمساوىء.

وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب، قال: قال الحجاج لابنه محمد: يا بني إن تياذوق الطبيب كان قد أوصاني في تدبير الصحة بوصية كنت أستعملها فلم أر إلاَّ خيراً. ولما حضرته الوفاة دخلت عليه أعوده، فقال: الزم ما كنت وصيتك به وما نسيت منها فلا تنس: «لا تشربنّ دواء حتى تحتاج إليه، ولا تأكلنّ طعاماً وفي جوفك طعام، وإذا أكلت ليلاً فامش أربعين خطوة، وإذا امتلأت من الطعام فنم على جنبك الأيسر، ولا تأكلن الفاكهة وهي مولية، ولا تأكلن اللحم إلاَّ فتياً، ولا تنكحن عجوزاً، وعليك بالسواك، ولا تتبعنّ اللحم باللحم، فإن إدخال اللحم على اللحم يقتل الأسود في الفلوات».

ويروي إبراهيم أيضاً أن تياذوق شهد إعدام شيخ التابعين سعيد بن جبير من قبل الحجاج، حيث دار بين الاثنين حوار مثير كان من آخر كلماته أن قال الحجاج: اختر أي قتلة أقتلك بها! فقال سعيد: بل اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني بقتلة إلاَّ قتلتك بمثلها يوم القيامة. فارتعب الحجاج من ذلك، ولكنه أصرّ على قتل سعيد. فلما قتل سعيد سال منه دم غزير لم يشهد الحجاج مثله في القتلى الذين أعدمهم، فارتجف من ذلك وسأل تياذوق عن السبب، فأخبره تياذوق بأنّ سعيداً قتل وهو مطمئن النفس لا أثر للخوف في أعصابه، ولم ينقطع نفسه من هول الموقف، ولذلك كانت عروقه منتفخة سال منها كل دمه، بعكس القتلى الآخرين الذين يسبب الخوف عندهم انقطاع النفس وانسداد العروق.

مات تياذوق بعدما أسنّ وكبر، وكانت وفاته بواسط في نحوٍ سنة تسعين للهجرة. ولتياذوق من الكتب: كتاب «إيدال[1] الأدوية وكيفية دقّها وإيقاعها وإذابتها وشيء من تفسير أسماء الأدوية»، وله «كناش» كبير ألفه لابنه، والكناش هو الكتاب الجامع في الطب[2].

قيل «إن تياذوق كان لا يزال يعالج العلاج الفطري القائم على المداراة، ولم يكن كثير الخبرة بالتطبيب المزاجي الذي كان قد بدأ يصل إلى أطباء زمانه». وقيل أيضاً عن نصائحه ووصاياه: «وفيها كثير من آراء البداوة وقليل من آراء بقراط وجالينوس، ولكنها قليلة الصلة بعلم الطب المزاجي»[3].

* * *

(١) إيدال الأدوية أي مخضها أو مزجها بالماء وتحريكها.

(٢) عيون الأنباء ص١٨١.

(٣) العرب في حضارتهم، د. عمر فروخ ص١٩٧.

ابن أبجر:

يقول ابن أبي أصيبعة[1]: «عبد الملك بن أبجر الكناني، كان طبيباً عالماً ماهراً، وكان في أول أمره مقيماً في الإسكندرية لأنه كان المتولي في التدريس بها من قبل الإسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم، وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى، ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز، وكان حينئذ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة، وصحبه. فلما أفضت الخلافة إلى عمر، وذلك في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكية وحرّان وتفرّق في البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر ويعتمد عليه في صناعة الطب».

إزاء هذه الرواية التي ساقها ابن أبي أصيبعة لا يسعنا إلاَّ أن نقف الموقف الذي أوضحه الأستاذ القاري[2] في كتابه بصدد بيان الخلط الذي وقع فيه ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن أبجر. فالملاحظ أن هناك خلطاً ظهر فيما يلي:

١ - أن ابن أبجر عاش قبل الفتح الإسلامي وأنه تولّى التدريس بمدرسة الإسكندرية قبل أن يملكها المسلمون سنة ١٥ هـ، أي إنه كان في حدود الأربعين على الأقل، وبالتالي كانت ولادته حوالى سنة ٢٥ قبل الهجرة.

٢ - وأنه أسلم على يد عمر بن عبد العزيز الذي كان والياً على مصر من سنة ٨٦ إلى ٩٣ هـ، أي إنه كان في حوالى ال«١١٥» سنة عندما أسلم وصار من أصحاب عمر بن عبد العزيز. يقول القاري: فهذا تناقض واضح، وابن أبجر الذي كان يعيش في عصر بني أمية لا تتعدّى ترجمته الموثوق بها ما ذكره ابن جلجل في طبقاته: «كان طبيباً عالماً، وكان في أيام بني مروان، وكان عالماً نحريراً، وروي أن عمر بن عبد العزيز كان يبعث إليه بمائة»[3].

وقد بحث المستشرق ڤان أرندونك عن ابن أبجر فوجد أن ابن قتيبة ذكر في «المعارف» أن بني أبجر ينتسبون إلى بني فراس من كنانة، وأنهم كانوا أطباء في الكوفة. ووجد في «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني أن عبد الملك بن سعيد بن حيان بن أبجر الهمداني الملقب بالكناني الكوفي كان من أطب الناس،

---

(١) عيون الأنباء ص١٧١.

(٢) نشأة العلوم الطبيعية ص١٢٥.

(٣) طبقات الأطباء والحكماء ص٦٢.

فكان لا يأخذ عليه أجراً، وأنه توفي بعد سفيان الثوري الكوفي (ت سنة ١٦١ هـ).

ويقول ميرهوف[1]: «ولما كان ابن أبي أصيبعة يذكر لسفيان عن عبد الملك بر أبجر، كما جاء في عيون الأنباء ص١٧١، فنحن أمام فرضين: فإما أن يكون هذ الأخير عاش بالضرورة بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز بكثير (توفي عمر سنه ١٠١ هـ) وإما أن نكون بإزاء طبيبين اسمهما واحد. وثاني الفرضين أكثر احتمالاً خصوصاً إذا لاحظنا أن اسم أبجر كان شائعاً في شمالي العراق (جرياً على اسم الملك أبجر السرياني النصراني)، وخليق بنا أن نذكر أيضاً أن ابن أبي أصيبعة في الترجمة السابقة على ترجمة ابن أبجر يورد اسم هذا الأخير على أنه ممن رووا كلاماً يتعلق بابن أبي رمثة التميمي الذي كان طبيباً في عهد الرسول ﷺ، فمن الممكن إذ أن ابن أبجر قد كان طبيباً وصديقاً للخليفة عمر بن عبد العزيز، أما دوره رئيساً لإحدى المدارس في الإسكندرية فمن المؤكد أنه خرافي».

وقد ساق الخلط الذي وقع فيه صاحب العيون إلى خلط كثير ممّن أرخوا لابن أبجر من المعاصرين ونقلوا كلامه دون تحقيق. ومن هؤلاء ما أورده الدكتور فروخ الذي قال: «وكان في مصر قبل الفتح الإسلامي طبيب عالم ماهر يتولى التدريس في الإسكندرية. هذا الطبيب يعرف باسم عبد الملك بن أبجر الكناني، ويبدو أنه اتخذ هذا الاسم العربي والنسبة العربية بعد أن أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان عمر والياً على مصر من سنة ٨٦ إلى ٩٣ هـ»[2].

فالأمر الأول المستبعد في مقولة المؤرخ هو أن ابن أبجر كان عالماً ماهراً ناضجاً متولياً التدريس في الإسكندرية في عهد ما قبل الفتح الإسلامي سنة ١٥ هـ، ثم يعيش إلى زمان ولاية عمر بن عبد العزيز على مصر فيسلم على يده ويصحبه. والأمر الثاني المستبعد يأتي من العبارة القائلة إن الذين يسلمون في ذلك العصر لم يكونوا يختارون اسماً عربياً لأبائهم، ولا كانوا ينتسبون إلى نسب عربي، ولم يثبت أن ابن أبجر كان مولى لبني كنانة لينسب إلى مواليه.

ويعلق الأستاذ فؤاد سيد محقق طبقات ابن جلجل في مقدمة الكتاب فيذكر أن شخصاً يدعى «أدفر» تتلمذ عليه مريانُس معلم خالد بن يزيد الكيمياء يحتمل

---

(١) من الإسكندرية إلى بغداد ص٦٦.

(٢) العرب في حضارتهم ص١٩٨.

أن يكون هو ابن أبجر الذي أسلم على يد عمر بن عبد العزيز. على أن الزمن لا يمهل أحداً، فإذا كان أدفر معلم مريانُس، فمعنى ذلك أنه لم يلحق خالد بن يزيد، أي إنه لم يلحق عهد مروان بن الحكم الذي بدأ فيه خالد يتعلم شيئاً من العلوم الطبيعية، فكيف يمتد به العمر إلى زمن عمر بن عبد العزيز.

ويروي ابن أبي أصيبعة عن سفيان، وهو سفيان الثوري الكوفي المتوفى سنة ١٦١ هـ، والذي اعتمد عليه ميرهوف في افتراضه الخلط في ترجمة ابن أبجر، عن ابن أبجر أنه قال: المعدة حوض الجسد والعروق تشرع فيه، فما ورد فيها بصحة صدر بصحة، وما ورد فيها بسقم صدر بسقم».

وروى الأعمش سليمان بن مهران الكوفي عن ابن أبجر أنه قال: «دع الدواء ما احتمل بدنك الداء». وهذا من قول النبي ﷺ: «سر بدائك ما حملك»[١].

ومن حكم ابن أبجر في الطب قوله: البطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء وعوّدوا كل بدن ما اعتاد. والشطر الأول من حكمته هذه مأخوذ من الحديث النبوي الشريف: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء»، كما أن حكمته هذه تنسب إليه كما نسبت إلى الطبيب الحارث بن كلدة الثقفي من قبل.

* * *

فرات بن شحناتا:

ومن أطباء ذلك العصر فرات بن شحناتا (وقيل شحناثا) وهو يهودي ومن أبرز تلاميذ تياذوق وأقربهم إليه. أتقن المهنة على أستاذه، وخدم بعد وفاته الحجاج بن يوسف، وعاش حتى خلافة أبي جعفر المنصور، وخدم ولي عهده عيسىٰ بن موسىٰ إلى جانب طبيبه موسىٰ بن إسرائيل الكوفي[٢].

تلك هي أسماء المتطببين في العهد الأموي كما ذكرتها المصادر، وهناك أطباء آخرون ورد ذكرهم في كتاب «مختصر في تاريخ الطب وطبقات الأطباء العرب» لأحمد الشطي، انفرد بذكرهم رغم أن المصادر المذكورة لم تأت على شيء من أخبارهم، ومنهم:

---

(١) عيون الأنباء ص١٧١.

(٢) طبقات الأطباء والحكماء ص٦١، وتاريخ الحكماء ص٣٢٤ ـ ٣٢٦.

ـ ابن أبي زاهر: ألف في النبات في نحو سنة ١٢٥ هـ.
ـ أحمد بن إبراهيم: طبّ للخليفة يزيد بن عبد الملك في أول القرن الثاني الهجري، وله كتاب في أصول الطب ورسالة في النبات المستعمل في الطب.

كما ذكر اسم المفسّر محمد بن سيرين التابعي المحدث كواحد من أطباء ذلك العصر[١].

فإذا كان هؤلاء هم الأطباء الذين شهروا في العهد الأموي، فما هي العلاجات التي كانوا يقومون بها. من ذلك أن زياد بن أبيه والي العراق على عهد معاوية كتب دواء الكلب وعلّته على باب المسجد الأعظم بالبصرة ليعرفه كل الناس[٢]. وكنّا ذكرنا أن الأسود بن أوس تعلم دواء الكلب من ملك الحبشة، وأن هذا الدواء بقي في ذريته ولم يخرج منهم إلى عهد الراوي في العصر العباسي.

ومن أنواع المعالجة التي عرفت في العهد الأموي أن الطبيب كان يكشف ما بداخل المريض. وذلك أن الحجاج أصابته الأكلة في بطنه، فدلى الطبيب لحماً معلقاً في خيط إلى جوفه، فخرج اللحم مملوءاً دوداً[٣].

وفي الخبر أن عبد الرحمن بن سليمان كان حليفاً لقريش نديماً للوليد بن عثمان بن عفّان، فأصابه ذات يوم خمار، وهو ما يصيب المرء من ألم الخمر وصداعها وغيبوبتها، فذهب لسانه وانعدم نطقه وسكنت أطرافه، وصرخ أهله عليه، فأقبل الوليد إليه فزعاً، فلما رآه قال: أخي مخمور ورب الكعبة. ثم أمر غلاماً له فأتاه بشراب من منزله، فأمر به فسخن، ثم سقاه إياه وقيّأه، وصنع له حساء وجعل على رأسه دهناً، وجعل رجليه في ماء ساخن، فما لبث أن انطلق وذهب ما كان به[٤].

وروى علي بن محمد بن سليمان، قال: رأيت عيسىٰ بن عمر طول دهره يحمل في كمّه خرقة يضع فيها سكر العشر[٥] والإجاص اليابس، وربما رأيته واقفاً عندي أو سائراً أو عند ولاة البصرة فتصيبه نهكة على فؤاده فيخفق عليه حتى يكاد يغلب، فيستغيث بإجاصة وسكرة يلقيها في فمه ثم يمتصها. فإذا ما ازدرد من ذلك

---

(١) نشأة العلوم الطبيعية ص١٢٨.
(٢) الحيوان ٢/١٣.
(٣) شذرات الذهب، ١/١٠٧.
(٤) الأغاني ٢/٢١٠.
(٥) العُشَرُ: شجر كبير له سكر يخرج من فروعه ومواضع زهره.

شيئاً سكن عليه. فسألته عنه، فقال: أصابني هذا من الضرب الذي ضربني يوسف بن عمر، فعالجته بكل شيء فلم أجد أصلح من هذا.

وقيل إن حكيماً قال لسليمان بن عبد الملك: «عندي لك (أي عندي دواء يسبب لك) أن تأكل ولا تشبع، وتنكح ولا تفتر، ويسود شعرك ولا يبيض» فقال: كلهنّ يرغب عنهنّ العاقل، فمع الأكل كثرة دخول المراحيض وشم الروائح المنتنة، وفي كثرة النكاح الشغل بالنساء، وتسويد الشعر تسويد نور الله تعالى.

وإذا انتقلنا إلى الجراحة فقد عرف بعض الأطباء شيئاً منها خصوصاً بتر الأعضاء التالفة. ففي الخبر أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية يقول: ضبطت لك العراق ويميني فارغة لطاعتك فولّني الحجاز. فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان مقيماً بمكة، فقال؛ «اللهم أشغل يمين زياد». فأصابه الطاعون (وقيل الأكلة) في يمينه، فجمع الأطباء فأشاروا عليه بقطعها، فاستشار شريحاً القاضي في ذلك، فقال له شريح: أكره لك إن كانت مدة تعيش بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك تلق ربك مقطوع اليد، فإذا قال لك: لم قطعتها؟ قلت: بغضاً للقائك وفراراً من قضائك. ولم يقطعها، فمات من يومه[1]. فلام الناس شريحاً حيث نصح له لبغضهم لزياد، فقال: استشارني والمستشار مؤمن، وإلاَّ لوددت أنه قطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر جسده يوماً يوماً.

وذكر أن عروة بن الزبير بن العوام قدم إلى الوليد بن عبد الملك زائراً، فوقعت في رجله الأكلة، فدعوا الجزار ليقطعها، فقيل له: نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً، فقال: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية. قالوا: فنسقيك المرقد (أي المخدر)، قال: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه. ثم دخل عليه قوم لم يعرفهم من قبل، فقال: من هؤلاء؟ قالوا: يمسكونك، فإن الألم ربما عزب مع الصبر. قال: أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي، فقطعت كعبه بالسكين، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار فقطعت وهو يهلّل ويكبّر، ثم أغلي له الزيت في مغارف الحديد فحسم به فغشي عليه، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه. وقد قطعت رجله في مجلس الوليد مشغول عنه بمن يحدثه، فلم يتحرك ولم يشعر الوليد أنها قطعت حتى كويت فوجد رائحة الكيّ[2].

---

(١) شذرات الذهب ١/٨٥.

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة ص٢٢٢.

وكنا ذكرنا أن طبيباً نصرانياً يدعى بدراقس أجرى عملية جراحية لسكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (رض). وذلك أن سلعة (غدة تمور بين الجلد والعظم إذا ضغطت) خرجت في أسفل عين سكينة فكبرت حتى أخذت وجهها وعينها وعظم شأنها. وكان طبيب يدعى بدراقس يخدمها، فقالت له: ألا ترى ما وقعت فيه؟ فقال لها: أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك؟ قالت: نعم. فجعلها تضطجع وشقّ جلد وجهها حتى ظهرت السلعة، ثم كشط الجلد عنها أجمع، وسلخ العظم من تحتها حتى ظهرت له عروقها، وكان منها شيء تحت الحدقة، فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية، ثم سلّ عروق السلعة فأخرجها جميعها، وردّ العين إلى موضعها وعالجها، وسكينة لا تتحرك ولا تئن حتى فرغ ممّا أراد، فزال ذلك عنها وبرئت منه، وبقي أثر تلك الجراحة في مؤخّر عينها، فكان أحسن شيء في وجهها من كل حلي وزينة، ولم يؤثر ذلك في نظرها ولا في عينها[1].

البيطرة والبيزرة في العصر الأموي

كانت المعارف والمعلومات الطبية في المداواة والمداراة الموروثة من العصر الجاهلي تمارس في العصر الأموي إلى جانب المعارف التي وفدت على العرب لاختلاطهم بالأمم الأخرى. وإذا كان الطب قد مورس في العصر الجاهلي باعتباره لا غنى عنه لحفظ البدن وصيانة الصحة، فإن رعاية الحيوان والعناية به وبعلاجه ودراسة حياته ومراحل تطوره وطرق الاستفادة منه ممّا عرفته المجتمعات المتحضرة التي عرفت استئناس الحيوان. وكان عرب الجاهلية قد اعتنوا بالخيل والإبل، لأن الفرس والجمل دابتان من الدواب التي اعتمد عليها العرب في حلّهم وترحالهم، ومن أشهر الأمراض التي عرفوها وعالجوا منها كان الجرب، حيث كانوا يعالجون منه بالقطران، وكثيراً ما ورد ذكر القطران والقار في علاج الإبل الجربى عند شعراء العرب الجاهليين. وقد مورست هذه العلاجات في صدر الإسلام والعصر الأموي أيضاً. وعرف في ذلك العهد البيطرة، فقد ورد اسم بيطار في ذلك الوقت في حكاية وصلت إلينا مفادها أنّ هشام بن عبد الملك أشرف يوماً على استعراض عسكري لجنوده، وكان هشام أحول العين، فنفر حصان لرجل من أهل حمص حين رأى هشاماً، فقال له هشام: ويلك، تركب مثل هذا الفرس! فإن نفر بك في حرب صرعك وهلكت. فقال الحمصي: والرحمن ما هذه عادته، ولكنه شبّهك بغزوان

---

(١) الأغاني ١٦/١٠٧.

البيطار. وفي شذرات الذهب[1] أن هشاماً عرض يوماً لجند بحمص، فمرّ به رجل من أهل حمص وهو على فرس نفور، فقال له هشام: ما حملك على أن ترتبط فرساً نفوراً؟ فقال الحمصي: لا والرحمن الرحيم يا أمير المؤمنين، ما هو بنفور وإنما أبصر حولك فظن أنه عين عرون البيطار فنفر. وكان عرون نصرانياً ببلاد حمص كأنه هشام في حوله.

وكان لهشام صاحب ضوارٍ - أي مدرب وحوش - من طير وغيره. وصاحب الضواري هذا هو الغطريف بن قدامة الغساني الذي أصبح صاحب الضواري في عهد الوليد بن يزيد بعد وفاة هشام، ثم عاش إلى أن أدرك ملك بني العباس وكان حيّاً أيام هارون الرشيد. وكان الغطريف هذا حاذقاً في أمر الضواري جامعاً التجربة إلى الاطلاع على ما لدى الأمم الأخرى من علم بهذا الفن، وقد اشترك في وضع كتاب جامع عن «طب الطيور» - هو مخطوط في مكتبة طوب قبو سراي باستنبول، وقد صوره معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، ونسخته موجودة في دار الكتب المصرية برقم ٧٤٨ طب[2] - وقد كتب على نسخة طوب قبو سراي أن الكتاب من تأليف الحجاج بن خيثم. وبدأت مقدمة الكتاب بهذه العبارة: «قال الحجاج بن خيثم: استخرجنا من خزانة الرشيد هذا الكتاب، وعرضناه على الغطريف بن قدامة الغساني صاحب ضواري هشام والوليد فعرفه، وذكر أن معاذ بن أسلم زاد فيه كلمات لملوك الأكاسرة. وذكر أن ميخائل بن ليون عظيم الروم لما سمع بولع المهدي بالصيد ولذته أهدى إليه كتاباً كان لأوائلهم في ضواري الطير، فأمر المهدي بإحضار أدهم بن محروز الباهلي، وكان قد سمع منه فيها نوادر العرب، فأمر أن نكتب كتاباً جامعاً لمقالات الحكماء والترك والفلاسفة والروم جربت بعرب، فألفنا هذا الكتاب. أي إن الحجاج بن خيثم لم يكن إلاّ راوية للكتاب، وأن مؤلفه كان كل من الغطريف وأدهم بن محروز وأن معاذ بن أسلم زاد فيه عمّا قيل في موضوعه عند ملوك الأكاسرة.

وقد ذكر عبد الرحمن الباشا في كتابه «الصيد عند العرب» هذا الكتاب واطلع عليه فقال فيه: «وصاحب كتاب الطيور لا يفتأ يقول: قال الغطريف كذا، وقال الغطريف وأدهم كذا، وقالا كذا، ممّا يجعل جلّ الكتاب رواية عنهما»[3].

---

(١) م١ ص١٦٤.

(٢) نشأة العلوم الطبيعية ص١٣٦.

(٣) الصيد عند العرب ص٣٦.

وهناك كتاب آخر هو «القـانون في البيـزرة» - والبيزرة هي العناية بـالطيـور - مخطوط ورد ذكره في كتـاب «الصيد عنـد العرب»، ينقـل عن الغطريف وأدهم بن محروز، ويقول عن الغطريف إنه كان أستاذاً حاذقاً في معرفة الضواري قيّماً بأمرهـا. وكان الغطريف كما نقل عنه صاحب «القانون في البيـزرة» مطلعـاً على كتب الأولـين من أهل الملل الأخرى في هذا المضمار. فقد قال عنه: «وجدنا في كتاب خاقان ملك الترك كذا...».

على أن الغطريف المذكور صاحب الضواري لم يكن الشاهد الوحيد على مدى تطور علوم الحيوان وازدهـارها في خـلال العصر الأموي، وإنمـا برز عـالم آخر كـان مهتـماً بـالحيـوان وحيـاتـه وتـطوره، وهـو لم يكن عـالمـاً بـالحيـوان وصـاحب ضـوارٍ كالغطريف بن قدامة، بل كان قاضياً فقيهاً معروفاً ضرب المثل بذكائه الخارق، وهو القاضي أبو واثلة إيـاس بن معاويـة المزني. فممّا روي عن ذكائـه الحاد وتتبعـه آثار الحيوان أنه رأى يوماً - وهو يمشي في بهو بـواسط - آجرّة، فقـال: تحت هذه الآجـرة دابة. فنزعـوا تلك الآجرة فـإذا تحتها حيّـة متطوّقـة. فسئل عن السبب الذي جعله يستنتج وجود تلك الحية، فقال: «لأني رأيت ما بين الآجـرّتين نـديّاً من جميـع تلك الرحبة، فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفّس»[1].

ويذكر أنه رأى ديكاً ينقر حبّاً ولا يفرقه كما تفعل الديكة، فقـال: «ينبغي أن يكون هرماً، فإن الهرم إذا ألقي له الحب لن يفرقه ليجتمع الدجـاج حولـه، والهرم قد فنيت رغبته فيهنّ فليس همّه إلاّ نفسه»[2].

والجدير بالذكر أن إياس بن معاوية اهتم بدرس الحيوان منذ صغره، فقد كان في صغره ضعيفاً دمياً، وكان له أخ أشد حركة منه وأقوى، فكان معاوية أبوه يقـدم ذلـك الأخ على إيـاس. فقال لـه إياس يـومـاً: «يـا أبت، إنـك تقـدم أخي علـيّ، وسأضرب لك مثـلي ومثله: هو مثـل الفروج حـين تنغلق عنه البيض يخـرج كاسيـاً كافياً نفسه يلتقط ويستخفه الناس، وكلما كبر انتقـص، حتى إذا تـمّ فصار دجاجة لم يصلح إلاّ للذبح. وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنـه البيضة عن سـاقط لا يقدر على الحركة، فأبواه يغذوانـه حتى يقوى ويثبت ريشـه، ثم يحسن بعد ذلـك ويطير، فيجد به النـاس ويكرمـونه، ويـرسل من المـواضع البعيـدة فيجيء، فيصان لـذلك

---

(١) الحيوان ٤٨١/٦.

(٢) المصدر السابق ١٥٢/٢.

ويكرم ويشترى بالأثمان الغالية»[1]. ومن أقواله الدالة على علمه بالحيوان وتطوره وخلقه، قوله في تهجين السمك، أي توالده من أبوين مختلفين في الفصيلة. وقد عارضه في رأيه الجاحظ وظنّ أن كلامه خاطىء، ولكن العلم أقرّ كلامه وأثبته. يقول الجاحظ[2]: «فمن الباطل زعمهم أن الشبوط ولد الزجر من البني، وأن الشبوط لا يخلق من الشبوط، وأنه كالبغل في تركيبه وإنساله، ورووا ذلك عن إياس بن معاوية بن قرة».

ويقول أيضاً[3]: «وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار أن إياس بن معاوية زعم أن الشبوط كالبغل وأن أمّه بنية وأن أباه زجر، وأن من الدليل على ذلك أن الناس لم يجدوا في بطن شبوطة قط بيضاً. وأنا أخبرك أني قد وجدته فيها مراراً، ولكني وجدته أصغر جثة وأبعد من الطيب ولم أجده عاماً، كما لم أجده في بطون جميع السمك. فهذا قول أبي واثلة إياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي وصاحب الأزكان (أي صاحب الملاحظات الذكية والنباهات)، وأقوف (القيافة هي تتبع الآثار) من كرز بن علقمة، وهو داهية مضر في زمانه، ومفخر من مفاخر العرب. فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريين وأحاديث السماكين، وإلى ما في كتاب رجل لعله أن لو وجد هذا المترجم أن يقيمه على المصطبة ويبرأه إلى الناس من كذبه عليه ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته»[4].

وممّا عرف في العهد الأموي ممّا يتعلق بعلم الحيوان وطباعه وتطوره كان تفقيس البيض الصناعي. فإذا حدث أن باض الدجاج وسحب البيض منه، أو ذبح ولم يبق دجاج لحضانة البيض، كانوا يلجأون إلى وضعه في مكان مناسب ذي حرارة مع تبن وسرجين، ويترك هناك إلى أن يفقس. وقد حمل إلينا الأصبهاني في كتابه[5] نادرة عن أشعب تزعم أن سكينة بنت الحسين أدخلته مع البيض والتبن والسرجين في حجرة، وحلفت ألا يخرج منها حتى يحضن البيض كله إلى أن ينقب. ففعل أشعب ما أمر به، ولم يزل يحضن البيض حتى نقب كله فخرج منه ألوف الفراريج[6].

---

(١) الحيوان ٢/ ٢٧٨.
(٢) الحيوان ١/ ١٤٩.
(٣) الحيوان ٦/ ١٨.
(٤) كتاب في علم الحيوان لأرسطاطاليس «مترجم».
(٥) الأغاني ١٦/ ٩٨.
(٦) نشأة العلوم الطبيعية ص١٣٥.

البيمارستانات في العصر الأموي

كانت البيمارستانات[1] من أول عهدها إلى زمن طويل مستشفيات عامة تعالج فيها جميع الأمراض والعلل الباطنية والجراحية والعقلية إلى أن أصابتها الكوارث ودارت عليها السنون وحلّت بها الأحداث فأقفرت إلّا من المجانين الذين لا مكان لهم سواها، فصارت كلمةُ بيمارستان إذا ما سمعت تنصرف إلى مأوى المجانين.

وفكرة تجمع المرضى في مكان واحد تتوفر فيه الراحة للمرضى وسهولة العمل للمتطببين، وتطبيق العلاج على الوجه الأمثل، فكرة قديمة. إذ يمكن اعتبار معابد الأسقليبيين في حوالى القرن السابع قبل الميلاد في اليونان أول أشكال المستشفيات التي أنشأها الناس. ويروى أن أبقراط أبا الطب المشهور كان قد جعل من الحديقة التابعة لداره مكاناً يأوي إليه المرضى طلباً للراحة والمعالجة، وجعل فيه خدماً يقومون لمداواتهم وأسماه «أخسندوكين» أي مجمع المرضى[2]، فكان ذلك المكان أول مستشفى غطي عرف في تاريخ الطب. وانتشر من ثم استحداث المستشفيات بعد أبقراط، وتطور أسلوب العمل فيها، كما تطورت هندسة عمارتها لتتلاءم مع نوع العمل وراحة المرضى وتطبيق العلاج والمداراة. وقد وضع روفس الأفسي (حوالى ٣٧٠م) كتاباً في كيفية العمل بالمستشفى استُدلّ منه على أن المستشفيات في عهده كان قد كثر عددها وأنها صارت تسبب بعض المشاكل الإدارية والفنية، فتقدم هذا الطبيب الإغريقي بآراء لحل هذه المشاكل. والمرجح أن المستشفيات التي أنشئت في زمن متأخر في كل من الإسكندرية وأنطاكية كانت على مستوى رفيع من الناحية العمرانية والفنية والإدارية. فقد نقل الأطباء الذين هربوا إلى فارس بعد مضايقات الكنيسة البيزنطية نماذج تلك المستشفيات لبناء بيمارستان جنديسابور التي كانت في أثناء حكم بني أمية ليس لها مثيل بين مستشفيات المشرق والمغرب. وقد أوحت تلك المستشفيات للحكام الأمويين بحاجة البلاد إلى مستشفيات أخرى لسدّ حاجة المرضى إليها.

كان بيمارستان جنديسابور من أكبر البيمارستانات قبل الفتح الإسلامي بثلاثة

---

(١) البيمارَسْتان كلمة فارسية مركبة من كلمتين «بيمار» ومعناها مريض أو عليل أو مصاب، و «ستان» بمعنى مكان أو دار، فهي إذاً دار المرضى، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان كما ذكر الجوهري في الصحاح.

(٢) عيون الأنباء ص٤٧.

قرون، وقد كان خير معين للعرب على إنشاء البيمارستانات بعد ذلك وتخريج الأطباء العاملين فيها، وقد ظلّ هذا البيمارستان محافظاً على كيانه وشهرته أمداً طويلاً إلى ما بعد قيام الدولة العباسية. وقد اشتهرت جنديسابور بمدرستها الطبية وبيمارستانها اللذين أنشأهما كسرى الأول وجلب إليهما المعلمين من بلاد اليونان. وكان لطائفة السريان نصيب كبير فيهما، وكانوا أول من ساعد الخلفاء على نشر الطب في بلادهم بما تخرج منهما من الأطباء والمترجمين الذين برزوا بعد ذلك.

وكان العرب قبل الإسلام يستمدون أطباءهم من خريجي جنديسابور، واستطب النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده أطباء تخرجوا من جنديسابور كالحارث وابنه النضر[1].

وكان البيمارستان على نوعين:

١ ـ **البيمارستان المحمول**، الذي ينقل من مكان إلى مكان حسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذلك في أثناء الحروب وتعدد ساحاتها، وهو المعروف عنه في العصر الحديث بكلمات الإسعاف. وقد كان هذا النوع من البيمارستانات معروفاً لدى خلفاء الإسلام وملوكهم وأطبائهم، بل من المرجح أن يكونوا هم أول من أنشأ هذا النوع. وهو عبارة عن مستشفى ميداني مجهّز بجميع ما يلزم المرضى وسبل إراحتهم وطرق المداواة والمداراة، وتأمين الأدوات والأدوية والأطعمة والأشربة وملابس الأطباء والصيادلة وكل ما يساعد على تأمين الحالة الجيدة للمرضى والعجزة والمزمنين والمحبوسين. وكان هذا البيمارستان ينقل من بلد إلى بلد من البلدان التي ليس فيها بيمارستان ثابت أو التي يظهر فيها وباء أو مرض معدٍ.

٢ ـ **البيمارستان الثابت**، ما كان بناءً ثابتاً في ناحية من النواحي لا ينتقل منها، وهذا النوع من البيمارستانات كان كثير الوجود في الكثير من البلدان الإسلامية ولا سيما في العواصم الكبرى كالقاهرة وبغداد ودمشق وغيرها. ولا يزال أثر البعض منها باقياً إلى يومنا هذا، نذكر منها البيمارستان المنصوري (بيمارستان قلاون) بالقاهرة، والبيمارستان المؤيدي قرب القلعة بالقاهرة، والبيمارستان النوري الكبير بدمشق، والبيمارستان القيمري بدمشق أيضاً، وبيمارستان أرغون بحلب.

واستطب خلفاء بني أمية ابن أثال الطبيب النصراني الجنديسابوري، وأصفاه لنفسه معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية، وأبا الحكم الدمشقي وابنه

---

(١) تاريخ البيمارستانات في الإسلام، د. أحمد عيسى بك، ص٦٢ ـ ٦٣.

وتياذوق وغيرهم، ومن الأطباء الذين عرفوا بالعمل في هذا البيمارستان:

- جورجيس بن بختيشوع: كان رئيس الأطباء بالبيمارستان في صدر الدولة العباسية.
- بختيشوع بن جورجيس: كان مقيماً بالبيمارستان وعالج المنصور والمهدي والرشيد.
- إبراهيم تلميذ جورجيس: صحب جورجيس عند معالجته للخليفة المنصور.
- سرجيس: تلميذ جورجيس وكان مديراً للبيمارستان في أثناء غياب أستاذه.
- عيسىٰ بن شهلاتا: تلميذ جورجيس.
- جبريل بن بختيشوع: كان حاذقاً، خدم الرشيد والأمين والمأمون.
- بختيشوع بن جبريل: خدم الواثق بالله والمستعين بالله والمهتدي بالله والمتوكل على الله.
- سابور بن سهل: كان ملازماً لبيمارستان جنديسابور.
- ماسويه: أبو يوحنا، أقام بالبيمارستان أربعين سنة.
- دهشك: كان رئيساً للبيمارستان بجنديسابور، فأمره الرشيد باتخاذ بيمارستان وقلّده رياسته ثم أعفاه منه.
- ميخائيل ابن أخي دهشك: كان مقيماً بالبيمارستان مع دهشك.
- عيسىٰ بن طاهر: كان من أطباء البيمارستان وهو تلميذ جورجيس بن بختيشوع.

أول من عمل البيمارستان في صدر الإسلام:

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أصيب سعد بن مُعاذ يوم الخندق، رماه رجل من قريش ابن العرقة، رمي في الأكحل، فضرب رسول الله ﷺ خيمة في المسجد يعوده من قريب. وقال ابن إسحق في سيرته: كان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسْلَم يقال لها رُفَيْدة في مسجده، كانت تداويْ الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وقد كان رسول الله ﷺ قد قال لقوم حين أصابه السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب». فيستدل من ذلك أن النبي ﷺ كان أول من أمر بالمستشفى الحربي المتنقّل. وقال تقي الدين المقريزي: أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي في سنة ٨٨ هـ، وجعل في البيمارستان الأطباء فأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذّمين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق. وقال محمد بن جرير

الطبري[1]: «كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنار، وأعطى الناس، وأعطى المجذمين، وقال: «لا تسألوا الناس»، وأعطى كل مُقعد خادماً وكل ضرير قائداً».

إن حكام بني أمية أول من أنشأ البيمارستانات النظامية من العرب. ولا شك في أن بيمارستاني جنديسابور والإسكندرية هما اللذان أوحيا إلى أولئك الحكام بهذه الفكرة. وربما كان معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء مبادرة في هذا المضمار[2]. والمؤكد لدينا أن الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) كان أول من ابتنى مستشفى نمطياً بحسب متطلبات العلاج والراحة للمرضى. ومن أهم البيمارستانات التي شهرت في خلافة الأمويين نذكر:

١ ـ البيمارستان الصغير بدمشق:

أقدم بيمارستان عرف في عاصمة الأمويين دمشق. تنسب عمارته إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان (ت سنة ٦٠ هـ). وكان مكانه تحت المئذنة الغربية في الجامع الأموي. والمعلومات عن هذا البيمارستان قليلة جداً، ولم يشهد له المؤرخون المتأخرون أثراً[3].

٢ ـ بيمارستان الوليد بن عبد الملك:

يعتبر الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ) أول من بنى المستشفيات في الإسلام، وكان ذلك في سنة ٨٨ هـ، وإذا كان الوليد قد بنى عمارة هذا البيمارستان خصيصاً للاستشفاء، فلا بدّ أن يكون قد هندس عمارته كما يتطلّبه نوع العمل وراحة المرضى وسهولة تطبيق التطبيب، وذلك على نمط البيمارستانات في سورية والإسكندرية وجنديسابور. وقد ابتنى الوليد هذا البيمارستان لإيواء المجذّمين(*) في الدرجة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة ٩٦ ص١٢٧.

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ١/٤٣١.

(٣) تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٠٥، ومختصر تاريخ الطب ص٣١٠ ج١.

(*) الجذام مرض معروف، اشتق اسمه من الجذم وهو القطع، لأن هذا المرض يسبب قطع الأصابع والأطراف والنسل فسمي على هذا المعنى. والمرض معروف منذ أقدم الأزمنة، فقد عرفه البابليون وتفشّى في شمالي أوروبة في القرنين السادس والسابع الميلاديين، ووصل إلى ذروة انتشاره في القرن الثالث عشر. ويذكر أن هذا المرض وصل إلى الشرق بوساطة الصليبيين، ولكن هذا الخبر غير صحيح، لأن الجذام كان موجوداً في الشرق قبل ذلك بكثير، وقد أسلفنا أن الخليفة الوليد بن عبد الملك بنى البيمارستان المعروف باسمه لإيواء المجذمين وحبسهم فيه لئلا يختلطوا بالأصحاء.

الأولى، ومن ثمّ أمر بحبسهم فيها لئلا يختلطوا بالناس فينشروا المرض بين الأصحّاء، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق[1]، وجعل لكل واحد منهم دليلاً. وسواء أكانت فكرة المجذمة قد انحدرت إلى الوليد بن عبد الملك من مجذمة أرمينية (حوالى ٢٧٠ م) أو مجذمة فرنسة (٤٦٠ م)، أو كانت فكرة من خالص تفكيره، فللوليد فضل كبير في هذا الميدان الإضافي. كما نفهم من تأسيس هذا البيمارستان تفشي مرض الجذام في البلاد آنذاك، ومعرفة الأطباء طبيعته المزمنة القتّالة التي لا ينفع فيها دواء كما ذكر ابن سينا[2].

٣ ـ بيمارستان زقاق القناديل:

قيل إنه كان في الدولة الأموية مارستان في زقاق القناديل دار أبي زبيد[3]، ويقال زقاق القناديل، قال القضاعي نبدأ بزقاق القناديل وذكره الكندي وقال إنما وسم بزقاق القناديل لأنه كان منازل الأشراف وكان على أبوابهم القناديل، وقيل إنما قيل له زقاق القنديل لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو ذكره أبو عبد الله بن المتوّج الزبيري في كتابه الذي سمّاه «إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل»، وقال هو من الخطط القديمة وله أربع مسالك، الأول من شارع خلف الجامع الثاني يسلك إليه من درب القسطلاني الثالث يسلك إليه من رقاق تربة عفان الرابع من سوق بربر وكان به دار عمرو بن العاص، وهو الآن خراب داثر[4].

---

(١) صبح الأعشى ١/٤٣١.

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ابن دقماق ٤/٩٩.

(٣) المصدر السابق ٤/١٣ ـ ١٤.

(٤) القانون في الطب م٣ ص١٤٠.

الفصل الثالث عشر

الطب في العصر العباسي

الدولة العباسية في عصرها الذهبي:

بلغت الدولة العباسية كغيرها من دول الإسلام قمّة الازدهار السياسي والفكري في العهد الأول من عهودها. فقد أدركت خلافة بغداد التي أسّسها السفاح والمنصور أوج مجدها بوجه عام في الحقبة التي بدأت بولاية الخليفة الثالث المهدي وانتهت في زمن الخليفة التاسع الواثق، وبوجه أخصّ أيام هارون الرشيد وابنه المأمون اللذين ألقيا على ذلك العصر هالة مشرقة من النور بحيث أصبح يعتبر أزهى عصور التاريخ الإسلامي على الإطلاق.

إنّ لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة، فالفاتحة المنصور والواسطة المأمون والخاتمة المعتضد[1]. وبعد الواثق أخذ الانحطاط يتسرب إلى جسم الدولة، حتى إذا أتى دور الخليفة السابع والثلاثين المعتصم لاقت الدولة أجلها المحتوم على أيدي المغول. أما ذروة النفوذ والسلطان والعمران التي بلغها بنو العباس فتتجلى لنا باستطلاع علاقاتهم بالدول الأخرى، وباستعراض حياة البلاط والأوساط الأرستقراطية في عاصمتهم بغداد، وبمراجعة النهضة الفكرية في عصر المأمون، هذه النهضة التي لم تعادلها نهضة[2].

علاقة الدولة مع الغرب:

في مطلع القرن الثالث الهجري تزعم السياسة الدولية اثنان: شارلمان في

(١) لطائف المعارف للثعالبي ص١١٧.

(٢) تاريخ العرب، حتي ص٣٦٤.

الغرب والرشيد في الشرق. وليس من شك في أن الرشيد كان أقوى الاثنين وأرفعهما ثقافة. أما العلاقات الودية بينهما فنتاج المصلحة المتبادلة. فقد ابتغى شارلمان من مصادقة الرشيد الاستعانة به على عدوته بيزنطة، كما كان الرشيد يبتغي من مصادقة شارلمان الاستعانة به على أعدائه أمويي الأندلس الذين تمكنوا من أن يشيّدوا لهم ملكاً ضخماً هناك. وروى كتّاب الغرب أن هذه المودة بين الاثنين أدّت إلى تبادل السفراء والهدايا مراراً. وقد أورد أحد مؤرخي الفرنج كان يعرف شارلمان معرفة شخصية، وكان يكتب له أحياناً، أن رسل ملك الغرب عادوا حاملين هدايا بعثها إليه ملك فارس هارون فيها المنسوجات والأفاويه وفيل. والغريب في أمر هذه الهدايا السفارات المتبادلة بين الملكين أنه لم يرد لها ذكر في المراجع العربية. فهناك إشارات إلى مراسلات ومجاملات دبلوماسية فقط. وقد أورد صاحب العقد[1] كلاماً عن عدة مراسلات بين خلفاء بني أمية وأباطرة بيزنطة، وذكر وفداً من لدن ملك الهند جاء يحمل الهدايا الفاخرة إلى الرشيد ووصف الاستقبال الفخم الذي لقيه الوفد. وفي مصدر آخر[2] أن المأمون أهدى إليه ملك الروم تحفاً سنية.

علاقة الدولة بالأروام:

النزاع العنيف مع البيزنطيين الذي استغرق أكثر من قرن استأنفه الخليفة العباسي الثالث المهدي. ولكن الحرب كانت متقطعة ولم يجن المهدي فائدة كبرى. وكانت الاضطرابات الداخلية التي شلّت الدولة العربية وأدّت إلى انتقال العاصمة إلى بغداد، قد سهّلت للأمبراطور قسطنطين الخامس أن يوسع نطاق ملكه على طول الحدود الشرقية في آسية الصغرى وأرمينية، وهكذ تراجع خط الثغور الإسلامية الممتد من سورية إلى أرمينية. وشرع المهدي ـ أول الخلفاء العباسيين الذين واصلوا الجهاد ضد بيزنطة ـ في تدبير حملة موفقة على عاصمة العدو نفسها يقودها ولي عهده الحدث هارون، فوصلت القوات العربية مضيق البوسفور (حوالى ١٦٤ هـ) ولعلهم بلغوا القسطنطينية نفسها. وكان على العرش وقتئذ الملكة إيرين وصية على ابنها الصغير قسطنطين السادس واضطرت أن تعقد صلحاً مذلاً مع العرب وضع عليها فيه أن تدفع جزية كبيرة مقدارها سبعون ألفاً إلى تسعين ألفاً من الدنانير تؤديها على قسطين من كل سنة. وكان هارون قد أبلى البلاء الحسن في هذه الحملة بحيث منحه أبوه لقب الرشيد وأوصى له بولاية العهد بعد أخيه الأكبر موسى الهادي.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج١ ص١٩٧ ـ ٨.

(٢) فوات الوفيات للكتبي ج١ ص٣٠٧.

وكانت هذه آخر مرة بلغت فيها جيوش العرب إلى جدران العاصمة القسطنطينية.

بغداد عاصمة الخلافة:

يتفق التاريخ والأساطير في أن أبهى عصور بغداد كان في أثناء خلافة هارون الرشيد، ومع أنه لم يكن قد مضى على تأسيس مدينة السلام نصف قرن، نراها كأنما قامت من العدم فاحتلت المقام الأول في الثروة وأصبحت منافسة بيزنطة الوحيدة. ولم يكن مجدها إلا مناسباً مع درجة تقدم الأمبراطورية التي كانت هي عاصمتها، حتى قيل إنه لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصهاوعوامها وعظم أقطارها وسعة اطرادها وكثرة دورها ودروبها ومحالّها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها.

وفي عهد الرشيد وهو خير من يمثل أبهة الملك في الإسلام وفي عهد الخلفاء الذين ولّوا بعده مباشرة كان البلاط موئل الشعراء والنبهاء وأرباب الموسيقى والغناء وسواهم من الندماء والسمّار وأصحاب اللهو وغيرهم، حتى أصبح القصر مركزاً لمختلف الثقافات وضرورة اللهو. ويعجّ كتاب الأغاني بالقصص التي تمثل هذه الحياة الاجتماعية إلى حد كبير. وليس من شك في أن انتصارات الجيوش الإسلامية أيام المهدي والرشيد على البيزنطيين أعدائهم المعهودين كانت سبباً في تألّق نجم هذا العصر، كما أن حياة الترف والبذخ التي اتصف بها قد رفعت شأنه في التاريخ والقصص. على أنّ سبب عظمته الحقيقية راجع إلى اليقظة الفكرية التي لم يعهد لها مثيل في تاريخ الإسلام، والتي تعتبر من النهضات الهامة في تاريخ التقدم الفكري في كل العالم. إلا أن هذه اليقظة كانت إلى حد بعيد وليدة المؤثرات الأجنبية سواء أكانت هندية أو فارسية أو سريانية أو إغريقية. وهي يقظة تميزت فيها حركة النقل من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية إلى العربية. والجدير بالذكر أن العربي المسلم لم يكن له في الأصل ذلك التراث العظيم من العلم والفلسفة والأدب، على أنه قد حمل معه من الصحراء رغبة ملحة في الاطلاع على ما هو جديد وقابلية شديدة لتلقي العلم واستعداداً طبيعياً لاستغلال إمكانياته بحيث استطاع أن يقتبس من الثقافات القديمة ويصبح الوريث الفكري للأمم التي غلبها أو احتكّ بها. وكما جاء الشام فتبنّى فيها المدنية الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنية الإغريق، كذلك نراه في العراق يتبنّى المدنية نفسها وقد طبعت بطابع الفرس. ولم

يمض أكثر من ثلاثة أرباع القرن الأول لتأسيس بغداد حتى تمّ للعالم العربي أن يقف على أهم كتب أرسطو الفلسفية وعلى نخبة من كتب الشروح لأهل الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، وعلى جملة من كتب جالينوس الطبية وطائفة من الكتب العلمية الفارسية والهندية. وفي بضع سنوات تسنّى لطلاب البحث من العرب أن يهضموا ما أنفق اليونان القرون في إنشائه. وإذا كان العربي المسلم قد أضاع بذلك جانباً مهماً من صفاته الأصلية التي حملها معه من البادية مطبوعة بطابع العصبية القومية، فإنه أحلّ مكانها الوحدة الثقافية التي كانت في العصور الوسطى تربط جنوبي أوروبة بالشرق الأدنى. هذه الثقافة بالتحديد كانت قد استمدت أصولها من مصر وبابل وفينيقية واليهودية واتجهت في مجرى واحد نحو اليونان ثم عادت إلى الشرق بثوب هليني[1]. وقد عاد هذا المجرى إلى أوروبة عن طريق العرب في إسبانية وفي صقلية فكان مبعثاً للنهضة الأوروبية المشهورة.

حكمة الهند عند العرب:

في أول هذا العهد كانت الهند مصدراً استقى منه العرب أسس الحكمة والأدب والرياضيات. ففي حوالي سنة ١٥٤ هـ وصل رحالة هندي إلى بغداد ومعه رسالة في الفلك تدعى سدذانتا (أي السند هند) وقد تمّت ترجمتها بأمر المنصور على يد محمد بن إبراهيم الفزاري، وما لبث أن أصبح أول فلكي في الإسلام. أما عناية العرب بالنجوم فترجع إلى عهود البادية، غير أن الاهتمام العلمي بها لم يظهر قبل هذا الزمن. ولقد كان من بعض مراسم الإسلام نفسها باعث آخر على التوسّع في دراسة الفلك كوسيلة لتعيين جهة القبلة. ثم جاء الخوارزمي العالم الشهير فوضع قوائمه الفلكية المعروفة بالزيج استناداً إلى مصنّف الفزاري فجمع غاية ما بلغته أصول الفلك عند أهل الهند والإغريق وزاد عليها أموراً جديدة.

ثم إن من جملة الترجمات في علم الفلك التي تمّت في ذلك العصر تلك الترجمات التي نقلها من الفارسية إلى العربية الفضل بن نوبخت الفارسي أمين خزانة الحكمة لهارون الرشيد. ويعود الفضل إلى ذاك الرحالة الهندي السالف الذكر في إتحاف العالم الإسلامي برسالة في الرياضيات تطرقت بوساطتها الأرقام إلى أوروبة، تلك هي الأرقام التي يسميها الأوروبيون عربية ويسميها العرب هندية. وفي أواخر القرن الثالث الهجري أتحف الهنود علم الرياضيات العربي بخدمة أخرى هي نظام الكسور الشمسية.

---

(١) تاريخ العرب ص٣٧٤.

تراث فارس والعرب:

كان لفارس تراث ضخم في الفنون والآداب اقتبس منه العرب الشيء الكثير. وإن أقدم الكتب العربية التي وصلت إلينا هو كتاب «كليلة ودمنة» المنقول عن البهلوية ـ الفارسية الوسطى، وقد نقل إلى البهلوية من السنسكريتية، وكان الأصل قد جيء به من الهند إلى فارس مع لعبة الشطرنج في عهد الملك أنوشروان (٥٣١ م)، وللنص العربي قيمة كبرى لأن الأصل الفارسي مفقود وكذلك الأصل السنسكريتي وإن تكن مادة الكتاب موجودة في شكل مطوّل في كتاب «البانشاتانترا». أما ناقله إلى العربية فهو ابن المقفّع الذي اتهم بالزندقة ولقي حتفه حرقاً.

وتذكر الأخبار أن الخليفة المنصور عندما أصيب بعلّة في معدته واستعصت على أطبائه فإنه استدعى طبيباً نسطورياً من جنديسابور اسمه جورجيس بن بختيشوع، وكان رئيس الأطباء في بيمارستان جنديسابور التي أسّسها أنوشروان واشتهرت بعلوم الطب والفلسفة. وقد اقتفى علماؤها سنن اليونان فيما درّسوه. وقد حظي جورجيس هذا عند الخليفة فأصبح طبيبه الخاص. وعاشت عائلة بختيشوع في بغداد في فضل وجاه وعرف منها في مدى قرنين ونصف ستة أو سبعة أجيال من الأطباء تمتعوا بما يكاد أن يكون احتكاراً متصلاً لشؤون الطبابة في دار الخلافة. وقد جرت العادة أن تكون المهن العلمية أمراً منحصراً في أسر خاصة، فينشأ الابن وقد لقن أسرار المهنة عن والده فيحتفظ بها ليسملها إلى ولده، وهكذا فقد كان بختيشوع بن جورجيس رئيس الأطباء في بيمارستان بغداد في زمن الخليفة هارون الرشيد، ثم أصبح ابنه جبريل بن بختيشوع بعده طبيب الخليفة الخاص، وجبريل هذا هو الذي شفى إحدى حظايا الرشيد من فالج عصبي أصاب يدها.

العرب ينهلون من تراث الإغريق:

بعد افتتاح العرب للهلال الخصيب انفتحت خزائن التراث الإغريقي الفكري أمامهم، فكان من نتيجة ذلك أن أصبحت الثقافة الإغريقية من أكثر الثقافات الأجنبية تأثيراً في الحياة العربية. فمدينة الرها (أوديسا) وهي أهم مقر للسريان النصارى، وحرّان مقر السريان الوثنيين، الذين عرفوا بالصابئة فيما بعد، وأنطاكية، والإسكندرية ملتقى الفلسفات الغربية والشرقية، وغيرها، بالإضافة إلى الأديرة في سورية وبلاد ما بين النهرين حيث برزت الدراسات العلمية والفلسفية إضافة إلى الدراسات الكنسية المذهبية، كل هذه كانت مراكز أشرقت منها أنوار الثقافة

الإغريقية. وكان من نتائج الحملات المتتالية على البلاد الرومية خصوصاً في زمن الخليفة هارون الرشيد أن غنم العرب نخبة من المخطوطات اليونانية كان معظمها في عمورية وأنقرة[1]. وإلى المأمون يُعزى أمر إرسال وفد إلى الأمبراطور ليو الأرمني في طلب الكتب اليونانية، وذكر أن المنصور من قبل أرسل إلى ملك الروم في طلب الكتب العلمية، فكان من جملة ما بعث به إليه كتاب «إقليدس»[2]، ولكن العرب لم يعرفوا اليونانية، فاعتمدوا في أول الأمر على الترجمات التي أخرجها لهم اليهود والنصارى والسريان الوثنيون، وخصوصاً النساطرة. وكانت طريقة هؤلاء النساطرة النصارى، وهم من السريان، أن ينقلوا الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية أولاً ثم يترجمونها بعد ذلك من السريانية إلى العربية، وبذلك أصبح النساطرة أعظم حلقة اتصال بين الإسلام وثقافة اليونان. ومن هنا كان السريان إذا صحّ القول أقدم الشعوب الشرقية التي قدمت للعالم الثقافة الإغريقية.

وفي عهد الخليفة المأمون بلغ التأثير اليوناني أوجه، ولأنّ هذا الخليفة كان ذا نزعة عقلية معتزلية قائلة بوجوب التوفيق بين النصوص الدينية وبين أحكام العقل، اندفع هذا الخليفة نحو فلسفة الإغريق يبحث عمّا يبرر موقفه أو يؤيد آراءه. وعلى حد تعبير ابن النديم أن أرسطو ظهر للمأمون في حلم فأكّد له أنه ليس ثمة فرق بين العقل والشرع[3].

إن اهتمام المأمون بهذا الأمر دفعه إلى إنشاء بيت الحكمة في بغداد، وهو عبارة عن خزانة كتب ودار علم ودار ترجمة، فكان هذا البيت من وجوه كثيرة أعظم المعاهد الثقافية التي نشأت بعد المتحف الإسكندري الذي أسّس في القرن الثالث قبل الميلاد. ولا يخفى على المطلعين أن بعضاً من النصارى واليهود وممّن أسلم كانوا قد قاموا من قبل بترجمة بعض الكتب على عهدتهم الخاصة، ولكن الترجمة أيام المأمون والخلفاء الذين تبعوه مباشرة قد تركزت في بيت الحكمة، وقد استمرت حركة الترجمة في العهد العباسي إلى أواسط القرن التاسع للميلاد، وكان المترجمون في أثناء الترجمة إذا توقفوا عند عبارة غامضة قاموا بترجمتها ترجمة حرفية، وأما ما كانوا يجدونه بغير مقابل له في العربية فكانوا يعربونه بلفظه الأعجمي مع بعض التعديل، من مثل: أرثماطيقي، جومطرية، جغرافية، موسيقى، فلسفة، أسطرلاب، أثير،

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٤٨٦.
(٢) مقدمة ابن خلدون ص٤٠١.
(٣) الفهرست ص٢٤٣.

إكسير، إبريز، مغناطيس، أرغن، وغيرها من الكلمات المعربة عن ألفاظها الأعجمية.

وإذا كان الأدب اليوناني لم يحظ بالعناية من المترجمين الذين نقلوا هذه العلوم إلى العربية، فإن التأثير الفكري اليوناني في الطب بدأت ملامحه تظهر في اللغة العربية، وهو الطب الذي وضع أصوله جالينوس وبولس الأجانيطي[1].

أوائل المترجمين في العصر العباسي:

لقد اقتبس العباسيون الطب عن الفرس والهنود ولا سيما عن اليونان، وكان عصر الرشيد عصر العرب الذهبي فأصبحت بغداد عاصمة العلم في الثقافة والسياسة والاقتصاد، ولقد نشّط الخليفة العلوم بجميع الوسائل وتبعه في ذلك وزراؤه بل زادوها تبسطاً في الأبحاث وتوسعاً في العلاج ومهارة في الجراحة والتشريح وخبرة في العقاقير وتركيبها ومعرفة بالكيمياء وتحليلها، وكانوا قد استقدموا إليهم كثيرين من الأطباء، فكان عند الرشيد من يطب له على طريقة اليونان والهنود والفرس والكلدان، وكان المأمون ذا ولع بالطب أيضاً.

وقد داخل الخلفاء العباسيون ملوك الروم، وأتحفهم المنصور بالهدايا الثمينة، وسألهم بما لديهم من كتب الحكماء والفلاسفة، فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها ثم حضّ الناس على قراءتها ورغّبهم في تعلّمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره. ويمكن القول بصورة عامة إن الترجمة كانت في العهد العباسي عمل دولة وأفراد، فقد زاد عدد التراجم على المائة، وقد تخصصت بعض الأسر بأعمال النقل، كما أنشئت مدارس خاصة لتعليم المترجمين وإصلاح ما يترجمونه. وقد اقتدى بالخلفاء في تشجيع النقل عدد كبير من رجال ذلك العصر وأصبحوا يتنافسون في هذا المضمار، ومنهم: محمد بن موسىٰ المنجم وعلي بن يحيىٰ المعروف بابن المنجم ومحمد بن موسىٰ بن عبد الملك وعيسىٰ بن يونس الكاتب الحاسب وعلي (الفيوم) وأحمد بن محمد (المدير) وعيسىٰ بن يحيىٰ والحجاج بن مطر وهلال بن أبي هلال وإبراهيم بن الصلت وكثير غيرهم. ونخص بالذكر من نعتوا بأنهم حذاق الترجمة عند العرب وهم يعقوب بن إسحق الكندي وحنين بن إسحق وثابت بن قرة الحراني وعلي بن ربن الطبري وقسطا بن لوقا البعلبكي ويحيىٰ بن البطريق ويوحنا بن ماسويه.

---

(1) تاريخ العرب ص٣٧٩.

يحيىٰ بن البطريق (ت بين ٧٩٦ و ٨٠٦ م):

من أوائل المترجمين عن اليونانية، وقد قيل إنه ترجم للخليفة المنصور أهم تصانيف أبقراط وجالينوس، وإنه نقل أيضاً كتاب «الأربعة» لبطليموس. ويروي المسعودي أن ترجمة كتاب إقليدس وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك قد تمّت في هذا العهد. والظاهر أن هذه الترجمات الأولى لم تكن مضبوطة فاحتيج إلى تنقيحها وإعادة نقلها في عهد الرشيد والمأمون.

يحيىٰ (يوحنا) بن ماسويه، أبو زكرياء (ت ٨٥٧ م):

سرياني نصراني درس على جبريل بن بختيشوع ثم أصبح معلماً لحنين بن إسحاق. قلّده الرشيد أمر الكتب القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وأكثرها في الطب وجعله أميناً على الترجمة، فخدم الرشيد وخلفاءه أيضاً. ويروى أن أحد ندماء[1] المتوكّل عبث بابن ماسويه، فقال له ابن ماسويه: «لو أن ما فيك من الجهل عقل ثم قسّم على مائة خنفساء لكانت كل واحدة منهن أعقل من أرسطاطاليس».

حنين بن إسحاق (٨٠٩ ـ ٨٧٣ م):

رئيس المترجمين وأوحد عصره في علم الطب ومن أكابر أهل الفضل، كان عبادياً من نساطرة العرب الذين أقاموا بظاهر الحيرة. أحب العلم منذ طفولته، فدخل بغداد في صباه وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه وخدمه صيدلياً. وغضب عليه ابن ماسويه يوماً فقال له: «ما لأهل الحيرة والطب، عليك ببيع الفلوس في الطريق». فخرج حنين باكياً وعزم على إحكام اللغة اليونانية، ثم أرسله بنو موسىٰ بن شاكر، وهم أخوة ثلاثة تناهوا في طلب العلوم القديمة وبذلوا فيها الرغائب إلى الأقطار الناطقة باليونانية لإخراج المخطوطات. ثم دخل حنين بعد ذلك في خدمة جبريل بن بختيشوع طبيب المأمون، وما زال يتقدم عنده حتى أمر المأمون بإحضاره إليه وسلّمه أمر بيت الحكمة وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية وإصلاح ما ينقله غيره، وكان حنين لا يزال حدث السنّ. وقد ألحق به في هذا العمل الجليل ابنه إسحاق وابن أخته حبيش بن الحسن وكان قد درّبهما على ذلك. ويقال إن بعض الكتب التي تنسب إليه كانت نتاج جهد هذين الاثنين وغيرهما من أقرانه كعيسىٰ بن يحيىٰ وموسىٰ بن خالد. وعلى كل حال وفي كثير من الأحوال كان حنين ينقل الكتاب اليوناني إلى السريانية ثم يقوم زملاؤه

---

(١) هو ابن حمدون النديم.

بالترجمة من السريانية إلى العربية. ومن ذلك أن حنيناً نقل شرح أرسطو (هرمنوتكا) من اليونانية إلى السريانية ثم أخرج الابن النص العربي من النص السرياني وكان فصيحاً بالعربية وأصبح فيها بعد أعظم من نقل كتب أرسطو. ومن الترجمات التي تُعزى إلى حنين ترجمة كتب أبقراط وجالينوس وديسقوريدس. وتعد أهم ترجماته ترجمته لجميع مؤلفات جالينوس إلى اللغة السريانية والعربية. وقد فقدت الأصول اليونانية لسبعة من كتب جالينوس في علم التشريح إلاَّ أنها لحسن الحظ محفوظة في اللغة العربية. وهناك مخطوطة أخرى لكتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس وفيها عشرة من كتب جالينوس الستة عشر الرسمية يرجع عهدها إلى ٥٧٢ هـ، وهي موجودة في مكتبة جامعة برنستون[١].

ويروى أن بني شاكر كانوا يدفعون لحنين ومن معه من المترجمين نحو خمسمائة دينار في الشهر. ويروى أيضاً أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب[٢]. على أن حنيناً لم يبلغ هذه المرتبة في الترجمة فحسب بل في الطب أيضاً، وذلك حين اتصل خبره بالمتوكل فجعله طبيبه الخاص، وقيل إن المتوكل سجن حنيناً سنة في بعض القلاع لأنه امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدواً. وكان المتوكل قد رغبه في ذلك وأمر أن يخلع عليه، ثم أحضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية. قال الخليفة: فإني أقتلك. قال: لم أحسن إلاَّ الشيء النافع ولم أتعلم غيره. فتبسم المتوكل وقال له: طب نفساً فإنّا أردنا امتحانك. ثم سأله: ما الذي منعك مع الذي رأيته من صدق الأمر منّا؟ فأجابه: شيئان هما الدين والصناعة. أما الدين فإنه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا، فكيف ظنّك بالأصدقاء، وأما الصناعة فإنها موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم، ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بأيمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتالاً لأحد.

وقد ذكر ابن العبري في تاريخه ووافقه القفطي أيضاً على أن حنين بن إسحاق كان ينبوعاً للعلم ومعدناً للفضائل. وقال فيه ليكليرك: كان أعظم وجوه القرن التاسع... وكانت له عقلية من أفضل العقليات وخلق من أحسن الأخلاق التي نعرفها في التاريخ[٣].

---

(١) انظر تاريخ العرب ص٣٨١ هامش ٦.

(٢) عيون الأنباء ص١٨٧.

(٣) L - Leclerc. Histoire de la médecine arabe, Paris 1876, Vol 1, P139.

قسطا بن لوقا البعلبكي الشامي (٨٢٠ ـ ٩١٢ م):

من فلاسفة اليونان المتأخرين، كان في أيام المقتدر بالله، وعاصر الكندي المتوفى نحو سنة ٢٥٥ هـ وثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ هـ. وهو من الشام وسافر إلى بلاد الروم ثم عاد إلى الشام واستُدعي إلى العراق ليترجم كتباً من اليونانية إلى العربية. كان بارعاً في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى، كما كان فصيحاً في اللغة اليونانية خبيراً بالعربية، ونقل قسطا كتباً كثيرة من كتب اليونان إلى العربية، وكان جيد النقل عليه رسائل في صناعة الطب وغيرها، وكان حسن العبارة جيد القريحة.

ثابت بن قرة (٨٢٦ ـ ٩٠١ م):

ولد في حران من الجزيرة العربية وعمل فيها صيرفياً، وقد رآه محمد بن موسى (من رجال الخليفة المعتضد) فصيحاً فعلّمه العلوم والطب ووصله بالخليفة، وكان من الذين تعددت نواحي عبقريتهم، فنبغ في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة، ووضع في هذه كلها وغيرها مؤلفات جليلة، كما ترجم كتباً عديدة. كان جيد النقل إلى اللغة العربية قوي المعرفة باللغة السريانية. ذكره القاضي الطليطلي، قال: إنه فيلسوف متوسّع في العلوم عاصر إسحق الكندي وقسطا بن لوقا، وكانوا ثلاثتهم أعلاماً في مملكة الإسلام بعلم الفلسفة. وقد أجلّه الخليفة المعتضد إجلالاً بالغاً. ويروى أن ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في الفردوس «بستان الخليفة» وكان المعتضد متكئاً على يد ثابت وهما يتماشيان، ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدّة ففزع ثابت، فقال له المعتضد: يا أبا الحسن ـ وكان في الخلوات يكنّيه وفي الملإ يسمّيه ـ سهوتُ ووضعتُ يدي على يدك، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يعْلُون ولا يُعْلَوْن.

لم يحفظ لنا الزمن من كتب ثابت بن قرة الكثيرة إلّا النزر اليسير، فقد فقدت كلها أو تفرّقت، ولثابت أقوال طبية حكمية اشتملت عليها كتبه، نخصّ بالذكر منها قولاً عزاه الغربيون إلى أنفسهم وهو ما يتعلق بزواج المسنين بالشابات: «ليس أضرّ بالشيخ من أن يكون له طباخ حاذق وامرأة حسناء، لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ومن النكاح فيهرم».

سنان بن ثابت بن قرة الحراني (ت ٩٣٤ م):

أبو سعيد، كان طبيباً مقدماً كأبيه، وكان طبيب المقتدر خصّيصاً به، وقد

عظمت منزلته في أيامه حتى صار رئيساً على الأطباء. وقد اتصل بالمقتدر أن رجلاً من الأطباء غلط على مريض فمات، فأمر محتسبه بمنع جميع الأطباء إلاَّ من امتحنه سنان بن ثابت، وكتب له رقعة بما يطلق له التصرّف في ذلك. ومن أخباره أنه لما مات الراضي بالله، استدعى الأمير أبو الحسين «بجكم» سناناً وقال له: أريد أن أعتمد عليك في تدبير بدني وتفقد جسمي والنظر في مصالحه وفي أمر أخلاقي، لثقتي بعقلك وفضلك ودينك ومروءتك، فقد غلبني الغضب وغمني حتى أنني أخرج إلى ما أندم عليه عند سكونه، وأسألك أن تتفقّد عيوبي وتصدقني فيها وترشدني إلى علاجها لتزول عني. فقال سنان: السمع والطاعة، وليستمع الأمير مني بالعاجل جملة علاج ما أنكره من نفسه إلى أن يجيئه التفصيل في أوقاته: «اعلم أيها الأمير أنك قد أصبحت وليس فوق يدك يد لأحد من المخلوقين، وأنك مالك لما تريده، قادر عليه في أي وقت أردته، ولا يمكن لأحد منعك منه، واعلم أن الغضب والغيظ يحدثان سكراً أشد من سكر النبيذ، وكما أن الإنسان يفعل في سكره ما لا يعقل ولا يذكره إذا صحا ويندم عليه إذا حُدِّث به استحياء، كذلك يحدث له في سكر الغضب والغيظ بل أشدّ. فإذا بدأ بك الغضب وأحسست به فأخِّر العقوبة إلى غد واثقاً بأن ما تريد أن تفعله في الوقت لا يفوتك عمله في غد، وقد قيل: من لم يخف فوتاً حلم. فإنك إذا فعلت ذلك ذهب السكر وتمكّنت من العقل والرأي الصحيح. وقد قيل: أصحّ ما يكون الإنسان إذا استدبر ليله واستقبل نهاره، فإذا صحوت من سكرك الغضبي فتأمل الذي أغضبك، ولا تشف غيظك بما يؤثمك، فقد قيل: ما شفى غيظه من أثم بذنبه، واذكر قدرة الله عليك، وأنك محتاج إلى عفوه ورحمته وخصوصاً في أوقات الشدائد، واذكر دائماً قوله تعالىٰ: **﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾** وقوله تعالىٰ: **﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾**. فإن أوجبت الحال العفو فاعف، وإن كان الخطأ ممّا لا يحتمل العفو عاقبت حينئذ على قدر الذنب، ولم تتجاوزه إلى ما يفسد به أمرك ويقبح عند الناس ذكرك. وإذا أخذت نفسك بهذه مرة وثانية وثالثة صارت بعد ذلك سجية لك وعادة» فاستحسن الأمير قوله ولم يزل يصلح أخلاقه شيئاً فشيئاً حتى صلحت واستقامت واستطابت فعل الخير ورفع الظلم والجور، وبان له أن العدل أربح للسلطان، فعمل بواسط دار ضيافة وببغداد مارستاناً وأكرم سناناً غاية الإكرام وعظّمه غاية التعظيم. وكانت منزلة سنان كبيرة عند الأمراء والوزراء، فمن ذلك أن الوزير علي بن عيسىٰ بن الجراح كتب إلى سنان بتوقيعه في سنة كثرت فيها الأمراض والأوباء نسخة يقول فيها:

«فكرت ـ مدّ الله في عمرك ـ في أمر من في الحبوس، وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض، وهم معوقون من التصرّف في منافعهم، ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم، فينبغي ـ أكرمك الله ـ أن تنفذ لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة ليعالجوا المرضى ويريحوا عللهم بما يصفونه لهم من العلاج».

فعل سنان ذلك، ثم وقع إليه توقيعاً آخر نسخته:

«فكرت فيمن بالسواد من أهله وألا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء، فتقدم ـ مدّ الله في عمرك ـ بإنفاذ متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة ليطوفوا في السواد، ويقيموا في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجوا من فيه ثم ينقلون إلى غيره».

وفي سنة ست وثلاثمائة أشار سنان بن ثابت على المقتدر بأن يتخذ مستشفى ينسب إليه، فأمره باتخاذه، فاتخذ له في باب الشام وسمّاه البيمارستان المقتدري. وفي أول محرم سنة ست وثلاثمائة فتح سنان بيمارستان السيدة الذي اتخذه لها بسوق يحيى، وجلس فيه ورتب المتطببين به، وكانت النفقة عليه على يدي يوسف بن يحيى المنجم، لأن سناناً لم يدخل في يده شيئاً من نفقات البيمارستان. ولسنان مؤلفات عديدة في علم الطب.

يعقوب بن إسحاق الكندي (٨٠٩ ـ ٨٧٣ م):

أبو يوسف، فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها يعرف بابن الصباح الكندي ـ كان عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم وطبائع الأعداد. كان أبوه أميراً على الكوفة، درس في بادىء الأمر في البصرة، ثم أتمّ تحصيله على أشهر العلماء في بغداد فنبغ في العلوم وأصبح عالماً مشهوراً. وقد أوجد لنفسه بعلمه مكانة رفيعة عند الخلفاء العباسيين، حتى أن المأمون انتخبه ليكون أحد الذين يعهد إليهم في ترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من حكماء اليونان، وكان عظيم المنزلة عند المعتصم وعند ابنه أحمد أيضاً. ويعد الكندي أول من احتذى حذو أرسطاطاليس، فقد كان ملمّاً بحكمة الهنود وفسّر كثيراً من كتب الفلسفة ووضع بعض النظريات الفلسفية في قالب مفهوم. وكان إلى ذلك مهندساً قديراً كما كان طبيباً حاذقاً، وقد ترك آثاراً جليلة جعلت المؤرخين يضعونه في الصف الأول، هو والحسن بن الهيثم، مع بطليموس.

وللكندي مآثر جمة في أكثر العلوم، فقد ألف في الفلسفة وعلم السياسة والمنطق والحساب والموسيقى والهندسة والفلك والطب. أخذ عنه طلاب كُثر منهم أبو العباس بن محمد بن مروان السرخسي وأبو زيد البلخي، ومن تلاميذه أيضاً حسنويه ونفطويه وسلمويه وغيرهم. ويمكن أن يقال إن الكندي كان مدرسة ترجمت الكتب ولخصت المطوّلات وبسّطت العسير ونشرت العلوم[1].

* * *

لقد نشطت حركة الترجمة في عهد الخلفاء العباسيين، وكان من ولع هؤلاء بالعلوم وكتبها أن جعلوا الحصول على الكتب شرطاً من شروط الصلح مع حكام المدن التي يدخلونها، وصار بالتالي حكام الدول المتاخمة لأقطار الدولة العباسية يتقربون إلى الخلفاء بهداياهم من نفائس الكتب، وحصل الخلفاء بهذه الطريقة على العديد من الكتب القيمة النادرة. ولما رأى أعيان الناس والأطباء شغف الخلفاء والأمراء بالعلوم - كما بيّنا سابقاً - بادروا إلى محاكاتهم في جمع المخطوطات الأصلية والمنسوخة، ويتبارون في اقتناء أنواعها وأكبر عدد منها، ويتعلمون لغة كتابتها ليتمكنوا من قراءتها وترجمتها إلى اللغة العربية. على أنه لم يكن من السهل نقل الكتب الطبية من لغة إلى لغة أخرى ما لم يكن المترجم مدركاً للمعاني العلمية والتطبيقية لأصولها في لغة الكتب الأصلية. وتزداد هذه الصعوبة إذا لم يكن المترجم ملمّاً بتطبيق العلوم الطبية عارفاً بمفردات اللغتين، وقد توفرت هذه المؤهلات في بعض المترجمين العرب.

وهناك مصطلحات من ابتكارات المترجمين وليس لملفوظها علاقة تشريحية أو وظائفية أو غريزية بالمسمّى كالوريد الأكحل، والأخدعين، والأبهرين، والأبجلين، وكلها أوعية دموية لا تزال تحتفظ بهذه الأسماء التي سميت بها منذ أربعة عشر قرناً. وتجدر الإشارة إلى أن الأطباء عموماً، على اختلاف عصورهم الإسلامية التي تلت عصر الترجمة، قد تبنوا استعمال هذه المصطلحات التي صيغت آنذاك دون أن يغيروا فيها حرفاً أو يحرفوا ملفوظها تحريفاً جذرياً[1]. وفي باب التعابير كان للمترجمين إبداع في ابتكار الألفاظ واستعمالها بما يتفق والموضوعية العلمية. وإليك بعض المصطلحات الطبية التي كثر استعمالها في النصوص الطبية التراثية:

---

(١) الطب عند العرب ص٧٧.

(٢) مختصر تاريخ الطب ج١ ص٣٤٤.

- **الأكحل**: عرق بين الباسليق والقيفال.
- **الأسيلم**: عرق بين الخنصر والبنصر، وهو من شعب الباسليق.
- **حبل الذراع**: عرق في ظاهر الساعد، وهو من شعب القيفال.
- **الودجان**: عرقان في العنق، أحدهما ظاهر والآخر غائر.
- **الصافن**: عرق في الساق يظهر عند الكعب الداخل في الجانب الأنسي.
- **القيفال**: عرق غير ضارب، مكانه في الجانب الوحشي من اليد إلى ما يلي الإبط.
- **الباسليق**: عرق غير ضارب في اليد عند المرفق بجانبه الأنسي إلى ما يلي الإبط.
- **الأبهران**: عرقان يخرجان من القلب، ومنهما تتشعب سائر الشرايين في البدن.
- **عرق النسا**: مكانه في الجانب الوحشي من الساق.
- **السِّلَعة**: زيادة تحت الجلد غير مؤلمة.
- **النار الفارسية**: نفاخات ممتلئة ماء رقيقاً تخرج بعد حكة ولهب.
- **الداحيس**: ورم شديد الضربان مؤلم يظهر في الأظفار من الأصابع.
- **الشوصة**: ريح تنعقد في الأضلاع.
- **الهيضة**: مغس في البطن يليه قيء واختلاف.
- **اللِّقوة**: اعوجاج وجه الإنسان فلا يقدر على تغميض إحدى عينيه.
- **الأنثيان**: الخصيتان والمبيضان.
- **الدوالي**: عروق غلاظ خضراء شديدة الالتواء تظهر في الساق.
- **الدق**: حمى تدوم ولا تكون قوية الحرارة وليس لها أعراض ظاهرة.
- **الحمى الوِرد**: هي النائبة في كل يوم، وهي بلغمية على الأكثر.
- **الحمى الغب**: التي تنوب يوماً ويومين وتعود في الرابع، وهي سوداوية على الأكثر.
- **الحمى المطبقة**: وهي الدائمة التي لا تقلع، وتكون دموية تحمر معها العينان والوجه والأذنان.
- **الحمى المحرقة**: من جنس الحمى الغب إلاَّ أنها لا تفارق البدن وتكون أشدّ حرارة.
- **إطريفل**: أي ثلاثة أخلاط، معربة عن الهندية «تري أبهل» والأبهل هو الخلط.

- **الجلجبين**: شراب يعمل من مزيج الورد والعسل.
- **السكنجبين**: شراب مركب من الخل والعسل.
- **الشيافات والأكحال والذرورات والبرودات**: كلها عقاقير تستعمل للعين.
- **السنونات**: الأدوية التي يستنّ بها الإنسان أسنانه.
- **العلاج**: ويعني القيء.
- **الطبيعة**: تعني البطن في اللين واليبوسة.
- **التفسرة**: فحص البول.
- **النفض**: إخراج فضول البدن بالفصد أو الإسهال أو القيء.
- **السكتة**: أن يكون الشخص ملقى كالنائم يغط من غير نوم ولا يشعر إذا وخز.
- **السبات**: أن يكون كالنائم يحسّ ويتحرك إلّا أنه مغمض العينين.
- **الفالج**: استرخاء أحد جانبي جسم الإنسان.
- **النقرس**: ورم مؤلم يصيب المفاصل.
- **التخمة**: امتلاء المعدة بالطعام الكثير.
- **الشقاق**: أي التشقق.
- **الأرياح**: وهي غازات البطن.
- **المرض الغامض**: هو الذي يؤدي إلى الموت فجاءة.
- **السحنة**: حال الشخص في بدنه من الضخامة والقضامة ونحوهما.
- **الفتق**: اندلاق في مراق البطن، فإذا استلقى الإنسان غاب وإذا استوى عاد.
- **اعتقال الطبيعة**: هو الإمساك عن خروج البراز، وهو عكس الجلاس والاختلاف.
- **البواب**: قسم المعي المتصل مباشرة بالمعدة من طرفها الأسفل.
- **الاثنا عشر**: قسم المعي المتصل بالبواب، وطوله اثنتا عشرة إصبعاً.
- **المعي الصائم**: المعي الذي يلي الاثني عشري، وسمّي صائماً لأنه لا يثبت فيه طعام.
- **المرابض**: مجاري الطعام والغذاء من المعدة إلى الكبد.
- **القولون**: المعي الغليظ الذي يلي الصائم وفيه يحدث القولنج.
- **المراق**: ما لان من أجزاء البطن[1].

---

(١) انظر مختصر تاريخ الطب العربي ج١ ص٣٤٤ ـ ٣٤٩.

الأطباء البختيشوعيون في العصر العباسي

كان جورجيوس بن جبرائيل بن بختيشوع أول من دخل بغداد بطلب من الخليفة المنصور، ثم تعاقب من بعده أفراد الأسرة البختيشوعية على خدمة الخلفاء العباسيين ما يقارب الثلاثة القرون. لا يعرف عن أصل هذه الأسرة أكثر من أنها من النساطرة السريان الذين ظهروا في جنديسابور في بداية الخلافة العباسية، والمرجح أن يكون أصلها البعيد من إحدى المدن السورية أو شمالي ما بين النهرين. وإن نظرة في الاسم ترينا أن الشطر الأول «بخت» لفظ فارسي يعني الـ «حظ» أو «عبد»، والشطر الثاني «يشوع» تعبير سرياني معناه المسيح، وعلى هذا فمن الممكن أن يكون بختيشوع الابن الأكبر لهذه الأسرة قد ولد في بلاد فارس فأعطي هذا الاسم الذي يجمع بين لغة فارس ولغة السريان.

اشتهر أفراد هذه الأسرة بالتفرّغ للطب والممارسات الطبية والتدقيق والبحث في نواحي هذه الصنعة، على عكس ما كان يقوم به الأطباء في ذلك العهد من الجمع بين الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والأدب. وعرف عن الأسرة أيضاً عمل الخير والتمتع بالفضائل والعطف على المساكين والفقراء والاهتمام بالمرضى، وعرفت أيضاً بأنها نالت رضى الخلفاء العباسيين واستطاعت الحصول على المال الوفير والرتبة الرفيعة والاحترام العظيم.

● جورجيوس بن جبرائيل بن بختيشوع:

أشهر أطباء البيمارستان وأقدرهم في الصنعة. مارسها على الطريقة اليونانية، وتكلم في مواضيعها بالسريانية واليونانية، وكان له في البيمارستان عدد من المعاونين والتلاميذ كعيسىٰ بن شهلاثا وإبراهيم وابنه بختيشوع بن جورجيوس، وكان يعلمهم ويدربهم على معالجة المرضى. ولمّا شكا الخليفة المنصور من سوء استمراء في معدته وعجز أطباء البلاط عن مداواته وبرئه، استدعي له الطبيب جورجيوس سنة١٤٨ هـ من جنديسابور إلى بغداد لمعالجته، وكان جورجيوس آنئذ قد طعن في السن، فاعتذر عن الاستجابة لهذا الطلب، فما كان منهم إلاَّ أن استقدموه عنوة، فلما حضر في مقام الخليفة بهيبته الوقورة وحسن تحدّثه أعجب به الخليفة ووثق بطبه واعتمد على أدويته دون غيرها من أدوية أطباء بلاطه إلى أن شفي من علته، فأجزل المنصور عطاءه وأكرمه وجعله طبيبه الخاص. ثم أصاب الوهن جورجيوس وهو في خدمة المنصور، فاستأذنه بالعودة إلى أسرته في جنديسابور وتوفي بها سنة ١٥٢ هـ/٧٦٩ م،

مخلفاً ولداً هو بختيشوع الذي تتلمذ عليه في البيمارستان ـ كما ذكرنا ـ وصار يساعده فيه.

أجمع المؤرخون أن دخول جورجيوس بن بختيشوع إلى بغداد كان الشرارة التي ألهبت نهضة الطب عند العلماء العرب، ويعزون إليه أنه هو الذي لفت نظر الخليفة المنصور إلى الاهتمام بصناعة الطب وترجمة مؤلفاته اليونانية والفارسية لتعليم الأطباء في البيمارستان وتدريب الطلاب على الصنعة.

ترك جورجيوس من المؤلفات الطبية:

ـ **كتاب الأخلاط**: (أخذ عنه الرازي في الحاوي، في مواضيع السدر والدوار).

ـ **كُنّاش**: وهو أول الكتب الطبية التي عُرِّبت في بغداد، عرَّبه حنين بن إسحاق العبادي ثم شرحه تلميذه أبو عيسىٰ صهاربخت. فيه معلوت في أمراض المعدة وقروح الأمعاء والدبابيل والدماميل والحمى وأمراض المسالك البولية وأمراض الرحم وتدبير الولادة العسرة وأمراض الكبد، والحصبة وأوجاع المفاصل وعرق النسا وغيرها.

بختيشوع بن جورجيوس:

كان فاضلاً بصناعة الطب خبيراً في ممارستها، تعلم الصنعة على أبيه في بيمارستان جنديسابور، وناب مكانه في هذا البيمارستان عندما سافر أبوه إلى بغداد لمعالجة المنصور. وعندما توفي الأب خلفه الابن في إدارة البيمارستان، فكان مثل أبيه في الفضيلة والتدريس والتطبيب.

ولما مرض الخليفة موسىٰ الهادي استدعي بختيشوع إلى بغداد لمعالجته، فألحق بحاشيته وصار من آثر الأطباء إليه. وكانت الخيزران أم موسىٰ الهادي تفضل طبيبها عيسىٰ (أبا قريش) على بختيشوع، وغاظها أن لا يستشير ابنها الخليفة موسىٰ أبا قريش باعتماده على بختيشوع،وصارت لأجل هذا تحاول الإيقاع والمكيدة به وتوغر صدر الخليفة عليه، إلى أنْ تَرك بختيشوع بغداد وعاد إلى جنديسابور. ولكن ما لبث بعد سنة واحدة (١٧١ هـ/٧٨٧ م) أن عاد إلى بغداد بطلب من هارون الرشيد هذه المرة ليكون طبيبه الخاص، وصار من أقرب الأطباء إليه وأحد ندمائه المفضلين، كما نصبه هارون رئيساً على الأطباء في بغداد.

وكانت وفاته سنة ١٨٢ هـ/٧٩٨ م وخلّف ولداً هو جبرائيل بن بختيشوع.

ولبختيشوع كُنّاش صغير عنوانه «التذكرة في الطب» يتضمن معلومات عن السل المزمن وطرق الاستفراغ وخفقان القلب والاستسقاء وقروح الأمعاء ونزول الطمث في أثناء الحمل وذكر حصى المسالك البولية وأوجاع الظهر والوركين وتداوي العصب المقطوع، وذكر الجدري والحميات عموماً. وقد أتى الرازي على ذكر معظمها في الحاوي وأشار إلى المؤلف باسمه.

● جبرائيل بن بختيشوع:

كان يعمل في بيمارستان جنديسابور في أول أمره، ورشحه أبوه في بغداد أن يكون طبيب جعفر بن يحيىٰ البرمكي، وما لبث بعد ذلك أن أدخل في حاشية الخليفة هارون الرشيد وصار أكبر طبيب يعتمد عليه، وحصل منه لأجل هذا مراتب وحظوة لم تجر لمثله من قبل، وقد قال هارون الرشيد يوماً لمن حضر عنده: «كل من كانت له حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني»[١]. وقال عنه أيضاً: «صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحه وبقائه».

روي أن جبرائيل حصل على ثقة الرشيد به وعلى مرتبته عنده بعد أن شفى جاريته التي كانت تشكو من انبساط يديها وعجزها عن ردّهما إلى الوضع الطبيعي. قال جبرائيل: «إن لم يسخط عليّ أمير المؤمنين فلها عندي حيلة. فقال له الرشيد: ما هي؟ قال تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده. وتمهّل عليّ ولا تعجل بالسخط. فأمر الرشيد بإحضار الجارية، فخرجت. وحين رآها جبرائيل عدا إليها ونكس رأسه ومسك بذيلها يريد أن يكشفها، فانزعجت الجارية، ومن شدّة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها وبسطت يديها إلى أسفل ومسكت ذيلها. فقال جبرائيل: قد برأت يا أمير المؤمنين. فقال هارون الرشيد للجارية: أبسطي يديك يمنة ويسرة، ففعلت ذلك. وعجب الرشيد وكل من حضر. ووصل جبرائيل بهدية سنية وعيّنه رئيس الأطباء[٢].

---

(١) عيون ص١٨٨.

(٢) المصدر السابق ص١٨٨.

وقد فسّر جبرائيل للخليفة الحالة التي طرأت على الجارية، وعزاها إلى تغيرات في الأخلاط أدّت إلى اضطراب في أعصاب الجارية. وهي حالة تسمّى اليوم بـالهرع (الهستريا). وقد يكون جبرائيل قد عرف الحالة كما نعرفها اليوم، وإلاّ لما التجأ إلى تلك الحيلة وكله ثقة بالعلاج ليكشف الوهم الذي سيطر على عقل الجارية ومنعها من بسط يديها.

وثمة رواية أخرى جرت لجبرائيل مع الخليفة الرشيد رفعت من مرتبته ودفعته في طريق الحظ، وهي أنه بينما كان مع الخليفة بالرقة، وكان الخليفة أكولاً يكثر من شراب النبيذ، أتخم ذات يوم وغشي عليه في المستراح حتى لم يشك ولداه الأمين والمأمون أنه قد فارق الحياة. وشاع بين العامة والخاصة والجند والقادة خبر عن وفاته. فاستدعي طبيبه جبرائيل على عجل ليستدرك ما يمكن عمله للخليفة. فلما فحص نبضه قرّر أن يفصده في الحال وأمر الغلمان أن يثبتوه قاعداً، ثم أمر الحجام أن يجرب محاجمه، فلما احتقنت المنطقة التي تحتها اعتبر جبرائيل ذلك علامة حسنة، ثم أمر الحجام أن يشرط المنطقة ولم يلبث الخليفة طويلاً حتى صحا من غيبوبته وعادت إليه حيويته.

ولكن الحظ لم يضحك لجبرائيل إلاّ لفترة ليقلب له ظهر المجن لاحقاً حين فشل هذا الطبيب في معالجة هارون الرشيد حين مرض بطوس. فقد ألحّ الخليفة عليه في إيجاد علاج ناجع له، ويقول له جبرائيل: إنه النهم في الجماع، وقد نهيتك عنه فلم تمتنع، كما طلبت منك الرجوع إلى بلدك بسبب المناخ الذي لا يوافقك فلم تفعل[1]. فطرده الخليفة وأمر بحبسه واستدعاء من هو أقدر منه، فاستقدم له طبيب فارسي فلم يتمكن من شفائه، إضافة إلى أنه اتهم جبرائيل بسوء المعالجة التي طبقها على الخليفة، فزاد هذا من غضب الرشيد عليه وأمر بقتله، إلاّ أن الفضل بن الربيع تشفّع له وأبقى على حياته. وقد توفي هارون الرشيد بطوس بتلك الإصابة سنة ١٩٣ هـ/٨٠٩ م. ولمّا تولّى الأمين ردّ إلى جبرائيل اعتباره ومرتبته بين الأطباء. إلاّ أن ذلك لم يدم طويلاً، فبعد خمس سنين مرض الخليفة المأمون وعجز جبرائيل عن شفائه فسخط عليه وفرض عليه الإقامة في بيته، وعيّن مكانه ميخائيل، وهو صهر جبرائيل وبغيضه، وصار الخليفة يكرمه ويقربه إليه كيداً لجبرائيل. وفي سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م مرض المأمون ففشل ميخائيل في شفائه كما فشل غيره من الأطباء،

---

(١) عيون ص١٨٨ - ١٨٩.

فاضطر المأمون إلى استدعاء جبرائيل لمعالجته، ولم تمض أيام حتى شفي بأدويته، فأكرمه وردّ له حريته ورتبته وصار يخاطبه بكنيته أبي عيسىٰ تكريماً له.

وكان جبرائيل بن بختيشوع يطب على الطريقة اليونانية ويولي أفكار الأطباء اليونانيين عناية كبيرة، وكان يطلب مؤلفاتهم في كل مكان، ويعد أول من عرف كفاءة حنين بن إسحاق في ترجمة مؤلفاتهم إلى اللغة العربية والسريانية وكان ذلك بعد عودة حنين من ديار الروم بالإسكندرية. فترجم لجبرائيل بعض كتب جالينوس إلى السريانية كان منها السبع المقالات الأخيرة من كتاب الحميات، وتفسير فصول أبقراط وكتاب الحثّ على تعلّم الطب وكتاب القوى الطبيعية، وكتباً في التشريح، فأدهشت هذه الترجمات جبرائيل لجودتها وحسن عبارتها.

توفي جبرائيل سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م ودفن بدير مارجرجيس بالمدائن حسب رغبته، وكان ابنه بختيشوع يوم وفاته بصحبة المأمون بديار الروم. ولجبرائيل من المؤلفات الطبية:

ـ كُنّاش في الطب: ولعله الكتاب الذي يشير إليه الرازي في الحاوي باسم جبرائيل، وينسب إليه معلومات عن اختلاف طبيعة الأمعاء بسبب الكبد (الحاوي ٨/ ٦٠) وعن عسر البول (ح ١٠/ ١٧١) والفواق (ح٥/ ١٧٩) وضخم الطحال (ح ٧/ ٢٩٩).

ـ كتاب في صناعة البخور: (صنعه للخليفة المأمون).

ـ كتاب رسالة في الطعام والشراب: (رفعها للمأمون).

ـ كتاب الباه: «لعله رفعه للخليفة الرشيد لأنه كثيراً ما نهاه عن النهم في الجماع كما مرّ معنا).

ـ رسالة مختصرة في الطب.

ـ كتاب ورم الخصي: (ذكره الرازي في الحاوي ١٠/ ٢٤٣).

ـ كتاب ورم الخصي: «ذكره الرازي في الحاوي ١٠/ ٢٤٣).

ـ وصفات نافعة: كتبها للمأمون.

ـ رسالة للمأمون في المطعم والمشرب: (لعلها رسالة في الطعام والشراب).

ـ مقالة في العين.

● بختيشوع بن جبرائيل:

كان طبيباً حاذقاً، طيّباً، عارفاً بنفسية مخدوميه، ولهذا حصل من الخلفاء على

ما لم يحصل عليه طبيب آخر في زمنه. وكان يتمتع في أن يتنقل في محفة من الأبنوس ومن حوله رجاله السود، فلم يتهاون حساده من الوشاية به إلى الخليفة، فصودرت أملاكه وأبعده الواثق إلى جنديسابور سنة ٢٣٣ هـ/٨٤٧ م. ولما عاد إلى سامراء أيام الخليفة المتوكل تحسنت حاله وأصبح طبيبه الأثير عنده، وأعلن الخليفة في مجلسه: «إن بختيشوع مني كروحي من بدني» وأغدق عليه العطايا السنية، وصار يلبس كما يلبس الخليفة وتطاع كلمته كأنه أمير من أهل القصر، وأصبح لديه عدد من الخدام والعبيد، وسكن قصراً مكيّفاً بالدفء شتاءً وبالبرد صيفاً، فاستكثر الخليفة هذا وصادر أملاكه وبعده إلى بغداد، ثم استدعاه ليعالجه من قولنج أصابه ورد عليه كامل ما أخذ منه، ثم أبعده ثانية إلى البصرة بوشاية من الأمير المنتصر بن الخليفة المتوكل. وقد بقي بختيشوع بعيداً إلى أن استدعاه المستعين بالله إلى سامراء وأعاد إليه ما صودر من ممتلكاته، وبقي بختيشوع في خدمته وخدمة خلفائه من بعده إلى أيام المهتدي بالله (ت٢٥٦ هـ).

كان بختيشوع بن جبرائيل أكثر الأطباء المعاصرين ممارسة للطب بالقياس وليس بالتجربة، وكان يعتمد على الوقاية من الأمراض وعلى العلاج بإحدى طرق الاستفراغ وتعديل الأخلاط والأمزجة، وكانت وفاته في سامراء سنة ٢٥٦ هـ/٨٦٩ م، وله من المؤلفات:

- رسالة فيها نكات من تحفيات الرموز في الطب.
- مختصر بحسب الإمكان في علم الأزمان والأبدان.
- نبذة في الطب.
- كتاب نصائح الرهبان في الأدوية المركبة.
- رسالته التي أملاها للمأمون في تدبير البدن، جواباً على سؤال.
- كتاب في الحجامة (على طريقة المسألة والجواب)[1].

● عبيدالله بن بختيشوع:

عبيدالله بن بختيشوع بن جبرائيل الطبيب، كان من أقل أبناء الأسرة البختيشوعية شأناً في الطب، ولم ينل ما ناله أسلافه من حظوة ورضا لدى الخلفاء العباسيين. كان يطب في خلافة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/٩٠٨ - ٩٣٢ م)، كما

---

(١) قائمة كتبه في Sezgin 3/243.

عمل كاتباً في ديوانه، ولكن الحظ لم يبتسم له فجرى منه ما دفع الخليفة المقتدر إلى طرده من بلاطه وصادر أملاكه بعد وفاته.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: لما توفي بختيشوع خلف عبيدالله ولده وخلف معه ثلاث بنات، وكان الوزراء والنظار يصادرونهم ويطالبونهم بالأموال، فتفرقوا واختلفوا.

● جبرائيل بن عبيدالله بن بختيشوع:

أبو عيسىٰ، درس الطب على يوسف الواسطي ومارسه في بيمارستان بغداد، كان مشهوراً بحسن إدارته للمرضى وعلاجاته الناجعة، فأصبح من أكابر أطباء البلاط العباسي ومعتمد الملوك والأمراء في المشرق العربي. استدعاه عضد الدولة البويهي إلى شيراز ثم قفل راجعاً معه إلى بغداد ليلتحق بالبيمارستان العضدي، وكان يعمل في هذا البيمارستان يومين وليلتين في الأسبوع. واستدعاه أيضاً الصاحب بن عباد إلى الريّ وتوثقت بينهما موالفة وصحبة شديدة. وكان من جملة مرضاه ابن العميد في بغداد، وممهّد الدولة المرواني في ميافارقين، وحسام الدولة في الموصل، وخسرو شاه في الديلم.

كان جبرائيل يعيش حياة رغدة في كنف عضد الدولة وفي عمله في البيمارستان العضدي، فلما توفي هذا الملك وخشي جبرائيل مكائد الحساد والدسيسة عليه انعزل عن مخالطة الناس وانعكف على القراءة والتدوين، فقضى الشطر الأخير من حياته في ميافارقين حيث توفي فيها سنة ٣٩٦ هـ/١٠٠٥ م. له من المؤلفات الطبية:

- الكُنّاش الكبير ويعرف بالكتاب الكافي (كتبه للصاحب بن عباد في خمس مجلدات).
- الكُنّاش الصغير.
- كتاب في عصب العين.
- مقالة في أنّ أفضل أسطقسات البدن هو الدم (رفعها للصاحب عن سؤال بهذا الباب).
- مقالة في ألم الدماغ (رفعها لخسرو شاه ملك الديلم).

(١) عيون ص٢٠٩.

● **عبيدالله بن جبرائيل:**

أبو سعيد عبيدالله بن جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيوس بن جبرائيل كان فاضلاً في صناعة الطب، مشهوراً بجودة الأعمال فيها، متقناً لأولها وفروعها، من جملة المتميزين من أهلها والعريقين من أربابها، وكان جيد المعرفة بعلم النصارى ومذاهبهم، وله عناية بالغة بصناعة الطب[1].

لم تطل مدة إقامته في بغداد فأقام في ميافارقين ومارس الطب فيها، وصارت له مع ابن بطلان الطبيب البغدادي في هذه المدينة صداقة حميمة. ولمّا كان شغوفاً بالمطالعة وقراءة الكتب فقد ساعدته عزلته عن الناس في بغداد أن يكتب الكثير ممّا ساعده في تجاربه في أثناء ممارسته الصنعة، وأن يتكلم بإسهاب في شؤونها وعلاقتها بالعلوم الأخرى، ولهذا فقد عارض الذين يريدون أن يجعلوا الطب قسماً من أقسام الفلسفة، وجهد في جعله من العلوم التطبيقية وليس له دخل بالفلسفة إلاّ في ما يدخل منطق الاستقراء والاستنتاج التي تتطلبها الفحوص السريرية والمتابعة والبحث العلمي، ودعا أيضاً إلى دراسة الطب على طريق التجربة وليس على الكتب فقط، وذلك ليجعله علماً تطبيقياً قائماً بذاته دون ولاية الفلسفة عليه. لهذا نجد عبيدالله يقف في صف واحد مع ابن بطلان في معارضة ابن رضوان الذي يدعو إلى تعلُّم الطب على الكتب وليس على المعلمين - كما سيمرّ معنا في ترجمة ابن رضوان -.

توفي عبيدالله بن جبرائيل في ميافارقين سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م. وله من المؤلفات الطبية[2]:

- كتاب التواصل إلى حفظ التناسل.
- مقالة في الاختلاف بين الألبان.
- مقالة في حركة النفس.
- كتاب نوادر المسائل (مستخرج من علم الأوائل في الطب).
- كتاب في علم الحيوان وخواصه ومنافع أعضائه.
- رسالة في الطب والأحداث النفسانية (رفعها للوزير محمد بن علي المعروف بابن مقلة).

---

(١) عيون الأنباء ص٢١٤.

(٢) انظر قائمة كتب في عيون الأنباء ص٢٩٦ - ٢٩٧.

ـ كتاب مناقب الأطباء.
ـ كتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر.
ـ كتاب الروضة الطبية (مختصر لخمسين مصطلحاً طبياً وفلسفياً).

● يوحنا بن بختيشوع:

كان طبيباً متميزاً خبيراً باللغتين اليونانية والسريانية، نقل من اللسان اليوناني إلى السرياني كتباً كثيرة. خدم بصناعة الطب الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل (ت٢٤٧ هـ/٨٦١ م) ونادمه وصار معتمده وطبيبه الخاص به، وكان طلحة يسميه «مفرّج كربي» ويجزل له العطاء.

له من الكتب:

ـ كتاب تقويم الأدوية فيما استخار من الأعشاب والأغذية.
ـ كتاب فيما يحتاج إليه الطبيب من علم النجوم.

● بختيشوع بن يوحنا:

كان عالماً بصناعة الطب، حظياً من الخلفاء وغيرهم. درس الطب على أبيه واختصّ بخدمة المقتدر بالله الخليفة العباسي الثامن عشر، وكان له منه الإنعام الكثير والإقطاعات من الضياع، ثم خدم بعد المقتدر الراضي بالله فأكرمه وأجراه على ما كان باسمه في أيام أبيه المقتدر بالله.

توفي بختيشوع بن يوحنا يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٣٢٩ هـ/٩٤٠ م ببغداد.

الأطباء الطيفوريون في العصر العبّاسي

خدم في بلاط الخلافة العباسية ثلاثة أطباء من بني الطيفوري، وذلك بدءاً بخلافة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/٧٧٥ ـ ٧٨٥ م) وانتهاء بخلافة المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/٨٤٧ ـ ٨٦١ م). كان أول الثلاثة عبدالله الطيفوري مؤسّس هذه الأسرة. لم يعرف عن عبدالله هذا أكثر من أنه من كسكر ديار واسط بجنوبي ما بين النهرين. ويحتمل أن يكون أصله البعيد من طيفور أباد بفارس، ولعل تسميته منسوبة إلى طيفور أخي الخيزران (أو مولاها) زوج الخليفة المهدي كما ورد في رواية

عبدالله مع الخيزران. كانت لكنته سوادية واضحة، ولا يعرف على من تعلّم الطب وأين تعلّمه، والمرجح أن يكون من تلاميذ جنديسابور في تعلّم الصنعة وليس من تجربته الذاتية وذلك لما عرف عن سلوكه المهني المستقيم الذي شهرت به هذه المدرسة.

جاء في الخبر أن عبدالله ظهر لأول مرة طبيباً في خدمة طيفور أخي الخيزران. روي أنه رافق طيفوراً عندما واكب الخليفة المهدي وزوجه الخيزران إلى بلاد فارس لمحاربة الثائر سنقار في الريّ. وكان في خدمة الحملة صيدلاني عنّين اسمه عيسىٰ. لاحظت الخيزران انتفاخاً في بطنها، فطلبت إلى إحدى جواريها أن تحمل بولها إلى أطباء المعسكر لفحصه. وصادف أن مرّت الجارية بخيمة عيسىٰ وهو يفحص قوارير الناس، فعرضت الجارية عليه بول سيدتها فأنبأها أن صاحبة البول حبلى بغلام[1]. أثار النبأ فرح المهدي وزوجه، وأثار أيضاً استغرابهما لتحديد جنس الجنين. فأشار طيفور على الخيزران أن تستشير عبدالله في هذا الأمر. عندما فحص عبدالله البول أكّد على وجود الحمل ولكنه أنكر أن يعرف أي طبيب من فحص البول أو أي طريقة أخرى جنس الجنين في بطن أمه. وحدث أن وضعت الخيزران ـ وهي في الريّ ـ ولداً هو موسىٰ الهادي. ثم حملت مرة أخرى، وادعى عيسىٰ أن الجنين ذكر أيضاً، فولدت هارون الرشيد. فازداد المهدي إعجاباً بعيسىٰ وأكرمه وكنّاه أبا قريش أي أبا العرب وألحقه بحاشيته إلى جانب كبار الأطباء مثل بختيشوع بن جورجيس وعبدالله الطيفوري وغيرهما. فلما تولّى الخلافة موسىٰ الهادي بعد وفاة المهدي عرف أن أبا قريش هذا لم يكن إلاّ دعيّاً ولا يعرف شيئاً عن صناعة الطب، فأعاده إلى مراتب الخصيان (وهو عنّين) وقرب عبدالله إليه بدلاً منه وصار طبيبه الأثير لديه وأكرمه وأجزل عطاءه، وأعاد إلى حاشيته الطبيب بختيشوع وكان أُبعد إلى جنديسابور بإشارة من رجال الخيزران.

يستخلص من هذه الحكاية أمور ثلاثة عن أطباء ذلك العهد:

١ ـ إن عبدالله الطيفوري كان طبيباً قويم الأخلاق صادقاً ذا سلوك حسن في ممارسة الصنعة، ولهذا فقد رفض أن يقول ما قاله عيسىٰ الصيدلاني رغم إلحاح طيفور.

٢ ـ إن الأطباء في ذلك الوقت كانوا يعرفون ـ أو يدعون ـ وجود الحمل بعد فحص بول الحامل.

---

(١) تاريخ الحكماء ص٤٣٠.

٣ - إن الصيدلاني هو الذي كان يقوم بعمل التحاليل في المختبرات السريرية بالإضافة إلى عمله في دق العقاقير وتحضير الأدوية.

● زكريا بن عبدالله الطيفوري:

خدم زكريا بن عبدالله في بلاط الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ/٨٣٣ - ٨٤٢ م) ورافق حملة قائده الأفشين حيدر بن كاوس لمحاربة بابك الخرمي الذي ثار في إمارة المأمون بمرو. ويروى أن زكريا اقترح على الأفشين في أثناء هذه الحملة أن يمتحن الصيدلانيين المرافقين ليبعد عن الجيش أولئك المتحلين منهم لهذه المهنة. فقد قال له: إن يوسف لقوة الكيماوي قال يوماً للخليفة المأمون: إن الصيدلاني لا يطلب إنسان منه شيئاً من الأشياء، كان عنده أم لم يكن، إلاّ أخبره بأنه عنده، ودفع إليه شيئاً من الأشياء التي عنده وقال له هذا الذي طلبته. وأشار زكريا بن عبدالله الطيفوري على الأفشين: أن توضع أسماء أدوية لا وجود لها، ثم توجّه الطلبات (الوصفات) إلى الصيدلانيين، فلما فعل الأفشين هذا، أنكر بعضهم هذه الأدوية وادّعى البعض الآخر معرفتها ووجودها لديهم، وأخذوا الدراهم ودفعوا للمشترين شيئاً من حوانيتهم.

بعد عودة الذين حملوا الطلبات إلى الأفشين أمر بطرد أولئك الصيادلة الذين ادّعوا معرفة الأدوية من المعسكر، وأباح دم من يتسلّل إليه للاتجار بالصيدلة فيه[1]. ثم كتب بعد ذلك إلى الخليفة المعتصم ليبعث إليه بصيادلة عارفين بالصنعة صادقين في ممارستها.

● إسرائيل بن زكريا بن عبدالله الطيفوري:

عمل إسرائيل حفيد عبدالله في خدمة الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ/٨٤٧ - ٨٦١ م) طبيباً ونديماً. ثم إن الفتح أثنى عليه في حضرة الخليفة فألحقه بحاشيته وصارت له منزلة رفيعة بين الناس. وكان ممن لا يستغني عن طبهم الخليفة من أمثال الطبيبين بختيشوع وحنين بن إسحاق[2].

---

(١) عيون الأنباء ص٢٢٤ - ٣٣٥.

(٢) انظر المصدر السابق ص٢٥٢، و Leclerc, La Médecine Arabe, V1, p120.

أطباء آل ماسويه في العصر العباسي

ماسويه من الأسماء التي كانت شائعة في بلاد فارس إبان دخول المسلمين إليها، فقد عرف هذه الأسماء وتسمّى بها كل من المجوس فسمّوا «برزويه» واليهود «ماسرجويه» والنصارى «بختويه» والمسلمون أيضاً عرفوه وسموا «سيبويه» و «نفطويه» وغيرها من الأسماء. ولكن الاسم لم يعرف في بلاد سورية وبلاد ما بين النهرين. والمرجح أن يكون اسم ماسويه مؤسّس هذه الأسرة الطبية قد ولد في بلاد فارس، ولكن لم يعرف شيء عن أصل والده ومن أين جاء إلى فارس، ولعله أتى إليها هرباً من إحدى المدن السورية بعد الاضطهاد الذي مورس على النساطرة من قبل الأباطرة البيزنطيين.

● ماسويه الخوزي:

جوجيوس أبو يوحنا، ولعل ماسويه هو لقبه الذي غلب على اسمه فلم يعرف إلاّ بهذا اللقب. أصله من بلاد خوزستان وينسب إليها فيقال له الخوزي. دخل إلى جنديسابور في فارس طلباً للكسب، وفي هذه المدينة كان هناك الكثير من النساطرة السوريين الذين ساعدوه وعملوا على إلحاقه ببيمارستان جنديسابور يدق العقاقير في صيدليتها لتحضير الأدوية والعقاقير. لم يكن ماسويه عالماً بالقراءة، فقد كان أمياً لا يجيد قراءة لغته السريانية، وكذلك اللغة العربية، لكن نباهته وذكاءه ساعداه على تعلم شيء من صناعة الطب. وكان قد تعلم على جبرائيل بن بختيشوع شيئاً من أمراض العين. وكان جبرائيل الطبيب يحبه ويعطف عليه ويساعده على تعلم الصنعة، ثم إنه زوجه من جارية صقلبية فأنجبت له ولدين هما يوحنا وميخائيل، فتولى جبرائيل الإنفاق عليهما وألحقهما بالمعلمين وأشرف على تربيتهما. ولما هاجر جبرائيل إلى بغداد بطلب من البرامكة ليكون في خدمة هارون الرشيد وحظي هناك المال والجاه العريض، اغتابه ماسويه حسداً وغيرة، وسمع جبرائيل بهذا فأوعز إلى القيمين على البيمارستان بطرده بعد أن خدم فيه مدة ثلاثين سنة. وعملت إدارة البيمارستان على طرده فغادر جنديسابور إلى بغداد وكان قد ناهز الخمسين سعياً لاسترضاء جبرائيل، إلاّ أن جبرائيل رفض استقباله وقبول اعتذاره، فلم يكن لماسويه بدّ من العودة إلى جنديسابور قاصداً الكنيسة ليستجدي من كاهنها أجرة السفر إلى بلده، فنصحه الكاهن بممارسة الطب الذي تعلّمه في البيمارستان، وزوّده بصندوق يحتوي على أدوات الكحل وعقاقيره وأجلسه في ناحية من قصر الفضل بن الربيع.

بعد هذا العناء الذي عاناه ماسويه كتب له أن ينال الهدوء والحظوة، وذلك أنه عالج في هذه الأثناء حاجب الفضل من رمد فشفي منه، فأثار انتباه الفضل فقرّبه إليه وصار طبيبه، ثم صار فيما بعد طبيب الخليفة هارون الرشيد، ثم طبيب أخته بانو إلى جانب جبرائيل بن بختيشوع.

توفي ماسويه في زمن خلافة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/٨١٣ ـ ٨٣٣ م)، وخلّف ولدين هما يوحنا بن ماسويه أكبرهما وأكثرهما شهرة وميخائيل بن ماسويه. ولأنّ ماسويه كان أمياً لا يجيد الكتابة والقراءة، ومارس المهنة التي تعلمها وحذقها بفضل ذكائه، فإنه لم يؤثر عنه مؤلفات في الطب.

● يوحنا بن ماسويه:

أبو زكريا، وإليه يعود الفضل في تخليد اسم هذه العائلة، فقد كان من مشاهير أطباء بغداد وسامراء في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، ومن أكثرهم حظوة من الخلفاء العباسيين المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. ولد يوحنا في جنديسابور ـ كما ذكرنا ـ وتعلم اللغتين السريانية والعربية فلم يجد صعوبة في دراسة العلوم الطبية المدونة بهما. وكان إلى جانب هذا يقرأ الطب على أساتذة بيمارستان جنديسابور، فأبدع في ممارسة الطب. وأمام إغراءات بغداد وما يصيبه الأطباء والمرتحلون إليها، لم يجد بداً من الرحيل حيث كان أبوه ماسويه هناك في خدمة الخليفة وأمراء بغداد، فعمل على مساعدته وأدخله بين حاشية بغداد وأعانه على أن يتزوج من ابنة الطبيب عبدالله الطيفوري. ونظراً إلى المسحة الكهنوتية التي تميّز بها يوحنا فقد صار شماساً في خدمة الكنيسة، ومن ثم بدأ يصعد في المراتب الاجتماعية والحكومية إلى أن تمكن من الوصول إلى بلاط المأمون ليصبح سنة ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م رئيساً لبيت الحكمة ودائرة الترجمة فيها، وكان أول طبيب يشغل هذه الرتبة.

عرف عن يوحنا شغفه بقراءة المخطوطات الطبية عموماً وكتب التشريح خصوصاً، وقد عمل في تشريح القردة لمعرفة ما يدعم آراءه عند التعليق على آراء جالينوس في هذا الموضوع، وتكوّنت لديه معلومات كثيرة في خلق الإنسان بالمقارنة مع ما قام به من تشريح الحيوان، وصار يناقش ما توصل إليه من معرفة بهذا الصدد في مجالسه التي كانت من أشهر مجالس بغداد العلمية، ولذلك أصبح مقصد

العلماء والأطباء وطلاب العلوم، كان منهم بختيشوع بن جورجيوس وحنين بن إسحاق المترجم.

اشتهر يوحنا بن ماسويه في الترجمة كما شهر في الطب، ومفردات كتبه تبدو من عناوينها وكأنها من صنع يده لا ترجمة لكتب غيره من المؤلفين، والظاهر أنه لم يكن يجيد اليونانية على ما تقتضيه الدقة العلمية في الترجمة، فكان لأجل هذا يستعين بحنين بن إسحاق ويطلب إليه القيام بترجمة كتب اليونان. على أنه في اللغة العربية كان فصيحاً حسن الصياغة جيد العبارة، وربما كان من هذه الناحية بمستوى حنين بن إسحاق. ويبدو أنه كان طبيباً ناجحاً من خلال ما ورد في سيرة حياته ومحتويات مؤلفاته. وقد كانت مؤلفاته حقّاً بعناوينها ومضامينها نواة جرى على منوالها المؤلفون العرب من بعده، فكتاب يوحنا في الجذام والمالنخوليا والعين وكتاب الجواهر والمرة السوداء، وكتاب السدر والدوار، وكتاب محنة الأطباء، كلها كتب مستحدثة في عناوينها ومحتوياتها التي لم يسبقه أحد من العرب إليها.

كانت وفاته في سامراء سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م في أثناء خلافة المتوكل على الله. وكان من أشهر تلاميذه حنين بن إسحاق. وقد ترك يوحنا الكثير من الكتب التي نسبت إليه، نذكر منها:

ــ كتاب نوادر الطب أو «الفصول الحكمية والنوادر الطبية»، وضعه يوحنا بناء على طلب تلميذه حنين بن إسحاق. يتضمن الكتاب مائة واثنين وثلاثين فصلاً، أو حكمة، على نمط حكم أبقراط في كتابه «الفصول».

ــ كتاب العين أو «دغل العين» أو «معرفة العين وطبقاتها». ترجمه إلى اللاتينية قسطنطين الإفريقي.

ــ كتاب الحميات، يحتوي على معلومات في أمراض الأذن وأسباب الصداع وعلاجه ويرقان الكبد والمرارة والسموم والحمى المطبقة، ذكرها الرازي في الحاوي في مواضع شتى.

ــ كتاب معرفة محنة الكحالين.

ــ الكُنّاش المشجّر، يتضمن معلومات عن مرض الكلى وفحصها ومداواتها، وأسباب عرق النساء والعلاج منه.

ــ كتاب جواهر الطبيب المفردة بأسمائها وصفاتها ومعدنها، يبحث في أنواع العطور وطرق استخراجها.

ـ كتاب إصلاح الأدوية المسهلة.

ـ كتاب خواص الأغذية والبقول والفواكه واللحوم والألبـان وأعضاء الحيـوان والأفاويه.

ـ كتاب ماء الشعير.

ـ كتاب ذكر الخواص المختبرة على ترتيب العلل.

ـ كتاب المنجح في التـداوي من صنوف الأمـراض والشكاوي، ذكـر الرازي أنـه غريب، يتضمن معلومات عن تداوي الخفقـان الحار وعلاج الأمعـاء بـالحقن وأطعمة المصابين بالكلى والمثانة والعنة.

ـ رسالة في العين.

ـ كتاب في الفصد والحجامة.

ـ كتاب في الجذام.

ـ كتاب علاج النساء اللائي لا يحبلن.

ـ كتاب المالينخوليا وأسبابها وعلاماتها وعلاجها.

ـ كتاب في الصداع وعلله وأدويته.

ـ كتاب السموم وعلاجها.

ـ كتاب التشريح.

ـ كتاب دفع مضار الأدوية.

ـ كتاب الجامع أو جامع الطب ممّا اجتمع عليه أطباء فارس والروم.

ـ كتاب تركيب العين وعللها وأدويتها.

ـ كتاب الكمال والتمام.

ـ كتاب الكامل في الأدوية المقيّئة.

ـ كتاب الإسهال.

ـ كتاب السدر والدوار (كان من مصادر الرازي في الحاوي).

ـ كتاب الرحم.

ـ كتـاب محنة الـطبيب (امتحـان الـطبيب)، فيـه إشـارات إلى حـالات نبض المحموم وبوله.

ـ كتاب الطبيخ، وهو أول كتاب من نوعه باللغة العربية.
ـ كتاب محبّسة العروق.
ـ كتاب المعدة.
ـ كتاب القولنج.
ـ كتاب الصوت والبحّة.
ـ كتاب تدبير الأصحاء.
ـ كتاب تركيب خلق الإنسان وأجزائه (صنّفه للخليفة المأمون)[1]

● ميخائيل بن ماسويه:

أخو يوحنا بن ماسويه. كان بارعاً في ممارسة صناعة الطب على طريقة اليونان، وفي معرفة الأدوية وصيدليتها، فاعتمده الخليفة المأمون طبيباً خاصاً به، فلم يكن يتناول دواء إلّا من يده، وصار لا يثق بالأطباء الآخرين إلّا بعد استشارته، وكان يجلّه ولا يخاطبه إلّا بكنيته. كما كان طبيباً محترماً من قبل أطباء البلاط في بغداد.

روى يوسف بن إبراهيم مولى إبراهيم بن المهدي، قال: كان هذا المتطبب لا يمتع بالحديث ولا يحتج في شيء يقوله بحجة، ولا يوافق أحداً من المتطببين على شيء أحدث من مائتي سنة، فلم يكن يستعمل السكنجبين والورد المربى إلّا بالعسل، ولا يستعمل الجلاب المتخذ بماء الورد، ولا يتخذه إلّا من الورد المسلوق بالماء الحار ولا يتخذه بالسكر، ولا يستعمل شيئاً لم يستعمله الأوائل. ولقد سألته يوماً عن رأيه في الموز فقال: لم أر له ذكراً في كتب الأوائل، وما كانت هذه حاله لم أقدم على أكله ولا على طعامه للناس. وكان المأمون به معجباً وله على جبرائيل بن بختشيوع مقدماً، حتى كان يدعوه بالكنية أكثر ممّا يدعوه بالاسم. وكان لا يشرب الأدوية إلّا ممّا تولّى تركيبه وإصلاحه له. وكنت أرى جميع المتطببين بمدينة السلام يبجلونه تبجيلاً لم يكونوا يظهرونه لغيره.

وقال يوسف: وحضر في النصف من شوال سنة عشرين ومائتين دار إبراهيم بن المهدي مع جماعة من وجوه المتطببين، وكانت «شكلة» عليلة، فوجه المعتصم المتطببين إليها ليرجعوا إليه بخبرها. وقد كانوا صاروا إليها قبل ذلك اليوم

(١) انظر مؤلفاته في طبقات ابن جلجل ص٦٩ وتاريخ الحكماء للقفطي ص٢٤٩، والعيون ص٢٥٥.

بيوم، فنظروا إلى مائها وجسّوا عرقها، وعاودوا النظر في اليوم الثاني في أمرها، فقالوا كلهم: إنها أصبحت صالحة، وأنهم لا يشكّون في إفراقها. فسبق إلى وهمي أنهم، أو أكثرهم، أحب أن يسرّ أبا إسحاق بما ذكروا من العافية. فلما نهضوا اتبعتهم فسألت واحداً واحداً عمّا عنده من العلم بحالها، فكلهم قال لي مثل مقالته لأبي إسحاق، إلاّ سلمويه بن بنان فإنه قال لي: هي اليوم أصعب حالاً منها أمس. وقال لي ميخائيل: قد ظهر أمس بالقرب من قلبها ورم لم نره في يومنا هذا، أفترى ذلك الورم ساخ في الأرض أو ارتفع إلى السماء، انصرف فأعد لهذه المرأة جهازها فليست تبيت في الأحياء. فتوفيت وقت صلاة العشاء الآخرة بعد أن ألقى إلي ميخائيل ما ألقى ساعات عشراً أو نحوها[1].

لم يؤثر عن ميخائيل بن ماسويه كتاب في الطب مع علو همّته في ممارسة الصنعة، ويبدو أنه لم يكن مهتماً بتدوين معايناته وخبراته في مهنته، وكانت معظم معلوماته تعتمد على الطب اليوناني القديم.

أطباء العرب في العصر العباسي

وصلت العلوم والمعارف اليونانية إلى العرب من طرق شتى وفي عهود مختلفة، ويمكن القول إن الفكر الحضاري الذي انتقل من بلاد ما بين النهرين إلى بلاد اليونان حوالى القرن السادس قبل الميلاد، عاد إلى موطنه الأول في العراق في زمن الخلافة العباسية بعد غياب استمر أكثر من اثني عشر قرناً. وقد خطت مسيرة الطب اليوناني إلى بغداد على مراحل أربع كانت الأولى من أثينة إلى الإسكندرية، حيث بقيت العلوم اليونانية حكراً على اليونان إلى أن خرج الإسكندر المقدوني في نهاية القرن الرابع ق.م. غازياً المشرق، وبخروجه خرجت معه كنوز المعرفة اليونانية إلى أطراف العالم. وكانت المرحلة الثانية في سورية الشمالية إبان ازدهار الإسكندرية بالعلوم والعلماء، وخصوصاً مدينة الرها ونصيبين بالإضافة إلى أنطاكية. ثم تلت المرحلة الثالثة التي تمثلت بانتقال العلوم من سورية إلى جنديسابور في فارس عن طريق الأسرى من الشعوب البيزنطية بعد معركة الرها، ثم مرحلة انتقالها من جنديسابور إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية حيث بدأ دخول الطب اليوناني إلى

---

(١) عيون الأنباء ص٢٥٦.

بغداد في خلافة أبي جعفر المنصور وبقي ينساب إليها طيلة القرن الأول من حكم بني العباس.

في خلال هذه المسيرة برزت ظواهر علمية يمكن اعتبارها فواصل بين مراحل التطور المتنوعة التي عرفها تاريخ انتقال العلوم الطبية إلى بغداد، وعليه يمكن إيجاز هذه المسيرة على أساس مراحل أربع عرفها هذا التطور حتى وصل إلى ما عرفناه في العصر العباسي.

مرحلة التقليد:

وهي المرحلة التي تمتد فيما بين ممارسة الصناعة الطبية في العصر الجاهلي وبداية ترجمة الكتب اليونانية والهندية إلى اللغة العربية في صدر الخلافة العباسية. وكان أطباء هذه المرحلة يعتمدون في ممارسة المهنة على الموروث والتقليد في تشخيص العلة ووسيلة العلاج دون علم بوظائف الأعضاء أو معرفة ظواهر المرض.

مرحلة الترجمة:

وهي المرحلة التي بدأت مع بدء ترجمة كتب الأعاجم حتى بداية ظهور أعلام الطب في مطلع القرن الرابع الهجري. كان الأطباء في هذه المرحلة طلاب علم ومعرفة، وكانوا إلى ذلك يمارسون المهنة ويشعرون باللذة في تطبيقها. وكانت طائفة المترجمين وعلى رأسهم حنين بن إسحاق هي الطائفة المجلية في حقل الطب والتي كان لها الفضل في وصول الطب العلمي إلى الأقطار العربية.

مرحلة النضوج:

تبدأ من أول القرن الرابع الهجري، وهي الفترة التي برز فيها الرازي والمجوسي وابن سينا. وقد اعتبر هؤلاء الأعلام من رواد الحضارة الإنسانية عموماً بالإضافة إلى كونهم نوابغ الطب العربي، ومن المؤرخين من جعلهم في مصاف كبار أطباء اليونان الأوائل كأبقراط وجالينوس وديوسقريدس، ومنهم من اعتبرهم من أفذاذ علماء الطب على مدى التاريخ[1].

---

(١) مختصر تاريخ الطب العربي ج١ ص٣٧٠.

مرحلة الركود:

وهي المرحلة التي أصابت الفكر الطبي بالفتور في البحث والتأليف، ولعل هذه المرحلة الفاترة بدأت مع بداية القرن السادس الهجري، وإذا كان قد ظهر طبيبان هما ابن البيطار وابن النفيس في هذه الفترة، فإن ظهورهما يعد نادرة حقاً. وعندما بدأت مرحلة الركود هذه في الفكر العربي الطبي، كان طب العرب وعلومهم الأخرى قد وصل إلى أوروبة اللاتينية لتقوم على أساسه دعائم حضارة هذا القرن.

إن الفترة الفاصلة بين وصول الطب إلى العرب وركوده في نهاية الأمر لا تتعدى خمسة قرون على الأرجح، وعلى ذلك تكون الخلافة العباسية قد واكبت هذه المراحل جميعها، وكانت أقصر تلك المراحل التي عاشتها هي المرحلة الأولى وأطولها هي المرحلة الأخيرة، بينما لم تعش أي من الأقطار الإسلامية الأخرى المرحلة الأولى في مسيرة الطب، فوصل إليها الطب في حالة نضوجه فتمتعت بثماره اليانعة، ولم تزد عليه إلَّا شيئاً يسيراً من الطب الجراحي ومفردات الأدوية.

وفي فارس في صدر الدولة العباسية كان هناك العديد من الأطباء الفرس واليونان والسريان والهنود. وكان هؤلاء هم النخبة البارزة في علوم الطب وصناعته وخصوصاً الذين عملوا منهم في مدرسة جنديسابور وتخرجوا منها. ولما تأسّست مدينة السلام انتقل إليها عدد غير قليل منهم كان من أبرزهم عائلة بختيشوع وبعض علماء الهند. وفي ذلك العهد كان الدين الإسلامي هو دين الدولة في فارس، وكانت اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - هي لغة العلوم والتأليف فيها، ولم يعد هناك من يحتفظ باللغة الفارسية إلَّا طبقات الشعب غير المتعلمة، بالإضافة إلى بعض المثقفين الذين يدونون كتباً خاصة. ولكنّ شيوع اللغة العربية والكتابة بها لم يمنع أن يكون للطب الفارسي تأثير في الطب العربي والذي كان يخلط الطب بعلوم التنجيم والسحر، وأن تظهر أسماء عديدة من أسماء الأدوية وطرائق المعالجة في كتب الطب العربي، وكان للطب الهندي الذي يختلط أيضاً بالطوالع والمواليد أثره البارز. ولم تصل إلينا الكتب العديدة من المؤلفات الهندية التي تظهر تأثير طب الهند في الطب العربي، إلَّا أنه من المؤكد لدينا أن ابن ربان الطبري والرازي قد أخذا في مؤلفاتهما عن كتب هندية في الطب للطبيب «سوسروتا» وشارك في كتابيهما فردوس الحكمة والحاوي. كما أن عدداً من أطباء الهند خدم في بلاط هارون الرشيد إلى جانب النساطرة من الأطباء، كما اشتغل البعض منهم في ترجمة كتب أولئك إلى

العربية، وبذلك يكون الطب الهندي قد ساهم إلى حد ما في نشوء الثقافة العلمية العربية الطبية بالرغم من عدم وجود مؤلفات طبية عربية تكشف عن تأثير الطب الهندي آنئذ، ولعلّ عدم وصول الترجمات الهندية إلينا يعود إلى الشهرة العظيمة التي تمتعت بها الكتب اليونانية فطغت على الهندية وتضاءل تداول هذه الأخيرة إلى أن اختفت بسبب عدم تداولها بين الباحثين والمتعلمين في مدارس الطب.

مع قيام دولة بني العباس انتقل إلى بغداد الأطباء والدمشقيون الذين خدموا البلاط الأموي وكان جلّهم من النساطرة والروم، وبذا اجتمع في بغداد قدر كبير من الأطباء الذين ينتمون إلى قوميات وأديان مختلفة، على أن أبرزهم كان النساطرة السريان وأقدرهم على ممارسة صنعة الطب، وإلى جانب هذه النخبة ممّن ذكرنا كان هناك بعض الأطباء العرب المعدودين.

أمام هذا العدد الكبير من الأطباء الأعاجم كان لا بدّ أن يسيطر الطب الأعجمي على الصناعة الطبية في بغداد عاصمة العباسيين، وأن تكون طبابة أهل البلاد الأعراب راكدة غير راجحة. ومن ذلك ما يروى أن بعض أطباء العرب في بغداد، وهو أبو الحارث أسد بن جاني، قلّ في دكانه عدد المرضى فلاحظ أحدهم، فقال لأبي الحارث: «السنة وبئة والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين يأتي هذا الكساد؟ قال: أما واحدة فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب. واسمي أسد وكان ينبغي أن يكون صليبياً أو جبرائيل أو يوحنا، وكنيتي أبو الحارث، وكان يجب أن تكون أبا عيسىٰ وأبا زكريا وأبا إبراهيم، وعليّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون ردائي حريراً أسود، ولفظي عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور».

بعد أن كثرت الكتب المترجمة وسرى تداولها من بيت الحكمة في بغداد ازداد عدد الأطباء فيها، وإذا كان المتعلمون الأعراب قد نهلوا من التراث اليوناني الضخم، فإنهم لم يعتنقوا كل الأفكار وخصوصاً تلك التي تتعلق بالأساطير وتعليم النحت والرسم والتمثيل ممّا يتعارض وشريعتهم الإسلامية، وكان اندفاعهم متركزاً على علوم الطب والفلسفة فقط. ولهذا نجد العرب ينهلون من العلوم الطبية اليونانية والهندية دون كلل، وكذلك من الفلسفة التي كانت قد عرفت عند علماء الكلام من المعتزلة، ولذلك زادوا من انكبابهم على البحث الفلسفي ودراسة تفاصيل الفلسفة بعمق وإدراك. ولمّا كانت الفلسفة مادة لا يمكن فصلها عن

الطب ـ بالنسبة إلى اليونانيين ـ ولا يمكن فصل الطب عن الفلسفة، فقد صار لزاماً على من يريد الخوض في دراسة الطب وصناعته أن يلمّ بالفلسفة أيضاً، وعلى هذا الأساس سلك الأطباء العرب وخصوصاً البارزون منهم مسلك الفلسفة إلى جانب الطب، فالطبيب لا بدّ أن يكون فيلسوفاً في الوقت نفسه وإلّا كان متطبباً وليس طبيباً. على أن هذا لم يمنع أن يكون بعض الفلاسفة العرب من ممارسة الطب نظرياً من غير تطبيق، فكانوا يعملون على تدريسه للطلاب أكثر ممّا يمارسونه تطبيقياً على المرضى. ولا شكّ أن كبير الأطباء في بغداد أبا الفرج بن الطيب كان من هذه النخبة التي درست الطب أكثر مما مارسته.

أساليب التطبيب في صدر الخلافة العباسية:

إن أسلوب الممارسات الطبية المعمول بها في صدر الخلافة العباسية كان أنموذجاً لما كان سائداً في مدرسة جنديسابور، وقد كان الأسلوب هذا معتمداً على الاستفراغ والإسهال والحقن والفصد والحجامة والتعريق (تعديل سوائل الجسم وأخلاطه). وهو أسلوب يوناني في الأصل طرأ عليه بعض التطويرات الفارسية والهندية.

وكانت الأدوية التي عالج بها الأطباء في بغداد في معظمها من نبات الأرض، وكان البعض منها من مصادر حيوانية أو معدنية، وكان لها أسماء يونانية أو فارسية عرفت بها زمناً طويلاً، ثم بدأ الأطباء العرب محاولاتهم لإبدال أسماء هذه الأدوية بالعربية، وزادت معلوماتهم في استعمالاتها بعد أن ترجم كتاب ديوسقريدس عن الحشائش في بيت الحكمة.

أما العمليات الجراحية التي قام بها الأطباء في هذه الحقبة فلم تتعدّ عمليات قدح العين، ورفع الحصى من المثانة، والختان، وعمليات التوليد العسر، والكي، واعتبرت الجراحة بشكل عام أقل مستوى في الفكر من الطب الباطني[1].

كانت معالجة المريض تتم في داره أو في حانوت الطبيب، وكان إلى جانب هذا الحانوت صيدلاني يقوم بدق الأدوية وتحضيرها تبعاً للوصفة التي يحملها المريض من الطبيب المداوي. وإذا كانت حالة المريض تستدعي علاجاً يدوياً فإن الطبيب كان يحيله إلى طبيب آخر مختصّ، وأكثر تلك العلاجات اليدوية هي الفصد والحجامة

---

(١) مختصر تاريخ الطب العربي ج١ ص٣٧٤.

التي كانت تستطب هي والمسهلات والمقيئات للأصحاء بقدر ما تستطب للمرضى إن لم يكن أكثر من ذلك[1]. إن هذا الأسلوب في التطبيب كان من خصائص الطب العربي، ولم يكن اليونان قد مارسوه ولا غيرهم ممّن سبق العرب إلى صناعة الطب، ونحسب أن هذا الأسلوب من الفروق المهمة بين ممارسة الطب العربي بعد تطويره حسب المفاهيم اليونانية وقبلها. فالطب العربي على مدى تطوره وازدهاره بين القرن الثالث والسادس الهجري كان طباً للأصحاء كما كان للمرضى، وهو كما قال سنان بن قرّة لعضد الدولة البويهي: «إن موضوع صناعتنا حفظ الصحة لا مداواة الأمراض»[2]

قبل خلافة المعتضد لم يكن في بغداد سوى مستشفى واحد هو الذي بناه هارون الرشيد والذي سلم رئاسته إلى ماسويه الخوزي كما جاء في الأخبار وكان بإشراف طبيبه الخاص جبرائيل بن بختيشوع. وكان هذا المستشفى صورة مكبرة ومحسنة لبيمارستان جنديسابور. وعندما تولى المعتضد أنشأ مولاه وقائد جيشه بدر الحمامي بيمارستاناً باسمه في محلة المخرّم. ثم توالى إنشاء البيمارستانات بعد القرن الثالث الهجري، ولم يشارف القرن الرابع على نهايته إلاّ وزاد عدد البيمارستانات في بغداد وحدها على الستة، ولم يكن لهذا العدد نظير في أية مدينة في العالم قبل القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد أملت التقاليد العربية الإسلامية صبغة إنسانية على الممارسات الطبية والعمل في البيمارستان، حيث تميّزت مجانية التطبيب والتعاطف مع الفقراء المعوقين والمجانين، وكثرة البيمارستانات في بغداد تعطينا فكرة عن عدد الأطباء فيها، فممّا جاء في أخبار الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) أنه كان في بغداد وحدها ما يزيد على ستماية وثمانين طبيباً، ومن المحتمل أن يكون في فارس عدد كبير آخر من الأطباء بالإضافة إلى ما كان يوجد منهم في أقطار الدولة العباسية المترامية.

جعل الخلفاء العباسيون على الأطباء محتسباً، وكانت هذه الوظيفة في الغالب ذات جانب إنساني وديني في صناعة الطب. أما وظيفة رئاسة الأطباء فكانت مهنية بحتة، ولذلك نرى أن الخليفة المعتضد لم يعيّن ثابت بن قرة ـ وهو صديقه وفلكيّه ـ رئيساً للأطباء في بغداد، بل عيّن غالباً في هذا المنصب، ذلك لأنه أقدر في ممارسة الطب من ثابت. كما أن الخليفة أناط برئيس الأطباء لا المحتسب منصب امتحان

---

(١) عيون الأنباء ص١٨٠.

(٢) عيون ص٣٠٨.

الأطباء في صناعتهم ليمنع من يفشل منهم من ممارسة هذه الصناعة والضرّ بالناس. وقد برز في هذا العصر العلمي العباسي لقب «الأستاذ المتميز» بالإضافة إلى لقبي رئيس الأطباء والمحتسب، وكان هذا اللقب يطلق على من يبرز في هذه المهنة من الأطباء وعلى الأساتذة الأقدمين، وكان هذا اللقب على ما يظهر لنا عرفياً يطلقه أرباب المهنة على من يستحق هذه الرتبة المعنوية وليس له أي علاقة بالوظائف الإدارية في الدولة.

وبعد أن انتشرت الكتب المترجمة من اليونانية إلى العربية وجدت الأعداد الوفيرة من الطلاب والقرّاء الذين وجدوا فيها ما يمكن أن يتعلموه في الطب حين عزّ المعلمون ومدارس التعليم، فصار كثير من أطباء العصر ممّن تعلم الطب على قراءة هذه الكتب المعرّبة ثم مرّ بامتحان الصنعة مستوين في معرفة المهنة. وكان منهم من تعلم ممارسة عملية الفصد ومارسها حيناً ثم وسع علومه في الطب وصار ممارساً له. ثم إن هناك البعض ممّن درسوا وتتلمذوا على أساطين الأطباء من النساطرة السريان وتخرّجوا عليهم في الطب. أما معاهد التعليم الطبي النظامي فلم تظهر بوادرها إلّا بعد إنشاء البيمارستانات، ووصلت ذروة تاريخها حين توفر للتدريس من هم بمستوى التعليم العالي. وطبيعة مهنة الطب هذه تتطلب أن يكون تدريسها إلى جانب أسرّة المرضى، ولهذا كانت البيمارستانات في معظمها بمثابة مدارس تعليمية، وكان تعليم الطب يجري على الطريقة العملية (أي السريرية) إلى ما يتبع ذلك من قراءة وإملاء.

ولّما كان أبرز أطباء الإغريق علماء نظريين أكثر منه متمرسين في التجربة والتطبيق العملي، فإن أطباء العرب الذين تأثّروا بالفكر اليوناني، وخصوصاً ما ينسب إلى أبقراط وجالينوس، ركّزوا على تطبيق تلك النظريات وتجريبها على المرضى في مختلف الأحوال، وبذلك تمكنوا من تثبيت ما ظهر صلاحه للممارسة وتركوا سواه، أو قاموا بتطويره إلى الأفضل المفيد في صناعة الطب.

ورغم أن مؤلفي الكتب الطبية العرب اعتمدوا في مادة كتبهم على مخطوطات اليونان وفارس والهند، فإن مؤلفاتهم فيها الكثير من الأعمال الأصلية والمبتكرات التي لم يسبقهم أحد إليها من قبل. أضف إلى هذا أنهم أتقنوا تدوين المعارف والعلوم وتوزيعها حسب تنوع عناوين كتبها، ولذلك تميّزت مؤلفاتهم بالالتزام بموضوعية المادة العلمية التي تمثل مادة الكتاب أو البحث الطبي، فكانت تلك المؤلفات هي النخبة الأولى في نوعها من هذه الناحية، على عكس مؤلفات اليونان التي لم تحافظ

على موضوعية المادة وتسلسلها ولا على توافق المعلومات وعنوان الكتاب الذي يحتويها.

ونشير قبل الانتقال إلى ذكر بعض الأطباء الذين شهروا في العهد العباسي إلى أن هناك من صنف في العلوم الطبية ولم يمارسوا الطب إلاّ نادراً، ثم إنهم ذكروا في قائمة الأطباء العرب المترجم لهم. ويعتبر كتاب «فردوس الحكمة» لابن ربان الطبري أول كتاب أسلوبي وضع بالعربية في العلوم الطبية، إلاّ أنه مع ذلك لم يثبت أن مؤلفه كان ممارساً جاداً للمهنة ولا أن تطبيقاته كانت على مستوى كتابه المصنوع. لهذا يمكن اعتبار ابن ربان من المؤلفين النظريين ـ مثل أطباء اليونان ـ وأن ممارسته كانت محدودة جداً.

على أنه ليس من السهل أن نحكم من عدد مؤلفات الطبيب على حقيقة مرتبته العلمية وسعة ممارسته الصنعة، فإن معظم أطباء ذلك العصر كانوا موسوعيين في مؤلفاتهم، فقد كان المؤلف منهم يكتب في علوم متنوعة مثل الجغرافية والتاريخ والفقه والتنجيم والأعداد، كما وضعوا في كتبهم مواد تختص بعادات الناس المعروفة فيما بنيهم، وكتبوا في الجواهر لأنها كانت مبعث تجارة رابحة.

وخلاصة القول إن الطب العربي شهد انطلاقته مع تأسيس العاصمة بغداد، ففيها نشأ وازدهر وأضاف إلى معارفه تراث اليونان وفارس والهند، ثم انتشر إلى بقاع الأرض يحمل معه أنوار العلم إلى الناس عموماً. وليس لنا في نهاية هذا الفصل إلاّ أن نذكر بعض مشاهير الأطباء الذين نجموا في خلال عصر ازدهار الطب في إبان حكم العباسيين، وذكر بعض ما أثر عنهم من المؤلفات والابتكارات التي يعتزّ بها العالم العربي الإسلامي.

يصعب في أغلب الأحيان تعيين الحد الفاصل بين الترجمة والتأليف، فقد كان كثير من المترجين مؤلفين في الوقت نفسه، وهذا ما يصدق على يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق. وكان الأول تلميذاً درس على جبريل بن بختيشوع، ويذكر أنه لما عجز عن الحصول على جثث بشرية للتشريح، لما في ذلك من مغايرة لروح الدين الإسلامي، عمد إلى القردة فشرّحها. ولم يكن تقدم علم التشريح ممكناً في تلك الأوضاع إلاّ في بعض الفروع كدراسة العين. وقد كان انتشار أمراض العين في العراق وغيره من الأقطار الإسلامية الحارّة داعياً إلى أن تركز الجهود الطبية في هذا الفرع. وتشكل لنا رسالة ابن ماسويه في معالجة أمراض العين أقدم أثر عولج فيه هذا الموضوع بشكل منتظم. وقد كان الطبيب في ذلك العهد يجمع إلى علمه

بالطب معرفة بما وراء الطبيعة (علم الإلهيات) والفلسفة والحكمة، ومن هنا كان يطلق على من يحوز هذه العلوم لقب الحكيم. وقد كانت مهنة الطب رابحة، يدلنا على ذلك أن جبريل بن بختيشوع طبيب بلاط الرشيد والمأمون والبرامكة كانت أملاكه ثمانية وثمانين مليوناً وثمانمئة ألف درهم.

وقد خطا العرب في هذا العصر خطوات واسعاً في استعمال العقاقير للتداوي، فهم أول من أنشأ حوانيت خاصة لبيع الأدوية، وأقدم من أسّس مدرسة للصيدلة، بل أول من وضع الأقراباذين (كتب الأدوية). فقد ألفوا الكثير من الرسائل في الصيدلة كان من أوائلها ما وضعه جابر بن حيّان أبو الكيمياء الشهير. وكان يفرض على الصيادلة منذ زمن المأمون والمعتصم أن يجتازوا امتحاناً خاصاً وفرض على الأطباء مثل ذلك.

لقد ظهر الأطباء المؤلفون بعد عصر الترجمة، وكان أجدرهم بالذكر جماعة من أصل فارسي يتكلمون العربية وهم علي بن ربان الطبري وأبو بكر الرازي وعلي بن العباس المجوسي وابن سينا[1]، والسرخسي والفارابي وعلي بن عيسى الكحال وابن الهيثم وابن الطيب والبيروني وابن رضوان وابن الشبل وابن جزلة وابن التلميذ وعبداللطيف البغدادي وابن الصوري، ثم جاء بعدهم ابن البيطار وابن أبي أصيبعة وابن القف وابن النفيس وغيرهم.

ونذكر فيما يلي ما استطعنا الحصول عليه عن تاريخ حياتهم ومآثرهم في علوم الطب في بلاد الإسلام.

أحمد بن الطيب السرخسي (ت ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩م):

أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي، أحد فلاسفة الإسلام، وهو تلميذ يعقوب بن إسحاق الكندي، وكان أحمد أحد المتفنّنين في علوم الفلسفة وله تواليف جليلة في الموسيقى والمنطق وغير ذلك، حلو العبارة جيّد الاختصار، وكان متفنّناً في علوم كثيرة من علوم القدماء العرب، حسن المعرفة جيّد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف. كان أولاً معلماً للمعتضد بالله ثم نادمه وخُصّ به وكان يفضي إليه بأسراره ويستشيره في أمور مملكته، وكان الغالب على أحمد علمه لا عقله. وكان سبب قتل المعتضد إيّاه اختصاصه به، فإنه أفضى إليه بسرّ يتعلق

---

(١) لابن سينا والرازي صورتان تزينان القاعة الكبرى في مدرسه الطب بجامعة باريس.

بالقاسم بن عبيدالله وبدر غلام المعتضد، فأذاعه بحيلة من القاسم عليه مشهورة، فسلمه المعتضد إليهما، فاستصفيا ماله ثم أودعاه المطامير، فلمّا كان من الوقت الذي خرج فيه المعتضد لفتح آمد وقتال أحمد بن عيسىٰ بن شيخ، أفلت من المطامير جماعة من الخوارج وغيرهم والتقطهم مؤنس الفحل وكان إليه الشرطة وخلافة المعتضد على الحضرة، وأقام أحمد في موضعه ورجا بذلك السلامة، وكان قعوده سبباً لمنيّته، وأمر المعتضد القاسم بإثبات ممّن ينبغي أن يقتلوا ليستريح من تعلّق القلب بهم، فأثبتهم ووقّع المعتضد بقتلهم، فأدخل القاسم اسم أحمد في جملتهم فيما بعد فقتل، وسأل عنه المعتضد فذكر له القاسم قتله وأخرج إليه الثبت فلم ينكره. وكانت وفاته سنة ٨٩٩ م.

ألّف السرخسي كتباً كثيرة في المنطق والحسبة والغناء والمنادمة والمجالسة وأنواع الأخبار والملح والموسيقى والأعداد والجبر، نذكر منها:

- كتاب قاطيغورياس.
- كتاب بارير مينياس.
- كتاب أنولوطيقا.
- كتاب غش الصناعات.
- كتاب اللهو والملاهي.
- كتاب السياسة.
- كتاب المدخل إلى صناعة النجوم.
- كتاب الموسيقى الكبير.
- كتاب الموسيقى الصغير.
- كتاب المسالك والممالك.
- كتاب الأرثماطيقي والجبر والمقابلة.
- كتاب في العشق.
- كتاب المسائل.
- كتاب فضائل بغداد.
- كتاب الجلساء والمجالسة.
- كتاب الشاكّين وطريق اعتقادهم.
- كتاب منفعة الجبال.
- كتاب وصف مذهب الصابئين.

أما مؤلفاته الطبية، فهي:

- كتاب المدخل إلى الطب (نقض فيه كلام حنين بن إسحاق).
- مقالة في البهق والنمش والكلف.
- كتاب في ماهية النوم والرؤيا.
- كتاب في الردّ على جالينوس.
- كتاب الطبيخ.
- كتاب جوابات ثابت بن قرة.

علي بن ربن (ربان) الطبري (ت٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م):

علي بن سهل ربّان[١] الطبري، كان أبوه سهل منجّماً. ولد ونشأ بطبرستان يتصرف في خدمة ولاتها ويقرأ علم الحكمة، وقد جرت فيها فتنة فأخرجه أهلها إلى الريّ، فقصد بغداد واستقرّ في سرّ من رأى، وألّف فيها كتابه المشهور «فردوس الحكمة» وهو موسوعة مشتملة على علوم طبية وغير طبية، وهو في سبعة أنواع تحتوي على ثلاثين مقالة والمقالات تحتوي على ثلثمائة وستين كتاباً، وقد اقتبس ما جاء فيها من مصادر يونانية وهندية.

خدم علي بن ربان الطبري عند الأمير الفارسي مزيار بن كريم كاتباً، فأرسله هذا الأخير مندوباً عنه إلى بغداد والري، واستقرّ الطبري في بغداد سنة ٨٤١ م على أثر إعدام سيده مزيار في طبرستان، وقد قرب الحكام في بغداد الطبري، فجعله كل من الخلفاء المعتصم والواثق والمتوكل كاتباً لهم. وقد اعتنق الإسلام في زمن المتوكل وذلك سنة ٨٥٠ م، وكتب سنة ٨٥٥ م كتاباً في الأديان عن محاسن الإسلام.

له من الكتب بالإضافة إلى «فردوس الحكمة»[٢] وكتابه عن محاسن الدين الإسلامي الذي وضعه بعد إسلامه، كتاب كُنّاش الحضرة، وكتاب منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير. وقد أوصى الطبري قارىء «فردوس الحكمة» أن يمعن النظر فيه، فقد شبهه بحديقة غناء فيها الأزهار الذكية والأثمار الشهية، فيها ما يلذّ لكل

(١) ربان اسم أبيه ـ وهو اللفظ الذي حمل بعضهم على الظن أنه يهودي الأصل ـ وربان كلمة سريانية معناها سيدنا كما شرحها عليّ نفسه في تصديره لكتاب «فردوس الحكمة في الطب».

(٢) سعى إدوارد براون لترجمة كتاب «فردوس الحكمة» ولكنه توفي ولم يحقق ذلك، فقام تلميذه محمد زيد الصديقي سنة ١٩٢٨ بترجمة قسم من الكتاب.

نفس ويطرب به كل حسّ، وأنه لا يجوز الاكتفاء لتقدير ما في الحديقة الغناء من مفاتن بالنظر إليها من خلال أبوابها، ولا بدّ من الاطلاع بإمعان على كل ما فيها لتقدير روعتها. كذلك الأمر في كتابه فلا يستطيع الباحث معرفة ما فيه من النفائس إذا اكتفى بالعناوين ولم يتعمق فيما جاء فيه من كلمات وبينات، وأن شأن المتصفح كتابه تصفحاً سطحياً هو شأن الناظر إلى الفردوس من بعيد. والكتاب مختصر جميل التصنيف، لطيف التأليف، ضمنه بعض أبحاث في الفلسفة وعلوم الحيوان والجنين والنفس.

من أقواله الحكمية المأثورة:

- الطبيب الجاهل مستحث الموت.
- طول التجارب زيادة في العقل.
- التكلّف يورث الخسارة.
- شرّ القول ما نقض بعضه بعضاً.

أبو بكر الرازي (٢٥١ - ٣١٣ هـ/٨٦٥ - ٩٢٥ م):

محمد بن زكرياء الرازي نسبة إلى الريّ مسقط رأسه، وهي بلدة لا تبعد كثيراً عن طهران. كان أعظم أطباء الإسلام وأكثرهم ابتكاراً وإنتاجاً. يروى أنه لما أستشير في أمر الموضع الذي يجب أن يبنى فيه البيمارستان ببغداد، وهو البيمارستان الذي أصبح هو رئيس الأطباء فيه، أمر أن يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم، ثم اعتبر الناحية التي لم يتغير اللحم فيها بسرعة فأشار بأن يبنى في تلك الناحية. وإليه ينسب اختراع الفتيلة في الجراحة. وقد أحصى له ابن النديم مئة وثلاثة عشر كتاباً وثماني وعشرين رسالة، منها اثنا عشر مؤلفاً في الكيمياء. ومن أهم ما وضعه في الكيمياء «كتاب الأسرار» الذي تقلبَ على أيدي الباحثين ثم نقل إلى اللاتينية[1] فأصبح مصدراً رئيسياً للكيمياء إلى أن ظهرت مؤلفات جابر بن حيان.

وبما أن الرازي كان مقيماً في فارس فقد وضع مؤلفاً ضخماً في عشرة أجزاء أهداها إلى المنصور بن إسحاق الساماني أمير سجستان وأسماه الكتاب المنصوري، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللاتينية ونشر لأول مرة سنة ١٤٨٠ و١٤٨٩ تحت اسم Liber Almansoris. أما رسائله فأشهرها «الجدري والحصبة» وهي أول ما كتب في

(١) نقله جيرارد الكرموني Gérard of Cremona.

هذا الباب وتعد مفخرة من مفاخر التأليف الطبية عند العرب، وفيها نجد أول بيان سريري للجدري، وقد نقلت هذه الرسالة إلى اللاتينية في مدينة البندقية ثم نقلت بعد ذلك إلى لغات حديثة فأكسبت الرازي شهرة في أنه أقدر المفكرين المبتكرين ومن أعلام الأطباء السريريين ليس في الإسلام وحسب بل في سائر أنحاء العالم في العصور الوسطى. على أن أهم مؤلفاته على الإطلاق هو كتابه «الحاوي» الذي نقله إلى اللاتينية فرج بن سالم الإسرائيلي سنة ١٢٧٩ م برعاية كارل آنجو الأول ملك صقلية. والكتاب كما يدل اسمه موسوعة في علوم الطب حوت خلاصة معارف العرب المستقاة من المصادر اليونانية والفارسية والهندية، وفيها أيضاً بعض مآثر العرب أنفسهم. وبعد أن ترجمت تآليف الرازي الطبية وطبعت أخذت تعمّ الغرب وظلّ لها تأثير كبير في أوروبة اللاتينية مدى أجيال طويلة.

قيل إن الرازي كان في أول أمره صيرفياً وإن دراسته للطب بدأت بعد أن جاوز الأربعين من العمر. قرأ الطب على الحكيم أبي الحسن علي بن ربان الطبري صاحب فردوس الحكمة، وقرأ الفلسفة على البلخي، على أنه كان طبيباً أكثر ممّا هو فيلسوف، عيّن رئيساً لأطباء مستشفى الري، ثم تولى تدبير بيمارستان بغداد. وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه ودونهم آخرون، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه منهم، فإن كان عنده علم به عالجه وإلاّ تعداه إلى غيره إلى أن يلقاه الرازي. كان باراً بالناس حسن الرأفة بالفقراء والأعلاّء مجتهداً في علاجهم، مواظباً للنظر في غوامض صناعة الطب، نعته أهل زمانه بجالينوس العرب.

كان في أول أمره قد عني بعلم الكيمياء، وتعزى إليه اكتشافات كيميائية أهمها زيت الزاج «حمض الكبريت» والغول «الكحول». وتنسب إلى الرازي خياطة الجروح البطنية بأوتار العود. كان معاصراً لإسحاق بن حنين ومن كان معه في ذلك الوقت.

ويمكن تلخيص مؤلفات الرازي بأنه وضع ٥٦ كتاباً في الطب، و٢٣ كتاباً في العلوم الطبيعية، و٨ كتب في المنطق و١٠ كتب في الرياضيات، و١٧ كتاباً في الفلسفة، و٦ كتب في علوم ما وراء الطبيعة، و١٢ كتاباً في الكيمياء، و١٠ كتب في موضوعات مختلفة. ويأتي في زمرة كتبه الكبيرة: الجامع، والكافي، والمدخل، والملكي، والفاخر، على أن شهرته تعود إلى كتابيه الحاوي والمنصوري.

وتدل آثار الرازي على ماله من الصبر وحب العمل، وعلى أن متعته في دنياه كانت العلم والعمل والتأليف. شتغل بالطب والفلسفة كما اشتغل بهما بعده ابن

سينا، وإذا جاز لنا أن نقايس بينهما قلنا: إن الرازي يفوق ابن سينا في الطب، وإن ابن سينا يفوقه في الفلسفة.

ابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ/ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م):

أبو علي الحسين بن عبدالله، ألمع اسم بعد الرازي في تاريخ الطب العربي، وقد لقب لشهرته بالشيخ الرئيس. وفي الواقع لقد تجلّت بل تجسّدت في ابن سينا الطبيب والفيلسوف والفقيه والشاعر خلاصة علم العرب. ولد بالقرب من بخارى فقضى حياته في القسم الشرقي من العالم الإسلامي، ثم مات ودفن في همدان حيث لا يزال قبره إلى الآن. حظي في حداثة سنّه أن طبّب نوح بن منصور سلطان بخارى الساماني الذي ملك بين ٩٧٦ و٩٩٧ فشفاه، فمنحه السلطان حق استعمال مكتبته السلطانية. وكان ابن سينا ذا مواهب باهرة أعانته على تفهّم العلوم وحفظها، فاستوعب أهم محتويات المكتبة. ولم يكد ابن سينا يبلغ الحادية والعشرين من عمره حتى آنس من نفسه استعداداً للشروع في التأليف. فأخذ على عاتقه أمر تنظيم المعارف الرائجة في عصره وضبطها. وقد ذكر القفطي بعض مؤلفات ابن سينا فإذا بينها واحد وعشرون كتاباً وأربع وعشرون رسالة، ولكن هناك مؤلفات أخرى توصل العدد إلى تسعة تسعين، وهي تدور على الفلسفة والطب والهندسة والإلَهيات وفقه اللغة والفنون. أما أشهر منظوماته فقصيدة طويلة في النفس مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع　　　ورقاء ذات تحجب وتمنّع

أما أشهر كتبه العلمية فاثنان: كتاب الشفاء، وهو موسوعة فلسفية مبنية على تقاليد أرسطو كما تراها الأفلاطونية الجديدة وعلى علم الإلَهيات الإسلامية، والقانون في الطب: وهو آخر كتاب دوّنت فيه خلاصة الفكر الطبي شاملاً آثار الإغريق والعرب، وسرعان ما اعتلى مرتبة رفيعة في آداب ذلك العصر الطبية واحتل المكانة التي كانت تحتلها كتب أبقراط وجالينوس والرازي والمجوسي[1].

يتميز القانون في الطب بأنه يفرّق بين التهاب المنصف الصدري (الحيزوم)

---

(١) نشر النص العربي لكتاب القانون في رومة سنة ١٠٩٣ فهو من أقدم الكتب العربية المطبوعة، وصدرت أول طبعة لكتاب الشفاء ذيلاً لكتاب القانون. وكان جيرارد الكرموني قد نقل القانون إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر بما فيه من المعلومات الشاملة والترتيب المنظم والأسلوب الفلسفي.

وبين ذات الجنب، وينص على أن السحاف ينتقل بالعدوى، وأن عـدوى الأمراض تسري بوساطة الماء والـتراب، وفيه تشخيص علمي لـداء الأنكليوستـوما، وهـو يرد سبب هـذا الداء إلى وجـود دودة في الأمعاء وهـو أول من وصف التهاب السحـايـا وأسباب مرض اليرقان، كما وصف السكتة الـدماغيـة. أما القسم الـذي قصره على علم العقاقير والأدوية فقد أدرج فيه ابن سينا أبحاثاً في نحـو سبعمائـة وستين دواء. فلا عجب أن يبلغ الكتاب المنـزلة التي بلغهـا ويصبح مصـدر طلاب العلوم الـطبية شرقاً وغرباً حتى القرن السابع عشر.

يذهب الدكتور أسلر[1] إلى أن كتاب القانون في الطب ظل الحجة والمرجع في الطب مدة أطول من أي مدة بلغها كتاب طبي آخر.

عـلي بن العباس المجـوسي الأهوازي (ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م):
(وقيل نحو ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م):

كان في الأصل زرادشتياً كما يدل لقبه المجوسي، فارسي يعرف بابن المجوسي. قرأ على شيخ فارسي يعرف بأبي ماهر، وطالع واجتهد لنفسه، ووقف عـلى تصانيف المتقـدّمين، وصنّف للملك عضـد الدولـة فنّاخسرو البـويهي (٩٤٩ ـ ٩٨٣) كُنّاشـه المسمّى «الملكي» وهو كتاب جليل وكُنّاش نبيل اشتمل على علم الطب وعمله، وقد سمّي هذا الكتاب أيضاً «كامل الصناعة الطبيـة». وهو أوجـز من الحاوي للرازي، وقـد عمّت دراسته إلى أن حـلّ محله كتاب القـانون في الـطب لابن سينا. ويـذكـر بعض المحدثين أن كامل الصنـاعة في الـطب والكتاب الملكي كتـابان ألفهـما لعضد الدولة، ويقول إن شهرة هذا الكتاب ذاعت في جـامعات الغـرب بين أسـاتذتهـا وطلابهـا أكثر من القانون. ويعتبر «الملكي» موسوعة طبية كاملة خصّص فيها المجـوسي واحداً وثلاثين فصلاً للبحث عن حفظ الصحة. ويعد علي بن العباس أول من ذكر وجـود شبكة شعرية بين العروق النابضـة وغير النـابضة، أي بـين الشرايين والأوردة، كـما يعتبر أول من نبّه إلى صعوبة شفاء السل الرئوي بسبب حركة الـرئة فـأوحى بذلـك إلى ضرورة تثبيتهـا، وقـد وصف استعـمال القسـطرة لإخـراج البـول، وبحث عن معالجة التهاب الغدد اللمفـاوية الـدرني ـ الخنازيـر ـ بالجـراحة، كـما عالـج أم الدم معالجة جراحية، وقطع اللوزتين، وعالج الكسور والخلوع وجبّر.

---

(٢) William Osler, The Evolution of Modern Médecine (New Haven, 1922) p.98.

ويعتبر المجوسي من العلماء الذين وضعوا العلامات السريرية وميّزوها، ومن جملتها علامات فحص النبض. ذهب البعض إلى اعتباره نابغة عصره بعلمه وطبه، ويرى كثيرون ممّن قارنوا بين «الملكي» و«القانون» رجحان كتاب علي على الكتاب الثاني.

وإن أفضل ما نلمحه في الكتاب الملكي هو القسم الذي يبحث في علم الأغذية الصحيحة وعلم العقاقير الطبية. ومن الأمور المبتكرة فيه أيضاً برهانه على أن الطفل في الولادة لا يخرج من تلقاء نفسه بل بفعل تقلصات عضلية في الرحم.

ويقول القفطي بصدد كتاب المجوسي: «وهو كتاب جليل وكُنّاش نبيل اشتمل على علم الطب وعمله، حسن الترتيب، مال الناس إليه في وقته ولزموا درسه، إلى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا، فمالوا إليه وتركوا الملكيّ بعض الترك، والملكيّ في العمل أبلغ والقانون في العلم أثبت»[1].

علي بن عيسىٰ الكحّال[2] (ت ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩ م):

أشهر كحّالي العرب، وهو نصراني ولد في بغداد في النصف الأول من القرن الحادي عشر بعد مضي قرن ونصف على زمن عيسىٰ بن علي طبيب المعتمد. كان مشهوراً بالحذق في صناعة الكحل متميزاً فيها، وبكلامه يقتدى في أمراض العين ومداواتها، وكتابه المشهور «تذكرة الكحالين» هو الذي لا بدّ منه لكل من يعاني صنعة الكحل، وقد اقتصر الناس عليه دون غيره من الكتب التي ألفت في هذا العلم وصار ذلك مستمراً عندهم، وكلام علي في صناعة الكحل أجود من كلامه فيما يتعلق بالأمور العلمية. وقد نقل «تذكرة الكحالين» إلى اللاتينية سنة ١٨٤٥.

يقول ابن أبي أصيبعة في العيون: «أما كتبه العربية الاثنان والثلاثون في علم الرمد فأقدمها وأفضلها كتاب تذكرة الكحالين». ولا يزال هذا الكتاب محفوظاً في شكله الكامل الأصلي، ولم يسبقه في هذا الموضوع إلاّ رسالة ابن ماسويه ورسالة حنين بن إسحاق. وقد وصفت التذكرة مائة وثلاثين مرضاً من أمراض العين.

وله كتاب في منافع الحيوان.

---

(١) تاريخ الحكماء ص٢٣٢.

(٢) وقيل عيسى بن علي بعد أن خلط الكتاب بينه وبين طبيب البلاط عند المعتمد.

ابن جَزْلة (ت ٤٩٣ هـ ـ ١١٠٠ م):

يحيىٰ بن عيسىٰ بن جزلة، أبو علي الطبيب البغدادي النصراني، كان رجلاً نصرانياً طبيباً ببغداد، قرأ الطب على نصارى الكرخ الذين كانوا في زمانه، وأراد قراءة المنطق فلم يكن في النصارى المذكورين في ذلك الوقت من يقوم بهذا الشأن، وذُكر له أبو علي بن الوليد شيخ المعتزلة في ذلك الأوان ووصف بأنه عالم بعلم الكلام ومعرفة الألفاظ المنطقية، فلازمه لقراءة المنطق، فلم يزل ابن الوليد يدعوه إلى الإسلام، يشرح له الدلالات الواضحة ويبيّن له البراهين حتى استجاب وأسلم، وعلم بإسلامه القاضي أبو عبدالله الدامغاني قاضي القضاة يومئذٍ فسُرَّ بإسلامه، وقد كانت له عليه خدمة بالطب، وقرّبه ورفع من محلّه بأن استخدمه في كتابة السجلّات بين يديه. وكان مع اشتغاله بذلك يطب أهل محلّته وسائر معارفه بغير أجرة ولا جعالة بل احتساباً ومروءة، وكان يحمل إليهم الأدوية بغير عوض، ولمّا مرض مرض موته وقف كتبه في مشهد الإمام أبي حنيفة. ومات ابن جزلة سنة ١١٠٠ م.

من مؤلفاته المشهورة:

ـ كتاب «المنهاج في الأغذية والأدوية».
ـ كتاب منهاج البيان في ما يستعمله الإنسان.
ـ كتاب الإشارة في تلخيص العبارة.
ـ وما يستعمل من القوانين الطبية في تدبير الصحة وحفظ البدن.
ـ ورسالة في مدح الطب وموافقته الشرع.
ـ وله كتاب «تقويم البلدان» في تدبير الإنسان.

نسج فيه ابن جزلة على منوال تقويم الصحة الذي صنّفه ابن بطلان[1] (ت ١٠٦٣ م). وقصد بالتقويم ترتيب الأمراض على غرار ترتيب النجوم الفلكية. وقد نقل الكتاب إلى اللاتينية في ستراسبورغ سنة ١٥٣٢. وهو يتألف من جداول وشروح، تتناول الجداول كل الآفات والأمراض التي كانت معروفة، وتتناول الشروح تدبير هذه الأمراض والآفات وطرق علاجها.

وأما كتاب «منهاج البيان» فهو مبوّب أحسن تبويب على الطريقة الأبجدية،

(١) تاريخ الحكماء ص٢٩٤.

يتضمن وصف المفردات والأغذية والأعشاب الطبية مع بيان خواصها ومنافعها وطرق استعمالها وفوائدها.

وقد خطّ ابن جزلة بخطّه الجميل عدة كتب من تصانيفه تدل على فضله وخبرته وأدبه ومعرفته.

أبو الفرج بن الطيّب (ت٤٣٥ هـ - ت١٠٤٣ م):

عبدالله بن الطيّب العراقي، فيلسوف فاضل مطلع على كتب الأوائل وأقاويلهم، مجتهد في البحث والتفتيش وبسط القول واعتنى بشروح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسطاطاليس، ومن الطب كتب جالينوس. وهو من الأطباء المشهورين في صناعة الطب، وكانت له مقدرة قوية في التصنيف، وأكثر ما يوجد من تصانيفه كان ينقل عنه إملاءً من لفظه، وكان معاصراً لابن سينا، وكان الشيخ الرئيس يحمد كلامه في الطب ويعترف بتقدمه في هذه الصناعة، ويعترض على بعض رسائله فيها. وأما في الحكمة فكان يذمّه ويهجن تصانيفه، ومن أجل ذلك قال في مقالته في الردّ عليه ما نصّه: «إنه كان يقع إلينا كتب يعملها الشيخ أبو الفرج بن الطيب في الطب ونجدها صحيحة مرضية خلاف تصانيفه التي في المنطق والطبيعيات وما يجري معها».

وبعث أبو الريحان البيروني مسائل إلى أبي علي فأجاب عنها، واعترض أبو الريحان على أجوبة أبي علي بن سينا وهجنه وهجن كلامه وأذاقه مرارة التهجين، وخاطب أبا علي بما لا يخاطب به العوام فضلاً عن الحكماء، فلما تأمّل أبو الفرج الأسئلة والأجوبة قال: «من نخل الناس نخلوه! لقد تاب عني أبو الريحان!».

قال ابن بطلان: وشيخنا أبو الفرج عبدالله بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضةً كاد يلفظ نفسه فيها، وهذا يدلّك على حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه، ولولا ذلك لما تكلّف»[1].

من أقوال أبي الفرج بن الطيّب الحكمية:

- الفقير المتشبّه بالغني كالوارم المتشبه بالسمين.
- إذا قامت حجتك على الكريم أكرمك ووقرك، وإذا قامت على الخسيس ازدراك وامتهنك.

---

(١) تاريخ الحكماء ص٢٢٣.

- العالم الشرير يفرح بالطعن على من تقدمه من العلماء، ويسوؤه بقاء من في عصره منهم، لأنه يحب ألاّ يكرم ولا يمدح سواه، والغالب عليه في العلم شهوة الرياسة.
- من مدحك بما ليس فيك فهو مخاطب غيرك، وكذا من هجنك.

قال عنه القفطي في تاريخه: «وبسط القول في الكتب التي تولّى شرحها بسطاً شافياً قصد به التعليم والتفهيم، حتى لقد رأيت من ينتحل هذه الصناعة يذمّه بالتطويل، وكان هذا العائب يهودياً ضيّق الفطن قد وقف على عبارة ابن سينا، فأمّا إذا وكّل منصف فلا نقول إلاّ أنّ أبا الفرج بن الطيّب قد أحيى من هذه العلوم ما دثر وأبان منها ما خفي»[1].

أبو الريحان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨ م) (٣٦٢ ـ ٤٤٠ هـ):

محمد بن أحمد البيروني[2]، نشأ في غزنة بشمالي أفغانستان، وهو يعدّ أعظم بحاثة وعالم في الإسلام في العلوم الطبيعية والرياضية، وأكثر علماء الإسلام تعمّقاً وابتكاراً في هذه الميادين. كان لغوياً أديباً فاضلاً في علم الهيئة والنجوم، له في الرياضيات اليد الطولى، وله نظر جيد في صناعة الطب، ويعد أحد مشهوري رياضيي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. ذهب إلى الهند ومكث فيها ما يقرب من أربعين سنة استطاع في خلالها أن يلم شتان كثير من علومها ومعارفها القديمة، وأخيراً رجع إلى خوارزم وفيها توفي. وقد اطلع «سخاو» العالم الشهير على بعض مؤلفات البيروني فخرج من دراستها باعتراف خطير هو أن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ. وقد وضع هذا العالم الفارسي الأصل وهو في غزنة كتاباً شاملاً في علم الفلك عنوانه «القانون المسعودي في الهيئة والنجوم» وقدمه إلى ولي نعمته السلطان مسعود بن محمود. وألّف في السنة نفسها رسالة على طريقة السؤال والجواب في الهندسة والحساب والفلك والتنجيم موضوعها «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم». أما أول كتاب وضعه فهو «الآثار الباقية عن القرون الخالية» وعالج فيه تقاويم السنين عند الشعوب القديمة وتواريخهم.

كان البيروني ذا عقلية جبّارة، اشتهر في كثير من العلوم، وكانت له ابتكارات

---

(١) المصدر السابق ص٢٢٣.

(٢) نسب إلى بيرون (بكسر الباء)، وهي ضاحية من ضواحي خوارزم، إلاّ أن توقيعه في صفحة العنوان من مخطوطة أخرجتها مجلة Islamic culture, vol VI 1932 مقابل صفحة ٥٣٤ مكتوب بفتح الباء.

وبحوث مستفيضة نادرة، ويعترف «سمث» وهو من كبار الرياضيين أن البيروني كان ألمع علماء زمانه في الرياضيات، وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها في العلوم. وكان أبو الريحان يحسن السريانية والسنسكريتية والفارسية والعبرية، ويقال إنه كان بينه وبين ابن سينا مكاتبات في بحوث شتى. وقد شارك هو وابن سينا ابن الهيثم في رأيه القائل بأن شعاع النور يأتي من الجسم المرئي إلى العين. ومن ابتكاراته العلمية تعليل الينابيع الطبيعية بموجب موازنة ناموس السوائل، ومنها أيضاً شرح القول بأن وادي نهر الأندس (مهران)، إنما كان في العصور الغابرة حوض بحر قديم ملأته الرواسب، ومنها وصف بعض المخلوقات العجيبة وبينها ما نسميه اليوم بتوأمي سيام، وإذا استثنينا المصادر الصينية فإن أول إشارة إلى الشاي قد وردت في كتاب له لم ينشر بعد[1].

اشتهر من كتب البيروني في الطب «كتاب الصيدلة» وقد استقصى فيه معرفة ماهية الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدمين فيها وقد رتّبه على حروف المعجم.

ابن التلميذ (١٠٧٣ - ١١٦٤ م) (٤٦٥ - ٥٦٠ هـ):

أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن صاعد الطبيب النصراني البغدادي، وابن التلميذ هو جدّه لأمه الحكيم مُعْتَمد الملك أبو الفرج يحيىٰ بن التلميذ، ولـمّا توفي قام أمين الدولة هبة الله بن صاعد مقامه وهو ابن بنته فنُسب إليه. وكان هبة الله في العلم والعمل من الطب بقراط عصره وجالينوس زمانه خُتم به هذا العلم، ولم يكن في الماضي من بلغ مداه في الطب.

خدم ابن التلميذ الخلفاء من بني العباس وتقدّم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم، وكان موفّقاً في المباشرة والمعالجة عالماً بقوانين هذه الصناعة وصنّف فيها عدة مصنفات، وانتهت إليه رئاستها، وقد ذكره بعض المتأخرين، فقال: «سلطان الحكماء».

ويروى عنه أنه كان يحضر عند المقتفي كل أسبوع مرّة فيُجلسه لكبر سنّه، وكانت دار القوارير ببغداد مُجراةً له في إقطاعه فحلّها الوزير يحيىٰ بن هبيرة في ولايته، فحضر أبو الحسن بن التلميذ يوماً عند الخليفة على عادته، فلمّا أراد

---

(١) مجلة المجمع ج١٣ (١٩٣٥) ص٣٨٨.

الانصراف عجز عن القيام لضعف الكبر، فقال له المقتفي: يا حكيم، كبرت. قال: نعم، كبرت وتكسّرت قواريري، وهذا مثل يتهاجن به أهل بغداد لمن عجز وبطل، ففطن الخليفة وقال: رجل عُمِّرَ في خدمتنا ما تماجن قطّ بحضرتنا، ولهذا التهاجن سِرّ، ثم أفكر ساعة وسأل عن دار القوارير فقيل له قد حلّها الوزير ابن هبيرة عنه وأخذها منه، فأنكر المقتفي على ذلك إنكاراً شديداً وردّها إليه وزاده غيرها.

وكان أمين الدولة بن التلميذ حسن العشرة كريم الأخلاق، من مروءته أنه كان ينقل الفقيه إذا مرض إلى داره ويقوم عليه إلى تمام شفائه، وكان لا يقبل عطّية لا من خليفة ولا سلطان، وقد عهد إليه بامتحان الأطباء وإجازة من يستحق الإجازة منهم، وكان الشعراء يشكون إليه مرضهم شعراً ويجيبهم كذلك شعراً. وكان يعاصر أمين الدولة أبا البركات وكان هذا الأخير يدسُّ عليه حسداً، إذ كان ابن التلميذ أكثر تبصُّراً في صناعة الطب وأوفر عقلاً وأخير طباعاً.

توفي هبة الله بن صاعد سنة ١١٦٤ م وقد قارب المائة وذهنه بحاله.

له من الكتب «الأقرابازين» المشهور، و«المقالة الأمينية في الأدوية البيمارستانية».

أحمد بن أبي الأشعث (ت ٣٦٠ هـ - ت ٩٧٠م):

أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي الأشعث. من علماء فارس المتدينين وأطبائها الحاذقين. ولّما زحف المغول إلى فارس ودخلوا تلك الديار خاف أبو جعفر من بطشهم وفرّ إلى برقي في أرمينية. والظاهر أنه لم يكتب له النجاح في ممارسة الطب بهذه المدينة فعكف على التدوين والتأليف وكان قد بدأ بهما في فارس من قبل. ثم حمل عصا الترحال وقصد الموصل فدخلها حوالى سنة ٩٥٩ م حيث عرفه الناس هناك متديّناً محبّاً للخير عالي النفس وذا نزعة صوفية. وفي الموصل بدأ ممارسة صناعة الطب فأبان عن مقدرة طبية عالية، وهرع إليه المرضى يستشفون عنده. وصادف أن أصاب ابن الأمير ناصر الدولة أبي محمد الحسن الحمداني مرض، وعجز أطباء الموصل عن علاجه وشفائه، واستدعي أحمد فعالجه وتحسنت حالته وبرأ، فذاع صيته وارتفعت مكانته عند الأمير ناصر الدولة، وتدافع إليه طلاب العلم ينهلون من معارفه في فنون الصنعة.

عرف عن ابن أبي الأشعث أنه كان يمارس الطب حسب آراء جالينوس في

التطبيب، وأنه كان يفضل قراءة مؤلفاته على غيرها من مؤلفات الإغريق. وقد قام هو نفسه بتفسير كتب مجاميع جالينوس الستة عشر وجعلها في أبواب وفصول ممّا جعلها أكثر وضوحاً وأيسر فهماً على تلاميذ الطب.

وفي الموصل حيث شهر وطبّب توفي ابن أبي الأشعث سنة ٩٧٠م (٣٦٠ هـ) مخلّفاً عدة أولاد كان أشهرهم في صناعة الطب ابنه محمد بن أحمد بن أبي الأشعث. كان له تلاميذ كثُر نبغ منهم أبو عبدالله محمد بن ثواب المعروف بابن الثلاج الموصلي، وهو من الموصل، ولكن الأخبار لم تنقل لنا الشيء الكافي عن حياته وصناعته. ومن تلاميذه المشهورين أيضاً أبو العباس أحمد بن محمد البلدي الذي ألّف في الطب، وجابر بن منصور السكّري. وقد أقام أبو العباس الشطر الأهم من حياته في مصر إبان الخلافة الفاطمية، وخلّف السكّري أولاداً أخذوا الصنعة عن أبيهم وتفرقوا في البلاد السورية يمارسون الطب. وبهذا يعتبر ابن أبي الأشعث من الأطباء الذين أدخلوا الصنعة إلى الجزيرة، وإلى الموصل بصورة أخصّ، وكان صاحب مدرسة تخرج فيها أطباء شهروا ومارسوا الطب في تلك الأصقاع[1].

ترك لنا ابن أبي الأشعث من المؤلفات الطبية العدد الوفير، نذكر من هذه الكتب:

- كتاب الحيوان.
- كتاب الجدري والحصبة والحميقا (ولعل هذه الأخيرة جدري الماء أو ما يسمّى «أبو خريّان»).
- كتاب في السرسام والبرسام ومداواتها.
- كتاب في النوم واليقظة.
- كتاب الأدوية المفردة.
- كتاب في الماليخوليا.
- كتاب في القولنج وأصنافه ومداواته.
- كتاب البرص والبهق ومداواتها.
- كتاب في الأسطقسات.
- كتاب في زحير الدم.
- كتاب في تركيب الأدوية.

(١) انظر عيون الأنباء ص٣٣١.

ـ كتاب الغاذي والمغتذي (مقالتان وضعهما في قلعة برقي في أرمينية).
ـ كتاب تفضيل كتاب جالينوس في الأسطقسات.
ـ كتاب أمراض المعدة ومداواتها.
ـ كتاب ظهور الدم.
ـ كتاب شرح كتاب جالينوس في المزاج المختلف.
ـ كتاب شرح كتاب الفرق لجالينوس (في مقالتين).
ـ كتاب شرح كتاب الحمّيات لجالينوس.

وله كتاب في الشعر.

أحمد بن محمد الطبري (القرن العاشر الميلادي):

أبو الحسن، ولد في طبرستان وعاش فيها بين الريّ وهمدان وأصفهان ومدن الأحواز. كان معاصراً لعلي بن العباس المجوسي (ت٩٩٤م)، وخدم في أول أمره والي الخليفة الراضي على الأحواز ثم وزيره أبا عبدالله بن محمد البريدي (ت٩٣٤ م) وكان قد وزَّر للمتقي أيضاً. وبعد وفاة الوزير البريدي أصبح ابن الطبري أحد أطباء بلاط ركن الدولة البويهي (٩٣٣ ـ ٩٧٦ م).

ذكر ابن أبي أصيبعة لابن الطبري مؤلفاً واحداً في الطب فقط بعنوان «المعالجات البقراطية» واصفاً هذا السفر بأنه من أجل الكتب وأنفعها، وقد استقصى فيه الأمراض ومداواتها على أتم ما يكون. ومن عنوان الكتاب هذا يستنتج أن ابن الطبري كان يقدّر آراء أبقراط في الصنعة وأنه كان يعتمد على أفكاره الطبية، وأنه كان يقوم بتطبيقها على النساء والمرضى، وهو ما يميز الطبيب العربي عن الطبيب اليوناني في تطبيق نظريات الطب وليس تعلمها فقط، ولهذا السبب أسمى كتابه نسبة إلى ذلك الطبيب اليوناني. والجدير بالذكر أن هناك كتاباً للطبيب القرطبي سعيد بن عريب (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) بعنوان «خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين» يعتبر منافساً في القدم لكتاب المعالجات البقراطية لابن الطبري إن لم يكن أقدم منه. كما طبع كتاب للبلدي أحمد بن محمد تلميذ ابن أبي الأشعث «في تدبير الحبالى والأطفال».

أما كتاب ابن الطبري فبالإضافة إلى ما يتضمنه من المواضيع الطبية وذكر الأمراض العامة، هناك قسم خصّص لأمراض الأطفال ممّا يجعله ذا قيمة طبية فريدة في صناعة الطب والتطبب، فهو من هذه الناحية من أوائل المؤلفات العربية التي

تناولت طب الأطفال بالتفصيل إن لم يكن أقدمها جميعاً. يقول ابن الطبري في مقدمة كتابه إنه «لم يتكلم أحد قبله في علاج الأطفال كلاماً شافياً بل اعتمدوا في ذلك على الطب عامة» مع أن المعروف لدينا أن الطبيب ابن ربان الطبري والطبيب أبا بكر الرازي قد كتبا بإسهاب في هذا الموضوع، وإذا كان ابن الطبري أحمد بن محمد لم يشر في كتابه إلى هذين الطبيبين، فلعل هذا عائد إلى عدم اطلاعه على كتابيهما في طب الأطفال. وعلى العموم يمكن اعتبار ابن الطبري من أوائل الذين اهتموا بصحة الطفل وجعل بعض أمراضه حصراً عليه دون الراشدين، وأوصى بمعالجة الطفل المريض نفسه لا معالجة الأم المرضع وحدها كما كان المعمول به قبل ذلك.

والمطلع على كتاب ابن الطبري وعلى القسم المتعلق بالأطفال خصوصاً يجد أنه يتضمن ستين باباً في ذكر الأمراض وعلاجها ومداواة الأطفال والاعتناء بهم. من هذه الأبواب:

ـ **الباب الأول**: في المرقة (الجرب) وأنواعها التي تصيب رأس الطفل وأنفه وأذنه وطريقة العلاج.

ـ **الباب السابع**: في الصرع عند الأطفال.

ـ **الباب الثامن**: في العلة التي تحدث بالاصطكاك، أي مرض «الكزاز» الذي يحدث عند الأطفال.

يقول في هذا المرض: «مما يحدث في أفهام الصبيان علة تعرف بالاصطكاك، وهو أن تصطك أسنانه وتبرز عيناه ويحدث في سائر بدنه شبه الاختلاج... لم أر طفلاً حدثت به هذه العلة نجا منها، هذا هو الكزاز، ولا يكاد يحدث هذا بالطفل إلا إذا كانت به جراحة خفية أو ظاهرة». وكلنا يعرف أن مقطع الحبل السري يبقى جرحاً مكشوفاً لأيام، وعلى هذا يمكن أن يكون ابن الطبري قد تنبّه إلى وجود أنسجة مكشوفة (مفتوحة) تكون مهيأة لنشوء المرض الذي يسببه التلوّث فيؤدي إلى الكزاز.

ـ **الباب العاشر**: تكلم فيه عن الكزاز أيضاً، قال: «الكزاز علة تحدث في الأطفال كثيراً وبالكبار من الناس، عندما تصيب الجراحة أطراف العضلات والأوتار». وفي كلامه عن الكزاز عندما يصيب الطفل: «وإذا ما استحكم واصطكت أسنانه سُمّي ذلك الوقت «الكزاز الضاغط» وقلما يتخلص منه الطفل».

ـ **الباب الثالث عشر**: في أمراض الأنف عند الأطفال.

ـ **الباب الرابع عشر**: في أمراض الأنف أيضاً والجراحة في معالجة الزوائد اللحمية فيه.

ـ **الباب الخامس عشر**: في أمراض العين.

ـ **الباب السادس عشر إلى الباب الواحد والعشرين**: في أمراض العين ومعالجتها أيضاً.

ـ **الباب الثاني والعشرون**: تناول فيه البكاء عند الطفل. يقول ابن الطبري في بكائه: «إذا بكى الطفل دائماً فهو لأحد أربعة أسباب: إما في بعض أعضائه، أو لاحتباس اللبن في معدته، أو لشيء يؤذيه في مضجعه، أو لقلة الغذاء وجوعه. وهو يوصي في علاج الطفل من الاستمرار بالبكاء بعدم إعطائه الأشربة المخدّرة والبحث عن سبب علة البكاء بالكشف على سبب من الأسباب الأربعة التي ذكرها».

ـ **الأبواب الثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون**: في أمراض الفم واللسان.

ـ **الباب السادس والعشرون إلى الباب الواحد والثلاثين**: في الخرخرة التي تصيب حلوق الأطفال، وفي انطباق المريء، وتعوّج رقبة الطفل، والعطاس، وغير ذلك. ثم يذكر طرق العلاج وأنواع الأدوية فينبّه: «أما الأدوية التي تستعمل للكبار فلا تصح للأطفال البتة ولا تحتملها معدتهم ولا أمزجتهم».

ـ **الباب الثاني والثلاثون إلى الباب الأربعين**: في أمراض المعدة والاستمراء والسرطان واضطرابات الهضم والرياح والقرقرة والإسهال والمغس.

ـ **الباب الواحد والأربعون**: في السعال ـ أسبابه وعلاجه ـ.

ـ **الباب الثاني والأربعون**: في الرعاف والنفث الدموي.

ـ **الباب الثالث والأربعون**: في الحصبة والجدري.

ـ **الباب الرابع والأربعون إلى الباب السابع والأربعين**: في عموم الأمراض الجلدية التي تصيب عضو الطفل وفخذيه وجسمه.

ـ **الباب الثامن والأربعون**: في ذكر الديدان (الكبيرة والدقيقة ـ الصغيرة ـ) التي تصيب الأطفال ـ يقول في هذا الباب: «وقد يظهر في الأطفال في المقعدة ديدان صغار كأنها رؤوس الإبر، بيض، فتؤذي الطفل وتمنعه من النوم، وربما خرج مع براز الطفل ديدان طوال».

ـ **الباب التاسع والأربعون إلى الباب الخامس والخمسين**: في خروج المقعدة وتورّم الخصية وأنواعه، وهو يفرق في هذا الباب بين ورم الخصية والفتق في مراق

البطن، كما يذكر أمراض الجهاز البولي والحصى.

ـ **الباب السادس والخمسون والباب السابع والخمسون**: في ورم الأربتين ووجع المفاصل وأنواع الحميات.

ـ **البابع التاسع والخمسون**: تكلم فيه عن آداب المرضع وتدبيرها. يقول ابن الطبري: «أحسن اللبن للمولود نبن أمه لأنه أشبه بجوهرها يقدم من غذائه في الرحم».

ـ **الباب الستون**: وهو الأخير، في كيفية العناية بالطفل وتدبيره من الولادة... وتغذيته وتربيته إلى أن تنبت أضراسه.

وله أيضاً من الكتب الطبية:

ـ رسالة في ذكر القارورة «كتاب التفسرة».
ـ مقالة في طب العين.
ـ علاج الأطفال[1].

الحسن بن سوار (ابن الخمّار) (٣٣٢ هـ/ ٩٤٣ م):

ابن بابا بن بهنام، كنيته أبو الخير[2]. كان سريانياً من أصل فارسي، ولد ببغداد سنة ٩٤٣ م، ولعل أباه كان من النصارى يبيع الخمرة أو يصنعها فلقب بالخمار فعرف ابنه الحسن بابن الخمار. درس الحسن على يحيى بن عدي (ت ٩٧٥ م) وبرز طبيباً ناجحاً وفيلسوفاً قديراً، وكان حسن المعاملة مع الناس فقرائهم وأمرائهم. ذكر ظهير الدين البيهقي أنه دُعي سنة ١٠٠١ م من بغداد إلى خوارزم ونزل ضيفاً على قصر أميرها أبي العباس مأمون بن محمد. كما دعاه الأمير محمد بن سبكتكين سنة ١٠١٧ م إلى قصره بغزنة حيث أسلم هناك وكان قد كبرت سنّه.

شهر الحسن بن سوار في صناعة الطب شهرة واسعة حتى لقب «أبقراط الثاني»، أطنب في مدحه تلميذه أبو الفرج بن هندو[3] في كتابه «مفتاح الطب»،

(١) للمزيد من المعلومات عن ابن الطبري راجع عيون الأنباء ص٤٢٧ ومجلة المورد رقم٦ عدد٤ بغداد ـ العراق بقلم الدكتور محمود الحاج قاسم.

(٢) بهنام كلمة فارسية تعني الخير ولذا كني بأبي الخير.

(٣) علي بن الحسين بن محمد بن هندو المتوفى سنة ١٠٢٩ م، من المتميزين في علوم الحكمة والأدب.

وأتى على ذكره بإعجاب ابن رضوان الطبيب المصري[1] (ت١٠٦١ م) في كتابه «حلّ شكوك الرازي على جالينوس».

عمل الحسن في الترجمة من اللسان السرياني إلى اللسان العربي، وفي تصنيف الكتب الفلسفية، وكان أحد الأوائل الحذاق في ممارسة الطب العربي ومن أكابر الشيوخ الذين اشتغلوا في الطب ودرّسوه. وقد ترك لنا مجموعة من الكتب الطبية النفيسة نذكر منها:

- كتاب في خلق الإنسان (في أربع مقالات تناول فيها تركيب أعضائه).
- كتاب تدبير المشايخ، في ستة وعشرين باباً وضعها على طريقة المسألة والجواب.
- مقالة في امتحان الأطباء (وضعها لأمير خوارزم أبي العباس مأمون بن مأمون).
- مقالة في الكاهني (أي مرض الصرع).

ابن بطلان (ت ١٠٦٦ م) (٤٥٨ هـ):

أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، وبابن بطلان عرف وشهر. ولد في بغداد وفيها نشأ أيام الخليفة القائم بأمر الله أبي جعفر (١٠٣١ - ١٠٧٥ م). درس صناعة الطب في البيمارستان العضدي على طبيبين من أكابر الأطباء في ذلك الوقت هما: أبو الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني (ت ٩٧٠ م) والطبيب الحكيم أبو الفرج عبدالله بن الطيب (ت١٠٤٢ م)[2]. وإلى حذقه في الطب درس ابن بطلان فنون اللغة العربية ونظم الشعر وقراءة الأشعار وألمّ بالقريض ونظمه فاجتمع إليه صناعتا الأدب والطب، ولكن الطب غلب عليه فاشتهر به. وذاع صيته وصار مجلسه ملتقى العلماء والحكماء والأطباء والشعراء والفقهاء.

ترك ابن بطلان بغداد سنة ١٠٤٨ م قاصداً مصر، ويعتقد القفطي[3] أن ابن بطلان هجر بغداد طلباً للمزيد من الرزق، وفي فاتحة كتاب «دعوة الأطباء» لابن بطلان ما يوثّق هذا الاعتقاد. فلو كان ابن بطلان ممارساً لصناعة الطب مرزوقاً منها

(١) علي بن رضوان، أبو الحسن، طبيب رياضي من العلماء.
(٢) عيون ص٣٢٥.
(٣) تاريخ الحكماء ص٢٩٤.

عيشاً هنيئاً لما تكبّد أعباء السفر إلى مصر لتصفية حسابه مع خصمه ابن رضوان كما تذكر بعض الأخبار. وفي طريقه إلى مصر دخل ابن بطلان حلب، وكانت في ذلك الوقت تحت إمرة معزّ الدولة ثمال بن صالح المرداسي، فلقي هناك ترحيباً وتأهيلاً، وولاه معز الدولة الإشراف على أمور النصارى الدينية في المدينة[1]، إلاّ أن ابن بطلان كان على ما يظهر متزمتاً شديداً في تطبيق سنن شريعته وفي إقامة طقوس ديانته والالتزام بآداب كنائس ملّته، ولذلك ضجّ الأهالي به وثاروا على ولايته عليهم، كما شغب عليه طبيب نصراني آخر من حلب هو الحكيم أبو الخير بن شرارة، فاضطر ابن بطلان إلى مغادرة حلب واتجه إلى إنطاكية في طريقه إلى مصر. وفي سنة ١٠٤٩ م دخل ابن بطلان الفسطاط ولقي هناك ابن رضوان (وكان بينهما خصام وسبّ وشتم بسبب ردّ ابن بطلان على ابن رضوان مقالته في التعليم الذاتي من دراسته كتب علماء اليونان والعرب، والمعروف أن ابن رضوان لم يتخرج على أستاذ) وكان ابن رضوان أسود اللون يدافع عمّن في وجهه دمامة من الأطباء ونشر مقالة جاء فيها: «إن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون وجهه جميلاً»[2]، ولم تنجح المساعي في عقد الصلح بينهما وكان من جديد السب والشتم في أول لقاء لهما، حيث قال ابن بطلان:

فلمّا تبدّى للقوابل وجهه ... نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تستُّراً ... ألا ليتنا كنّا تركناه في الرحم

وأسماه أيضاً «تمساح الجن».

وفي مصر لم يوفق ابن بطلان إلى نيل مركز مرموق في الطب أو مكانة اجتماعية تليق به وبعلمه، ولم يقو على لجم ابن رضوان ودحره، ولهذا فقد غادر القاهرة مغضباً بعد ثلاث سنوات فيها، ورجع إلى أنطاكية وأقام فيها عاكفاً على الكتابة والزهد والعبادة. ثم عاد وخرج من أنطاكية إلى القسطنطينية حيث وافاه الأجل حوالى سنة (١٠٥٨ م - ٤٥٠ هـ)[3].

والظاهر من عنوان كتاب ابن بطلان «طب الأديرة» وتوليه شؤون النصارى الدينية في حلب كما أشرنا وزهده في الدنيا في أواخر أيامه، ما يشير إلى أنه كان متشدّداً متفقّهاً في نصرانيته، وواضح من خلال كتابته عن الطوالع في قراءة

---

(١) عيون ص٣٢٦.

(٢) تاريخ الحكماء ص٢٩٤.

(٣) ذكر القفطي أن وفاته كانت بأنطاكية سنة ١٠٥٢ م (٤٤٤ هـ).

مسارات النجوم أنه كان كابن رضوان يراقب مواقع النجوم ويدرس انعكاساتها من جرّاء حركاتها على الإنسان والكائنات الحيّة. يقول ابن بطلان[1]: «من مشاهير الأوباء في زماننا الذي عرض عند طلوع الكواكب الإثاري في الجوزاء من سنة ست وأربعمائة، فإن في تلك السنة دفن في كنيسة لوقا بعد أن امتلأت جميع المدافن في القسطنطينية أربعة عشر ألف نسمة في الخريف... فلما توسط الصيف في سنة سبع وأربعمائة مات في الفسطاط والشام أكثر أهلها... انتقل الوباء إلى العراق فأتى على أكثر أهله... وعرض للناس في أكثر البلاد قروح سوداوية وأورام الطحال، وتغيّر ترتيب نوائب الحميات، واضطرب نظام البحارين»... ثم قال: «ولأن هذا الكوكب الإثاري طلع في برج الجوزاء، وهو طالع مصر، وقع الوباء في الفسطاط... وصحّ إنذار بطليموس القائل: الويل لأهل مصر إذا طلع أحد ذوات الذوائب. ولما نزل زحل برج السرطان تكامل خراب العراق والموصل والجزيرة وفارس وكرمان... والفسطاط والشام».

لم يكن ابن بطلان مكثراً من التواليف، إلّا أن كتبه القليلة مبتكرة العناوين والمضامين، منها[2]:

ـ كتاب تقويم الصحة: صنّفه ابن بطلان مجدولاً على ما قرأه في كتب الطب القديمة (على غرار ترتيب النجوم الفلكية) وفيه جداول وشروح، تتناول الجداول الآفات والأمراض المعروفة وتتناول الشروح تدبير هذه الأمراض وطرق علاجها، وقد حذا حذوه في الجدولة ابن جزلة في كتابه «تقويم الأبدان في تدبير الإنسان». وقد ترجم كتاب ابن بطلان إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر وطبعت الترجمة في سنة ١٥٣١ م[3].

ـ كُنّاش الأديرة أو كتاب الأديرة والرهبان: وقد سمّي أيضاً كتاب تدبير الأمراض العارضة، وهو مرشد في الإسعافات الأولية، ضمّنه المؤلف فصلاً عمّا يجب أن يعرفه الطبيب المهارس للصنعة، وفصلاً آخر في تدبير الأمراض بالغذاء المألوف والأدوية المتوفر عليها لمن يبعد مكانه عن المدينة كالرهبان في الأديرة.

ـ مقالة في شرب الدواء المسهل.

---

(١) عيون ص٣٢٦.

(٢) عيون ص٣٢٨.

(٣) مختصر تأريخ الطب ص٥٧٦ من الجزء الأول.

ـ مقالة في كيفية دخول الغذاء في البدن وهضمه وخروج فضلاته، وسقي الأدوية المسهلة وتركيبها.

ـ مقالة في علة نقل الأطباء المهرة أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارّة إلى التدبير المبرد ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء في الكنانيش والأقرباذينات. وقد صنّف ابن بطلان مقالته هذه في أنطاكية.

ـ كتاب المدخل إلى الطب.

ـ كتاب وقعة الأطباء.

ـ مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة.

ـ كتاب عمدة الطبيب في معرفة النبات لكل لبيب.

على أن أشهر مؤلفاته هي رسالته المعنونة «دعوة الأطباء» التي وضعها سنة ١٠٥٨م، وهي السنة التي قيل إنه توفي فيها في القسطنطينية. وقد وضعها كما بيّن هو نفسه على أسلوب كتاب كليلة ودمنة وقدمها هدية إلى الأمير أحمد بن مروان بن دوستك الكردي الحميري الملقب بصاحب الدولة نصر الدين صاحب ميافارقين وديار بكر (ت١٠٦٥ م).

والرسالة في نحو عشرة آلاف كلمة، بدأها بمدح بغداد وذمّ ميافارقين، ثم ذكر في الفصول التالية مجالس الطعام والشرب وما يدور فيها من أحاديث طبية وغيرها، وذكر ما يجب على الفاصد معرفته عن عروق الجسم، والصيدلاني عن العقاقير، وما يجب على الطبيب من مداراة المرضى. ويأتي في ختام الرسالة فيردّ على العامة الذين يستخفون بصناعة الطب، ومركز الطبيب بين الناس. وقد حذا حذو ابن بطلان في أسلوب رسالته المسجّع كل من أسعد بن مطران الطبيب الدمشقي (ت١١٩١ م) وأبي الحسن علي بن هبة الله بن أثردي الطبيب البغدادي (ت بعد ١١١٣ م) طبيب المقتدي بأمر الله العباسي. وقد طبعت الرسالة المخطوطة بالإسكندرية سنة ١٩٠١ بتحقيق بشارة زلزل.

ابن هبل البغدادي (٥١٥ ـ ٦١٠ هـ ـ ١١٢٢ ـ ١٢١٣ م):

أبو الحسن علي بن أحمد بن هَبَل (بفتح الهاء والباء)[1]. من مواليد بغداد بمحلة الأزج وإليها ينسب، ويعرف أيضاً بالخلاطي نسبة إلى مدينة خلاط أذربيجان

(١) كما ضبط اسمه ابن عبد القوي المنذري في «التكملة لوفيات النقلة» ٢/٢٦٦ ـ ٢٦٧.

حيث نزل ضيفاً على أميرها شاه أرمن[1]. حفظ أبو الحسن القرآن ودرس الفقه في المدرسة النظامية ببغداد، ثم درس الأدب على الفقيه أبي القاسم إسماعيل السمرقندي صاحب كتاب «الإرشاد ومرآة الحياة على المعاني في إدراك العالم الإنساني»، وعلى الشريف الشجري المعروف بابن الشجري صاحب الأمالي. وتعلم الطب على أبي البركات علي بن ملكا البلدي. شهر في بغداد أديباً وفقيهاً وشاعراً وطبيباً حاذقاً، كما كان يتكلم في الحكمة يعلمها لكثير ممن كانوا يترددون إلى مجلسه من طلاب العلم. أقام في الموصل شطراً من حياته ثم قصد أذربيجان ونزل «خلاط» ودخل في خدمة أميرها شاه أرمن ونال منه حظوة ومالاً وفيراً أرسله إلى الموصل. ثم خرج إلى ماردين حيث استضافه بدر الدين لؤلؤ «عتيق السلجوقيين»، وكان في أثناء هذا الوقت قد أسنّ وضعف بصره، فرجع إلى الموصل وعمل له مجلساً يعلم فيه الحكمة والطب وهو فاقد البصر[2].

ويذكر القفطي سبب مغادرته خلاط رغم حظوته عند أميرها، يقول: «وفارق تلك الديار لسبب وهو أنّ بعض الطشت داريّة قال له يوماً وقد نظر إلى قارورة الملك في بعض أمراضه: يا حكيم لِمَ لا تذوقها؟ فسكت عنه. فلمّا انفصل عن المجلس قال له في خلوة: قولك هذا اليوم عن أصل من قول غيرك أو هو شيء خطر لك؟ فقال: إنما خطر لي لأنني سمعت أنّ ذوق القارورة من شروط اختبارها. فقال له: الأمر كذلك ولكن لا في كل الأمراض، وقد أسأت إليّ بهذا القول لأنّ الملك إذا سمع هذا ظنّ أنني قد أخللت بشرط واجب من شروط خدمته وقوانين الصناعة فيها. ثم إنه عمل على الخروج لأجل هذه الحركة والخوف من عاقبتها بعد أن رشى الطشت دار حتى لا يعود إلى مثلها، وخرج وعاد إلى الموصل وقد تموّل فأقام بها إلى حين وفاته»[3].

من سياق الرواية التي أوردها القفطي في تاريخه يتبين لنا أن ذوق القارورة (البول) كان من الخطوات التحليلية التي لم يعرها ابن هبل اهتماماً، وهو في ذلك ربما كان على اطلاع بما جاء في قانون ابن سينا في تكلمه على فحص البول، حيث قال: «ومن الناس من يدخل في هذه الأجناس جنس اللمس وجنس الطعم، ونحن أسقطناهما تقززاً أو تنفراً من ذلك»[4]. ويقول ابن هبل في الموضوع نفسه: «إنّ

---

(١) خلاط مدينة تاريخية بأرمينية الوسطى فتحها عياض بن غنم سنة ١٧ هـ/٦٣٨ م.
(٢) عيون الأنباء ص٤٠٨.
(٣) تاريخ الحكماء ص٢٣٩. (٤) القانون ١/١٣٦.

البول الرقيق الذي هو كالماء يكون من العلة المسماة ديابيطس، وهو سلس البول، فإن صاحب هذه العلة لا يزال يشرب الماء من شدّة العطش حتى يخرج الماء بحاله».

كانت وفاة ابن هبل سنة ٦١٠ هـ/١٢١٣ م عن عمر يناهز المائة سنة وخلّف ابناً اسمه شمس الدين بن هبل كان أكثر عمره طبيباً أيضاً للأمير عزّ الدين كيكاوس كيخسرو السلجوقي بآسيا الصغرى.

يقول القفطي في خبر وفاته: «توفي بالموصل ليلة الأربعاء ثالث عشرمن المحرم سنة عشر وستمائة»[1]. و«له كتاب في الطب سمّاه «المختار» رأيته في أربع مجلدات وله غير ذلك»[2].

ذكر له أيضاً كتاب «الطب الجمالي» كتبه إلى جمال الدين محمد الدرزي المعروف بالجوّاب. وكتاب «النار المجوسية» أسبابها وعلاماتها وعلاجها.

أمّا كتابه «المختار في الطب» الذي ذكره القفطي فقد كتبه في الموصل سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٤ م قبل مغادرته إلى خلاط، وهو في أربع مجلدات (أربعة أجزاء) جاءت على الوجه التالي:

ـ **الجزء الأول**: في فسلجة الجسم وتشريحه من الرأس إلى القدم، وأدخل فيه الأعراض والعلامات المرضية التي تصيبه، ومعلومات عن النبض والبول والبراز، وذكر المولودين حديثاً وتدبير الأطفال والمشايخ، وذكر الرياضة والحمّام، والفصد والحجامة، وذكر قواعد حفظ الصحة، والأدوية المستعملة في الضماد والحقن، وضمنه فصلاً في تسكين الأوجاع وعلاج الأورام، وذكر عمليات البط (الشقّ) وبتر العضو والكيّ.

ـ **الجزء الثاني**: ذكر فيه أنواع الأمراض وأعراضها وعلاماتها وكيفية تشخيصها وطرق مداواتها، والأدوية المعالجة، وشرح في هذا الجزء بالتفصيل موضوع الصداع والسرسام والأمراض العصبية والعقلية، وأمراض العين، وأمراض الحلق والأذن والفم والأسنان، وأوتار الصوت، وأمراض المريء والمعدة والأمعاء والنكاف والفواق، وأمراض الكبد والقلب والرئة، والاستسقاء، وأمراض الكلى والمثانة.

---

(١) تاريخ الحكماء ص٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه ص٢٣٩.

الجزء الثالث: في ذكر آلات التناسل في الذكور والإناث والجماع، والشهوة الجنسية، وأمراض الرحم واختلاطات الحيض، وسن اليأس (الرجا)، وأورام الرحم وأوضاعها غير الطبيعية، والحمل والإسقاط، والنواسير، وأمراض الأعصاب والدم والعظام والكسور والخلوع، والحميات وغير ذلك من الأمور الصحية.

ـ **الجزء الرابع**: في ذكر أمراض أعضاء التناسل والأدوية المفردة المستعملة لها، وتضمن هذا الجزء أيضاً فصولاً في الأدوية المفردة والسموم، وفي الجذام والسرطان، وعمليات الطوارىء الجراحية، والحميات والبحرانيات وما شابه ذلك.

إن كتاب «المختار» جاء شبيهاً ببعض الكتب الطبيّة التي تناولت عموم الأمراض وذكر أعراضها والعلاج منها ككتاب علي بن العباس المجوسي «الملكي» وكتاب «القانون في الطب» لابن سينا وكتاب الزهراوي «التصريف» وما شابهها. وقد صار هذا الكتاب مرجعاً من المراجع المهمة في القرن السابع الهجري نظراً إلى حسن تبويبه وسهولة إيجاد المراجع والاختصار في المادة[1].

أبو نصر بن المسيحي (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م):

سعيد بن أبي الخير بن عيسىٰ بن المسيحي، أصله ـ على الأرجح ـ من الحظيرة (بين بغداد وتكريت)، أقام في بغداد ودرس فيها الأدب والحكمة والطب وأتقن فن الجراحة، ثم التحق بعد ذلك بحاشية الخليفة الناصر (١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م) والتي كانت تجمع من الأطباء الأركدياقيين (الأرقدياقن لفظة عربية نصرانية مأخوذة عن الأصل اليوناني وتعني رئيس الشمامسة ومثله الأرشدياقن والشدياق) أبا الخير بن المسيحي وهو أخو أبي نصر، والمسيحي بن أبي البقاء المعروف بابن العطّار، وابنه أبا علي بن أبي البقاء، وكل هؤلاء من الأطباء الجراحين. ولعل أبا نصر هو الذي ذكره ابن عبدون[2] في حديثه عن سفرته إلى الرئيس هلال بن المحسن بن إبراهيم، فقد جاء في حديثه: «وفي أنطاكية شيخ يعرف بأبي نصر بن العطار» أو لعله غيره.

يعتبر ابن المسيحي أول جراح عربي عرفناه في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، فقد حفظ لنا التاريخ ما حصل لأبي نصر مع الخليفة الناصر، لما في هذا

(١) طبع الكتاب بحيدر أباد الدكن سنة ١٣٦٢ هـ في مجلدين.
(٢) المختار بن الحسن الطبيب البغدادي (ابن بطلان).

الخبر من معلومات طبية مفيدة عن طريقة ممارسة الصنعة وتبادل الآراء فيها بين الأطباء للوقوف على العلاج الأنجع، وما يتحصّلون عليه لقاء عملهم في هذه المهنة. فقد حدث أن أصيب الخليفة الناصر لدين الدولة بعارض شديد سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وكان هذا العارض بسبب مرض الرمل، وعرض له في المثانة حصاة كبيرة مفرطة في الكبر، واشتد به الألم وطال المرض. وكان طبيبه أبو الخير المسيحي شيخاً مسنّاً وقد خدمه مدة طويلة، وكان خبيراً متقناً للصناعة، فلما امتدّ به المرض ضجر من المعالجات وأشار بأن تشق المثانة لإخراج الحصاة، فسأل عن حذاق الجراحين، فأخبر برجل يقال له ابن عكاشة من ساكني الكرخ بجانب بغداد الغربي، فأحضر وشاهد العضو العليل وأمره ببطه (بشقه). فقال: أحتاج إلى أن أشاور مشايخ الأطباء في هذا. فقال له: تعرف ببغداد من صالحي هذه الصناعة فقال: يا مولانا، أستاذي وشيخي أبو نصر بن المسيحي، ليس في البلاد بأسرها من يماثله. فقال له الخليفة: اذهب إليه ومره بالحضور. فلما حضر، خدم وقبّل الأرض، فأمره بالجلوس فجلس ساعة، ولم يكلمه ولم يأمره بشيء حتى سكن روعه، فلما أنس منه ذلك قال له: يا أبا نصر، مثّل نفسك إنك قد دخلت إلى بيمارستان وأنت تباشر به مريضاً قد ورد من بعض الضياع، وأريد أن تباشر مداواتي وتعالجني في هذا المرض كما تفعل بمن هذه صفته. فقال: السمع والطاعة، لكني أحتاج أن أعرف من هذا الطبيب المتقدم مبادىء المرض وأحواله وتغيراته وما عالج به منذ أول المرض وإلى الآن. فأحضر له الشيخ أبا الخير، وأخذ يذكر له ابتداءات المرض وتغيرات أحواله وما عالج به في أول الأمر وإلى آخر وقت. فقال: التدبير صالح والعلاج مستقيم. فقال الخليفة: هذا الشيخ أخطأ ولا بدّ لي من صلبه. فقام أبو نصر بن المسيحي وقبّل الأرض، وقال: يا مولانا، بحق نعمة الله عليك، وبمن مضى من أسلافك الطاهرين، لا تسنّ على الأطباء هذه السنّة[1]، وأما الرجل فلم يخطىء في التدبير، ولكن لسوء حظه لم ينتبه إلى المرض. فقال الخليفة: قد عفوت عنه لكن لا يعود يدخل عليّ، فانصرف. ثم أخذ أبو نصر في مداواته، فسقاه ودهن العضو بالأدهان الملينات، وقال له: إن أمكن فلاطف الأمر بحيث تخرج هذه الحصاة من غير بط (شق) فهو المراد، وإن لم تخرج فذاك لا يفوتنا. فلم يزل كذلك يومين، وفي ليلة اليوم الثالث رمى الحصاة، فقيل إنه كان وزنها سبعة مثاقيل[2]. وقيل إنها كانت على مقدار أكبر نواة تكون من نوى الزيتون، وبرأ وتتابع

---

(١) أي أن يقتل الطبيب أو يصلب في حال فشله أو خطئه في العلاج، فتصبح سنة بين الناس.

(٢) المثقال يعادل = ٣,٣٦٤٦ غرامات بالوزن العشري.

الشفاء[1]. وقد حصل أبو نصر من هذه المعالجة (الخدمة) على عشرة آلاف دينار، وحصل ابن عكاشة على ألف دينار تصدّق بمائتين وخمسين ديناراً في بيعة سوق الثلاثاء لأنه نذر إن انتهى الأمر بما يرضي الخليفة ليفعل ذلك[2].

المهم في سياق هذه الرواية أن الأطباء ـ في ذلك العهد ـ كانوا يتبادلون الآراء، وكان الواحد منهم يحيل على الآخر ما يصعب عليه معالجته أو مداواته سريرياً ويدوياً، ويبدو أيضاً أن شق المثانة لإخراج الحصى كان معروفاً ومعمولاً به آنذاك وإن كان أبو نصر بن المسيحي قد نجح في إخراج الحصاة بالملينات والسقاء.

ترك لنا أبو نصر كتاباً لخّص فيه كليات الشيخ الرئيس ابن سينا بطريق المسألة والجواب أسماه «الاقتضاب» في الطب، ثم عاد واختصره بكتاب أسماه «انتخاب الاقتضاب».

ابن ملكا البلدي (ت٥٦٠ هـ/١١٧٢ م):

أبو البركات هبة الله بن علي ملكا. ولد ببلد ـ بلدة صغيرة قريبة من الموصل ـ ونشأ ببغداد. كان يهودياً وأسلم بعد أن دخل في خدمة الخليفة المستنجد بالله (١١٦٠ ـ ١١٧٠ م) لكي يحظى بموقع أعلى في مجلسه. فالصفدي يروي[3] أنه دخل يوماً على الخليفة فقام الحاضرون سوى قاضي القضاة فإنه لم يقم له، فقال أبو البركات: يا أمير المؤمنين، إن كان القاضي لم يوافق الجماعة لكوني على غير ملته، فأنا أسلم ولا ينتقصني، فأسلم. ولكن القفطي يروي خبر إسلامه، يقول[4]: «وذكر ابن الزاغوني أن إسلام أبي البركات كان سببه أنه كان في صحبة السلطان محمود ببلاد الجبل وإلى محمود ولاية العراق. وكانت زوجته الخاتون بنت عمّه سنجر وكان لها مكرماً محبّاً معظماً، واتّفق أن مرضت وماتت، فجزع السلطان محمود عليها جزعاً شديداً، ولمّا عاين أبو البركات ذلك الجزع من محمود، خاف على نفسه من القتل إذ هو الطبيب، فأسلم طلباً لسْلامة نفسه».

ثم إنه يورد خبراً آخر في إسلامه، يقول[5]: «ولمّا مرض أحد السلاطين

(١) عيون الأنباء ص٤٠٣ ـ ٤٠٤.
(٢) المصدر السابق ٤٠٤.
(٣) نكت الهميان في نكت العميان ص٣٠٤.
(٤) تأريخ الحكماء ص٣٤٦.
(٥) المصدر نفسه ص٣٤٣ ـ ٤٤.

السلجوقية استدعاه من مدينة السلام، وتوجّه نحوه ولاطفه إلى أن برأ، فأعطاه العطايا الجمّة من الأموال والمراكب والملابس والتحف، وعاد إلى العراق على غاية ما يكون من التجمّل والغنى، وسمع أن ابن أفلح قد هجاه بقوله:

لنا طبيب يهودي حماقته ... إذا تكلّم تبدو فيه من فيهِ

يتيه والكلبُ أعلى منه منزلةً ... كأنه بعد لم يخرج من التيهِ

ولما سمع ذلك علم أنه لا يُجلّ بالنعمة التي أُنعمت عليه إلاّ بالإسلام، فقوي عزمه على ذلك وتحقّق أنّ له بنات كباراً، وأنهنّ لا يدخلن معه في الإسلام، وأنه متى مات لا يرثنه، فتضرّع إلى خليفة وقته في الإنعام عليهن ممّا لا يخلّفه وإن كنّ على دينهن، فوقع له بذلك، ولمّا تحققه أظهر إسلامه وجلس للتعليم والمعالجة، وقصده الناس وعاش عيشة هنية وأخذ الناس عنه ممّا تعلمه جزءاً متوفراً»[1].

درس أبو البركات الطب على أبي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين (ت١٠٩٥ م) إلاّ أنه صار فيلسوفاً أكثر ممّا هو طبيب. وقد روى البيهقي أنه فشل مرة في مداواة الشاه محمد بن ملكشاه في أثناء مرضه فاتهمه بسوء التدبير والعلاج وحبسه مدة. وذكر أيضاً[2] أنه لما مرض الشاه مسعود بن محمد ملكشاه بداء القولنج في همدان، حُمل أبو البركات إليه ليداويه، وكان وقتئذ شيخاً كبيراً في التسعين من عمره، فلم يتحمل مشاق هذه السفرة المتعبة، وما كاد يصل همدان حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. وقيل إنه توفي خوفاً من بطش الشاه إن هو فشل في شفائه، وكانت حالة الشاه سيئة إلى درجة أنه توفي هو الآخر بعد يوم واحد فقط من وفاة هبة الله.

وقد كان بين أبي البركات وابن التلميذ منافسة على كسب مرضاة الخليفة، فصارا يتراميان بالنقد اللاذع حيناً وبالشتم أحياناً. وكان الأطباء في وقته يسألونه عن مسائل في الأمراض فيجيب عنها بخطّه فيسطرون ذلك عنه إلى أن صار مؤلَّفاً يتناقلونه بينهم. ولم يزل سعيداً إلى أن قلب له الدهر ظهر المجنّ ووضع من سنائه بعد أن أسنّ، فأدركته أعلال قصر عن معاناتها طبُّه، واستولت عليه آلام لم يُطق حملها جسمه ولا قلبه، وذلك أنه عمي وطرش وبرص وتجذّم. قيل إنه لمّا أحسّ بالموت أوصى إلى من يتولاه أن يكتب على قبره: هذا قبر أوحد الزمان أبي البركات ذي العِبر صاحب المعتبر.

---

(١) حكماء الإسلام ص١٥٢.

(٢) المصدر السابق ص١٥٣.

عمّر أبو البركات هبة الله نحواً من تسعين سنة، ومع ذلك لم ينقطع عن التدريس والتأليف. وكانت وفاته في حدود سنة ٥٦٠ هـ/١١٧٢ م. وقد شُهر من تلاميذه النجباء يوسف أبو عبداللطيف البغدادي، والمهذب بن النقاش، وابن هبل البغدادي، وكانوا جميعهم يكتبون له ما يملي عليهم في الطب والحكمة.

كان موفق المعالجة لطيف المباشرة خبيراً بعلوم الأوائل قيّماً بها، حسن العبارة لطيف الإشارة، وقف على كتب المتقدّمين والمتأخرين في الطب واختبرها، فلمّا صفت لديه صنّف فيها كتاباً أسماه «المعتبر» وهو أفضل كتاب صُنّف في هذا الموضوع.

والمعتبر في الحكمة أملى كثيراً منه على تلميذه يوسف أبي عبداللطيف البغدادي وأتمه بعد أن عمي في أواخر عمره. وهو في ثلاثة أجزاء، الأول والثالث منها في الحكمة، وانفرد الجزء الثاني بالطب حيث وردت فيه فصول عدة في صناعة الطب وهي:

ـ فصل فيما يراه المؤلف فيما كتبه أرسطو في الحيوان والنبات.
ـ فصل فيما يشترك فيه الحيوان والنبات من الأفعال والخواص.
ـ فصل في تولد النبات باختلاف البقاع.
ـ فصل في مميزات الحيوان عن النبات.
ـ فصل في أبدان الحيوان وأجزائها ومنافع أعضائها.
ـ فصل في أصناف الأعضاء ومنافعها.
ـ فصل في الأعضاء الآلية.
ـ فصل في آلات التناسل.

ومن مؤلفاته أيضاً[١]:

ـ رسالة في العقل وماهيته.
ـ كتاب الأقراباذين.
ـ حواشٍ على كتاب «القانون في الطب» للشيخ الرئيس ابن سينا.
ـ مقالة في معجون أسماه «أمين الأرواح».
ـ كُنّاش في الطب.
ـ مقالة في الدواء الذي أسماه (بر شعثا)، وهو لفظ سرياني معناه «سم

---

(١) انظر عيون الأنباء ص٣٧٦، ونكت الهميان في نكت العميان ص٣٠٤.

ساعة» وهو من باب الأضداد أي الدواء الذي يشفي في خلال ساعة.
ـ كتاب اختصار التشريح، وقد اختصره من مؤلفات جالينوس.

محمد بن عبد السلام المقدسي: (ت ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م):

ابن عبدالرحمن بن عبدالساتر المقدسي الماردي. كان أبوه قاضي ماردين وجدّه قاضي دُنَيْسِر. كان فاضل وقته في علوم الحكمة والطب. قرأ الطب على هبة الله بن صاعد بن التلميذ. ويقال إن ابن التلميذ لمّا رأى غزارة فهمه في علوم الحكمة أشار عليه بالطب لحاجة الناس إليه فبلغ منه الغاية حتى إن الملوك كانت تخطبه من الضواحي والأقطار. وكان على علوّ السنّ يكرّر على كتب كبار. قرأ عليه الشهاب السهروردي شيئاً من الحكمة، ولم يصنف كتاباً مع غزارة علمه، إلاَّ أنه شرح أبيات ابن سينا التي أولها:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع

توفي في يوم السبت حادي عشر ذي الحجة سنة ٥٩٤ هـ.

الأطباء الهنود في العصر العباسي

ذكرنا في الفصل الخامس من الباب الأول أن الطب كان من المعالم البارزة في حضارة الهند القديمة، وأنه اكتشف في سيلان بقايا مستشفى يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، واكتشف واحد آخر يعود تاريخه إلى القرن الثالث قبل الميلاد. كما أنه وجدت بعض الكتب التي ظلّت تزوّد العالم بالعلوم الطبية حتى نهاية القرن الوسيط. وكان من بين هذه الكتب كتاب من تأليف الطبيب الهندي الشهير «شاراق» الذي عاش في حدود القرن الثاني الميلادي، وقد ترجم هذا الكتاب في أيام حكم آل ساسان إلى اللغة الفهلوية ثم إلى العربية (في القرن الثامن الميلادي) نقله عبد بن علي، وصار هذا الكتاب مصدراً من مصادر ابن ربان الطبري في كتابه «فردوس الحكمة» والرازي في «الحاوي في الطب» عرف مؤلفه باسم شرك عند الاثنين. وأما الكتاب الثاني الذي ترجم إلى العربية فكان كتاب «سوسروتا» وهو اسم المؤلف الذي ألفه حوالى سنة ٣٠٠ ق.م. وهو أضخم كتاب هندي وصل إلى العرب، وقد ترجمه إلى الفهلوية طبيب هارون الرشيد الهندي «منكه» ثم نقل منها إلى العربية، كما ترجم منكه كتاب السموم لشاناق.

وقد اعتبر الشعب الهندي في طليعة الشعوب الثمانية التي ذكرها ابن صاعد في

طبقات الأمم ولا سيما في حب الحكمة وطلب المعرفة والامتثال للعدالة وفهمهم للتاريخ السياسي والحضاري، وتمسكهم وسعيهم لرفع وتأصيل وحفظ الصحة العامة. إلاّ أنهم قصّروا في تسجيل أخبارهم وتاريخهم ولم يحافظوا على أسانيد مخلفاتهم لتكون في حلّة قشيبة تليق بسمعتهم الطيبة، حتى إن النسبة الكبيرة من أسماء علمائهم وأطبائهم وفلاسفتهم بقيت نكرة غير معروفة لدينا.

وكنّا ذكرنا أيضاً أن معظم الأطباء في بغداد منذ تأسيسها وحتى خلافة هارون الرشيد كانوا من النساطرة السريان الذين تعلموا في مدرسة جنديسابور بعد فرارهم إليها، وذكرنا منهم أبا جورجيس جبرائيل وابنه جورجيس بن جبرائيل طبيب المنصور، وبختيشوع بن جورجيس، وعيسىٰ بن شهلافا (شهلاثا)، وعيسىٰ أبا قريش طبيب الخيزران، وسهل الكوسج وسابور بن سهل. وبالإضافة إلى هؤلاء السريان وفد العديد من الأطباء الفرس إلى بغداد بصحبة البرامكة وزراء الخلفاء العباسيين، وأما الأطباء الهنود فلم يدخلوا بغداد إلاّ في خلافة هارون الرشيد.

ولا شكّ أن البرامكة سمعوا عن حذق الأطباء الهنود في ممارسة صنعة الطب، وأن طبهم كان مختلفاً في تفصيلاته عن طب مدرسة جنديسابور في فارس ومدارس الطب الأخرى في البلاد السورية المعتمدة على الطب الإغريقي الصرف. ولهذا فقد استقدموا بعض أطباء الهند إلى بغداد للعمل إلى جانب الأطباء النساطرة في بلاط الخليفة الرشيد. وهكذا وفد بغداد كثير من أطباء الهند وهم يحملون معهم أسس الفكر الطبي الهندي وخلاصة مؤلفات أطبائهم الحكماء أمثال شاراق وسوسروتا وتاشاناق وصنجهل وبدان وجبهر وجودر وراي وغيرهم، وقد ترجمت كتب هؤلاء إلى العربية فكانت من أوائل المؤلفات الطبية التي نقلت إلى هذه اللغة. ومن الممكن أن تكون قد ظهرت في أيدي القرّاء قبل ظهور ترجمات حنين بن إسحاق لمؤلفات الطب الإغريقية. ولكن رغم أسبقية هذه الكتب الهندية وما حمله أطباء الهند من المعلومات والمؤلفات الهندية القديمة، ورغم ممارستهم الصنعة في بغداد، فإن الطب الهندي لم يحظ بالمكانة المرموقة ولم يلتقطه طلاب العلم بالترحاب واللهفة. ولعل ابن ربان الطبري عندما أدخل هذا الطب الهندي في «فردوسه» أدخله لأنه نشأ في محيط يغلب عليه طابع الطب الهندي. وإذا كان أبو بكر الرازي قد استقى شيئاً من هذا الطب في «الحاوي» فلأن كتابه كان كشكولاً موسوعياً يتضمن الممارسات الطبية قديماً وحديثاً عربياً وأعجمياً. وبعد الرازي لم يأخذ الأطباء العرب عن الطب الهندي شيئاً، وربما كان ذلك لميلهم إلى كتب اليونان، أو لأنهم رأوا أن الشعوذة والأدعية والأحجبة التي كانت من أسس الطب الهندي ليست من شريعتهم في شيء وليس

لها مكان في الطب الحقيقي. ولأجل هذا لم يؤثر الطب الهندي في الطب العربي إلاّ بقدر يسير انتهى بحلول العقد الثاني من القرن الثالث الهجري، وهو الوقت الذي ظهرت فيه الأعمال الأصلية في الطب العربي.

لقد دخل بغداد عدد من الأطباء الهنود بطلب من الخلفاء أو الوزراء، والبعض منهم دخلها طمعاً في ممارسة الطب وكسب المال والجاه، عرف منهم بازيكر، سندباذ، قلبرقل[1] الذي أسماه العرب «قل بل قل» استحساناً، وصنجهل، وباري، ودهشنك، وصالح بن بهلة، وكنكه، ومنكه، وكان الثلاثة الأخيرون في زمن هارون الرشيد[2].

صالح بن بهلة:

طبيب هندي في أيام هارون الرشيد، هنديُّ الطب حسن الإصابة فيما يعاينه. والملفت اسمه الأول العربي «صالح»، فقد يكون قد ولد في جنديسابور فأطلق عليه هذا الاسم، أو يكون قد أسلم في بغداد فخلع عليه[3].

كان صالح خبيراً متقدماً في معرفة الطب على طريق الهند، ومن عجيب ما جرى له أنّ الرشيد في بعض الأيام قُدمت له الموائد فطلب جبرائيل بن بختيشوع ليحضر أكله على عادته في ذلك، فطلب فلم يوجد، فلعنه الرشيد. وبينما هو في لعنته إذ دخل عليه، فقال له: أين كنت؟ وطفق يذكره بشرّ فقال: إن اشتغل أمير المؤمنين بالبكاء على ابن عمّه إبراهيم بن صالح وترك تناولي بالسبّ كان أشبه. فسأله عن خبر إبراهيم فأعلمه أنه خلّفه وبه رمق ينقضي آخره وقت صلاة العتمة. فاشتدّ جزع الرشيد من ذلك، وأمر برفع الموائد، وكثر بكاؤه، فقال جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين، جبرائيل طبه رومي، وصالح بن بهلة الهندي في العلم بطريقة أهل الهند في الطب مثل جبرائيل في العلم بمقالات الروم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضاره ويوجّهه إلى إبراهيم بن صالح ليفهّمنا عنه فعل. فأمر الرشيد جعفراً بإحضاره وتوجيهه وبالمسير إليه بعد منصرفه من عند إبراهيم، ففعل ذلك جعفر، ومضى صالح بن بهلة إلى إبراهيم حتى عاينه وجسّ عرقه، وصار إلى

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٩٣/١.

(٢) انظر عيون الأنباء ص٤٧٥.

(٣) كذا ما ذكره مؤلف مختصر تأريخ الطب ص٨ ـ ٤ ج١.

جعفر. فدخل جعفر على الرشيد فأخبره بحضور صالح بن بهلة، فأمره الرشيد بإدخاله إليه، فدخل ثم قال: يا أمير المؤمنين، أنت الإمام وعاقد ولاية القضاء للحكام، ومهما حكمت به لم يجُز لحاكم فسخه، وإذاً أشهدك وأشهد على نفسي من حضرك أن إبراهيم بن صالح إن توفي في هذه الليلة أو في هذه العلة أنّ كل مملوك لصالح بن بهلة أحرار لوجه الله، وكل دابة له فحبيس في سبيل الله، وكل مال له فصدقة على المساكين، وكل امرأة له فطالق ثلاثاً بتاتاً. فقال الرشيد: حلفت يا صالح بالغيب! فقال صالح: كلا يا أمير المؤمنين، إنما الغيب ما لا دليل عليه ولا علم به، ولم أقل ما قلت إلاّ بدلائل بيّنة وعلم واضح. فسرّي عن الرشيد ما كان يجد وطُعم وأُحضر له النبيذ فشرب، فلمّا كان وقت العتمة ورد كتاب صاحب البريد بمدينة السلام (بغداد) بوفاة إبراهيم بن صالح على الرشيد، فاسترجع وأقبل على جعفر بن يحيىٰ باللوم في إرشاده إياه إلى صالح بن بهلة، وأقبل يلعن الهند وطبّهم، ويقول: واسوءتاه من الله أن يكون ابن عمي يتجرع غصص الموت وأنا أشرب النبيذ، ثم دعا برطل من نبيذ ومزجه بالماء وألقى فيه من الملح شيئاً وأخذ يشرب منه ويتقيّأ حتى قذف ما كان في جوفه من طعامه وشرابه، وبكّر إلى دار إبراهيم، فقصد الخدم بالرشيد إلى رواق فيه الكراسي والمساند والنمارق، فاتكأ الرشيد على سيفه ووقف وقال: لا يحسن الجلوس في المصيبة بالأحبة على أكثر من البُسُط، فارفعوا هذه الفرش والنمارق، ففعل ذلك وجلس الرشيد على البساط. . .
ووقف صالح بن بهلة بين يديّ الرشيد فلم ينطق أحد إلى أن سطعت روائح المجامر، فصاح صالح عند ذلك: الله الله يا أمير المؤمنين أن تحكم عليّ بطلاق زوجتي فيتزوجها من لا تحلّ له، الله الله أن تخرجني من نعمتي ولم يلزمني حِنث، الله الله أن تدفن ابن عمّك حيّاً، فوالله ما مات فأطلق لي الدخول عليه والنظر إليه، وهتف بهذا القول مرات، فأذن له الرشيد بالدخول على إبراهيم، ثم سمع الجماعة تكبيراً، فخرج صالح وهو يكبّر، ثم قال: يا أمير المؤمنين قم حتى أريك عجباً، فدخل إليه الرشيد ومعه جماعة من خواصّه، فأخرج صالح إبرة كانت معه وأدخلها بين ظفر إبهام يده اليسرى ولحمه فجذب إبراهيم يده وردّها إلى بدنه.
فقال صالح: يا أمير المؤمنين، هل يحسّ الميت الوجع؟ أخاف إن عالجته فأفاق وهو في كفن يجد منه رائحة الحنوط أن يتصدّع قلبه فيموت موتاً حقيقياً، ولكن مُرْ بتجريده من الكفن وردّه إلى المغتسل وإعادة الغسل عليه حتى يزول منه رائحة الحنوط، ثم يُلبس مثل ثيابه التي كان يلبسها في حال صحته ويُطيّب بمثل ذلك الطيب ويُحوّل إلى فراش من فرشه التي كان يجلس وينام عليها حتى أعالجه بحضرة

أمير المؤمنين فإنه يكلّمه من ساعته.

فوكّل الرشيد أبا سلمة بالعمل بما حدّ صالح بن بهلة، ففعل ذلك، ثم سار الرشيد ومعه أبو سلمة ومسرور إلى الموضع الذي فيه إبراهيم، ودعا صالح بكُنْدُس ومنفخة ونفخ من الكُندس في أنفه، فمكث مقدار سدس ساعة ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس، فكلّم الرشيد وقبّل يده. وسأله الرشيد عن قضيّته، فذكر أنه كان نائماً نوماً لا يذكر أنه نام مثله قط طيّباً، إلّا أنه رأى في منامه كلباً قد أهوى إليه فتوقّاه بيده فعضّ إبهام يده اليسرى عضّة انتبه بها وهو يحسُّ بوجعها، وأراه إبهامه التي كان صالح بن بهلة أدخل فيها الإبرة[1].

وهكذا نجح صالح بن بهلة في إرضاء الخليفة هارون الرشيد وصار أحد القائمين على مأكله ومشربه، ونال منه الصلات والتقدير والاحترام.

الطبيب منكه:

من أكابر الأطباء الحذاق بالصنعة. كان مقيماً في فارس وعلى التحديد ربما كان في جنديسابور قبل أن يأتي إلى بغداد لمعالجة الخليفة هارون الرشيد بطلب من البرامكة. تعلم اللغة الفارسية في أثناء إقامته في فارس، ولما قدم بغداد على عهد هارون الرشيد نقل كتاب السموم لشاناق إلى الفارسية من الهندية[2]. وكان منكه يمارس المهنة على طريق الهنود القدماء باعتماده على الطوالع واستخارة النجوم والمواليد لمعرفة وقت العلاج وتخمين ما تخبئه الأيام للمريض.

روى ابن عبد ربه، قال[3]: «وكان يحيىٰ بن برمك قد اعتلّ قبل النازلة التي نزلت بهم، فبعث إلى منكه الهندي. فقال له: ماذا ترى في هذه العلّة؟ فقال منكه: داء كبير، دواؤه يسير، والصبر أيسر. وكان متفنّناً. فقال له يحيىٰ: ربما ثقل على السمع خطرة الحق به، وإذا كان ذلك كذلك كان الهجر له ألزم من المفاوضة فيه. قال منكه: لكنني أرى في الطالع أثراً والأمر فيه قريب، وأنت قسيم في المعرفة، وربما كانت صورة النجم عقيمة لا نتاج لها، ولكن الأخذ بالحزم أوفى لحظ الطالبين. قال يحيىٰ: الأمور منصرفة إلى العواقب، وما حُتم فلا بدّ أن يقع، والمنعة بمسالمة الأيام نُهزة، فاقصِد لما دعوتك له من هذا الأمر الموجود بالمزاج. قال

(١) انظر الرواية كاملة في تاريخ الحكماء ص٢١٥ ـ ٢١٧.
(٢) عيون الأنباء ص٤٧٥.
(٣) العقد الفريد ٥/٦٧ ـ ٦٨.

منكه: هي الصفراء مازجتها مائية البلغم، فحدث لذلك ما يحدث من اللهب عند مماسّة رطوبة الماء من الاشتعال، فخذ ماء الرمّان فذُف فيه إهليلجة سوداء تُنهضك مجلساً أو مجلسين، ويسكن ذلك التوقّد إن شاء الله».

وقد روى الجاحظ خبر اجتلاب البرامكة للأطباء الهنود إلى بغداد ومنهم منكه، قال[1]: «قال معمّر أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيّام اجتلب يحيىٰ بن خالد أطباء الهند، مثل منكه وبازيكر وقَلْبِرَقل وسندباذ وفلان وفلان: ما البلاغة عند الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ولكن لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها».

الطبيب كنكه:

وربما قيل «كبكه»، وذكر أبو معشر البلخي في صفة في كتابه المعنون «الألوف» أنه يعني كنكه المقدّم في علم النجوم عند جميع العلماء من الهند في سالف الدهر، ولم يبلغنا تأريخ عصره ولا شيء من أخباره لبعد داره واعتراض الممالك بيننا وبين بلاده الهند.

ومن تصانيف كنكه الهندي التي اشتهرت عنه كتاب «النمودار في الأعمار»، كتاب «أسرار المواليد» كتاب «القرانات الكبير»، كتاب «القرانات الصغير».

البيمارستانات في العصر العباسي

ذكرنا أن العرب خطوا خطوات واسعة في استعمال الأدوية والعقاقير للتداوي، فهم أول من أنشأ حوانيت بيع الأدوْية، وأول من أسّس مدرسة للصيدلة، وأول من وضع الأقراباذين (كتب الأدوية). وقد ألفوا الكثير من الرسائل في مهنة الصيدلة كان من أوائلها ما وضعه العالم الكبير جابر بن حيّان أبو الكيمياء. وكان يفرض على الصيادلة منذ زمن المأمون والمعتصم أن يجتازوا امتحاناً خاصّاً، وفرض على الأطباء مثل هذا الامتحان. وكان المقتدر أمر سنان بن ثابت بامتحان الأطباء وإجازة من ينجح منهم وأن يطرد من الصناعة من اتضح قلة علمه في الطب. وقد نال سنان ما

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٢.

ناله من الشهرة بفضل الجهود التي بذلها لرفع المستوى العلمي لمهنة الطب، وبفضل إدارته للبيمارستان الكبير في بغداد. وكان هذا البيمارستان أول مستشفى في الإسلام، وقد أنشأه هارون الرشيد على الطراز الفارسي. ولم يطل الوقت حتى ظهر في العالم الإسلامي بيمارستانات أخرى بلغ عددها أربعة وثلاثين. وكان في هذه البيمارستانات الإسلامية أجنحة خاصة للنساء، ولكل بيمارستان صيدلية ملحقة به، وكان في البعض منها مكتبة طبية وغرف لتدريس الطب وصناعته.

لقد أنشئت البيمارستانات في مختلف أقطار الدولة العباسية على نمط بيمارستان جنديسابور في فارس ومستشفى الإسكندرية، ولا شك أن هذه البيمارستانات كانت - من الناحية المعمارية - أرقى مستوى من المستشفيين المذكورين. فمما لا شك فيه أن كثرة الأطباء الذين وفدوا إلى بغداد، وكانوا من النساطرة والفرس والهنود، وبروز الأطباء العرب الحذاق واختلاطهم بمن جاورهم من الأطباء الأعاجم، كان له الأثر البعيد في تحسين البيمارستان عمرانياً وتطبيقياً في صناعة الطب، وما يتبع ذلك من تيسير العمل للأطباء، وتأمين وسائل الراحة للمرضى، واتباع طرق حفظ الصحة وسبل المداواة والمداراة.

١ - بيمارستان الرشيد (البيمارستان الكبير):

كان هذا البيمارستان أول مستشفى في الإسلام، وقد أنشأه هارون الرشيد في مطلع القرن التاسع الميلادي أواخر القرن الثاني الهجري، على الطراز الفارسي كما يتضح من اسمه، وأمر أن يشرف على بنائه وتنظيمه طبيبه الخاص جبرائيل بن بختيشوع، وأسند رئاسته إلى ماسويه الخوزي، وهو من أطباء جنديسابور، وكان يعمل في دقّ الأدوية في بيمارستان جنديسابور ببلاد خوزستان، وكان ماسويه هذا لا يقرأ حرفاً واحداً بلسان من الألسنة إلاّ أنه عرف الأمراض وعلاجها بالدربة والمباشرة وخبر الأدوية، فأخذه جبرائيل بن بختيشوع وأحسن إليه.

٢ - بيمارستان البرامكة:

نسب تأسيسه إلى وزراء الدولة البرامكة، وقيل إنه عمل فيه الطبيب الهندي ابن دهني[١]، ولم يرد ذكر هذا الطبيب في المصادر التي بين أيدينا، ويروي الجاحظ أن الطبيب الهندي منكه الذي ذكرناه قد أسلم زمن الرشيد عن عقيدة ورغبة، ولعله هو الذي عمل في هذا البيمارستان البرمكي.

---

(١) تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص١٧٨.

٣ ـ بيمارستان المعافر:

أنشأه وزير الخليفة المتوكل العباسي وصديقه الفتح بن خاقان بفسطاط مصر، وكان الفتح أديباً عالماً بالحساب محبّاً للعلوم.

٤ ـ بيمارستان بدر:

عرف هذا البيمارستان أيضاً باسم الصاعدي والمعتضدي. أنشأه غلام الخليفة المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) أبو النجم بدر في محلة المخرم ببغداد، وعمل في هذا البيمارستان سنان بن ثابت بن قرة.

٥ ـ بيمارستان السيدة:

يقع في محلة سوق يحيىٰ في الجانب الشرقي من بغداد. أنشأته أم الخليفة المقتدر شغب سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م، وعمل فيه أيضاً سنان بن ثابت بن قرة.

٦ ـ بيمارستان المقتدري:

أسّسه الخليفة المقتدر العباسي (سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م) بباب الشام في الجانب الغربي من بغداد، ونلاحظ أن تاريخ تأسيسه يوافق تاريخ تأسيس بيمارستان السيدة أمّه، وقد أنشأ كل منهما بيمارستاناً في جانبي بغداد الشرقي والغربي. عمل في هذا البيمارستان يوسف الواسطي (ولعله يوسف الساهر الطبيب في أيام المكتفي)[1]، وجبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع.

٧ ـ بيمارستان ابن الفرات:

أسّسه الوزير العباسي الشهير بابن الفرات أبو الحسن علي بن محمد، وكان ذلك في خلافة المقتدر بالله (٩٠٨ ـ ٩٣٢ م) وعمل فيه ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة.

٨ ـ بيمارستان علي بن عيسىٰ:

ويعرف أيضاً ببيمارستان الحربية نسبة إلى محلة الحربية التي بني فيها ببغداد. أسّسه وزير المقتدر العباسي أبو الحسن علي بن عيسىٰ بن داود بن الجراح سنة ٣٠٢ هـ/٩١٤ م. وقد أسندت رئاسة الأطباء فيه إلى أبي عثمان سعيد بن يعقوب

---

(١) تاريخ الحكماء ص٣٩٢.

الدمشقي طبيب أبي الحسن الخاص.

٩ ـ بيمارستان باب المحول:

نسبة إلى مكان إنشائه بمحلة باب المحول في جانب الكرخ ببغداد. كان هذا البيمارستان قائماً في أيام الخليفة القائم بأمر الله (١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م)، ولم يذكر عنه شيء بعد هذا التاريخ.

١٠ ـ بيمارستان أنطاكية:

يقال إن ابن بطلان في سفرته إلى مصر دخل أنطاكية فوجد فيها بيمارستاناً يعمل فيه رجل دين لمعالجة المرضى، ويقال أيضاً إن ابن بطلان شارك هو نفسه في تأسيس هذا البيمارستان سنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣ م. ولا نعلم يقيناً أي الخبرين أصدق.

١١ ـ بيمارستان الأمير بجكم:

أسّسه أمير الأمراء أبو الحسن بجكم التركي (تولى إمرة الأمراء من قبل بني بويه) ببغداد في خلافة الراضي بالله (٩٣٤ ـ ٩٤٠ م) وعمل فيه من الأطباء سنان بن ثابت بن قرة.

١٢ ـ بيمارستان معز الدولة البويهي:

أسّسه معز الدولة الملقب بالأقطع (لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليد اليمنى) سنة ٣٥٥ هـ/٩٦٥ م على أنقاض السجن المعروف بالسجن الجديد ببغداد.

١٣ ـ البيمارستان العضدي:

لعله أشهر البيمارستانات في الدولة العباسية وأوسعها. أسّسه عضد الدولة البويهي أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة (ابن أخي معز الدولة المذكور آنفاً) في الجانب الغربي ببغداد سنة ٣٧٢ هـ/٩٨٢ م، وزوّده بما يحتاج إليه من الأطباء والممرضين والخدم والطباخين والأدوات والأدوية والعقاقير، وأضاف إليه مارستاناً خاصاً بالمجانين. وقد عمل في هذا البيمارستان ما يزيد على ستين طبيباً في عموم الاختصاصات، ذُكر منهم: جبرائيل بن عبيدالله حفيد بختيشوع، أبو علي إبراهيم بن بكس، علي بن إبراهيم بن بكس، أبو الحسن علي بن كشكرايا، أبو

يعقوب الأهوازي، أبو عيسىٰ بقية، نظيف الرومي (نظيف القس)، أبو الخير الجرائحي، أبو الحسن بن تفاح، أبو نصر الرحبي الكحال، عبد الرحيم بن علي المرزبان، أبو الفرج بن الطيب، ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة، أبو علي بن العطار، المجبر (الصلت)، هارون بن صاعد بن هارون الصابىء، أبو الحسن بن هبة الله بن الحسن، ابن التلميذ، ابن أثردي، ابن المارستانية، وبنو حسنون.

وكان عضد الدولة قد خصّص الأموال من خزانة الدولة لتنفق على مشاريعه الخيرية، وكان ما وقف للبيمارستان مبلغ مائة ألف دينار. وكان الأطباء فيه يتولون تدريس الطب للطلبة. وقد أصاب البيمارستان بعد نصف قرن على تأسيسه دمار وخراب بسبب الإهمال والأحداث السياسية والطبيعية، وقام بترميمه وتجديده الخليفة القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي طغرلبك. وحدث في سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م أن دخلت مياه نهر دجلة بعد فيضانه إلى حجرات وقاعات البيمارستان فاضطر نزلاؤه المرضى إلى مغادرته هرباً من الغرق. ثم أعيد بناء ما تهدّم منه وعاد الأطباء إلى العمل فيه من جديد.

١٤ - بيمارستان محمد بن علي بن خلف:

أسّسه محمد بن علي بن خلف، وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي، ويعرف بأبي غالب يلقب بفخر الدين الصيرفي، وكان وزر للخليفة القادر بالله في بغداد بين سنة ٤٠١ هـ/١٠٢٢ م.

١٥ - بيمارستان واسط:

أسّسه مؤيّد الملك الحسنْ بن الحسن الرخجي وزير القادر بالله في سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م.

١٦ - بيمارستان الري:

ذكر ابن جلجل[1] أن أبا بكر الرازي عمل في هذا البيمارستان قبل أن ينتقل إلى بغداد ليعمل في بيمارستانها. وقال ياقوت[2] في معجم البلدان في الكلام على مدينة الري: أنشأ المسلمون في هذه المدينة بيمارستاناً، ولم أهتد إلى من أنشأه».

---

(١) طبقات الأطباء ص٧٧.

(٢) معجم البلدان م٣ ص١٢١.

١٧ - بيمارستان ميافارقين:

أنشأه نصير الدولة بن مروان الدوستكي في خلافة القائم العباسي (١٠٣١ - ١٠٧٥ م)، كان نصير الدولة حين مرضت ابنته نذر إن شُفيت ليبنين بيمارستاناً لمعالجة الفقراء، وقام بمداواتها زاهد العلماء إلى أن برئت، وأصبح زاهد العلماء بعد ذلك مدرّساً في هذا البيمارستان ويمارس صناعة الطب فيه.

١٨ - بيمارستان أصفهان:

ذكر ابن أبي أصيبعة[١] هذا البيمارستان عند كلامه عن الطبيب ابن مندويه أحمد بن عبدالرحمن بن مندويه أبي علي، وكان ابن مندويه أيضاً من الأطباء الذين عملوا في البيمارستان العضدي ببغداد كما ذكر القفطي[٢].

١٩ - بيمارستان شيراز:

عمل فيه الطبيب الشيرازي قطب الدين أبو الثناء الشيرازي (ت ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م).

٢٠ - بيمارستان دار المرضى بنيسابور:

أسّس في أثناء حكم آل سلجوق في مدينة نيسابور حوالي سنة ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م، وقد صرف الوزير نظام الملك (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢ م) أموالاً طائلة على إنشائه وترتيبه.

٢١ - بيمارستان حرّان:

ورد ذكره في رحلة ابن جبير إلى المشرق سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م[٣].

٢٢ - بيمارستان زرنج:

في زرنج عاصمة سجستان جنوبي هراة (أفغانستان)، وقد ورد ذكره عند الأصطخري في كتابه «المسالك والممالك» ص٥٤١.

---

(١) عيون ص٤٦٠.

(٢) تاريخ الحكماء ص٤٣٨.

(٣) انظر تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٦٧.

٢٣ - بيمارستان مرو:

في مرو بفارس، عمل فيه عيسىٰ بن ماسة صاحب الكتب الطبية ومن المتقدمين في الطبّ.

٢٤ - بيمارستان خوارزم:

ورد ذكره عند ابن بطوطة في رحلته ص٣٥٩، قال: «بخوارزم مارستان له طبيب شاب يُعرف بالصهيوني نسبة إلى صهيون من بلاد الشام».

٢٥ - بيمارستان مكة:

ويعرف بالبيمارستان المستنصري نسبة إلى المستنصر العباسي (١٢٢٦ - ١٢٤٢ م)، وكان هو الذي أمر بتأسيسه بالجانب الشمالي من المسجد الحرام، وتأريخ وقفه سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤٠ م.

٢٦ - بيمارستان المدينة:

لا يعرف شيء عن تاريخ ومؤسس هذا البيمارستان، والمرجح أنه من العصر العباسي، قام بتجديده الملك بيبرس الصالحي (ت٦٧٦ هـ/١٢٧٧م)[١].

(١) تاريخ البيمارستانات ص٢٦٨.

الفصل الرابع عشر

الطب والأطباء في إفريقية (تونس) في عصر الأغالبة والفاطميين

في سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م تمّ افتتاح بلاد تونس في خلافة معاوية بن أبي سفيان بقيادة عقبة بن نافع الفهري الذي أسّس فيها مدينة القيروان. ولما دالت دولة الأمويين وآل الأمر إلى الخلفاء العباسيين، منح الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م عامله على القيروان إبراهيم بن الأغلب التميمي استقلالاً ذاتياً له ولخلفائه من بعده للعمل على وقف اعتداءات الأدارسة الذين كانوا يغيرون على أطراف الدولة العباسية في ذلك الوقت. منذ هذا التاريخ بدأ قيام دولة الأغالبة في الديار التونسية والتي دامت مائة واثنتي عشرة سنة، سجّلت هذه الدولة في خلالها الكثير من المفاخر الحضارية والعلمية. فقد كان أمراء هذه الدولة شغوفين بالعلم محبين للعلماء، وكانوا في الوقت نفسه مغامرين يعشقون الحرب حبّاً بالغنائم. وكان المسلمون منذ خلافة عثمان بن عفان يطمحون في الاستيلاء على إيطاليا وجزيرة صقلية، فما إن تمّ فتح تونس ولاحت لهم الجزيرة قويت رغبتهم في غزوها والاستيلاء عليها. ولأجل هذا الهدف قام زيادة الله الأول - ثالث أمراء الأغالبة - بتجهيز أسطول بحري أوكل قيادته إلى وزيره أبي عبدالله أسد بن الفرات بن سنان، فقام هذا الأخير باقتحام شواطىء صقلية حيث ثبت أقدامه على أرضها.

ولم يمرّ وقت طويل حتى تمّ للأغالبة فيما بين سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م و ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ م الاستيلاء على الجزيرة وعلى العاصمة سالرنو، وذهبوا إلى أبعد من ذلك فاستولوا على نابولي وباري وجزيرة مالطة (مالطية). وتبع ذلك أنه في سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٤ م أن قاد إبراهيم الثاني (٢٦١ - ٢٨٩ هـ/ ٨٧٥ - ٩١٢ م) أسطولاً حربياً استطاع بوساطته فتح مدينة سرقوسة. وهكذا أصبحت جزيرة صقلية كلها

تقريباً تحت أيدي الأغالبة. والجدير بالذكر أن هذه الأعمال الحربية والتوسّع العربي في البحر لم يستنفد جهود الأغالبة، فقد كان هؤلاء كما ذكرنا محبين للعلم والعلماء، ولذلك كرّسوا وقتهم بعد ذلك لتعميم المعرفة والعلوم بين المواطنين وتحديث الديار. فقد قام إبراهيم الثاني بتشييد مدينة «الرقادة» القريبة من القيروان وجعلها مركزاً للعلماء وطلاب المعرفة. ثم إنه أنشأ فيها بيت الحكمة الذي كان عبارة عن معهد لتدريس العلوم وترجمة الكتب، وعمل على استقدام علماء الطبيعيات والفقهاء والأدب والطب من مختلف الأقطار الإسلامية، وزوّدها بنفائس الكتب التي أتى بها من بغداد ودمشق ومصر والأندلس وصقلية أيضاً، كما استقدم إليها الرهبان النصارى من صقلية للعمل على ترجمة الكتب اليونانية واللاتينية إلى العربية. ومن أعماله العلمية أنه اجتلب إليه الطبيب إسحاق بن عمران من بغداد، ولعل ذلك كان النواة في إدخال الفكر الفلسفي والطب إلى الديار التونسية آنذاك. وقد حظيت سالرنو باهتمام الأغالبة فاشتهرت بعمرانها وإدارتها وتعليم أبنائها. وكان فيها الكثير من الجوامع التي كان بها مدارس نقل إليها أمراء الأغالبة ثلاثمائة معلم لتعليم الصبيان، ومحو الأمية وتعميم الثقافة. وكان المعلمون يعفون من خدمة الجهاد، فازدادت حركة التعليم في الجزيرة وانتشرت اللغة العربية وعلومها، وصار للمتعلم مكانة مرموقة عند الأمراء.

الطب في تونس:

وصل الطب اليوناني إلى تونس في زمن سيطرة الرومان عليها في حوالى سنة ٤٠ ق.م.، وكان هؤلاء ذوي ثقافة طبية يونانية، ومن الممكن أن يكون الطب اليوناني وصل إليها قبل هذا التاريخ، أي في عصر الازدهار الطبي الأبقراطي، فقد وجد بين الكتب الطبية التي كانت متداولة عند أهل البلاد كتاب «الفصول» لأبقراط، والذي ظل مرجعاً في الطبّ حتى سنة ٩٩١ م أي بعيد دخول الأغالبة بما يقرب من مائة سنة. ونقل أن الطب في أثناء حكم الرومان (في القرنين السادس والسابع الميلاديين) كان في دور الانحطاط، حيث تدنت المستويات العلمية، والظاهر أنه ظلّ على هذه الحال إلى أن تولّى الأمر الأغلب زيادة الله الأول أمر البلاد التونسية. فقد أسّس هذا الأمير أول مستشفى في تلك الديار (وكان المستشفى يسمى دمنة في ذلك العصر) وكان بناؤه في القيروان. ومع أن التاريخ لم يذكر لنا طبيباً واحداً ممّن مارس الطب في هذا المستشفى، إلاّ أن تأسيسه لا يمكن أن يكون إلاّ بناء على رأي من طبيب في ذلك الوقت وبإشراف منه على التأسيس. ومن المؤكد

أن في ذلك المستشفى عملت طائفة من الذين يلمون بشيء من الصنعة والذين سمّوا «فقهاء البدن»، وكان هؤلاء أفراداً متعلمين ملمين بعلوم الدين والطب في آن معاً، وكانوا إلى جانب عملهم في الدمنة يرافقون المحاربين ليقدموا لهم الإسعافات الأولية وما يمكن أن يفعلوه من العلاج.

أما الطب العلمي فلم يظهر في تونس إلّا في زمن دخول الطبيب إسحاق بن عمران البغدادي في أيام أميرها إبراهيم الثاني. فإسحاق يعتبر بحق مؤسّس أول مدرسة طبية في الديار التونسية وأبا أطبائها وباعث نهضتها الفكرية في العلوم النظرية والتطبيقية، والمرجح أن الفكر العلمي في الطب الذي جهد له إسحاق بن عمران وتلامذته لم يعط ثماراً ولم ينتشر إلّا بعد تأسيس بيت الحكمة في الرقادة، ومن المحتمل أيضاً أن يكون إسحاق قد وضع مؤلفاته الطبية في تونس لا في بغداد، على أن هذا لا ينفي أن يكون قد حمل معه كتب الطب البغدادية الموضوعة والمترجمة، ويحتمل أن يكون قد أُدخل بعضها بوساطة التجار إلى الديار التونسية، وعلى جميع الأحوال كانت بذور كتب هذه الديار بغدادية. ولكن على ما يبدو فضّل القراء مؤلفات إسحاق بن عمران على غيرها من الكتب على اعتبار أنها صنّفت على أساس معاينات ومشاهدات حالات المرضى من أهل البلاد، علماً أن الأطباء أمثال الرازي وابن سينا والمجوسي لم يعرفوا تونس وأجواءها وأطعمتها وماءها لتكون مؤلفاتهم أفضل من مؤلفات الطبيب إسحاق بن عمران[1].

وقد ساعد على سرعة انتشار المعارف الطبية في الديار التونسية هوى أمرائها في مساعدة العلماء على الترجمة والبحث، كما كان للأمراء أيضاً ميل إلى الأدب والشعر والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة، فكان لهذا الميل أثره في جذب الكثير من علماء بغداد ومصر والأندلس، ونهضت في البلاد حركة في المناظرة والبحث عن الحقائق العلمية والتصنيف كان من حصيلتها نخبةٌ من الكتب القيمة في معارف شتى وخصوصاً في مجال العلوم الطبية.

أقام العلماء والأطباء الذين وفدوا إلى تونس في هذه الديار حتى آخر أيامهم، والبعض منهم ممّن امتدّ به العمر رافق الفاطميين خلفاء الأغالبة الذين انتقلوا إلى الديار المصرية بعد ثورة المهدي، وقضوا بقية حياتهم في مصر، من مثل موسىٰ بن

(١) لمزيد من المعلومات عن الأغالبة انظر كتاب الأغالبة لمحمود إسماعيل عبدالرزاق، وكتاب الورقات لحسن حسني عبدالوهاب.

ألعازر وولده عون الله بن موسىٰ وأعين بن أعين، والبعض الآخر من هؤلاء كان ينتقل بين تونس والقاهرة أمثال أبي الصلت بن أبي الصلت الداني، أو بين تونس وإسبانيا أمثال عمر بن حفص بن بريق، ولذا فقد نقرأ أسماء هؤلاء منسوبة إلى مصر أو الشام أو إسبانيا إضافة إلى نسبتهم التونسية.

وعن طريق صقلية وسالرنو ومدارسها نقلت كتب الأطباء الأغالبة إلى أوروبة بعد أن ترجم العديد منها إلى اللغة اللاتينية وصارت من أهم كتب الدراسة فيها، كما ترجم البعض منها إلى اللغة العبرية، ولعل اهتمام أوروبة بالكتب التونسية هذه يعود إلى موضوعيتها العلمية، أضف إلى ذلك ما تتمتع به جغرافية تونس من موقع يجعلها أقرب إلى الأوروبيين واليهود العبريين من مواقع القاهرة وبغداد ودمشق.

وكان من عادة الأمراء الأغالبة تجديد الولاء للخلافة العباسية مرة أو مرتين كل عام، فكان الأمير إبراهيم الثاني يوفد وفود الولاء إلى بغداد ويكلّفهم أن يجمعوا له المخطوطات الأصلية والكتب المترجمة التي يستطيعون الحصول عليها في بغداد ودمشق ومصر، ويطلب إليهم في الوقت نفسه إغراء العلماء والأطباء بالانتقال إلى تونس ليخدموا فيها بعلومهم وصنائعهم. والمعروف تاريخياً أن الأمراء إبراهيم الثاني وولده عبدالله الثاني وحفيده زيادة الله الثالث كانوا قد أقاموا فترة في صقلية واختلطوا بأهلها وتعلموا اللغة اللاتينية منهم، وهذا ما يفسّر لنا رغبة هؤلاء الأمراء في نقل الكتب اليونانية واللاتينية بالتالي إلى تونس في بيت الحكمة بالرقادة وترجمتها إلى اللغة العربية، وكان من ضمن هذه الكتب التي جرى ترجمتها كتاب «بلينس» في النبات والذي أضحى مرجعاً هاماً للعشابين التونسيين قبل أن يصل إليهم كتاب ديوسقريدس بترجمة أطباء بغداد أو نظرائهم في قرطبة.

لقد أتاح هذا الوضع لبيت الحكمة في الرقادة أن يلعب دوراً مهماً مؤثراً في تنشيط العلوم والمعارف ونشرها بين تلك الأصقاع، فكان بيت الحكمة يستقدم كتب الرازي والمجوسي وابن سينا وترجمات حنين بن إسحاق إلى تونس قبل وصولها إلى ديار الأندلس، وكذلك فيما يتعلق بكتب الأندلس والمغرب التي تنقل إلى ديار مصر. كما كانت تونس حقاً المركز الذي انبعثت منه العلوم الطبية العربية لتصل إلى صقلية وإيطاليا لتصبح من مقررات الدراسة في مدارسها وجامعاتها.

إنّ بيت الحكمة بفضل هذه الشهرة المزدوجة في استجلاب الكتب الأصلية ونشر ترجماتها أوحى إلى الأوروبيين فكرة ترجمة المؤلفات التونسية وكتب بغداد التي كانت متداولة في أيدي أطباء هذا المعهد العلمي إلى اللغة اللاتينية والعبرية. ولا

شك أن كتب معاهد التدريس وبيوت العلم هي أفضل المؤلفات من حيث النظرية والتطبيق، ومن هنا يمكن أن ندرك أن اهتمام الغربيين بترجمة مؤلفات إسحاق بن عمران وتلميذه إسحاق بن إسرائيل إلى اللاتينية إلى أنها كانت مما كان يدرّس في بيت الحكمة. وقد بقي هذا المعهد العلمي الشهير يلعب دوره الكبير في نشر المعرفة والعلوم والترجمات إلى أن استولى عبيدالله المهدي سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م على الديار التونسية، وجعل من البيت مركزاً لبث الدعوة الإسماعلية ـ الفاطمية لصالح العبيديين. وهنا لم يجد أطباء بيت الحكمة وعلماؤه بدّاً من الهجرة بعد انتفاء الهدف العلمي من وجودهم هناك، فانساحوا خارج تونس وتفرقوا في الديار المصرية والأندلسية وبلاد الشام. وبرحيلهم انطفأت شعلة بيت الحكمة التي ظلّت مشتعلة طيلة أكثر من أربعين سنة، عمل في أثنائها الأطباء والعلماء في ترجمة الكتب اللاتينية والبربرية (لغة البلاد) إلى اللغة العربية، وتدريس العلوم التطبيقية للمتعلمين، والعمل في البحث العلمي والتأليف في الطب وعموم المعارف.

بعد هذا العرض الموجز لتاريخ الطب في تونس ودور بيت الحكمة في نشر الثقافة، لا بدّ لنا من ذكر مشاهير أطباء تونس ممّن كان لهم الأثر الكبير في تاريخ الطب عموماً.

● إسحاق بن عمران الملقب بسم ساعة:

مؤسّس الطب في تونس وشيخ أطبائها جميعاً، عرف بسم ساعة لسرعة إبرائه المرضى. كان من أطباء بغداد وسامراء في أيام الخليفة المعتمد على الله (٨٧٠ ـ ٨٩٢ م). مسلم النحلة مع أن اسمه يوحي بغير ذلك. وقد عاصر من الأطباء في بغداد بختيشوع بن جبرائيل وحنين بن إسحاق وغيرهما، ولا بدّ أنه اتصل بهم وأخذ الطب عن واحد منهم. دخل القيروان في دولة زيادة الله بن الأغلب كما ذكر ابن جلجل في ترجمته، مع أننا عرفنا أن الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي هو الذي استدعاه ليكون طبيبه الخاص في القيروان. وكانت الشروط الثلاثة التي اشترطها إسحاق هي نفسها التي ذكرها ابن جلجل في ترجمة حياته، وذكر أن زيادة الله بن الأغلب لم يفِ بها: راحلة أقلّته، وألف دينار لنفقته، وكتاب أمان بخط يده، أنه متى أحب الانصراف إلى وطنه انصرف. وسواء أكان الذي استقدمه إبراهيم الثاني أو زيادة الله الثالث، فإن إسحاق التحق بحاشية الأمير في القيروان بعد أن وجد فيها ما يحقق رغباته ويوفر له متطلبات الدراسة والاتصال بالعلماء وطلبة العلم في بيت الحكمة بالرقادة تماماً كما كان يفعل في بيت الحكمة ببغداد، كما أنه وجد في كل من

القيروان ورقادة مستشفى يمارس فيه الطب ويدرّسه، فصار إلى جانب الأمير يخدمه ويعمل في الوقت نفسه في بيت الحكمة ومعالجة المرضى.

بعد إبراهيم الثاني التحق سم ساعة بابنه عبدالله الثاني ثم بزيادة الله الثالث (٩٠٣ ـ ٩٠٩ م) وهو آخر أمراء الأغالبة في الديار التونسية. وكان هذا الأمير مضطرب الفكر مصاباً بمرض نفسي، وقد دارت له مع هذا الأمير محنة أوجبت الوحشة بينهما حتى صلبه ابن الأغلب.

كان إسحاق قد استأذنه في الانصراف إلى بغداد فلم يأذن له. وكان إسحاق يشاهد أكل ابن الأغلب، فيقول له: كل هذا ودع هذا، حتى ورد على ابن الأغلب حَدَث يهودي أندلسي، فاستقربه وخفّ عليه وأشهده أكله، فكان إذا قال إسحاق له: اترك هذا لا تأكله، قال الإسرائيلي: نصلحه عليك. وكان بابن الأغلب علّة النسَمة، وهي ضيق النفس، فقدّم بين يديه لبن مُريّب، فهمّ بأكله، فنهاه إسحاق، وسهّل عليه الإسرائيلي، فوافقه بالأكل، فعرض له في الليل ضيق نفس حتى أشرف على الهلاك، فأرسل لإسحاق، وقيل له: هل عندك من علاج؟ فقال: قد نهيت فلم يُقبل مني، ليس عندي علاج. فقيل لإسحاق: هذه خمسمائة دينار وعالج، فأبى حتى انتهى إلى ألف مثقال فأخذها وأمر بإحضار الثلج، وأمره بالأكل منه حتى يمتلىء ثم قيّأه فخرج جميع اللبن قد تجبّن ببرد الثلج. فقال إسحاق: أيها الأمير، لو وصل هذا اللبن إلى أنابيب رئتك ولحج (نشب) فيها أهلكك بتضييقه للنفس. لكني أجمدته وأخرجته قبل وصوله. فقال زيادة الله: باع إسحاق روحي في النداء، اقطعوا رزقه، فلما قطع عنه رزقه، خرج إلى موضع فسيح من رحاب القيروان ووضع هنالك كرسياً ودواة وقراطيس، فكان يكتب الصفات كل يوم بدنانير، فقيل لزيادة الله: عرضت بإسحاق للغنى. فأمر بضمّه إلى السجن، فتبعه الناس هنالك، ثم أخرجه بالليل إلى نفسه. وكانت له معه حكايات ومعاتبات حتى غضب عليه زيادة الله وأمر بفصده في ذراعيه جميعاً وسال دمه حتى مات، وأمر بصلبه على الجذع الذي كان صلب عليه الفزاري[1].

عاش إسحاق في القيروان قرابة عشرين سنة نضجت في تلك الفترة أفكاره

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ص٨٥ ـ ٨٦، والفزاري المذكور هو إبراهيم الفزاري كان من أهل المناظرة والجدل، ورمي بالتعطيل وأشهد عليه أنه يستهزىء بالله وكتابه وأنبيائه ونبيه محمد ﷺ وحكم عليه القاضي أبو العباس عبدالله بن طالب بن سفيان في القيروان بالصلب، فطعن بسكين في حنجرته وصلب منكساً ثم أنزل بعد ذلك وأحرق بالنار.

ووضع فيها كل كتبه. وكانت ممارسته في الطب على طريقة الأطباء الأوائل، فتبنى نظرية الأخلاط كسبب مهم من أسباب المرض ونصح بمداراتها وحفظ التوازن فيما بينها. كما كان يوصي بعمل الحجامة واستعمال النورة في فصل الربيع وتجنب القطائي والمربى بالورد وشراب الشعير والكزبرة الخضراء والخيار والبطيخ وأكل لحم البقر والماعز، وعدم المجامعة في الخريف الذي يعتبره فصل السوداء. وكان يولي فحص النبض والبول اهتماماً خاصاً في الفحص السريري، كما اعتمد على تلمّس الأعضاء في تشخيص العلاج. وتعتبر آراؤه في مرض المالنخوليا من ذات تجاريبه، ومن المحتمل أن الكتاب الذي صنّفه في هذا المرض كان من معايناته وتجاربه على زيادة الله الثالث الأغلبي. وفي كتابه المذكور معلومات مفصلة عن أسباب هذا المرض وأنواعه وأعراضه وطرق مداواته، وكان ينقد ما كتبه الأولون عنه، قال: «إنه لم يقرأ لأي طبيب من القدماء الذين كتبوا عن مرض المالنخوليا كما قرأ لروفس الأفسسي في هذا الموضوع، فقد أشبعه درساً وشمولاً».

نبغ من تلاميذ ابن عمران ابنه علي بن عمران وزياد بن خلفون وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي الذي وفد عليه من مصر ليكمل عليه تحصيله في الطب والحكمة، وأبو بكر محمد بن الجزار عمّ أحمد بن إبراهيم بن الجزار وغيرهم. قال عنه ابن جلجل[1]: «به ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة». وقال عنه ابن صاعد الأندلسي: «وهو الذي ألّف بين الطب والفلسفة بديار المغرب». لقد شهر إسحاق بن عمران فيلسوفاً بقدر ما شهر طبيباً. وقد ذكر من مؤلفاته ما يزيد على الخمسة عشر كتاباً لم يصل إلينا منها كاملاً إلاّ كتاب «المالينخوليا». أما هذه الكتب:

- كتاب في الفصد.
- كتاب العنصر والتمام (أخذ عنه ابن البيطار في كتابه الجامع).
- كتاب في النبض.
- كتاب في طبقات العين.
- رسالة في حفظ الصحة وتدبيرها (كتبها إلى بعض إخوانه).
- مقالة في الاستقساء.
- كتاب الثمار (مقتطفات من مصنفات جالينوس).
- مقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته.
- كتاب في البول (جمعه من كلام أبقراط وجالينوس وسواهما).

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ص ٨٥.

ـ كتاب في الشراب (النبيذ) (جمعه من أقوال جالينوس).
ـ مسائل في الشراب.
ـ كتاب في بياض المعدة وبياض المني ورسوب البول.
ـ مقالة وجيزة كتب بها إلى سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون في مصر، يبيّن فيها الأشياء التي يقال إنها تشفي الأسقام وفيها يكون البرء.
ـ قطعة من كتاب الأقراباذين.

● زياد بن خلفون:

لم يرد في المصادر ذكر أصل زياد بن خلفون، والراجح أن يكون والده من الموالي الصقالبة أو الصقليين، أو أن يكون من الوافدين التجار الذين كانت تجتذبهم تجارة الرقيق. وكل ما عرف أنه درس أسس الطب على إسحاق بن عمران وكان زميلاً لإسحاق بن سليمان في خدمة زيادة الله الثالث (ويعني أنهما زاملا إسحاق بن عمران) والمهدي عبيدالله. وقد كان زياد بن خلفون أثيراً عند عبيدالله المهدي طيلة عشر سنوات إلى أن اغتاله بعض حساده في القيروان في سنة ٣٠٨ هـ/ ٩٢٠ م.

● ابن ظفر:

الفضل بن علي بن ظفر. كان من الأطباء الأدباء في القيروان في زمن الأغالبة. كان يتردد على بيت الحكمة في رقادة، ولم يعرف أحد من شيوخه، إلاّ أنه لا شك أخذ عن البعض من أساتذة هذا المعهد. يروى أنه نجح في ممارسة الصنعة ونال حظوة وجاهاً عند الأمراء والحكام. توفي سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م بعد مرض أصابه فحجبه عن ممارسة مهنته أعواماً.

● دنش بن تميم:

أبو سهل وكان أصحابه يدعونه «أدنيم»، كما كان يلقب بالتفلجي الإسرائيلي. أصله من العراق قدم أهله القيروان في زمن الأمراء الأغالبة في تجارة. وفي القيروان ولد دنش ونشأ على العلم، فدرس الطب على إسحاق بن سليمان الإسرائيلي كما درس عليه أيضاً الحساب والفلسفة وعلم الفلك واللغة العبرية «لغة أستاذه»، ثم تفقّه في الشريعة الموسوية (اليهودية) حتى صار معتمد يهود العراق ومصر وإسبانيا في الفتوى بالأمور الدينية. وبعد أن دالت دولة الأغالبة التحق دنش ببلاط الفاطميين في المهدية التي بناها عبيدالله المهدي وخدم هناك المنصور والمعز

لـدين الله وألّف لهما الكتب في الـطب والتنجيم، وكان يحصـل منهـما عـلى جـزيـل العطاء والاحترام والإجلال. أشيع أنـه دخل في الإسـلام، إلاّ أنه لم يلتحق بـركب المعز لدين الله حين انتقل إلى القاهرة تاركاً المهدية.

كان دنش فصيح اللسـان جيّد اللغة في العربية تماماً كما كـان في العبريـة، وله كتاب في المقارنة بين اللغتين كتبه بالعربية سوى بعض الكلمات العـبرية القليلة التي تفرقت بين فقراته. وكانت وفاة دنش في حوالي سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧١ م.

له من المؤلفات الطبية:

- كتـاب في الفلك وحركـة الكواكب، كتبـه إلى صديقه أبي يوسف حسداي طبيب الخليفة الحكم الثاني بقرطبة، وفيه تعديل السنين الشمسيـة بحساب الشهور القمرية.
- كتاب التلخيص في الأدوية المفردة (نقل عنه ابن البيطار في جامعه).
- كتـاب في الحساب الهنـدي المعروف بـ «حسـاب الغبـار»، وهـو من أقـدم المصنفات في هذا الموضوع.

● إسحاق بن سليمان الإسرائيلي:

أبو يعقوب المعروف بإسحاق اليهودي. ولد ونشأ بمصر، وكان يمارس الكحالة فيهـا في زمن أحمـد بن طـولـون (٨٦٨ - ٨٨٤ م). ســافـر إلى القـيروان قـاصــداً إسحـاق بن عمران ودرس عليـه الطب والحكمـة فيها، ثم رجـع إلى مصر موطنـه. كان فطناً ذكياً ذا عقلية مبتكرة وطموح في تحصيل العلم، حتى أنـه لم يتزوج طـوال حياته التي دامت ما يقرب من المائة سنة ليتفرغ للدراسة ومتابعة مستحدثـات الطب وممارسته وتأليف الكتب فيه. وكانت له منزلة دينيـة بين أبنـاء ملّته من يهود إفريقيـة والمغرب. ولما وصلت شهرته إلى تونس استدعاه أميرها زيادة الله الثالث ليكون طبيبه الخاص بعد أن قتل طبيبه إسحاق بـن عمران صلبـاً. ولكنّ إسحاق لم يـدم طويـلاً في خدمته إذ هرب زيادة الله الأغلبي تـاركاً البـلاد في أيدي عبيـدالله المهدي داعيـة الفاطمية. فـانتقل إذ ذاك إسحـاق إلى خدمـة عبيدالله ثم ابنه القائم ثم المنصور ثم المعزّ لدين الله أخيراً قبل أن ينتقل إلى القاهرة.

قـال عنه ابن جلجـل[1]: «كان طبيبـاً لسناً عـالمـاً بتقـاسيم الكـلام وتفـريـع

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ص٨٧.

المعاني. وله تواليف لم يسبقه أحد إلى مثل بعضها».

قيل لإسحاق: أيسرك أنّ لك ولداً؟ قال: أمّا لما صار لي كتاب الحميات أكثر فلا. يعني أن بقاء ذكره بكتاب الحميات أكثر من بقاء ذكره بالولد.

توفي إسحاق بن سليمان بعد سنة ٣٣٠ هـ ـ ٩٤١ م. ومن أشهر تلامذته ابن الجزار. وقد ترك لنا مؤلفات ذات قيمة تطبيقية عالية ترجم الكثير منها إلى اللغة اللاتينية، قام بترجمتها قسطنطين الإفريقي، كما ترجم بعضها إلى العبرية. ذكر له من الكتب كتاب «البول» وكتاب «الحميات» وكتاب في «الغذاء والدواء» وله في الفلسفة كتب منها: كتابه الذي أسماه «بستان الحكمة» وكتابه في «الحدود» وكتابه في «المنطق» وكتابه في «الترياق».

أمّا كتاب الحميّات فإنه يتكوّن من خمس مقالات، قال فيه ابن رضوان المصري: «إن هذا الكتاب نافع وجمع رجل فاضل، وقد عملت بكثير ممّا فيه فوجدته لا مزيد عليه». وقد ترجم قسطنطين الإفريقي هذا الكتاب إلى اللاتينية حوالى سنة ١٠٨٠ م، واختصره عبداللطيف البغدادي بكتاب أسماه «اختصار كتاب الحميات»[١].

وله غير هذه الكتب التي ذكرنا:

- كتاب الأسطقسات.
- كتاب المدخل إلى صناعة الطب.
- كتاب في النبض (اختصره عبداللطيف البغدادي).
- مقالة في الكحل.
- كتاب التعاريف (ترجمه قسطنطين إلى اللاتينية).
- وكتاب مرشد الأطباء.

● موسىٰ بن ألعازر (العَيْزار):

يهودي النحلة أصله من مدينة أوريا التي أسماها العرب «واري» في جنوبي إيطاليا. قيل إن الفاطميين أسروه في إحدى غزواتهم في تلك الديار سنة ٣١٣ هـ ـ ٩٢٥ م، ويجوز أنه قد يكون قد تعلم شيئاً من الطب قبل أن يدخل إلى المهدية أو أنه درس الطب فيها على الصغر، وقدم الخدمة فيها للخليفة المنصور ثم المعزّ لدين

(١) تاريخ الحكماء ص٣٢٠.

الله. يقول القفطي[1]: «وكان موسىٰ بن العيزار وربما قيل ابن العازر طبيباً بالديار المصرية وخدم المعزّ العلوي عند قدومه من المغرب وركّب له أدوية كثيرة ورزق توفيقاً». وكان الطبيب الأثير عند المعزّ يرافقه في حلّه وترحاله، ويعمل له الأشربة والمعاجين والترياقات. وكان موسىٰ عارفاً بالأدوية المفردة ويجيد تراكيبها. يقول القفطي: «كان طبيباً عالماً بصناعة العلاج وتركيب الأدوية وطبائع المفردات، وهو الذي ألّف شراب الأصول وذكر أنه يفتح السُدَد ويحلّل الرياح الشراسيفية والأمغاص العارضة للنساء عند حضور طمثهنّ ويدرّ الطمث وينقي الرحم من الفضول المانعة لها من قبول النطفة ومن الأخلاط اللزجة التي تكون سبب إسقاط الأجنّة وينفع الكلى والمثانة ينقيهما من الفضول الغليظة المتكوّن منها الحصى، ويطرّق الأدوية الكبار حتى يوصلها إلى عمق الأعضاء الآلمة ويحلّ الماء الأصفر من البطن ويخرجه بالبول».

ومّما ركّب من الأدوية للمعزّ شراب التمر هندي واشترط فيه شروطاً كثيرة من النفع وصحّت. كما أن له دراسة بطب العيون ومعالجات ناجحة فيها مارسها بالقيروان.

توفي موسى بن العازر بعد سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٦ م، وأعقب أولاداً وأحفاداً امتهنوا حرفة الطب أيضاً وكانوا كلهم في خدمة البلاط الفاطمي، عرف منهم: عون الله بن موسىٰ وهو أكبر أولاد موسىٰ، أسلم ورافق والده عندما انتقل إلى القاهرة مع الخليفة المعزّ الفاطميّ، ثم إسحاق بن موسىٰ الذي كان مفضلاً عند المعزّ، توفي بعد انتقاله إلى القاهرة بأقل من سنة وبعد وفاة أخيه عون الله بيوم واحد، ثم إسماعيل بن موسىٰ أصغر أبناء موسىٰ، ألحقه المعزّ بحاشيته بعد وفاة إسحاق أخيه، ثم كان يعقوب بن إسحاق بن موسىٰ (حفيد) خدم المعزّ مع عمّه إسماعيل بإشراف جدّه موسىٰ.

ولموسىٰ بن العازر من المؤلفات الطبية:

- مقالة في السعال.
- كتاب الأقراباذين.
- كتاب المعزّي في فن الطبخ (صنّفه للمعزّ)[2].

---

(١) المصدر نفسه ص٣٢٠.

(٢) انظر مؤلفاته في عيون الأنباء ص٥٤٥.

● أعين بن أعين:

لم يذكر ابن أبي أصيبعة شيئاً عنه غير هذا الاسم . كان في المهدية أكثر عمره وفيها عُرف بممارسة مهنة الطب والكحالة على وجه الخصوص. ويظهر أنه كان من جلة أطباء البلاط الفاطمي في القاهرة، رافقهم إلى مصر وهناك وافته المنية في سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م في أيام الخليفة العزيز بن المعزّ.

ذكر له من المؤلفات:

- كُنّاش في الطب.
- كتاب أمراض العين ومداواتها.

● قسطنطين الإفريقي:

لم يرد اسم هذا الطبيب التونسي في المصادر العربية، بينما ذكرت المصادر اللاتينية والأوروبية اسمه كثيراً وبصورة مركّزة على أن قسطنطين كان طبيباً عربياً مسلماً من أبناء تونس ومن مواليد قرطاجة تحديداً، وورد ذكره في مصادر أوروبية أخرى على أنه من أبناء مدينة القيروان وليس قرطاجة. وتروي هذه المصادر أن قسطنطين غادر موطنه إلى إيطاليا نازحاً حيث تنصّر واتخذ هذا الاسم، وهذا يعني بلا شك أن هذا الطبيب كان له اسم عربي إسلامي قبل نزوحه وتنصّره وتغيير اسمه. والقريب من الصحة أن يكون قسطنطين هو صاحب الاسم المعروف بـ «عابد يلا» (لعله عبدالله) الذي ورد ذكره في المصادر اللاتينية والأوروبية على أنه كان أحد ثلاثة علماء شاركوا في إدخال اللغات الثلاث المعروفة يومذاك إلى مدرسة سالرنو في صقلية، وكانت هذه اللغات هي اللاتينية واليونانية والعربية. وقد يكون أصل هذا الطبيب من أهل البلاد أو كان رقّاً من القوط أو سبياً من الإيطاليين أو جزيرة صقلية، وبما أن مولده كان معروفاً في سنة معينة (سنة ١٠٢٠ م) فلا شك أنه نشأ في كنف إحدى الأسر المسلمة الغنية في تونس أيام المعزّ بن باديس الزيري (من الخلفاء الزيريين) أو أيام من حكم ابنه تميم المتوفى سنة ١١٠٧ م. ويروى أن سيّده كان كثير الأسفار إلى بلاد المشرق الإسلامي وأن قسطنطين هذا كان يصحبه في هذه الأسفار فتعلم عدداً من اللغات وعلوم البلاد التي يحلّ بها، فلما أعتقه سيّده مارس التجارة على حسبها تعلم من سيده، كما أنه توسع في دراساته، ولا بدّ أنه كان

---

(١) عيون الأنباء ص٥٤٦.

ذكياً وصاحب عقيدة ومحاججاً وخصماً عنيداً، ولذلك فلربما اختلف مع أبناء موطنه وهاجر إلى إيطاليا تاركاً تونس، وقيل إنه دخل إيطاليا مرتين وحمل معه في المرة الأخيرة عدداً من كتب الطب العربية، ولّما وجد أن سوق هذه الكتب رائجة للعلم في جنوبي إيطالي، وفي سالرنو خصوصاً، اعتنق المسيحية هناك واتخذ له اسم قسطنطين، وانقطع إلى دراسة كتب الطب وترجمتها إلى اللاتينية التي كان يعرفها. والمرجح أنه لم يمارس الطب في تونس أو أنه كان طبيباً مغمور الصيت في موطنه، فلم يرد ذكره في التاريخ العربي الذي تناول أحداث الديار التونسية في تلك الحقبة، فأهمل اسمه تماماً كما أهل ذكر اسم الطبيب اليهودي الإسباني الذي أثار غضب الأمير الأغلبي زيادة الله الثالث على طبيبه الخاص إسحاق بن عمران ممّا أدّى إلى فصده وصلبه.

والجدير بالذكر أن القسم الأخير من حياة قسطنطين الإفريقي، توفي سنة ١٠٨٧ م، وهو القسم الذي عاشه في ربوع إيطاليا كان معروفاً مذكوراً أكثر من تاريخ حياته الأولى التي قضاها في تونس، ولعل هذا القسم الأخير هو الذي أدخل قسطنطين دائرة النور في تاريخ الطب العربي بأوروبة.

● أحمد الجزار:

أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار، أبو جعفر، كان ثالث ثلاثة أطباء شُهروا في الديار التونسية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. قيرواني الدار مسلم النحلة، طبيب ابن طبيب، وعمّه أبو بكر محمد بن أبي خالد الجزار عاش في النصف الأول من القرن الرابع، له أدوية من أشربة ومعاجين وترياقات ذكر بعضها ابن أخيه أحمد في كتاب «طب المشايخ». كان ممّن لقي إسحاق بن سليمان وصحبه، وله في الطب تواليف عجيبة، وكان من أهل الحفظ والتطلّع والدراسة للطب وسائر العلوم، وله تواليف في غير الطب، كتأليفه التواريخ: التعريف بصحيح التاريخ، أخبار الدولة، مغازي إفريقية، عجائب البلدان، وتأليفه كتاب «الفصول والبلاغات».

كان أحمد قد أخذ بنفسه مأخذاً عجيباً في سمته وهديه وقعوده، ولم تحفظ عليه بالقيروان زلّة قط. ولا أخلد إلى لذّة، وكان يشهد الجنائز والأعراس ولا يأكل فيها، ولم يركب إلى أحد من رجال إفريقية ولا إلى سلطانها إلاّ إلى أبي طالب عم معد، كان له صديقاً قديماً وكان يركب إليه كل جمعة لا غير. وكان ينهض في كل

عام إلى المنستير ـ رابطة على البحر ـ فيكون هنالك طول أيام القيظ ثم ينصرف إلى إفريقية. وكان قد وضع على باب داره سقيفة أقعد فيها غلاماً له يسمّى برشيق أعدّ بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدوية، فإذا رأى القوارير بالغداة أمر بالجواز إلى الغلام وأخذ الأدوية منه نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئاً.

ذكره ابن جلجل في طبقاته، قال[1]: «حدثني عنه من أثق به قال: كنت عنده غداة في دهليزه وقد غصّ بالناس، إذ أقبل ابن أخي النعمان القاضي (أبي حنيفة)، وكان حَدَثاً جليلاً بإفريقية يستخلفه القاضي إذا منعه مانع عن الحكم، فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه إلاّ مجلس أبي جعفر. فخرج أبو جعفر فقام له ابن أخي القاضي على قدم، فما أقعده ولا أنزله، وأراه قارورة بماء كانت معه لابن عمّه ولد النعمان، واستوفى جوابه عليها وهو واقف، ثم ركب ونهض وما كدح ذلك في نفسه، وجعل يتكرّر عليه بالماء في كل يوم حتى برأ العليل. قال الذي حدثني ـ والكلام لابن جلجل ـ: فكنت عنده ضحوة نهار، إذ أقبل رسول النعمان القاضي بكتاب يشكره فيه على ما تولى من علاج ابنه، ومعه منديل بكسوة وثلاثمائة مثقال، فقرأ الكتاب وجاوب شاكراً، ولم يقبض المال ولا الكسوة».

توفي ابن الجزار في القيروان حوالى سنة ٣٩٦ هـ/١٠٠٥ م[2] تاركاً ثروة ضخمة تقدر بأربعة وعشرين ألف دينار، وخزانة كتب فيها خمسة وعشرون قنطاراً من المخطوطات، وذكراً طيباً على ألسنة كثير من الذين ترجموا له في مؤلفاتهم أمثال الصفدي في الوافي وياقوت في المعجم وابن صاعد في الطبقات وابن القفطي في إخبار الحكماء وابن أبي أصيبعة في العيون. وقد بقي أطباء تونس يدعون إلى قرابة كتبه والعمل بآرائه طيلة ستة قرون بعد وفاته، ومنهم الطبيب التونسي أحمد الحميري (من أطباء القرن العاشر الهجري) الذي قال في كتابه «تحفة القادم»: «إن غالبية المصنفات الكبيرة التي تنظر في علم الطب مصنفوها من غير هذا الإقليم الإفريقي كابن سينا والرازي والمجوسي وغيرهم، والمناسب النظر في هذا الإقليم في تصانيف ابن الجزار لأنه إفريقي، أما سائر كتب الطب فلا ينبغي لغير الطبيب الماهر المداواة بنصّها على ما هي عليه إلاّ بعد مراعاة قدر اختلاف الطبائع واعتبار

---

(١) طبقات ص٨٩.

(٢) ذكر ياقوت أن وفاته كانت سنة ٣٣٨ هـ في حين ذكر ابن عذارى أن وفاته كانت سنة ٣٦٩ (وعليه اعتمد سزكين وحسن حسني عبد الوهاب) وقال حاجي خليفة إنه قتل في الأندلس بتلك السنة، وحدد بروكلمان وفاته في سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م.

الأقـطار وتـأثـير الأدويـة في قـطر دون قـطر بحسب اختـلاف عـرض الأقـاليم والعادات. . . ».

نبـغ من تـلاميـذ ابن الجـزار أبـو حفص بن بـريق الأنـدلسي. ولابن الجـزار مؤلفات طبيـة كثيرة إلاّ أن معظمها لم يصل إلينا وضاع كما ضاع الكثير من المؤلفات العربية الإسلامية. من كتبه نذكر:

ــ كتاب زاد المسافر وقوت الحـاضر، في مجلدين (وهو من أشهـر كتبه)، ذكـر فيه أنواع الأمـراض الباطنـة والظاهـرة. وصل المشرق العـربي قبل وفاة مؤلفه فكـان موضع تقـدير الأطبـاء جميعهم، ونقله إلى ديار الأنـدلس تلميذه أبـو حفص عمر بن بريق. ترجمه قسطنطين الإفريقي إلى الـلاتينية، وإلى العـبرية نقله مـوسىٰ بن طبون تحت اسم «تزداد ها دار ياخيم».

ــ رسالة في إبدال الأدوية (خلطهـا وتحريكهـا)، وتعرف أيضـاً باسم «إعـداد العقاقير».

ــ كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة، عـارضه عبـدالرحمن بن إسحـاق بن هيثم القرطبي بكتاب أسماه «الاقتصار والإيجاد في خطإ ابن الجـزار في الاعتقاد»، نقله إلى اللاتينية الراهب اصطفن السرقسطي سنة ١٣٣٣ م، وتـرجمه إلى العـبرية مـوسىٰ بن طبـون، ثم ترجمه إلى اللاتينية قسطنطين الإفريقي وانتحله لنفسه.

ــ كتاب الخواص (له ترجمتان واحدة باللاتينية وأخرى بالعبرية)[1].

ــ كتـاب طب الفقراء والمسـاكين، في الأدويـة الرخيصـة الثمن (كان يفحص المرضى ويزودهم بالدواء مجاناً).

ــ كتاب طب المشايخ وحفظ صحتهم.

ــ كتـاب سياسـة الصبيان وتـدبيرهم، يتضمن معلومـات في صفات المـرضـع وطعـامها ولبنها، وما يصيب الـطفل حسب سنّـه من الأمراض كـالإسهال ورطـوبـة الأذنين والتهاب السرة، وفيه باب في معالجة السعفة في رأس الطفـل وورم اليافـوخ وانتفـاخ البطن، وآخـر في داء الصرع عند الصبيـان، والوجـع عند بـروز الأسنـان وقروحها وقروح الفم، وذكر أسباب القيء، وفي الديـدان المتولـدة في الأمعاء، وفي الحصى المتولدة في المثانة، وغيرها من العلل. والكتاب في اثنين وعشرين باباً.

ــ كتاب في الكلى والمثانة (ذكره في مؤلفه سياسة الصبيان وتدبيرهم).

---

(١) Brocklmann 1]274 - 275 .

ــ كتاب مداواة النسيان وطرق تقوية الذاكرة.
ــ كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها (ذكره في طب المشايخ) وهو في أربع فصول.
ــ كتاب المالينخوليات.
ــ كتاب «مجربات في الطب».
ــ كتاب أصول الطب (ذكره في طب المشايخ).
ــ كتاب البغية (في الأدوية المركبة).
ــ كتاب البلغة في حفظ الصحة.
ــ كتاب العطر (ذكره في طب المشايخ).
ــ رسالة في التحذير من إخراج الدم من غير حاجة دعت إلى إخراجه.
ــ رسالة في الزكام وأسبابه وعلاجه.
ــ رسالة في المقعدة وأوجاعها.
ــ رسالة في النوم واليقظة.
ــ كتاب العدة لطول المدة.
ــ كتاب قوت المقيم في الطب (قيل إنه في عشرين مجلّدة ولعله كتاب العد لطول المدة).
ــ كتاب التفريق بين العلل التي تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها.
ــ كتاب السموم (ذكره ابن البيطار في الجامع).
ــ مقالة في الجذام أسبابه وعلاجه (ترجمه قسطنطين إلى اللاتينية ونسبه إلى نفسه).
ــ كتاب نصائح الأبرار.
ــ كتاب في فنون الطب والعطر.

وقد ذكرنا له كتباً أخرى في مقدمة ترجمتنا له في التاريخ والمغازي وغير ذلك من المواضيع.

● أبو الصلت بن أبي الصلت:

أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت. ولد في دانية على الساحل الشرقي من إسبانيا الجنوبية وإليها ينسب اسمه. لا يعرف السبب الذي لأجله هجر أمية موطنه إلى تونس ودخل المهدية وهو في الثلاثين من عمره. وفي المهدية كان في عداد حاشية أميرها أبي طاهر يحيى بن تميم بن باديس الزيري المتوفى سنة ١١١٥ م. كان أبو

الصلت عندما دخل المهدية مزوّداً بالعلم والمهارة الطبية، وكان في الوقت نفسه منجّماً وأديباً وشاعراً، يهوى الفلسفة ويتقن الحساب وله نظر في الموسيقى وآلات الطرب، فأكرمه أبو طاهر ووصله وحظي عنده ثم اعتمده لثقته به سفيراً له في البلاط الفاطمي بمصر، فسار أبو الصلت إليها في زمن المستنصر بالله (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م). يقول القفطي في خبره[1]: «أبو الصلت المغربي واحد عصره وفريد دهره والمتفرّد بفرائد نظمه ونثره، ذو يد قوية في علوم الأوائل، وعارضة عريضة في أكثر الفضائل، تأدّب ببلاده وتفلسف، وسار في الآفاق وطوّف ودخل مصر في أيام أفضلها فلم ينل منها أفضالاً . . .».

وربما كان أبو الصلت قد دخل مصر مرتين كانت الأولى أيام الحاكم بأمر الله (ت١٠٢١م)، وقد ادّعى عنده أنه يستطيع أن ينتشل سفينة كانت قد غرقت في مياه الإسكندرية، وقد كلفت هذه العملية أموالاً كثيرة دون جدوى ممّا أثار حفيظة الحاكم عليه فحبسه سنتين (أو أكثر) كان في خلالها يتابع التأليف وقراءة الكتب. ويقول ياقوت في ترجمته[2]: «ورد إلى مصر في أيام المسمّى بالآمر من ملوك مصر واتصل بوزيره ومدير دولته الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر، واشتمل عليه رجل من خواص الأفضل يعرف بمختار ويلقب «تاج المعالي» وكانت منزلته عند الأفضل عالية ومكانته منه بالسعد حالية. فتحسّنت حال أمية عنده وقرب من قلبه، وخدمه بصناعتي الطب والنجوم، وأنس تاج المعالي منه بالفضل الذي لا يشاركه فيه أحد من أهل عصره. فوصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه وذكر ما سمعه من أعيان أهل العلم وأجماعهم على تقدمه في الفضل وتميزه عن كتّاب وقته. وكان كاتب حضرة الأفضل يومئذ رجل قد حمى هذا الباب ومنع من أن يمرّ بمجلسه ذكر أحد من أهل العلم والأدب، إلاّ أنه لم يتمكن من معارضة قول تاج المعالي، فأغضى على قذى وأضمر لأبي الصلت المكروه. وتتابعت من تاج المعالي السقطات أفضت إلى تغيّر الأفضل والقبض عيه والاعتقال، فوجد حينئذ السّبيل إلى أبي الصلت بما اختلق له من المحال فحبسه الأفضل في سجن المعونة بمصر مدة ثلاث سنوات وشهر واحد، ثم أطلق».

بعد خروجه من مصر قصد أبو الصلت المرتضى أبا طاهر يحيىٰ بن تميم بن المعزّ بن باديس صاحب القيروان فحظي عنده وحسن حاله معه. وقد ذكر ذلك في

---

(١) تاريخ الحكماء ص٨٠.

(٢) معجم الأدباء م٢ ص٣٦١ ـ ٢.

رسالة له يذمّ فيها مصر ويصف حاله ويثني على ابن باديس. وفي المهدية توفي أبو الصلت في سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦ م، وقيل توفي بعد ذلك بثماني سنوات. ورغم أن أبا الصلت عاش في كل من إسبانيا وتونس ومصر، إلاّ أن القسم المرتبط من حياته بتونس كان أكثر فعالية وإنتاجاً وذكراً من غيره، ففي هذا القسم صنّف أكثر كتبه ورسائله.

ذكر له ياقوت في معجمه[1] ثمانية كتب في مواضيع شتى:

١ ـ كتاب الأدوية المفردة.
٢ـ كتاب تقويم الذهن (في المنطق).
٣ ـ كتاب الرسالة المصرية.
٤ ـ كتاب ديوان شعر كبير.
٥ ـ كتاب رسالة عمل بالأسطرلاب.
٦ ـ كتاب الحديقة في مختار من أشعار المحدثين.
٧ ـ كتاب الديباجة في مفاخر صنهاجة.
٨ ـ كتاب ديوان رسائل.

وذكر له ابن أبي أصيبعة[2] كتباً غير التي ذكرها ياقوت، ومنها:

٩ ـ كتاب الانتصار لحنين بن إسحاق على ابن رضوان (لنفيه ما ورد في كتاب المسائل لحنين).
١٠ ـ رسالة في الموسيقى.

هذا وتعتبر الرسالة المصرية من أهم مصنفات أبي الصلت أمية، فهي تقرير سياسي وعلمي عن تاريخ مصر وحياة المصريين في تلك الحقبة، تناول فيها أمية وصف جغرافية مصر وتاريخها منذ العهد الفرعوني حتى دخول الإسلام، وذكر ما فيها من الآثار العجيبة، وأخلاق الناس، وذكر الأطباء الجهلة والحذاق منهم، وتحدث فيها أيضاً عن ولع المصريين بأحكام النجوم واعتمادهم عليها. وقد رفع أمية هذه الرسالة إلى الأمير أبي طاهر يحيى.

ونحن هنا نورد ما جاء في الرسالة من مقاطع تتعلق بالطب عموماً وذكر

(١) معجم الأدباء م٢ ص٣٦٣.
(٢) عيون الأنباء ص٥٠٢.

الأطباء في مصر خصوصاً لأهميتها التاريخية والعلمية.

يقول أمية: «كان بمصر بعد الطوفان علماء بضروب الحكمة من العلوم والرياضة والطبيعة والإلهية، ومتحققون فضلاء، ومن النظر في العلوم الرياضية ولا سيما النجومية منها والموسيقارية، وأولى الناس بأن يكون على هذه الصفة أطباء الملك. ومشى على هذه القاعدة أكثر الأطباء العرب فتعلموا التنجيم ومارسوه في التكهنات واستطباء الدواء...». «وقد ذمّ جالينوس من فرق الطب الثلاث الفرقة الجبليّة لحذفها جميع لوازم الصناعة واقتصارها في المداواة على النظر في المرض، هل من جنس الاستفراغ فيقابل بالإمساك؟ أو من جنس الإمساك فيقابل بالاستفراغ؟ دون الفحص عن أمر المزاج والسنّ والسجية والبلد والعادة والماهية». يشير أبو الصلت هنا إلى القاعدة التي تقول بمداواة المريض لا المرض.

ويتكلم في رسالة عن الأطباء ومستوياتهم في مصر آنذاك، يقول: «كنت في أول جلوسي شديد العناية بكتب جالينوس وأبقراط، باحثاً عن مشكلها، فاحصاً عن مستغلقها، فحرصت كل الحرص، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل الصناعة من أستفيد منه وأستزيد بمذاكرته وأقدح خاطري بمفاوضته. فلم أجد غير قوم أطبق الله على قلوبهم وأعمى بصائرهم وطمس أفهامهم... وقد تخلقوا بكثرة الخلاف وقلة الإنصاف، ولزموا البهت والمعاندة... ولم يعلموا أن الطبيب محتاج إلى أشياء تعينه في صناعته، وتفتح له مغالقها وتوضح مشكلها وتشرح مشتبهها... وهي العلوم الطبيعية... والقوانين القياسية».

كما جاء في الرسالة قوله: «إنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للبيمارستان يُستدعى للمرضى كما تستدعى الأطباء، فيدخل على المريض، فيحكي له حكايات مضحكة، وخرافات مسلية، ويخرج له وجوهاً مضحكة. وكان مع ذلك لطيفاً في إضحاكه وبه خبيراً وعليه قديراً. فإذا انشرح صدر المريض، وعادت إليه قوّته تركه وانصرف، فإن احتاج إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ، أو يكون منه ما شاء الله».

ويضيف أبو الصلت معلقاً على ما سبق، يقول: «فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذي لا مضرة فيه، ولا غائلة له، بل أمره على المريض هين، ونفعه ظاهر بيّن. كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة الغريزية، ويقوي القوة الطبيعية، ويقوي البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول».

روى ياقوت في خبر حبسه، قال[1]: قال حدثني أبو عبدالله الشامي، وكان قد درس عليه واقتبس ما لديه، أن الأفضل كان قد تغيّر عليه ـ وقد ذكر ذلك ـ وحبسه بالإسكندرية في دار كتب الحكيم أرسطاطاليس. قال وكنت أختلف إليه إذ ذاك، فدخلت إليه يوماً فصادفته مطرقاً فلم يرفع رأسه إليّ على العادة، فسألته فلم يرد الجواب، ثم قال بعد ساعة: اكتب وأنشدني:

قد كان لي سبب قد كنت أحسب أن ... أحظى به فإذا دائي من السبب

فما مقلّم أظفاري سوى قلمي ... ولا كتائب أعدائي سوى كتبي

فكتبت رسالته عن ذلك فقال: إن فلاناً تلميذي قد طعن فيّ عند الأمير الأفضل، ثم رفع رأسه إلى السماء واغرورقت عيناه دمعاً ودعا عليه، فلم يحل الحول حتى استجيب له.

البيمارستانات في الديار التونسية

في حارة في طرف من مدينة القيروان التونسية تسمّى دمنة بنى زيادة الله الأول الأغلبي مستشفى باسمها، ومن ثم أصبح هذا الاسم يطلق على كل المستشفيات التي أسّست في تونس بعد هذا التاريخ، وكان حكم هذا الأمير بين سنة ٢٠١ هـ ـ ٨١٧ م وسنة ٢٢٣ هـ ـ ٨٣٨ م. بعد تأسيس هذا المستشفى في دمنة وتسميته باسمها أطلق على حارة الدمنة اسم حارة المرضى، ولا يذكر التاريخ لنا لماذا أسمى أبناء تلك الديار مستشفاهم باسم حارة دمنة، ولم يطلقوا عليه اسم البيمارستان كما كان معروفاً ومعمولاً به إبان الخلافة العباسية. وما يمكننا قوله هو إن الدمنة كانت صورة طبق الأصل عن البيمارستانات في ذلك العهد من حيث هندستها وإداراتها وطريقة العمل فيها وتجهيزها وتوفير الأطباء والعاملين والآلات لها.

والذي عرف عن نظام الدمنة أنه كان يرئس إدارتها قيّم يدير شؤونها ويهتم بتيسير عمل الأطباء وتأمين راحة المرضى فيها، وكان يخدم فيها أيضاً ممرّضات من أصل سوداني يقمن على خدمة المرضى وتمريضهم واستحضار الأدوية اللازمة لهم. أما الأطباء العاملون في الدمنة فقد كان معظمهم من طبقة فقهاء البدن، وهم متعلمون ولهم إلمام بعلوم الدين والطب معاً، ولعلها تسمية جاءت من معنى الحديث الشريف عن علمي البدن والدين، وهو الحديث النبوي: «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان»، وكانت معلومات فقهاء البدن في الطب تقليدية

(١) معجم الأدباء م٢ ص٣٦٤ ـ ٥.

وموروثة، وكانوا يمارسون الطب لوجه الله تعالى، كما كانوا يرافقون المحاربين ليقدموا لهم الإسعافات الأولية وما يمكن أن يفعلوه من العلاج.

كان استحداث الدمن في تونس وتجهيزها لاستقبال المرضى يتطلب وجود الأطباء المداوين، ولا يمكن أن يقوم مستشفى دون وجود أطباء يعالجون ويفحصون ويشخصون، ورغم ذلك فإن صفحات التاريخ التونسي في ذلك العهد لم تذكر لنا طبيباً واحداً من الذين عملوا في هذه «الدمن» قبل دخول الطبيب إسحاق بن عمران البغدادي إلى الديار في زمن أميرها إبراهيم الثاني الأغلبي الذي حكم بين سنة ٢٦١ هـ/٨٧٥ م و٢٩٨ هـ/٩٠٢ م، حيث استقدمه ليكون طبيبه الخاص، أي بعد ما يزيد على أربعين سنة من إنشاء أول دمنة في القيروان في زمن زيادة الله الأول (٨١٧ ـ ٨٣٨ م).

أما الدمن التي وجدت في الديار التونسية كما ذكرت في كتاب الورقات[1] فهي:

□ **دمنة سوسة:**

أنشئت في سوسة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، وكانت مرفأ يؤمّه رجال البحر والصيادون وعمال بناء السفن والتجار، ونظراً لبعد هذه المدينة عن القيروان فقد بنى الأمراء للعاملين فيها دمنة لاستقبال المرضى.

اهتم بهذه الدمنة الأمير الأغلبي أبو إبراهيم أحمد، فجدّد أثاثها حوالى سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨ م وتبعه في ذلك ابنه الأمير إبراهيم الثاني الذي استقدم الطبيب إسحاق بن عمران.

□ **دمنة صفاقس:**

صفاقس مدينة خطّطها الأمير الأغلبي أبو إبراهيم أحمد، ولعله هو الذي أسّس هذه الدمنة فيها في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي.

□ **دمنة تونس:**

أسّسها أيضاً الأمير أبو إبراهيم أحمد في مكان عرف فيما بعد بـ «ربض المرضى» الواقع في الجهة الغربية من مدينة تونس.

---

(١) الورقات لحسني عبد الوهاب ١/٢٧٣.

الفصل الخامس عشر

الطب والأطباء
في مصر بعد الفتح الإسلامي

عندما افتتح المسلمون مصر سنة ٢٢ هـ/٦٤٢ م كانت الإسكندرية أبرز مدن مصر على الإطلاق، ذلك أن مدرستها هي التي شهرت اسم المدينة وجعلته خالداً في تاريخ الحضارة الإنسانية. وقد بدا أن الطب فيها أخذ بالأفول بعد عصر جالينوس مع نهاية القرن الثالث للميلاد. ثم ازداد هذا الأفول والانحطاط بسبب ظهور الخلافات المذهبية في منتصف القرن الخامس. ورغم أن الإسكندرانيين أسّسوا المدرسة الطبية في مدينتهم قبل منتصف القرن السادس، فإن هذه المدرسة كانت تعيش على ماضيها التاريخي الزاهر الذي زهت به إبان أيام هيروفلس وإيراستراتوس وجالينوس، ولم تكن في العهود البيزنطية الأخيرة على المستوى الذي كانت عليه أيام هؤلاء العلماء الأفذاذ حين دخلها العرب الفاتحون. ولم يعرف أيضاً في تلك الحقبة من الأطباء الإسكندرانيين ومصر على العموم سوى قلة نادرة كان من أبرزهم عبدالملك بن أبجر الذي استدعاه الخليفة عمر بن عبدالعزيز للعمل في أنطاكية، وطبيب آخر مسنّ يدعى بليطيان[1]، وكان رومياً، كهنوتياً في ملته النصارى، فعيّنه الخليفة المنصور سنة ١٤٠ هـ بطريقاً على الإسكندرية. ثم استقدمه بعد ذلك الخليفة هارون الرشيد إلى بغداد لمعالجة إحدى محظياته، فعالجها بليطيان بأغذية توافق مسقط رأسها ومحل نشأتها في مصر إلى أن برئت. وكانت وفاة هذا الطبيب بالإسكندرية سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م.

وعندما استقل أحمد بن طولون بمصر عن الخلافة العباسية سنة ٢٥٤ هـ،

---

(١) عيون الأنباء ص٥٤٠.

درج حكامها بعد ذلك من الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك على منافسة خلفاء بغداد على المركز العلمي في الأقطار الإسلامية، وعملوا على استدعاء حذاق الأطباء من أصقاع الأرض بالعمل على إغرائهم بالمال والجاه والمناصب لممارسة الصنعة في مصر. ولعل الطبيب إبراهيم بن عيسىٰ الذي كان من تلاميذ يوحنا بن ماسويه في بغداد هو أول من وصل إلى مصر في سنة ٢٥٤ هـ/٨٦٨ م، فأصبح الطبيب الخاص لابن طولون، وكان قد صحبه إلى مصر حين وليها، والذي سبق واطلع حينها صاحب يوحنا بن ماسويه في بغداد على ما كان يجري في العاصمة العباسية من أعمال فكرية في التأليف والترجمة، وأراد أن يقوم بدولته ما كان يقوم به العباسيون بالعمل مع العلماء في بغداد، وقد نجح إلى حدّ ما.

بعد استيلاء الفاطميين على شؤون الحكم بمصر تحسنت أحوال الذميين واستعادوا حرياتهم، رغم أن الحاكم بأمر الله كان متعصباً للإسلام قاسياً في الحد على المخطئين بحقه، ولكنه كان حريصاً في الوقت نفسه على تحسين أحوال مصر الفكرية والعلمية والاجتماعية والصحية. فنجد أن الحاكم قرب إليه العلماء والمنجمين والأطباء من جميع النحل والأديان، فكان منهم الطبيب النصراني أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر، وإسحاق بن إبراهيم بن نسطاس، وأبو بشر وغيرهم، وكان مع ترفّعه يزور أطباءه في بيوتهم حين يعيقهم المرض عن حضور مجلسه.

ولهذه الأسباب دخل عدد كبير من العلماء إلى القاهرة سعياً لكسب المال، ودخلها البعض الآخر هرباً من بطش المغول. وكان من هذه الفئة الكحال عمار بن علي الموصلي ومحمد بن سعيد التميمي المقدسي، ووصل إلى القاهرة أيضاً من البصرة الحسن بن الهيثم، ومن بغداد المختار بن بطلان، ومن عين زربى عدنان بن منصور العين زربي، ومن الأندلس في عهد الأيوبيين وصلْ موسىٰ بن ميمون القرطبي وابن البيطار، ومن دمشق ابن أبي أصيبعة، كما دخل مصر في أيام المماليك الطبيب ابن النفيس.

وبينما كان الطب في بغداد وأقطار الدولة الإسلامية الأخرى بعد القرن الثاني عشر الميلادي يدب إليه الوهن والخمول، كان لا يزال في مصر حركة طبية نشيطة يديرها أكابر الأطباء ويدعمها حكام البلاد. والملفت أن أكثر أطباء مصر في ذلك العهد كانوا نصارى، وكثير منهم كانوا يهوداً، ولعل ذلك يعود إلى الحماية الكبيرة التي كان يتمتع بها الذميّون في كنف حكام البلاد ـ كما ذكرنا ـ وخصوصاً إبان

العصر الأيوبي. وكان هؤلاء الذميّون يغتنمون الفرص، فقد قيل إن موسىٰ بن ميمون اليهودي أسلم في قرطبة فلما جاء مصر ونال حماية صلاح الدين الأيوبي ارتدّ إلى يهوديته. ورغم الحرية التي أعطيت لهؤلاء في مصر فإن الناس كانوا يحتقرونهم، فقد روي أن الطبيب اليهودي الموفق بن شوعة قذفه العامة بحجر بينما كان ممتطياً دابته ففقئت عينه، وأن الطبيب اليهودي الجراح الذي عالج الحاكم بأمر الله وأبرأه حصل على رضا الخليفة وأصبح طبيبه الخاص، ولكن الحاكم لم يكتم مقته لذميته فأسماه «الحقير النافع» وقد شهر هذا الطبيب بهذا اللقب ولم يعرف له بعد ذلك اسم غيره.

لقد اتخذ أطباء مصر من الذمّيين أسماء لا تشير إلى ديانتهم، ولعله كان من العسير معرفة ديانتهم لو لم يذكر المؤرخون لنا أن الطبيب أبا المعالي تمام بن هبة الله بن تمام، وشمس الرئاسة أبا العشائر هبة الله بن حسن بن جُميع وأبا البيان سديد الدين داود بن أبي البيان بن أبي الفرج أنهم كانوا من ملة اليهود. وربما كان استعمال الذمّيين لهذه الأسماء شائعاً بعد هجوم المغول الوثنيين على المسلمين وما اجترحوه من الأذى والاعتداء على الأرواح والدين، فخاف الذميّون واتخذوا لهم أسماء إسلامية خوفاً من ردة فعل المسلمين لما فعله المغول بهم. ولعل الحرب التي دارت بين المسلمين والصليبيين في البلاد الشامية كانت سبباً آخر لتملق الذمّيين للمصريين الذين كانوا طرفاً في تلك الحرب، فاستعملوا الأسماء الإسلامية بكثرة في تلك الحقبة تقية وحماية[1].

ويمكن القول إن أطباء مصر ساهموا في اكتشاف حقائق طبية كانت مجهولة إلى ذلك التاريخ، فسطرها العلم في صفحاته وزها بها، فالطبيب ابن النفيس اكتشف الدورة الدموية الصغرى، والبغدادي عبداللطيف دوّن ملاحظاته القيمة على ما كتبه جالينوس عن العظام البشرية، وابن البيطار العقاقيري الشهير، وابن الهيثم المعروف باكتشافاته في الهندسة والبصريات، وابن الزبير نفيس الدين، وابن القضاعي الكحّال، والكحّال عمار بن علي الموصلي، شهروا وعملوا في هذه الاختصاصات.

لقد كانت ممارسة الطب في مصر على العموم صناعة رائجة ومصدراً كبيراً من مصادر الكسب الوفير، فقد كانت هذه الصنعة تفتح الطريق لممارسيها إلى مجالس الخلفاء والأمراء، وكانت وظيفة الطبيب في الدولة الفاطمية من الوظائف المرموقة،

---

(١) مختصر تاريخ الطب ج٢ ص١٧.

وكانت ألقاب أرباب الصناعات الرئيسة كرياسة الطب من الدرجة الأولى التي بإمرة المجلس. فكان هذا الرئيس هو الذي يحكم على طائفة الأطباء، ويأذن لهم في التطبيب ونحو ذلك. وحكم رئيس الكحّالين في الكلام على طائفة الكحّالة كحكم رئيس الأطباء على هذه الطائفة، ورئيس الجراحية له حكم الرئيسين المتقدمين[1]. ومن الوظائف الصنائعية الكبيرة في مصر وظيفة «الطبيب الخاص» وهو لقب يطلق على طبيب قصر الخليفة، ومكانه على دكة بقاعة الذهب بالقصر، ومن دونه ثلاثة أطباء أو أربعة يتناوبون على فحص المرضى من حاشية القصر، ويكتبون لهم وصفات ليأخذوا أدويتها من خزانة الشراب (الصيدلية)، وتبقى هذه الوصفات عادة عند من يستحضر الدواء. وكانت مستشفيات مصر من أرقى المستشفيات في ديار الإسلام، لسعتها وانتظام العمل فيها، وشموليتها لمعالجة أنواع الأمراض. وكان لهذه المستشفيات وقفيات ضخمة من الخلفاء والأمراء وأصحاب المروءات لتتوفر لها ما تحتاج إليه من رواتب العاملين فيها وتكاليف الإعاشة والأدوية وما شابه ذلك.

ولنذكر الآن مشاهير الأطباء في مصر في تلك الحقبة.

● أحمد بن محمد البلدي:

أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيىٰ البلدي، نسبة إلى بلد وهي بلدة قريبة من الموصل بالعراق. درس ممارسة الطب وتعلمها في الموصل على أحمد بن أبي الأشعث ولازمه سنتين، وكان من أنبغ تلامذته. ولمّا اشتدّ ساعده في الصنعة سافر إلى مصر سنة ٣٥٣ هـ/٩٦٤ م واتصل بيعقوب بن يوسف بن كلّس وزير العزيز الفاطمي ونال منه التقدير والاحترام، وبقي في خدمته إلى آخر عمره.

لم يرد ذكر وفاته في المصادر وكل ما عرف أنه كان حيّاً سنة ٣٦٨ هـ/٩٧٨ م، ولمّا كان أستاذه أحمد بن أبي الأشعث قد توفي حوالى سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م فالمحتمل أن أحمد البلدي توفي قبل أن يسنّ. ولم يعرف لأحمد هذا سوى كتاب واحد عنوانه «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم». والكتاب يحتوي على تدبير الحبالى والأطفال، وهو يشابه في فصول كثيرة كتاب «خلق الجنين وتدبير الحبالى المولودين» لعريب بن سعيد القرطبي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م وهي سنة وفاة أستاذه ابن أبي الأشعث، إلاَّ أنّ كتاب البلدي أوسع منه مادة، وأكثر شمولاً للأمراض التي تصيب الحامل والطفل.

---

(١) تاريخ البيمارستانات ص٢٤.

وفي الكتاب أيضاً شروح مستفيضة لخلق الجنين، وعلامات الحبل، والولادة المسبقة في الشهر السابع الذي يكون الوليد فيها قادراً على العيش، وفي الشهر الثامن التي يكون فيها غير قادر على العيش فيهلك وتعليل هذا الزعم. وفيه أيضاً معلومات مفصلة عن رعاية الحامل والطفل وطرق علاج أمراضه وطريقة تغذيته وأسلوب تربيته، وما إلى ذلك ممّا له علاقة بصحة الطفل وأمراضه.

● عمار بن علي الموصلي:

أبو القاسم عمار بن علي، من مواليد الموصل وقد نسب إليها وفيها تعلم الكحالة. كان كثير الترحال بين الحواضر، فزار خراسان وديار بكر وجنوبي العراق وبلغ الكوفة، ثم دخل سورية وفلسطين ومكة والمدينة، وكان في كل حاضرة من هذه الحواضر يمارس الكحّالة ويداوي أمراض العين وعملياتها. وفي النهاية دخل مصر في أيام حاكمها الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ/٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م). وفي مصر عرفت مهنته النجاح فشهر عمار فألحقه الحاكم بحاشيته وصار من أطبائه المقربين إليه، فألّف له «كتاب المنتخب في علم العين» في حدود سنة ٤٠١ هـ/١٠١٠ م، وضمنه واحداً وعشرين فصلاً في تشريح العين وفسلجتها، وذكر من أمراضها واحداً وخمسين مرضاً، ووصف علامات كل مرض، وشرح مداواتها بالطرق الطبية والجراحية. والجدير بالذكر أن في الكتاب تفصيلات دقيقة في وصف علامات وأعراض أمراض العين وتداويها لم يسبقه إليها اليونانيون، وأفكار أصيلة لم يذكرها من قبله الكحّالون العرب.

ونظراً لما حواه الكتاب من هذه المعلومات الدقيقة فقد اعتبر أكثر الكتب العربية أصالة في هذا الموضوع، وبات المرجع الرئيسي لكل من صلاح الدين بن يوسف الكحّال السوري في كتابه «نور العيون»، والكحّال الأندلسي محمد بن أسلم الغافقي في كتابه «المرشد لطب العين»، وهما من أشهر الكتب التي ظهرت بعد كتاب المنتخب لعمار. وتعود شهرة هذا الكتاب إلى أن مؤلفه عماراً قد عمل في البيمارستانات، وفي تعليم صناعة الكحل، وكان يستصحب تلاميذه معه حين يعود مرضاه في منازلهم، وحين يذهب ليجري لهم العمليات على عيونهم، والعمل في البيمارستانات وتدريس الكحالة يوسع مدارك الطبيب ويعظم من تجربته وشهرته. وقد تفرّغ عمار لصناعة الكحالة وحدها دون فنون الطب الأخرى، وكان كتابه الوحيد «المنتخب» في هذا الاختصاص أيضاً. وقد ذكر عمار بن علي في كتابه أنواع مرض الكاتاراكت (الساد)،وعلّل الإصابة به إلى الإفراط بأكل السمك والسكن في

الأماكن الرطبة كسواحل البحار والمناطق الحارة، وحذر من معالجتها بعملية القدح قبل نضج المرض، وشخص النضج حين يفقد المريض القدرة على تمييز الألوان. وفي الكتاب أيضاً وصف دقيق لتقنية عملية القدح للكاتاراكت، واستعمال المقداح الصمد بالسحب، والمقداح المجوف بالمص.

ويعزى ابتكار المقداح المجوف إلى عمار، على أن الطبيب اليوناني أنطليوس (في القرن الثاني الميلادي) مارس استعمال هذا النوع من المقداح إلاّ أن المقداح الذي استعمله كان مصنوعاً من الزجاج بينما كان مقداح الموصلي عمار مصنوعاً من المعدن الذي لا يتعرض لخطر الكسر في أثناء إجراء العملية. كما أن عماراً مارس استعمال مقداحه بكثرة وتفنّن، وسجّل كل عملياته وما جرى في أثناء القيام بها من اختلاطات وتغيرات غريبة، تماماً كما يفعل الممارس الحاذق المتتبع في الطب السريري.

ويمكن مقارنة كتاب «المنتخب» بكتاب «تذكرة الكحالين» لعلي بن عيسىٰ البغدادي الذي كان معاصراً لعمار، وكتاب علي أوسع من كتاب عمار إلاّ أنه أقل أصالة وتضميناً للتجربة والمشاهدة الشخصية.

● ابن سعيد التميمي:

محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي ونسبه بين الأطباء أشهر من اسمه. ولد بالقدس ونشأ فيها. كان جدّه سعيد طبيباً من بيت المقدس، قرأ علم الطب به وبغيره من المدن التي ارتحل إليها واستفاد من هذا الشأن جزءاً متوفراً وأحكم ما علمه منه غاية الإحكام. أما الشيخ الذي تخرج عليه فهو راهب يدعى أنبا زخريا بن ثوابة، وكان هذا الراهب ملماً بعلل الأمراض وأعراضها بما في ذلك أمراض الأخلاط غير الطبيعية وتداويها، وله في ذلك ابتكار في علاج الرجفان الذي تعمله المرة السوداء المحرقة.

كان لابن سعيد غرام وعناية تامّة في تركيب الأدوية وعنده غوص على أمور هذا النوع واستغراق في طلب غوامضه، وهو الذي أكمل الترياق الفاروق بما زاده فيه من المفردات وذلك بإجماع الأطباء، وله في الترياق عدة تصانيف ما بين كبير ومتوسط وصغير. وقد كان خصّيصاً بالحسن بن عبيدالله بن طغج المستولي على مدينة الرملة وما انضاف إليها من البلاد الساحلية، وكان مغرماً به وبما يعالجه من المفردات والمركبات، وعمل له عدة معاجين ولخالخ طبية دافعة للأوباء، ثم أدرك

الدولة الفاطمية عند دخولها إلى الديار المصرية وصحب الوزير يعقوب بن كلّس وزير المعزّ والعزيز وصنّف له كتاباً كبيراً في عدة مجلدات سمّاه «مادة البقاء» بإصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء، وكل ذلك بالقاهرة المعزّية، ولقي الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم واختلط بأطباء الخاصّ القادمين من أرض المغرب في صحبة المعزّ عند قدومه، والمقيمين بمصر من أهلها، وكان منصفاً في مذاكرته غير رادّ على أحد إلاّ بطريق الحقيقة. وكان ابن سعيد موجوداً في مصر في حدود سنة سبعين وثلاثمائة[1]، ومؤلفاته في الطب:

ـ كتاب مختصر في الترياق.

ـ كتاب حبيب العروس وريحان النفوس.

ـ كتاب مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء، وقد ذكر فيه ابن سعيد ترياق مخلص النفوس ضد لسع الأفاعي والعقارب والعناكب وذوات الأربع والأربعين رجلاً (صنّفه في مصر ورفعه إلى الوزير يعقوب بن كلس).

ـ كتاب في الترياق (مختصر حبيب العروس وريحان النفوس).

ـ رسالة إلى ابنه علي بن محمد في صنعة الترياق الفاروق، والتنبيه إلى ما يخلط فيه من الأدوية، ونعت شجيراته الصحيحة، وأوقات جمعها، وكيفية دقها وعجنها، وبيان منافع هذا الترياق، وما حصل من تجربته فيه.

ـ كتاب المرشد إلى جوهر الأغذية وقوى المفردات في الأدوية (أخذ عنه ابن البيطار).

● الحسن بن الهيثم:

أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم. ولد بالبصرة وفيها نشأ ودرس الرياضيات والهندسة وبحث في علومها. ونبغ فيها بفضل ابتكاراته العلمية الفريدة، كما درس الطب إلى جانب هذه العلوم.

قال عنه القفطي: «أبو علي المهندس البصري نزيل مصر صاحب التصانيف والتواليف المذكورة في علم الهندسة، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متفنناً فيه قيماً بغوامضه ومعانيه مشاركاً في علوم الأوائل، أخذ الناس عنه واستفادوا منه».

كان الحسن مستقيماً في أعماله وافر الزهد في المناصب الإدارية الحكومية، قيل

---

(١) تاريخ الحكماء ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

إنه استطاع التحايل على اعتزال وظيفة وكلت إليه في دولة الخليفة الطائع العباسي (٩٧٤ ـ ٩٩١ م) بإظهاره الجنون، وربما بدأ ابن الهيثم بوضع قسم من مؤلفاته في هذه الفترة من حياته.

وصل خبر ابن الهيثم إلى سمع الحاكم بأمر الله الفاطمي بمصر، وكان محبّاً للحكمة، وكان قد تناهى إلى سمعه أن ابن الهيثم قال: لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يصلح به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص. فاستدعاه إلى مصر لتحقيق ما وعد به، واستقبله وبالغ في إكرامه، إلاّ أن ابن الهيثم لم يتمكن من تنفيذ ما وعد به، فغضب الحاكم عليه وفرض عليه الإقامة في داره وخشي ابن الهيثم من الحاكم لما عرف من قسوته وفتكه بمن يخطىء معه، فتظاهر بالجنون كما فعل في البصرة كما ذكرنا، ليبقي على حياته ولو عاش حبيساً. ولم يتم الإفراج عن ابن الهيثم إلاّ بعد وفاة الخليفة الحاكم بأمر من الخليفة الجديد الظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٦ م)، فعاد ابن الهيثم إلى ما كان عليه من العقل والحكمة، وصار يتكسّب عيشه ورزقه من استنساخ كتب إقليدس والمجسطي في حجرة أقام بها قريبة من الجامع الأزهر، وبقي فيها حتى آخر عمره. وفي هذه الفترة أكمل وضع كتبه، وتوفي في القاهرة حوالى سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م[١].

كان ابن الهيثم عالماً بالهندسة والفيزياء والطبيعيات والفلك أكثر ممّا كان طبيباً. فقد كانت معلوماته الطبية نظرية عن طريق قراءة الكتب واستنساخها والتعليق عليها، أما في العلوم الطبيعية الأخرى فقد وصل مرتبة عالية فيها، ولقبه المؤلفون المحدثون ببطليموس الثاني، وقال عنه سارتون في مقدمة تاريخ العلم ٦٩٨/١ إنه أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى، ومن علماء البصريات القلائل في العالم كله.

ولما كان علم البصريات والعدسات من علوم الفيزياء ذات العلاقة الوثيقة بالطب، وخصوصاً طب العيون، فقد درس ابن الهيثم طبقات العين ليستعين بها على معرفة عمل العين في الإبصار، كما أنه درس الضوء والعدسات ليعرف طريقة إصلاح الرؤية إذا فسدت في العين، ويعتبر في هذا الموضوع أول من أجاد في رسم أقسام العين ووصف طبقاتها بدقة علمية عجيبة. لقد ذكر ابن الهيثم أن الرؤية تحصل من انعكاس الصورة الضوئية المنبعثة من المرئيات، وليس أن الضوء يخرج

---

(١) تاريخ الحكماء ص١٦٥/١٦٦.

من العين ليلامس المرئيات ويبصرها كما كان شائعاً قبل زمن ابن الهيثم. وهـو أول من اكتشف أن صورة الجسم المرئي تقع متماثلة على طبقتي الشبكية في العينين، وأن الصورة التي تقع على الشبكية بهذا الشكل تتكون بالـطريقة نفسهـا التي تتكون بهـا صورة جسم تمر أشعته الضوئية من ثقب في حيّز مظلم لتقع على سطح يقابل الثقب الـذي دخل منـه النور، وهـذا السطح هـو بمثـابـة الشبكيـة، إلاّ أن هـذه شـديـدة الإحساس بالضوء فتنقله إلى المخ لتتكون فيه صورة الجسم المرئي(١).

خلّف لنـا ابن الهيثم مؤلفات كثيرة، منهـا خمسـة وعشرون كتـابـاً في العلوم الرياضية، وأربعة وعشرون كتاباً في العلوم الطبيعية، بالإضافة إلى عشرات المقالات والتعليقات في علوم الحساب والفلك وغيرها. أما المؤلفات الطبية القليلة التي خلفها لنا، فأهمها ثلاثة:

ـ كتاب تقويم الصناعة الطبية (تضمّن مـا اطلع عليه ابن الهيثم من جـوامع جالينوس).

ـ مقالة في شرح قانون ابن سينا في الطب.

ـ كتـاب المناظـر، وهو أشهـر كتبه في علم البصـريّـات. شرح فيـه حصـول الرؤية كما بيّنا، وتحدث عن محاولة لتفسير الرؤية المـزدوجة بـالنظر. وقام بشرح هذا الكتاب أبو الحسن الفارسي (ت٧٢١ هـ) وأضاف إليه دراسات مستحدثة من أعمـاله الشخصية تتعلق بالانعكاس والانكسار الضوئي والقوس قزح.

وقد ترجم الكتاب أيضاً إلى اللاتينية مرات كثيرة، كان أقدمهـا ترجمـة جيرارد الكريموني في طليطلة، وقد طبعت هذه الترجمـة في لشبونـة سنة ١٥٤٢ م وسمّي ابن الهيثم فيها Al Hazen، وهو اسم ابن الهيثم الأول «حسن».

● ابن العين زربي:

أبـو نصر عدنـان بن نصر بن منصـور. أصله من عـين زربي في جنـوبي وسط آسيا الصغرى بنواحي المصيصة، ونسبته إليها وبها يعرف. قصـد بغداد وتعلم فيهـا فن التنجيم ومارسه فيها، ثم تعلم الطب وهـاجر بعـد ذلك إلى القـاهرة ونـال عند الخليفة الفاطمي الرعايةِ والإكرام لـبراعته وحـذقه في المعـالجات الـطبية، وصـار له مجلس يعلم فيه الصنعة.

---

(١) راجع تاريخ العلم عند العرب، ألدو ميلي، ص١٩٨.

كان من الذين درسوا عليه الشيخ السديد شرف الدين أبو منصور عبدالله بن الشيخ السديد أبي الحسن علي، عرف باسم الشيخ السديد وهو لقب أبيه، وتعلم الطب على ابن العين زربي ـ كما أشرنا ـ ومن تلاميذه أيضاً بلمظفر بن المعرف، وابن جُميع اليهودي.

توفي ابن العين زربي في القاهرة سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م في زمن الظافر الفاطمي (ت سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م).

له في الطب:

ـ كتاب في الطب (صنّفه في مصر، أكمله سنة ٥٤٧ هـ قبل وفاته بسنة).
ـ شرح كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس.
ـ كتاب مجربات في الطب، على جهة الكُنّاش (جمعت ورتّبت مواده بعد وفاة المؤلف).
ـ رسالة في تعذر وجود الطبيب الفاضل ونفاق الجاهل.
ـ مقالة في الحصى وعلاجها.
ـ رسالة في مرض الشقيقة[1].

ابن جُميع المصري:

هبة الله بن زيد (قيل زين)[2] بن حسن بن فرايم بن يعقوب بن جُميع الإسرائيلي، كنيته أبو العشائر، ولقبه شمس الرئاسة. كان من مشاهير أطباء مصر في زمن الأيوبيين. ذكر أنه ولد بفسطاط القاهرة، وبها تعلم الطب على ابن العين زربي، ومن ثم دخل في حاشية صلاح الدين الأيوبي وصار أثيره ومعتمده وموضع ثقته، وله عمل الترياق الكبير الفاروقي، ثم خدم الملك الصالح نجم الدين الأيوبي (٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ/١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م).

كان على اطلاع واسع في العلوم الطبيعية وذا نظر مميّز في تطبيقها. وكان له حانوت بسوق القناديل بالفسطاط يعالج فيه المرضى، وفي داره كان له مجلس يعلم الناشئة فيه صناعة الطب، كما كان يهوى الأدب ويناقش بفقه اللغة.

والظاهر أن ممارسة الطب بمصر قد تدهورت في أيام ابن جُميع، وتكاثرت

---

(١) عيون الأنباء ص٥٧٠ ـ ٧١.

(٢) انظر عيون الأنباء ص٥٧٦ واسمه فيه هبة الله بن زين.

أخطاء الأطباء، فاتصل ابن جميع بالملك صلاح الدين الأيوبي وشرح له الحال فيما يخصّ سوءات الممارسين وأخطاءهم وأسبابها وسبل إصلاحها. وكان من رأيه أن الحال آل إلى ما هو عليه نتيجة لإهمال دراسة موضوع التشريح والاعتماد على المختصرات التي وضعت بديلة لكتب أبقراط وجالينوس، واقترح ابن الهيثم الرجوع إلى هذه الأصول واعتبارها الكتب المعتمدة في مزاولة مهنة الطب، وارتأى أن لا يكون التعليم نظرياً بالاعتماد على القراءة بل يجب أن يكون عملياً أيضاً، ويكون التطبيق فيه على مرضى البيمارستانات، وأن لا يجاز الطالب بممارسة الصنعة إلاّ بعد اجتيازه امتحاناً يثبت جدارته بعلوم المهنة، واقترح دوام مراقبة الأطباء بعد التخرّج.

تأثّر ابن جميع كثيراً بآراء أبقراط وجالينوس إلى حد أنه اغتاظ جداً عندما رأى من يحوّر في تلك الآراء - حسب زعمه - ولذلك نجده يعارض «القانون في الطب» لابن سينا بكتاب أسماه «التصريح بالمكنون في تنقيح القانون»، فلمّا وصل هذا الكتاب إلى بغداد تحركت إقليمية أحد شعرائها فهجا ابن جميع قائلاً:

وليس جُميع اليهودي أباك ولكن أبوك جميع اليهود

توفي هبة الله بن زيد بن جميع في سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٨ م. وكان من تلاميذه الشيخ السديد داود بن أبي البيان سليمان بن أبي الفرج.

له من المؤلفات(١):

- كتاب التصريح بالمكنون في تنقيح القانون (وقد ذكرنا سبب وضعه).
- كتاب الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد (في أربع مقالات).
- رسالة في طبع الإسكندرية وحال هوائها ومياهها ونحو ذلك من أحوالها وأحوال أهلها.
- رسالة إلى القاضي أبي القاسم علي بن الحسين (فيما يعتمده حين لا يجد طبيباً).
- مقالة في الليمون وشرابه ومنافعه.
- مقالة في الراوند ومنافعه.
- مقالة في الحدبة.
- مقالة في علاج القولنج (وضعها للملك سيف الدين أبي بكر الأيوبي) وأسماها الرسالة السيفية في الأدوية الملوكية (نسبة إلى اسم مخدومه).

---

(١) عيون ص٥٧٦ - ٧٩.

● علي بن رضوان:

أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر. ولد بمحلة الجيزة بالقاهرة، وكان أبوه يصنع الخبز ويبيعه، وقد توفي وهو في الواحدة والثلاثين من عمره، وربما كان ابنه علي في الرابعة عشرة في ذلك الوقت. ومنذ ذلك الحين بدأ علي يميل إلى دراسة التنجيم والطب، وهي العلوم التي كانت رائجة ومربحة في مصر في ذلك الزمن. فقد عانى علي الكثير بسبب فقره وهو الذي نشأ في بيت معدم وأب فقير، وها هو يعاني في سبيل سبل رزقه بعد موت أبيه. إلّا أن الحظ ساعده هذه المرة فضمّه أحد معارفه إلى حانوت له يمارس فيه التنجيم والطب، وهما العلمان اللذان أحبهما علي، فتحسنت أحواله إلى حدّ ما، وصار يمارس ما يتعلمه يومياً إلى أن حذق المهنتين ومهر فيهما.

يقول ابن رضوان في سيرته الذاتية التي كتبها بنفسه[1]: «كانت دلالات النجوم في مولدي تدل على أن صناعتي الطب. وكان العيش عندي في الفضيلة ألذ من كل عيش، فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي في التعليم. ولما بلغت العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسي في التعليم. ولما أقمت أربع عشرة سنة أخذت في تعلم الطب والفلسفة، ولم يكن لي مال أنفق منه، فلذلك عرض لي في التعلم صعوبة ومشقة، فكنت مرة أتكسّب بصناعة القضايا بالنجوم، ومرة بصناعة الطب، ومرة بالتعليم. ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين فإني اشتهرت فيها بالطب، وكفاني ما كنت أكسبه بالطب، بل كان يفضل عني إلى وقتي هذا...».

وفي تنظيم أعماله يومياً، يقول: «وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومي هذا أعمل تذكرة لي وأغيرها في كل يوم في صناعتي بمقدار ما يغني، ومن الرياضة التي تحفظ صحة البدن، وأغتذي بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة، وأجعل ثيابي مزينة بشعار الأخيار والنظافة وطيب الرائحة»[2].

وعندما ذاع صيته وشهر في صناعتي الطب والتنجيم، وثبت صدقه ونجاح ممارسته في الصنعة ألحقه الحاكم بأمر الله بحاشيته وعيّنه طبيباً خاصاً ورئيساً لأطباء مصر.

---

(١) عيون ص٥٦١.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

وكان ابن رضوان رجلاً متديّناً يخاف الله ويحب عمل الخير ونفع الناس، نزيهاً في مزاولة الصنعة، صادقاً مع المرضى، يرى في سلوك الطبيب الممارس أن يكون كما قال أبقراط على خصال سبع[1]:

١ - أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرؤية، عاقلاً، ذكوراً خير الطبع.

٢ - أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

٣ - أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم.

٤ - أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

٥ - أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

٦ - أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعلام، فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.

٧ - أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواء قتالاً ولا يعلّمه، ولا دواء يسقط الأجنّة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

والملفت في ابن رضوان أننا لا نعرف شيخاً تعلم عليه الطب، فهو يفاخر بكونه تعلم هذه الصنعة بنفسه وعلى الكتب وحدها، ويدعي أن ذلك أفضل وأسرع لتعلمها من الاستماع إلى أفواه المعلمين الذين كثيراً ما لا يحسنون التعليم. وقد ضمن ابن رضوان آراءه هذه في تعلم الطب كتابه الذي أسماه «النافع في كيفية تعلم صناعة الطب». كما انتقد دراسة الطب على تفاسير الكتب ومختصراتها، واعتبر ذلك سبباً في تردّي الصناعة في أيامه.

وصحيح أن ابن رضوان كان يفضل قراءة الكتب على سماع الدروس من المعلمين، إلاّ أنه لم يكن مكثراً من اقتناء الكتب والاحتفاظ بها، وقد يبيعها بعد أن ينتهي من قراءتها. أما الكتب التي كان يحبها ويحتفظ بها عنده فهي كتب جالينوس ثم كتب أبقراط وديوسقريدس وروفس وأورباسيوس، ثم كتاب الحاوي للرازي والقانون لابن سينا.

أمّا ممارسته كطبيب فكان يسلك فيها المسلك التقليدي المعروف عهدئذ،

---

(١) المصدر السابق ص٥٦٣.

فكان يسأل المريض عن شكواه وينظر إلى سحنته ويلاحظ طريقة نطقه ومشيته مقبلاً ومدبراً وإلى استقامة قامته، ثم يتلمّس بشرته ليقدر ليونتها وجفافها، ويجس نبضه عن حالة قلبه، ويفحص قوته بالمسك والسحب وحمل الثقل، ثم يفحص بطنه وهو مستلق على ظهره مبسوط اليدين ورجلاه مبسوطتان جنباً إلى جنب ليكشف عن وجود أورام فيها، وأخيراً يفحص بوله ليتبيّن حال كبده وطبيعة أخلاطه. وكان من مبادىء الممارسة التي عمل بها ابن رضوان أن البدن السليم من العيوب هو البدن الصحيح الذي كل واحدة من أعضائه أن يكون يفعل فعله الخاص على ما ينبغي، وأن معرفة المرض وعلاجه يعتمد على معرفة خلطه، ثم على معرفة العضو المعتل، وهذا هو نفسه تعريف المرض عند الرازي، وقاعدته في تشخيصه للأمراض.

توفي ابن رضوان في القاهرة سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م (أو بعدها) وكان قد بلغ الستين. وله من المؤلفات الطبية ما يزيد على السبعين كتاباً، نذكر منها:

ـ كتاب في الأدوية المسهلة.
ـ كتاب في عمل الأشربة والمعاجين.
ـ كتاب تتبع مسائل حنين بن إسحاق (مقالتان).
ـ كتاب الأصول في الطب (أربع مقالات).
ـ كتاب في حل شكوك الرازي على جالينوس.
ـ كتاب في الأدوية المفردة (على حروف المعجم).
ـ كتاب فيما ينبغي أن يكون في حانوت الطبيب (أربع مقالات).
ـ كُنّاش.
ـ الكتاب النافع في كيفية تعليم صناعة الطب (مقالتان، الأولى في طرق تعليم الصنعة ومدتها وأجورها وما إلى ذلك، والثانية في نقد ابن رضوان لكل من حنين بن إسحاق وأبي بكر الرازي).

وله في الشروح:

ـ شرح كتاب الفرق لجالينوس.
ـ شرح كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس.
ـ شرح كتاب النبض الصغير لجالينوس.
ـ شرح كتاب جالينوس إلى أغلوقن، في التأتي لشفاء الأمراض.
ـ شرح كتاب الأسطقسات لجالينوس.
ـ شرح كتاب المزاج لجالينوس.

وله من الرسائل الطبية:

ـ رسالة في علاج الجذام.
ـ رسالة في أجوبة مسائل سأل عنها الشيخ أبو الطيب أزهر بن النعمان في الأورام.
ـ رسالة في علاج صبي أصابه المرض المسمّى بداء الفيل وداء الأسد.
ـ رسالة في أطباء مصر والقاهرة في خبر ابن بطلان (وكان بينهما مناظرات).
ـ رسالة في أزمنة الأمراض.
ـ رسالة في دفع مضار الحلوى للمحرور.

عدا الفوائد والمقالات والفصول والحواشي الكثيرة.

● ابن البيطار:

ضياء الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد الملقي المعروف بابن البيطار. ولد في ملقة على الساحل الشرقي من جنوبي إسبانيا. ومنذ صغره شغف عبدالله بدراسة النبات والأعشاب، فدرس علومها على الأخصائيين أمثال أبي العباس أحمد بن الرومية الإشبيلي (ت١٢١٨ م) وعبدالله صالح الكتامي الذي كان صيدلاني بلاط الموحدين بفاس وأبي الحجاج الإشبيلي. وفي الوقت نفسه كان يقرأ ما كتبه ديوسقريدس عن الحشائش، وروفس، وبولس الأجنتي، وجالينوس في الأدوية، كما قرأ مؤلفات العرب في الحشائش والأدوية المستخلصة منها، ومن هذه الكتب مؤلفات الأندلسيين كابن سمجون، والغافقي، وأبي الصلت، والشريف الإدريسي، وابن زهر، والبكري، ومن التونسيين ابن الجزار، وإسحاق بن عمران، وإسحاق الإسرائيلي، ومن مؤلفات علماء المشرق العربي، أبي حنيفة الدينوري، ومسيح الدمشقي، وتياذوق، وماسرجويه البصري، وابن ماسويه، وحنين، وحبيش، والرازي، والمجوسي، وابن سينا وغيرهم.

ورغم كثرة قراءاته لكتب الأولين ومطالعاته كتب الذين سبقوه ممّن كتب عن النبات والأعشاب، فإن ابن البيطار طاف في ديار الأندلس لمعاينة النباتات في مواضعها وتربتها، فكان يدرس صفاتها ويسجل ما ليس له ذكر عنها في الكتب التي قرأها. ثم اجتاز البحر إلى المغرب وهو في العشرين من عمره، وتجول في أقطار إفريقية الشمالية باحثاً عمّا ينمو على جبالها وفي وديانها من الأشجار والأعشاب والأحجار. ثم واصل طوافه شرقاً ودخل مصر. وشاع أمره بين علماء مصر، فألحقه

الملك الكامل محمد بن أبي بكر الأيوبي (١٢١٨ - ١٢٣٨ م) بحاشيته، وأكرمه، وعيّنه رئيس العشابين بديار مصر، وصار ابن البيطار مرجع ذوي المهن الطبية في معرفة خصائص الأعشاب وفوائدها في صناعة الطب والعلاج. وبعد وفاة الملك الكامل التحق بحاشية ابنه الملك الصالح نجم الدين بدمشق (١٢٤٩ م) ولقي منه ما لقيه من أبيه. وفي دمشق وديار الشام تابع دراسة الأعشاب، وقيل إنه دخل بلاد الروم ووصل إلى أعماقها[1].

وفي أثناء إقامته في دمشق التحق به ابن أبي أصيبعة ودرس عليه تفسير بعض أسماء الأعشاب الواردة في كتاب الحشائش لديوسقريدس، وكتب جالينوس والغافقي، وأفاد منه كثيراً في علم النبات وأسماء الأعشاب والحشائش وصار من طلبته النابهين المشهورين. ومن المرجح أن يكون إبراهيم بن محمد بن السويدي (ت٦٩٠ هـ/١٢٩١ م) قد لحق ابن البيطار وأخذ عنه.

يعتبر ابن البيطار من أعظم علماء النبات والأدوية في العرب قاطبة، وهو بينهم كديوسقريدس بين علماء اليونان، وتعد كتاباته في هذا الموضوع أفضل ما كتب بالعربية إلى تاريخه. ولا يبدو من خلال استقراء كتاباته أنه مارس الطب رغم معرفته الجيدة بعلم النباتات وأسماء الأعشاب واستخراج العقاقير المفيدة منها، فقد كان كثير ممّن تعلم تركيب العقاقير يمارس الطب ويعالج المرضى الذين يستسهلون استشارة الصيادلة على زيارة عيادة الأطباء. وكذلك لم يعرف عنه أنه اشتغل بعلم آخر غير مفردات الأدوية.

توفي ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م. له من المؤلفات:

- كتاب المغني في الأدوية المفردة، ويعرف في الغرب باسم «مفردات ابن البيطار». رتبه ابن البيطار حسب أعضاء الجسم التي تستطب لها الأدوية المفردة.
- شرح أدوية كتاب ديوسقريدس.
- كتاب الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام، وهو تعليقات على كتاب «منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان من الأدوية المفردة والمركبة» لابن جزلة البغدادي.
- كتاب ميزان الطبيب.

---

(١) يرجح د. سامرائي في مختصره أن يكون ابن البيطار دخل بلاد الروم عن طريق سورية وليس عن طريق البحر من قبرص أو إيطاليا. (ص٦٢ من الجزء الثاني).

ــ كتاب الدرة البهية في منافع الأبدان الإنسانية.

أما أشهر كتبه على الإطلاق فهو «الجامع لمفرادت الأدوية والأغذية»، فهو أجلها شأناً في الطب. ففيه وصف لأكثر من ألف وأربعمائة صنف من الأدوية من مصادر معدنية وحجرية ونباتية وحيوانية، ثلاثمائة منها وأكثر من اكتشاف ابن البيطار نفسه. ولم يرد ذكرها في كتب الهند واليونان. وقد رتب ابن البيطار مفرداته على تسلسل حروف المعجم وذكر أسماءها اللاتينية والبربرية والإسبانية الدارجة، مع ذكر منافعها وخواصها وفائدتها العلاجية وأماكن استعمالاتها في الطب.

كان كتاب «الجامع» مدار اهتمام العقاقيريين الذين اعتمدوا عليه في البيمارستانات وحوانيت الصيدلة، فقد أخذوا عنه الكثير في مؤلفاتهم، ومن هؤلاء يوسف بن اسماعيل الكلتبي البغدادي (ت٧٥٤ هـ/١٣٥٣ م) صاحب كتاب «ما لا يسع الطبيب جهله» وهو مختصر كتاب ابن البيطار، ومنهم أبو المنى الهاروني اليهودي صاحب كتاب «منهاج الدكان»، وابن السراج الغرناطي (ت ٧٣٠ هـ/١٣٢٩ م) والقاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني الأندلسي ـ الفارسي (ت ٩٩٥ هـ/١٥٩ م) صاحب كتاب «حديقة الأزهار في شرح منية العشب والعقار»، وداود الأنطاكي صاحب «التذكرة» المعروفة باسمه (ت ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م)، كما أخذ عنه أيضاً محمد بن موسىٰ الدميري صاحب «حياة الحيوان الكبرى» (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م). وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والألمانية والفرنسية.

ابن النفيس:

أبو العلاء علاء الدين علي بن أبي الحزم القَرْشي المشهور بابن النفيس. ولد بقرية قَرْش القريبة من دمشق سنة ٦٠٧ هـ/١٢١٠ م ونسبته إليها. درس الطب بدمشق على مهذب الدين عبدالرْحيم الدخوار (ت٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م)، وعلى عمران الإسرائيلي (ت٦٣٧ هـ/ ٢٣٩ م)، وكانت مدينة دمشق عهدئذ تحت حكم الأيوبيين الذين عرفوا بحبهم للعلوم ورعايتهم للعلماء والترحيب بالوافدين والهاربين من بغداد خوف بطش المغول الذين كانوا يتربصون لغزو المشرق العربي الإسلامي. وأمام هذا الخطر المتربص ترك ابن النفيس دمشق وقصد القاهرة عاصمة الأيوبيين قبل عشرين سنة من دخول المغول إلى بغداد في سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م.

كانت القاهرة في ذلك الوقت لا تزال تعيش ذكرى أطبائها الأفذاذ أمثال ابن رضوان (ت٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م)، وابن جُميع (ت٥٣٣ هـ/١١٣٨ م)، وابن العين

زربي (ت٥٤٨ هـ/١١٥٣ م)، وابن المدور (ت٥٨٠ هـ/١١٨٤ م)، وابن الناقد (ت٥٨٤ هـ/١١٨٨ م)، وابن القضاعي (ت٥٩٨ هـ)، ومع ذكرى هؤلاء، كان في مصر آنئذ الكحال نفيس الدين بن الزبير، وابن الخونجي، وابن البيطار، وكان فيها أيضاً البيمارستان الصلاحي (العتيق) والبيمارستان المنصوري الذي يفضل عموم البيمارستانات في الأقطار الإسلامية.

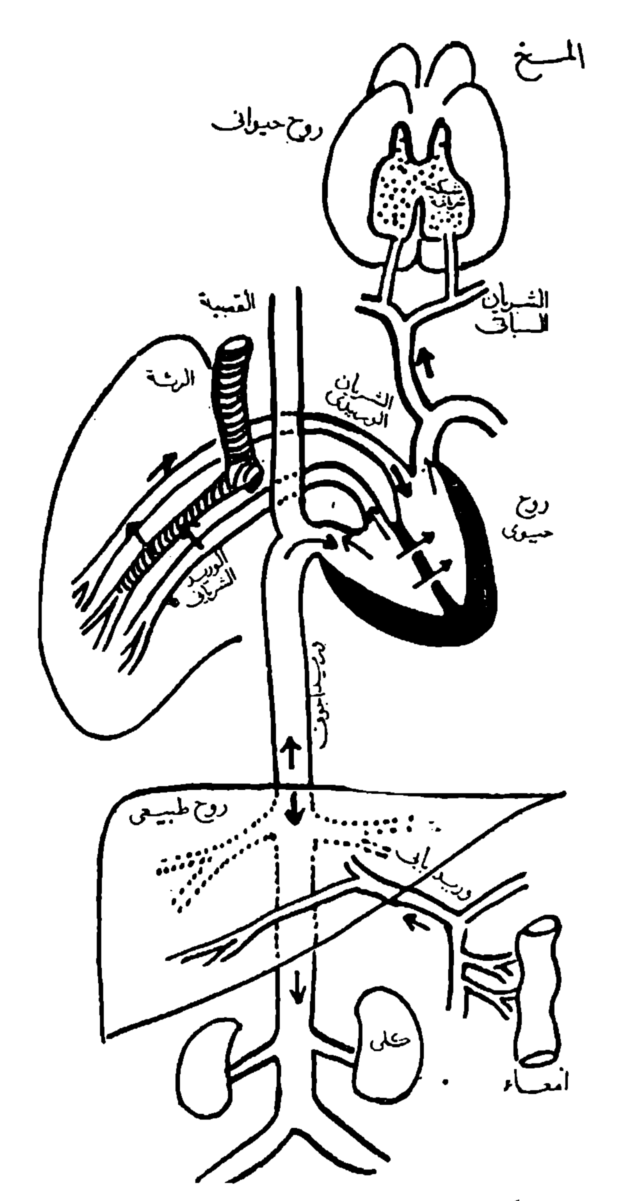
كان دخول ابن النفيس مصر في حدود سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٦ م والتحق بالبيمارستان الصلاحي ثم أصبح رئيساً له وعميداً للمدرسة الطبيعية الملحقة به. ثم انتقل إلى بيمارستان قلاون بعد اكتمال عمارته سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م، وقد زامله في هذا البيمارستان ابن أبي أصيبعة رفيق صفّه في مدرسة الدخوار بدمشق وزميله في البيمارستان النوري الكبير فيها أيضاً.

وتجدر الإشارة إلى عبارة واحدة لها أهميتها القصوى بالنسبة إلى تاريخ الطب، وهي المتعلقة بتغذية عضلة القلب التي كان قد قال عنها ابن سينا: إنها من طريق الدم الموجود في تجويفه مباشرة، إذ يقول ابن النفيس: «وقوله ـ ليكون له مستودع غذاء يغتذي به وجعله الدم الذي في البطين الأيمن منه يغذي القلب لا يصحّ البتة، فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المار فيه من العروق المارة في جرمه... وهذه العبارة تجعل ابن النفيس أول من فطن إلى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها، وهي تضيف دليلاً آخر على أن ابن النفيس مارس التشريح، كما أنها تجعل منه أول من وصف الشريان الإكليلي وفروعه لتثبت الفارق الكبير بين نظرة جالينوس وابن سينا من جهة، ونظرة ابن النفيس من جهة أخرى.

والرسم اللاحق يوضح نظرة جالينوس الخاطئة[1]:

كان ابن النفيس طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً وعالماً بالتاريخ وفقيهاً بالشريعة الإسلامية. ويذكر المؤرخون أنه كان علامة في المعرفة الطبية، يقرأ كثيراً فيها ويكتب كثيراً. ويروى أنه من سرعة عمله في الكتابة يستحضر له عدد من الأقلام المبرية حتى لا يتأخر عن تسجيل أفكاره التي تزدحم في رأسه. وكان يميل إلى أفكار أبقراط ويسجلها ويعتمدها في علاجاته وتدريساته ومؤلفاته. وكذلك كان مع ابن سينا في كتابه القانون، فقرض كتبها الطبية بالشرح والتعليق. أما موقفه من جالينوس فرأيه فيه أنه: «عييّ في تفسير آرائه ومطول دون إجادة».

(١) الرسم عن مجلة تراث الإنسانية م١ ص٧٤، مقالة بقلم الدكتور بول غليونجي.



ومن خلال استقراء ما ذكره المؤرخون المعاصرون لابن النفيس، يمكن استخلاص ما يشير إلى أن ابن النفيس لم يكن ممارساً حاذقاً للصنعة بقدر ما كان عالماً مبتكراً، رغم غزارة علمه ومعلوماته في الطب ووفرة مؤلفاته فيها وكثرة بحوثه في علومها الأساسية. فإذا كان ما ذكره هؤلاء صحيحاً عن ابن النفيس فإننا لا نستغرب هذا الأمر لأن معظم الأطباء والعلماء لا يجيدون الطب السريري (التطبيقي) ولا يعيرونه اهتماماً بقدر ما يولون أعمال البحث والاستقصاء والتأليف عنايتهم واهتمامهم.

لقد عاش ابن النفيس حياته كلها عزباً وفي بحبوحة من العيش الرخي في داره الأنيقة الفخمة العمارة والأثاث. وكان له مجلس يقصده العلماء وأعيان القاهرة وطلاب العلم، يتقابسون الأدب وأمور الشريعة والطب. ولما توفي أوصى بما يملكه

من منقول وغير منقول وقفاً على البيمارستان المنصوري الذي خدم فيه طيلة خمسين عاماً.

اشتهر ابن النفيس بأعماله في علم التشريح، والمطلع على كتاباته في هذا الموضوع يدرك أنه كان يدعو إلى التشريح المقارن على تشريح الحيوان وليس التشريح المباشر على جسم الإنسان. فهو يقول: «أما تشريح العظام والمفاصل ونحوهما فيسهل في الميت من أي سبب كان موته، وأسهل ما يكون إذا مضى على موته مدة فني ما عليه من اللحم حتى بقيت العظام متصلة بالأربطة ظاهرة، فإن هذا لا يفتقر فيه إلى عمل كثير حتى يوقف على هيئة عظامه ومفاصله». فمن كلامه هنا يفهم أن ابن النفيس كان يمارس تشريح الإنسان على جثث الموتى. ولكنّا نعود فنقرأ له من جديد: «أما تشريح العروق الصغار التي في الجلد، وما يقارب منه، فيعسر في الأحياء لما بيّناه، وكذلك في الموتى الذين ماتوا لمرض ونحوه، وخصوصاً ما كان من الأمراض ما يلزمه قلة الدم والرطوبات فيخفي تلك العروق، كما في الإسهال والدق والنزف». فهل يكون ابن النفيس قد مارس التشريح عملياً على الإنسان؟ وهل عمل ذلك بتستر ورعاً ورغبة في إرضاء العامة التي تقول: «إن الإنسان بنيان الله لعن من هدمه» ولذلك أخفى عن الناس التشريح على الجثث البشرية.

أكثر ما يذكر اسم ابن النفيس مقروناً بذكر اكتشافه الدورة الدموية الصغرى، فهو أول من اكتشف وجود هذه الدورة، وليس كما يقال إن هارفي الإنكليزي هو الذي اكتشفها، فإنه قد بحث في دورة الدم هذه بعد ما يزيد على ثلاثة قرون من وفاة طبيبنا العربي.

توفي ابن النفيس في القاهرة سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٨ م، وكان من تلاميذه رشيد الدين بن خليفة وابن القف وغيرهما.

يقال إن الذي وصل إلينا من مؤلفات ابن النفيس أقل من الذي ضاع منها، أما ما وصلنا منها فيمكن إيراده فيما يلي:

- كتاب الشامل في الطب، وهو أعظم كتبه، وضعه على غرار كتاب الحاوي للرازي، إلَّا أنه أكبر حجماً فقد ذكر له ثلاثمائة سفر، كان منها ثمانون في البيمارستان المنصوري.
- كتاب المهذب في الكحل.
- كتاب المختار من الأغذية (تضمن ذكر الغذاء في الأمراض الحادة).

- شرح فصول أبقراط.
- شرح تقدمة المعرفة لأبقراط.
- تعليق على كتاب الأوبئة لأبقراط.
- شرح تشريح جالينوس (يتضمن نقد آراء جالينوس في التشريح).
- شرح مسائل حنين بن إسحاق.
- شرح مفردات القانون لابن سينا.
- شرح القانون (ذكر أنه في عشرين مجلدة).
- موجز القانون أو الموجز في الطب (اختصار لقانون ابن سينا في الطب، ما سوى قسم التشريح ووظائف الأعضاء).
- تفاسير العلل وأسباب المرض.
- شرح تشريح القانون، ولم يكن له شهرة بين الأطباء العرب، ولعل مرد ذلك إلى كون الكتاب في موضوع من العلوم الأساسية التي لا يميل إليها الأطباء، أو لأن فيها نقداً على جالينوس وابن سينا اللذين كانا في ذلك الوقت متمتعين بالحصانة الأدبية والعلمية ضدّ ما يسيء إلى اسميهما. أما في الوقت الحاضر فالكتاب من أبرز كتب ابن النفيس، وسبب قيمته هذه تتعلق بأمور ثلاثة:

١ - وصفه لعمله المبتكر في اكتشاف الدورة الدموية في الرئة.
٢ - اكتشافه أن عضلات القلب تتغذى من الأوعية الدموية المبثوثة في داخلها وليس من الدم الموجود في أجوافه.
٣ - معرفتنا من الكتاب بثقة المؤلف العظيمة بنفسه ونقده أعظم طبيبين عرفهما العرب إلى ذلك التاريخ وهما جالينوس وابن سينا[١].

- كتاب فاضل بن ناطق أو «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية»، وهي قريبة الشبه من رسالة حي بن يقظان لابن طفيل.

البيمارستانات في الديار المصرية الإسلامية

ذكرنا فيما تقدم من هذا الفصل أن مستشفيات مصر كانت من أرقى مستشفيات ديار الإسلام لسعتها وانتظام العمل فيها، وشموليتها لمعالجة أنواع الأمراض، وأن لها وقفيات ضخمة من الخلفاء والأمراء لتتوفر لها ما تحتاج إليه من

---

(١) انظر مختصر تاريخ الطب العربي ج٢ ص٧٥.

نفقات ورواتب العاملين فيها، وتكاليف الأدوية والأدوات وما إلى ذلك. وإذا كانت بيمارستانات مصر من المنشآت الصحية القديمة في الإسلام، وإذا كانت قد تأسّست في عهود متتالية على مدى قرون أربعة، فإن التطويرات التي أجريت عليها عبر هذه العهود جعلتها أحسن هندسة وأكثر تنظيماً وأيسر عملاً من البيمارستانات الأخرى التي أنشئت في ذلك العصر، أو البيمارستانات التي سبقتها في جميع الأقطار الإسلامية الأخرى.

وأهم هذه البيمارستانات التي عرفت في مصر:

- **بيمارستان المغافر:**
أنشأه الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل.

- **البيمارستان العتيق:**
يعرف بالبيمارستان الأعلى. أسّسه أحمد بن طولون في حدود سنة ٢٥٩ هـ/٨٧٢ م، ويقال إنه أول بيمارستان أنشيء في مصر. بناه ابن طولون في الفسطاط، وكان يهتم به كثيراً، وقد زوّده بخزانة شراب (صيدلية) وعيّن له طبيباً يقيم في أيام الجمع لمعالجة المصلين المحتاجين إلى العلاج والخدمة الطبية. وقد عمل في هذا البيمارستان من الأطباء: محمد بن عبدون الجيلي، سعيد بن نوفل (أو توفيل) وشمس الدين محمد بن عبدالله المصري.

- **البيمارستان الأسفل:**
أسّسه كافور الإخشيدي في حدود سنة ٣٤٦ هـ، وقد نقل إليه الكثير من محتويات البيمارستان الأعلى.

- **بيمارستان القشاشين:**
كان مكان إنشائه قريباً من الأزهر الشريف، ولا يعرف مؤسّسه على ما ورد في المصادر التاريخية.

- **بيمارستان السقطيين:**
كان مكانه بسوق السقطيين بالقاهرة. وقد عمل فيه أبو الحجاج يوسف الكحّال بطب العيون.

- **البيمارستان الناصري (الصلاحي):**
ويسمّى أيضاً بيمارستان صلاح الدين نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي. كان موقعه في قصر الفاطميين الذي أنشأه الخليفة العزيز بالله سنة

٣٨٤ هـ/٩٩٤ م، وقد اختاره صلاح الدين ليكون بيمارستاناً وذلك لخلوه من بيوت النمل. وعمل في هذا البيمارستان من الأطباء: رضي الدين الرحبي في طب العيون، إبراهيم بن موسىٰ بن ميمون، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة، الشيخ السويد بن أبي البيان، داود بن سليمان، ونفيس الدين بن الزبير الكولمي.

- **بيمارستان الإسكندرية:**

أنشأه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م في الإسكندرية.

- **البيمارستان المنصوري:**

ويسمّى أيضاً بيمارستان قلاوون أو دار الشفاء، أسّسه الملك المنصور قلاوون في ما بين القصرين بالقاهرة. كانت عمارته قصراً للأميرة الفاطمية ابنة العزيز بالله نزار، وانتقلت ملكيته إلى الأيوبيين ثم انتقلت إلى الملك سيف الدين قلاوون. طوّر سيف الدين القصر إلى بيمارستان في حدود سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م. كان القصر كبيراً وباحته واسعة جداً، فجعل فيه أربع ردهات لمرضى الحميات وردهة للرمد وردهة للجراحة وردهة لحالات الإسهال وردهة للأمراض النسائية، وجعل فيه مكاناً مناسباً للممرورين ومثله للممرورات، وزوّده بمطبخ واسع، ومختبر لتركيب الأدوية من المعاجين والأشربة والسفوفات وغيرها. وزوّده أيضاً بقاعة ليلقي فيها رئيس الأطباء الدروس الطبية على الطلبة، وعيّن له إداريين وخدماً.

وقد بقي العمل في هذا البيمارستان مستمراً حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، أما الأطباء الذين عملوا فيه فمنهم: أحمد بن يوسف بن هلال الصفدي، ركن الدين بن القوبع، ابن الأكفاني محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجاري، عمر بن منصور بن عبدالله البهادري، تقي الدين الكرماني البغدادي، محمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن صغير القاهري، عبد الوهاب بن محمد بن محمد طريف الشاوي، محمد بن عبد الوهاب بن محمد الصدر بن البهاء السبكي، محمد بن محمد بن علي بن عبدالكافي، محمد بن يعقوب الشمس تفهمني القاهري، محمد بن محمد ولي الدين، الشيخ محمد شمس الدين القوصوني، علي بن محمد بن محمد بن علي الجراح، شهاب الدين أحمد بن الصايغ (كان رئيس الأطباء وشيخهم في البيمارستان)، مدين بن عبدالرحمن القوصوني المصري، وعلي بن جبريل.

الفصل السادس عشر

الطب والأطباء
في الجزيرة وديار الشام

بعد انهيار الدولة الأموية تعاقب على الجزيرة وديار الشام حكام كُثُر من العرب وغيرهم، فقد حكم هذه البلاد بنو العباس والطولونيون والإخشيديون والفاطميون والبويهيون والمروانيون، كما أنها خضعت للمغول واحتلها الصليبيون ما يزيد على القرنين (٤٩٠ ـ ٦٩١ هـ/١٠٩٦ ـ ١٢٧٢ م). ومع انتقال عاصمة الخلافة من دمشق في زمن الأمويين إلى بغداد قاعدة الخلافة الجديدة، فإن نجم دمشق بدأ بالأفول بينما سطع نجم بغداد وازدهرت وتعاظم شأنها. وهكذا لم يبق في الجزيرة وبلاد الشام غير العاجزين من الأطباء والذين لم يكونوا على مستوى عالٍ في الصنعة، وبعض الأطباء من الروم، أما حذاق الأطباء في دمشق من أمثال آل أبي الحكم الدمشقي وخريجي مدرسة جنديسابور فقد التحقوا ببغداد سعياً إلى الرزق في بلاط العباسيين الحكام الجدد.

لم تذكر المصادر معلومات وافية عن الطب والأطباء في ديار الشام فيما بين تاريخ سقوط الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠م وأوائل القرن الرابع الهجري، وهو التاريخ الذي بدأت معه أولى الحركات الطبية في الموصل في أثناء حكم الحمدانيين (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ/٩٢٩ ـ ١٠٠٣ م)، وقد ذكر عن سيف الدولة الحمداني (ت٣٥٦ هـ) حبّه للعلم ورعايته للعلماء والشعراء والأطباء، حتى إنه لم يكن على مائدته أقل من عشرين طبيباً[١]. وكان من بين هؤلاء الأطباء أحمد بن أبي الأشعث، وجابر بن منصور السكري، وعيسى الرقي، وغيرهم.

---

(١) عيون الأنباء ص٦١٠.

وفي خلال هذه الحقبة كان الفاطميون يحتلون دمشق وديارها ويستقدمون علماءها إلى عاصمة خلافتهم في مصر ويغرونهم بالمال والجاه لترك موطنهم. ثم جاء بعدهم السلاجقة وحكموا هذه الديار الشامية والجزيرة بين ١١٠٤ و١٢٣١ م، وكانوا أتراك عرفوا بحبهم لنشر العلم وعضد العلماء والعطف على الفقراء والمرضى، وكانوا قد طردوا الحمدانيين من حلب والموصل، والمروانيين من ديار بكر، والفاطميين من دمشق. وكان نور الدين زنكي السلجوقي حاكم بلاد الشام قد أنشأ البيمارستان الكبير النوري بدمشق، والبيمارستان النوري بحلب، وبيمارستان الموصل. وقد لعب بيمارستان دمشق دوراً كبيراً في ازدهار صناعة الطب في تلك الديار، وتخرّج فيه الكثير من الأطباء الذين برزت أسماؤهم في عالم الطب مشرقة في أقطار الإسلام شرقاً وغرباً.

وقد دفع اهتمام نور الدين زنكي بالطب والأطباء أن يزحف إلى دمشق الكثير ممّن له علم في هذه الصناعة، وطلاب المعرفة، فورد عليها من بغداد ابن النقاش، ومن مصر أبو زكريا البياسي، ومن المغرب أبو الحكم الباهلي، ومن الأندلس ابن البذوخ وعبدالمنعم الجلياني الكحال. ثم ازدادت وفود الأطباء إلى دمشق في زمن الأيوبيين، فالتحق ببلاطهم عدد وافر من أفذاذ الأطباء كشمس الدين الخوئي، وشمس الدين الخروشاهي والشريف الكحال وأبو النجم النصراني وأبو الفرج النصراني وشمس الدين اللبودي ورضي الدين الرحبي وعمران الإسرائيلي ويعقوب بن سقلاب وزين الدين الحافظي وموفق الدين بن عبدالعزيز وابن البيطار الملقي وغيرهم. وقد دارت في خلال هذه الحقبة الحروب الصليبية التي شارك فيها صلاح الدين ضد الصليبيين وأبعدهم عن القدس، وأسّس البيمارستان في غزة وحلب، وبقي الأيوبيون على حكم الشام إلى أن دخلها المغول سنة ٦٠٣ هـ/١٠٤٣ م.

لقد كانت ديار الشام والجزيرة على مدى تاريخها الطويل، نظراً لموقعها الجغرافي، عرضة لمن له قوة على الاعتداء والاستيلاء، وتبعاً لذلك فإن العلماء كانوا ينتقلون بانتقال الحكام أو هرباً منهم. وتبرز هذه الحقيقة بعد سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م، وكانت قد نقلت مؤلفات الأطباء والعباسيين إلى مدن الشام تباعاً بعد انتشارها، وصار بين أيدي الشاميين معظم المؤلفات الشهيرة كمؤلفات حنين بن إسحاق وأبي بكر الرازي والمجوسي وابن سينا لتصبح المراجع التي يعود إليها ويدرسها المتعلمون ويطبقها الممارسون. وقد بقي علماء دمشق وغيرها من البلاد الشامية يرجعون إليها دون أي تطوير فيها نظراً لجلالة مؤلفيها إلاّ في حدود

بعض التغييرات الشكلية، أو عملوا على اختصار البعض منها، فظهر كتاب اختصار المسائل لحنين الذي وضعه رضي الدين الرحبي، وكتاب اختصار الحاوي للرازي وضعه مهذب الدين الدخوار، وكتاب اختصار الحاوي لكمال الدين الحمصي، وكتاب حواش على القانون لابن سينا صنعه ابن التلميذ البغدادي وغيرها الكثير.

وهكذا كانت المؤلفات الطبية البغدادية حافزاً على البحث والتعلّم في صناعة الطب بين أطباء دمشق، فتحولت البيمارستانات ومجالس العلماء الخاصة إلى ما يشبه المعاهد العلمية، ونشأت بدمشق مدرسة الرحبي، ومدرسة ابن النقاش، ومدرسة الدخوار، وساعد على إنجاح تعليم الطب تطبيقياً وليس نظرياً في هذه المدارس تعدد البيمارستانات الشامية وكان عددها في ذلك الوقت يزيد على العشرين بيمارستاناً.

● ابن المطران:

موفق الدين أسعد بن أبي الفتح إلياس بن جورجيس المطران. من مواليد دمشق، تعلم صناعة الطب على أبيه إلياس وعلى مهذب الدين بن النقاش الذي وصل من بغداد للعمل في البيمارستان النوري الكبير. وقد درس أيضاً النحو والأدب وخالط العلماء والشعراء، وقصد بلاد الروم للنهل من علوم النصارى ومذاهبهم.

كان كريم الخلق لطيف العشرة متأنقاً في حديثه وخصوصاً مع السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي خدمه، فكان لا يفارقه في حله وترحاله، وكانت تضرب له خيمة حمراء في أثناء المعارك كخيمة صلاح الدين تمييزاً له عن خيمة الجنود القواد. وقد أسلم فزوجه صلاح الدين جارية من جواريه اسمها جوزة[1].

وكان ولوعاً بجمع المخطوطات فجمع منها ما يزيد على عشرة آلاف كتاب[2]، وكان يكثر من قراءتها، واستنساخ النادر منها، وقد عمل معه ثلاثة نسّاخ يساعدونه على النقل والكتابة.

توفي ابن المطران بدمشق سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م. وله من الكتب الطبية:

- كتاب الأدوية المفردة.
- كتاب آداب طب الملوك.
- كتاب بستان الأطباء وروضة الألباء.

---

(١) عيون الأنباء ص٦٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص٦٥٥.

ـ المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية (رفعها إلى الملك الناصر صلاح الدين).

ـ المقالة النجمية في التدابير الصحية (رفعها للملك نجم الدين أبي صلاح الدين).

ـ كتاب على مذهب «دعوة الأطباء» لابن بطلان.

● **ابن النقاش**:

أبو الحسن علي بن عيسى بن هبة الله النقاش. ولد في بغداد وفيها نشأ. كان والده هبة الله بزازاً يهوى الأدب ونظم الشعر، فانتقلت هوايته إلى ولده علي. وكان الابن أيضاً محباً للغة الفارسية فتعلم الكلام بها، ثم التحق بمجلس هبة الله بن صاعد بن التلميذ الطبيب (ت سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٦ م) ودرس الطب عليه ومارس الصنعة في بغداد. انتقل إلى دمشق في خدمة أميرها نور الدين زنكي فأصبح طبيبه الخاص وكاتب ديوانه، وعمل في الوقت نفسه في البيمارستان النوري. ارتحل بعد ذلك إلى القاهرة وبقي فيها إلى أن ملك صلاح الدين الأيوبي دمشق فعاد إلى هذه المدينة ودخل في خدمة صلاح الدين وعاد للعمل في البيمارستان الكبير النوري يمارس الصنعة ويعلم الطب فيه.

توفي بدمشق سنة ٥٧٤ هـ/١١٨٧ م ولم يعقب، فقد ذكر عنه أنه لم يعاشر امرأة قط، بل كان مكباً على عمل الخير والتدريس. ومن جملة تلاميذه أبو زكريا البياسي، ومهذب الدين بن الحاجب، وموفق الدين بن المطران، وجمال الدين بن أبي الحوافر.

● **عبداللطيف البغدادي**:

هو عبداللطيف بن يوسف بنْ محمد بن علي بن سعد، العلاّمة موفق الدين البغدادي الشافعي النحوي اللغوي المتكلم الطبيب الفيلسوف المعروف بابن اللباد. لقّبهُ تاج الدين الكندي بالجدي المطجّن لرقة وجهه وتجعده ويبسه. ولد ببغداد سنة ٥٥٥ هـ وبها توفي سنة ٦٢٩ هـ.

سمّعه أبوه على ابن البطي وأبي زرعة المقدسي وشهدة وجماعة، وروى عنه جماعة: المنذري والضياء وابن النجار والقوصي، وحدّث بمصر والقدس ودمشق وحران وبغداد، وكان أحد الأذكياء المضلعين من الآداب والطب وعلم الأوائل، إلاّ أن دعاويه كانت أكثر من علمه، وكان دميم الخلقة نحيلاً قليل لحم الوجه، وكان

يتنقل في البلاد[1].

درس الطب على أمين الدولة بن التلميذ البغدادي، وحين بلغ العشرين من عمره كانت الدنيا تغلي بالأحداث وتضطرب بالتغيرات. وأراد عبداللطيف في هذه الفترة المضطربة أن يطوف في البلاد حباً بالتنقل والاستكشاف.

ترك عبداللطيف بغداد إلى الموصل وهو في الثامنة والعشرين، وبعد سنة ترك الموصل قاصداً دمشق ثم عكا وكانت تحت حكم صلاح الدين الأيوبي، ولكنه لم يلبث أن تركها أيضاً وشدّ رحاله إلى مصر حيث جرت له مناظرات فكرية مع علماء البلاد وخصوصاً موسىٰ بن ميمون القرطبي وابن سناء الملك. ثم هجر مصر إلى القدس ومنها توجّه إلى دمشق، ثم عاد إلى مصر ومرة أخرى إلى القدس، ومن القدس هذه المرة سافر إلى حلب، ثم في سنة ٦٢٥ هـ دخل بلاد الروم، وأراد بعد ذلك أن يقابل الخليفة المستنصر بالله فتوجه إلى بغداد ودخلها بعد غياب دام أكثر من اثنتين وأربعين سنة، وتوفي فيها سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣١ م.

وقد استفاد عبداللطيف من هذه الرحلات، فتعرف على أنواع الخلق واختبر طبائعهم، وتولد لديه حب المحاججة والنقد فلم يخلص من لسانه حتى الشيخ الرئيس ابن سينا، ولهذا السبب ربما نقده القفطي بخشونة ووصف كتبه أنها غاية في البرودة والركاكة. وقال عنه أيضاً: «كالأعمى الذي يتحسّس يدعي حدّة البصر».

كان عبداللطيف البغدادي كثير العمل في الليل والنهار. كان يقرأ ويدرس كثيراً، ويتعبّد إلى الله كثيراً، وهو على عكس ابن رضوان لا يوصي بالاعتماد على الكتب في التعلّم، ويوصي بالالتحاق بصُفوف المعلمين ذوي الخبرة. يقول في ذلك: «أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب وإن وثقت من نفسك بقوة الفهم، وعليك بالأستاذ في كل علم تطلب اكتسابه ولو كان الأستاذ ناقصاً فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه. عليك بتعظيمه وتوجيهه، وإن قدرت أن تفيده من دنياك فافعل وإلاّ فبلسانك وثنائك، وإذا قرأت كتاباً فاحرص على أن تستظهره وتملك معناه، وتوهم أن الكتاب قد عدم وأنك مستغن عنه».

وله في ذلك من القول:

ـ من لم يعرَق جبينه على أبواب العلماء لم يعرف الفضيلة.

ـ من لم يحتمل ألم التعلّم لم يذق لذة العلم.

---

(١) فوات الوفيات م٢/٣٨٥.

لقد كان البغدادي موسوعياً اشتغل في اللغة والفقه والطب والعلوم الحياتية والحساب والتاريخ والمعادن والمنطق، وألّف في هذه العلوم جميعاً، وذكر له من المؤلفات ما يزيد على المائة وسبعين كتاباً.

أما كتبه الطبية[1]:

- كتاب النخبة (خلاصة الأمراض الحادة).
- كتاب آلات التنفس لجالينوس.
- كتاب الكفاية في التشريح.
- كتاب في المزاج.
- كتاب مختصر في الحميات.
- كتاب في الأدوية المفردة.
- كتاب الترياق.
- كتاب النصيحتين للأطباء والحكماء.
- كتاب الرد على ابن الخطيب في شرحه بعض كليات القانون لابن سينا.
- كتاب تعقيب حواشي ابن جميع على القانون.
- كتاب حل شيء من شكوك الرازي على كتب جالينوس.

وله الكثير من الاختصارات كاختصار منافع الأعضاء لجالينوس، اختصار كتاب الحميات لإسحاق الإسرائيلي، واختصار كتاب المني لجالينوس، واختصار كتاب الحيوان للجاحظ، اختصار كتاب البول لإسحاق الإسرائيلي، واختصار كتاب النبض لإسحاق الإسرائيلي، واختصار كتاب الأدوية المفردة لابن سمجون، واختصار كتاب الأدوية المفردة لابن وافد، واختصار كتاب الحيوان لابن الأشعث.

وأما الكتب الأكثر شهرة من بين جميع كتبه فهي:

- كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، وهو في مقالتين ويعد أضخم ما وصلنا من مؤلفات البغدادي. فيه وصف لجغرافية مصر ومناخها وأرضها وشجرها ومياهها وأمراضها ومزاج إنسانها. وقد ذكر البغدادي فيه ملاحظاته على الهياكل العظمية في إحدى التلال القريبة من القاهرة، حيث درس فيها عدداً كبيراً من العظام البشرية، وانتقد اعتماداً على ذلك ما كتبه جالينوس عن الفك الأسفل. وهذا الجزء مهم تبرز فيه شخصية البغدادي الطبية ونظرته إلى الأمور التي تتعلق بالطب. فقد هاجم فيه الأطباء

(١) عيون الأنباء ص٦٩٣ - ٩٦.

لخلاص الأبدان من السقم، والفلاسفة لخلاص النفوس من آلام الجهل إلى سلامة المعرفة، وكان يقصد في أقواله أولئك المدعين من الأطباء ويستشهد عليهم بآراء جالينوس وأبقراط، وانتقد المرضى والحكام على السواء لأنهم لا يلتفتون إلى الأطباء السيئي المهنة، وذكّر أن الإدارة في الإسكندرية كانت تزاول مراقبة الطب وتمتحن الأطباء وتفرض عليهم قسم أبقراط، وأن مثل هذا كان معمولاً به في دمشق وبغداد والقاهرة إلاّ أن الفوضى عمّت حلب.

- رسالة في المرض المسمّى ديابيطس.

مضامين الرسالة كما ذكر المؤلف نفسه منقولة عن ديوسقريدس وأهرن القس ويوحنا بن ماسويه وتياذوق وجبرائيل بن بختيشوع والرازي.

- مقالة في الحواس.

مقالة في مقالتين، في الأولى تناول عبداللطيف البغدادي وصف الحواس الخمس المعروفة واختصاص كل واحدة منها وفضيلتها وكيفية الإدراك بالحس وتصنيفه على تنوّع طبيعته ومصادره.

أما المقالة الثانية فقد وضعها على طريقة المسألة والجواب. وهي تشتمل على إثنتي عشرة قضية، تبحث في شره المشايخ على الطعام، والعطش بعد تناول السمك، وخصب الأبدان بعد المجاعات، والسمنة بعد النقاهة من المرض، والحس بالبرد إذا تحرك الهواء، ونمو الكائنات الحية، وضخم أطراف ذوي المهن التي تنجز أعمالها باليد أو الرجل، كما تناول موضوع الأطفال الذين يتوقف نمو أجسامهم.

● مهذب الدين الدخوار:

الدخوار لقب عرف به مهذب الدين عبدالرحيم بن علي بن حامد. ولد ونشأ بدمشق. كان أبوه علي بن حامد طبيباً كحالاً ومثله كان أخوه حامد بن علي بن حامد. تعلم مهذب الدين الطب والكحالة على أبيه إذاً كما درس الطب على رضي الدين الرحبي ثم على عبداللطيف البغدادي وفخر الدين المارديني، وعلي بن المطران.

مارس مهذب الدين في بداية أمره الكحالة، ثم انقطع إلى الطب والتحق بالبيمارستان الكبير النوري وزاول المهنة فيه، ثم عمل به في التدريس. وفي أثناء زيارة الملك العادل أبي بكر الأيوبي (ت٦١٥ هـ/١٢٣٨ م) لمصر، أصابه مرض فيها، فاستدعي الدخوار لمعالجته، وكان يومئذ قد عمّ تلك البلاد وباء شديد هلك به بشر كثير، فلما شفي الملك العادل نصب مهذب الدين الدخوار رئيساً لأطباء

مصر بأسرها وديار الشام معها. ولما عاد الملك العادل إلى دمشق بسبب تحركات الإفرنج على الحدود الشمالية منها رافقه مهذب الدين، وعاد يمارس الصنعة في البيمارستان النوري بدمشق.

لقد كان مهذب الدين الدخوار شغوفاً بممارسة صناعة الطب ومهنة تدريسه. وقد كانت مدرسته أول مدرسة نموذجية في تعليم هذه الصناعة بدمشق وأشهر مدارسها عموماً، حيث صار يختلف إليها علماء الطب وطلاب العلوم الطبية. ويروى أن الدخوار أوقف داره وخزانة كتبه لمدرسته ليدعم التدريس فيها ويجري تمويل ما تحتاج إليه من النفقات.

ورغم ما بذله الدخوار من جهد في التعلّم والتعليم وما قدمه للطب والأطباء، فقد كانت نهايته حزينة، فقد أصيب بانفجار دموي في دماغه واستعصى عليه النطق. ومع ذلك لم يمتنع عن مقابلة تلاميذه، وكان يكتب لهم ما يريد قوله دون النطق به. وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م. ويكفي الدخوار فخراً أن كان من تلاميذه ابن أبي أصيبعة، وابن النفيس، وشمس الدين الكلّي، وزين الدين الحافظي، وموفق الدين عبدالسلام وغيرهم كثير.

ذكر له من المؤلفات الطبية:

ـ كتاب الرد على شرح ابن أبي صادق لمسائل حنين.

ـ مقالة يرد فيها على رسالة ابن الحجاج يوسف الإسرائيلي في ترتيب الأغذية اللطيفة وكيفية تناولها.

ـ شرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط.

ـ شكوك طبية ورد أجوبتها.

ـ كتاب الجنينة في الطب.

ـ مقالة في الاستفراغ.

ـ اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي.

ـ تعاليق ومسائل في الطب.

● ابن الصوري:

أبو المنصور بن أبي الفضل بن علي الصوري. طبيب عربي شهير في معرفة أصناف الأدوية المفردة والنباتات الطبية. من مواليد صور. هوي دراسة الأعشاب النافعة في العلاج من الأدواء. درس هذا العلم على أبي العباس الجياني، ثم انتقل إلى القدس وأقام بها سنتين، واتصل بالملك العادل الأيوبي، ثم صحبه سنة

٦١٢ هـ/١٢١٥ م إلى مصر وبقي إلى جانبه مدة حكمه هناك.

بعد الملك العادل خدم ابن الصوري ابنه الملك المعظم ثم الناصر بن المعظم، وفي أيام هذا الأخير أصبح رئيساً لأطباء مصر. ثم رجع إلى دمشق واستقرّ بها حيث كان من أصحابه ابن أبي أصيبعة.

طيلة حياته عرف عن ابن الصوري أنه كان عشّاباً حاذقاً ومحبّاً لدراسة طبيعة النبات وما يمكن أن يستفاد من أصنافه في تركيب الأدوية النافعة في الطب. وقد توصل إلى معرفة الكثير من الأدوية التي لم يرد ذكرها في مؤلفات من سبقه في هذه الصناعة. والملفت أنه كان يصطحب معه مصوّراً بحوزته الأصباغ والليق حيث يتوجهان إلى المواضع التي بها نبات فيشاهد النبات ويحقّقه، ويطلب تصويره حسب ألوانه وأشكاله وأعماره في الازدهار والذبول. وقد أدخل الكثير من هذه الصور في كتابه عن الأدوية المفردة.

توفي ابن الصوري سنة ٦٣٩ هـ/١٢٤١ م. له من الكتب:

- كتاب الأدوية المفردة.
- تعاليق طبية (كتبها لصاحبه ابن أبي أصيبعة).
- الردّ على كتاب تابع البلغاري في الأدوية المفردة.

● ابن القفّ:

أمين الدولة أبو الفرج بن موفق الدين يعقوب بن إسحاق بن القف. نصراني من قرية الكرك بلبنان. كان والده موفق الدين لطيف العشرة حلو المجالسة ينشد الشعر ويستشهد بحوادث التاريخ وعبره، وبأقوال الحكماء والأقوال المأثورة، وكان يناقش في الأدب ويتبارى في حسن الخط. وكان له أصدقاء كثيرون من بينهم ابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨ هـ) والذي طلب إليه موفق الدين أنْ يعلم ابنه أبا الفرج صناعة الطب. وبناء على طلب الأب صحب ابن أبي أصيبعة الابن إلى مجلسه وعمل على تلقينه أسس الطب ويعلمه تطبيق الصنعة. وقد قرأ أبو الفرج على معلمه فصول أبقراط ومسائل حنين بن إسحاق وحاوي الرازي. ثم بعد ذلك قرأ المزيد من الكتب الطبية على نجم الدين بن المنفاخ ويعقوب السامري. ولّما أتقن صناعة الطب مارس تطبيقه بنجاح في عجلون. ثم تركها قاصداً دمشق ليعمل في البيمارستان النوري الكبير حيث توفي هناك سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م.

ترك لنا ابن القف من الكتب الطبية:

ـ كتاب الشافي في الطب (في أعضاء البدن والأمراض النفسية والجسمانية).
ـ شرح الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا.
ـ شرح الفصول أو كتاب الأصول في شرح الفصول لأبقراط.
ـ كتاب جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض (في الصحة العامة والوقاية).
ـ كتاب العمدة في صناعة الجراح، وهو يختص بالأعمال الجراحية ويتكلم عن تشريح الأعضاء[1]

الأطباء من بني أبي أصيبعة[2]

رأس هذه الأسرة هو خليفة بن يونس بن أبي القاسم بن خليفة الخزرجي ويعرف بابن أبي أصيبعة وهي الكنية التي حملها أفراد الأسرة كلهم. كانت هذه الأسرة الشامية مشهورة بالفضل والعلم والحكمة في دولة الأيوبيين بمصر ودمشق وبعلبك، وكان رب الأسرة خليفة ذا مكانة اجتماعية بارزة وذا فضل بالعلم واتصال بالعلماء والأطباء. وقد كانت بلاد الشام في ذلك الوقت في حال مضطربة بسبب المعارك التي كانت تدور على ساحتها بين المسلمين والصليبيين، ولما دخل صلاح الدين الأيوبي مصر ارتحل إليها خليفة مع أسرته وولديه علي والقاسم.

في مصر لقي خليفة صديقه الشامي جمال الدين بن أبي الحوافر الذي كان يعمل في خدمة الملك عثمان بن صلاح الدين، وكان يشغل رتبة رئيس الأطباء بمصر. وفيها أيضاً تعرف إلى الكحال أبي الحجاج يوسف طبيب البيمارستان في السقطيين بالقاهرة وعلى موسى بن ميمون القرطبي، والكحال ابن الزبير، وعبداللطيف البغدادي، وابن أبي البيان طبيب البيمارستان الناصري. ولما كان محباً للعلم والعلماء ويريد لولديه فضل هذه العلوم جميعاً فقد وجه ولديه إلى هؤلاء العلماء ليتعلما عليهم الصنعة. واندفع الولدان ينهلان من ينابيع هؤلاء المعلمين في صناعتهم، فتخرج رشيد الدين علي في الطب عامة على ابن أبي الحوافر، وتخرج القاسم بطب العين على أبي الحجاج يوسف. وبعد أن مارسا الصنعة في البيمارستان عادت الأسرة إلى دمشق سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م ليمارس الولدان مهنتي الطب والكحالة.

---

(١) عيون الأنباء ص٧٦٨.

(١) عن أسرة بني أبي أصيبعة راجع عيون الأنباء ص٧٣٦ ـ ٥٠.

● **علي بن خليفة:**

الابن الأكبر لخليفة بن أبي أصيبعة، اسمه رشيد الدين علي وكنيته أبو الحسن. ولد بالشام وتعلم الطب كما أسلفنا على ابن أبي الحوافر في مصر بعد رحيله مع أبيه وأخيه إليها، وكان قد تعلم طب العيون على الكحال نفيس الدين بن الزبير طبيب البيمارستان، ومارس في البيمارستان نفسه الأعمال الجراحية، ودرس على عبداللطيف البغدادي وسديد الدين بن أبي البيان علوم اللغة والحكمة، واشتغل في علوم التنجيم على ابن الجعدي، ودرس الموسيقى على ابن الديجوري المصري وصفي الدين بن التبان، فألمّ بهذه العلوم كلها وأتقن ممارسة الطب. وبالإضافة إلى كل هذا فقد تعلم اللغة الفارسية والتكلم بالتركية وقرض الشعر بالعربية.

ولما انتقل مع الأسرة إلى دمشق، وكان في العشرين من عمره، التحق بمدرسة رضي الدين الرحبي وكان يعمل في الوقت نفسه في البيمارستان النوري، وزامل فيه مهذب الدين الدخوار. ولم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره إلاّ وشهرته وبراعة معالجته وحسن أخلاقه ومعاملته المرضى قد ذاعت وانتشرت، وصار شيخاً مقدّراً في الآراء الحكمية، وسرعان ما ألحقه الملك عيسى بن أبي بكر الأيوبي سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م بحاشيته. ثم انتقل إلى بعلبك بعد ذلك بناء على طلب من صاحبها الملك بهرام شاه بن فرخشاه الأيوبي، ثم عاد إلى دمشق في خدمة الملك عيسى بن أبي بكر من جديد، ثم خدم بعده ابنه الملك الناصر داود، وبقي هكذا في خدمة الملوك الأيوبيين بدمشق وفي البيمارستان الكبير النوري في الوقت نفسه إلى أن توفي سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥١ م.

له من الكتب الطبية:

ـ كتاب في الطب (صنّفه للملك المؤيد نجم الدين مسعود بن صلاح الدين الأيوبي).

ـ مقالة في نسبة النبض وموازنته إلى الحركات الموسيقية.

ـ كتاب طب السوق (وضعه لأحد تلاميذه، ويتضمن ذكر الأمراض التي تحدث كثيراً).

ـ كتاب في الأسطقسات.

ـ تعاليق ومجربات في الطب (معظمه في الطب الشعبي).

● **ابن أبي أصيبعة:**

موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة الخزرجي، وقد طغت عليه كنية جده فعرف بها. ولد بدمشق، كان أبوه القاسم طبيب عيون كحّالاً، وكان عمّه علي رشيد الدين طبيباً حاذقاً، ولا بدّ أنه تعلم عليهما الصنعة منذ صغره، ومن المرجح أن يكون قد درس على أطباء آخرين من الذين عاصروا أباه وعمّه أمثال مهذب الدين الدخوار ورضي الدين الرحبي وشرف الدين الرحبي ونجم الدين بن المنفاخ.

لم يعرف عن أحمد سعة ممارسته الطب في دمشق ولم يشتهر بهذه الصنعة فيها، ولعله عرف كحّالاً ليس إلاّ، ولهذا السبب ربما ارتحل إلى مصر سنة ٦٤٢ هـ في أيام الملك الكامل محمد الأيوبي (ت٦٣٥ هـ) والتحق بالبيمارستان الصلاحي هناك حيث كان يعمل ابن النفيس زميله في المدرسة الدخوارية بدمشق. ولعله لم يوفق فيما ابتغاه من رحيله إلى مصر فغادرها بعد عام فقط عائداً إلى دمشق.

في دمشق وفي سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م بدأ أحمد بن القاسم تصنيف كتابه الشهير «عيون الأنباء في طبقات الأطباء». ثم انتقل إلى صرخد بحوران وفيها أكمل كتابه. وكانت وفاته سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م عن عمر يزيد على السبعين سنة.

عرف عنه إتقانه فنون اللغة وحبّه نظم الشعر (على عادة الأسرة)، وكان كثير الاهتمام بجمع أخبار الحكماء والأطباء وذكر مؤلفاتهم، إلى جانب ممارسة الطب والكحالة.

له من الكتب:

ـ كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء (وهو من أشهر كتبه).

ـ كتاب التجارب والفوائد.

ـ كتاب حكايات الأطباء في علاج الأدواء (ذكره الزركلي ١/١٨٩).

ـ كتاب إصابات المنجمين (ذكر نللينو في الفلك عند العرب ٦٦)[1].

أطباء الأسرة الرحبية

أسرة أخرى من الأسر التي تعاطت صناعة الطب في بلاد الشام فيما بين القرن السادس والسابع الهجريين، وقد كان تاريخ الطب حافلاً بذكر الأسر التي تعاقب أبناؤها على الصنعة وكان كل منهم علماً من أعلام الطب الذين خلدهم

التاريخ، وقد مرّ معنا ذكر أسرة ماسويه، والأسرة البختيشوعية، وأسرة الطيفوري، وأسرة بني فانه، وغيرها.

● رضي الدين الرحبي:

أبو الحجاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي. من أطباء دمشق المشهورين. ولد بالرحبة، وهي مدينة سورية تعرف أيضاً بالميادين تقع على الفرات أسفل دير الزور، حيث كان أبوه يعمل بطب العيون. تعلم مبادىء الطب على أبيه أول أمره، ثم سافر إلى مصر واتصل بابن جُميع هبة الله بن زيد (زين) المصري وأفاد كثيراً من علمه. عاد إلى دمشق سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وكانت عهدئذ تحت حكم نور الدين زنكي، حيث اتخذ له فيها دكاناً يمارس فيه صناعة الطب بالإضافة إلى استنساخ الكتب.

وصادف أن تهيّأت الفرصة لأبي الحجاج يوسف فاتصل بصلاح الدين الأيوبي والتحق بحاشيته، وعمل أيضاً في البيمارستان النوري الكبير. بقي في دمشق إلى أن وافته المنية سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٣ م عن عمر يقارب المائة سنة.

من تلاميذه ابن أبي أصيبعة وعمران الإسرائيلي. له كتابان طبيان:

ـ اختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحاق (قيل إنه لم يكمله).

ـ تهذيب شرح ابن الطيب لكتاب الفصول لأبقراط.

● شرف الدين الرحبي:

شرف الدين بن رضي الدين يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي. ولد بدمشق وفيها نشأ. درس الطب على أبيه وعلى عبداللطيف البغدادي، وسار على طريقة أبيه في ممارسة الطب في دكان. أتقن اللغة والأدب ونظم الشعر. وكان حسن الخلق مترفعاً عن التذلّل للأمراء زاهداً في جمع المال. له كتابان في الطب أيضاً، هما:

ـ كتاب خلق الإنسان وهيئة أعضائه.

ـ حواشٍ على كتاب القانون في الطب لابن سينا.

● جمال الدين الرحبي:

عثمان بن رضي الدين يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي. ولد بدمشق ونشأ فيها. تعلم الصنعة على أبيه، ومارسها في البيمارستان النوري الكبير. فرّ إلى

مصر بعد أن غزا المغول دمشق سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٦ م[١].

البيمارستانات في الديار الشامية

○ البيمارستان النوري بحلب:

ويسمّى البيمارستان العتيق بعد أن أسّس الأمير أرغون الكاملي البيمارستان الجديد في حلب. زاره ابن بطلان الطبيب البغدادي في أثناء رحلته إلى مصر، وقيل إنه عمل فيها أيضاً. وقد أضيف إلى هذا البيمارستان قاعتان في أيام صلاح الدين الأيوبي. وقد ظلّت أخبار هذا البيمارستان تتناقلها الأسماع إلى سنة ٩٦٤ هـ/١٥٦١ م حيث توفي رئيس الأطباء فيه هاشم بن محمود.

○ بيمارستان أنطاكية:

قيل إن الطبيب ابن بطلان البغدادي شارك في تأسيس هذا البيمارستان سنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣ م، وقيل إن ابن بطلان عندما دخل أنطاكية كان فيها هذا يقول القفطي في ترجمة ابن بطلان[٢]: «وفي البلد بيمارستان يراعي البطريك المرضى فيه بنفسه».

○ البيمارستان النوري الكبير:

أسّسه السلطان نور الدين زنكي في دمشق سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م. وقد ذكر أن الأموال التي أنفقت في تشييده كانت مال فدية قدمه أحد ملوك الإفرنج عندما أسر بين يدي السلطان نور الدين. وقد أوقف نور الدين أيضاً ضياعاً ودوراً ومزارع لإدامته. وأعلن في يوم افتتاحه أن البيمارستان للأغنياء والفقراء، وللرفيع والوضيع على السواء. وكان من خبر وفرة الطعام وتأمين الراحة في هذا البيمارستان أن صار بعض الناس يتمارضون ليدخلوه ويتمتعوا بأطايب أكله ونعمه. وقيل أيضاً إن نار مطابخه لم تنطفىء منذ تأسيسه حتى سنة ١٤٢٧ م.

من الذين عملوا في هذا البيمارستان من الأطباء:

- أسرة الرحبي.
- موفق الدين بن المطران.
- ابن حمدان الجرائحي.
- ابن النقاش.

---

(١) انظر في ترجمة أسرة الرحبي عيون الأنباء ٦٧٢ - ٦٨٢.

(٢) تاريخ الحكماء ص٢٩٧.

- شمس الدين الكلي.
- مهذب الدين الدخوار.
- شمس الدين اللبودي.
- ابن رقيقة.
- عز الدين السويدي.
- عماد الدين الدنيسري.
- بدر الدين ابن قاضي بعلبك.
- ابن عبد الكريم المهندس.
- موفق الدين السلمي.
- كمال الدين الحمصي.
- رشيد الدين بن خليفة.
- أحمد بن الحاجب.
- سعد الدين السلمي.
- جمال الدين بن عبدالله.
- عبدالله بن عبد الحق.

○ **بيمارستان الموصل:**

أسّسه مجاهد الدين قايماز - من أتباع زين الدين الأتابكي صاحب أربيل - صاحب قلعة الموصل سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م، وهو الذي بنى الجامع والمدرسة المنسوبين إليه «المجاهدي» إلى جانب البيمارستان، وكلها على شط نهر دجلة. زاره الرحالة العربي ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م، وكذلك الرحالة ابن بطوطة سنة ٧٢٨ هـ/١٣٢٧ م، وكان آخر من روى عن هذا البيمارستان من الأخباريين.

○ **بيمارستان حماه:**

كان بالقرب من الجامع الصغير على شط النهر في حماه، ولم يعرف الذي أسّسه. ذكره الرحالة ابن جبير في رحلته حين دخل حماه سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م، ولم يعد يصلنا من أخباره شيء بعد هذا التاريخ.

○ **بيمارستان القدس:**

موقعه لا يزال قائماً إلى هذا التاريخ في محلة الدبّاغة بالقدس. استحدثه صلاح الدين الأيوبي على موقع الكنيسة المجاورة للمدرسة التي كانت تعرف باسم «ست حنة». عمل فيه من الأطباء يعقوب بن سقلاب النصراني، ورشيد الدين بن الصري. وكان لا يزال قائماً إلى سنة ٨٦٢ هـ/١٤٥٨ م ثم حدث زلزال أنقض عمارة البيمارستان.

○ **بيمارستان عكا:**

أسّسه صلاح الدين الأيوبي في بيت المدينة في عكا سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م.

○ **بيمارستان الرقة:**

لم يعرف مؤسّسه، ومكانه في الرقة. عمل فيه من الأطباء بدر الدين بن قاضي

بعلبك ووضع فيه مقالة تكلم فيها عن أحوال المدينة وأهويتها.

○ بيمارستان باب البريد:

أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان قريباً من باب البريد، وهو الباب الغربي البيمارستان. لجامع دمشق. لم يعرف مؤسّسه. عمل فيها من الأطباء عزّ الدين بن السويدي وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد.

○ بيمارستان الصالحية أو البيمارستان القيمري:

ينسب إلى مؤسّسه سيف الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس ابن موسك القيمري الهندي (ت٦٥٣ هـ). مكانه في حارة الصالحية بدمشق. خرّبه التتار عندما دخلوا دمشق سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٦ م، ثم أعيد بناؤه وتجدّد العمل فيه وبقي قائماً على تقديم الخدمات حتى سنة ٧٣٠ هـ/١٣٢٩ م. عمل فيه من الأطباء إبراهيم بن إسماعيل بن أبي القاسم وابن مقداد القيسي.

○ البيمارستان الجديد بحلب:

ويسمّى بيمارستان أرغون الكاملي نسبة إلى مؤسسه سيف الدين أرغون الذي أنشأه داخل باب قنسرين بحلب سنة ٧٥٥ هـ، وعزل فيه حجرات للأطباء المقيمين فيه، وقاعات لترفيه المرضى، وغرفاً للأدوية وصحناً لحبس المجانين.

○ البيمارستان الدقاني:

أسّسه دقان بن تتش السلجوقي حاكم دمشق في سنة ٧٦٤ هـ/١٣٦٢ م. ومكانه بالقرب من الجامع الأموي بدمشق.

○ بيمارستان نابلس:

أسّسه ناظر الجيش محمد بن فضْل الله القبطي (ت٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) بعد أن أسلم.

○ بيمارستان الرملة:

أسّسه ناظر الجيش محمد بن فضل الله الذي مرّ ذكره.

○ بيمارستان الجبل:

كان مكانه في نيرب بضاحية دمشق. كان يعمل فيه الطبيب عبدالوهاب بن أحمد بن سحنون الحكيم، وأحمد بن أبي بكر بن حمزة بن منصور الهمداني الدمشقي

المعروف بالجيلي (ت٦٩٥ هـ). خرّبه المغول حين دخلوا دمشق.

○ **بيمارستان صفد:**

أسّسه الأمير سيف الدين تنكر نائب حاكم مصر ناصر الدين محمد بن قلاون (ت٧٤٠ هـ).

○ **بيمارستان حرّان:**

ورد ذكره عند ابن جبير في خبر رحلته إلى حران سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م.

○ **بيمارستان نصيبين:**

كان لا يزال يعمل فيه الأطباء إلى سنة ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م حين زاره الرحالة ابن بطوطة.

○ **بيمارستان الكرك:**

أسّسه الأمير سنجر الجاولي مولى الناصر محمد بن قلاوون حاكم مصر في حدود سنة ٧١١ هـ/١٣١١ م.

○ **بيمارستان حصن الأكراد:**

أسّسه بكتمر بن عبدالله الأشرفي في سهل البقاعية سنة ٧١٩ هـ/١٣١٩ م. استولى عليه الصليبيون ثم استرده منهم الظاهر بيبرس المملوكي.

الفصل السابع عشر

الطب في المغرب والأندلس

عاشت الدولة التي أنشأها عبدالرحمن الداخل قرنين وثلاثة أرباع القرن (٧٥٦ ـ ١٠٣١ م) وبلغت أوجها في عهد الأمير الثامن عبدالرحمن الثالث أعظم أمراء هذه الأسرة وأول من تسمّى بالخلافة في الأندلس. وفي الحقيقة إن عهد الخليفة عبدالرحمن كان العهد الذي بلغ فيه التقدم العربي ذروته في الأندلس. وظلّت قرطبة طيلة الحقبة الأموية عاصمة للدولة وأدركت عهداً من العمران والازدهار والعظمة صارعت فيه بغداد عاصمة المشرق العربي الإسلامي.

ثم بدأ دور انحطاط الخلافة الأموية بعد وفاة الحاجب المنصور (١٠٠٢ م)، والذي كان أعظم رجل سياسة وقائد عرفته إسبانية العربية الإسلامية. ثم لم تلبث هذه الخلافة أن تلاشت سنة ١٠٣١ م ونشأ على أنقاضها دويلات صغيرة وإمارات كان أكثرها في تنازع وتناحر ممّا أدّى آخر المطاف إلى أن تندثر أمام النفوذ الإسباني ولا سيما في الشمال، وبسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م زال آخر حكم أثر للحكم العربي في الأندلس.

في سنة ٧٨٨ م استطاع الأدارسة بقيادة إدريس بن عبدالله بن الحسن بن علي (رض) أن يؤسسوا دولة في المغرب الإفريقي، ثم خلفه ابنه إدريس الثاني الذي بنى مدينة فاس لتكون عاصمة الدولة الجديدة، ولكن ما لبثت هذه الدولة بعد عامين أن انضوت تحت لواء حكم خليفة قرطبة عبدالرحمن الناصر. في سنة ١٠٥٦ م استعاد المغرب استقلاليته عن قرطبة بوساطة المرابطين، وبنى رئيسهم يوسف بن تاشفين (١٠٦١ ـ ١١٠٧ م) مدينة مراكش التي أصبحت عاصمة الدولة التي شملت كل المغرب. وكان هذا الأمير هو الذي لبّى دعوة استغاثة حكام إشبيلية من غزو

القشتاليين، وأول من استقدم أطباء الأندلس للعمل في المغرب، وكان من هؤلاء الأطباء وأول الوافدين أطباء بني زهر. وكان من حكام المرابطين الذين اهتموا بالعلماء والأطباء أيضاً علي بن يوسف بن تاشفين بن علي.

في سنة ١١٤٧ م حلّ الموحدون بقيادة أبي عبدالله بن تومرت محل المرابطين في حكم المغرب والأندلس. وكان هؤلاء مثل أسلافهم متعصبين للإسلام، وكان من أقوى ملوكهم أبو يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤ - ١١٩٩ م) وابنه الناصر لدين الله (١١٩٩ - ١٢١٣ م) وحفيده يوسف الثاني المستنصر بالله (١٢١٣ - ١٢٢٤ م). وكان هؤلاء الثلاثة مثل الأمراء المرابطين على علاقات جيدة ووثيقة بالأطباء في الأندلس وخصوصاً مع بني زهر والطبيب ابن رشد ممّا ساعد على تبادل المعارف والعلوم بين علماء الأندلس وعلماء المغرب.

ودالت دولة الموحدين باستيلاء بني مرين سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٣ م على مراكش وانسحب الموحدون إلى المغرب لمجابهة أخطار الثورات الداخلية. وبقي بنو مرين في الحكم حتى سنة ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠ م، والجدير بالذكر أن أبا يوسف يعقوب المريني كانت له همة محمودة وعناية بالغة بالشؤون الصحية بالمغرب، فأنشأ البيمارستانات للمرضى والمجانين واعتنى بالخدمات الصحية، حتى لقبت فاس في ذلك الوقت ببغداد المغرب، وأثينا إفريقية. ولمّا أفل نجم هذه الدولة عتّمت فاس ولم يبرز من الأطباء فيها من نبه ذكره وذاع صيته.

كانت كل من الدولتين المرابطية والموحدية تتعصب للإسلام. وقد طارد الموحدون كل من يدعو إلى النظريات الفلسفية التي لا يقرّها علماء الإسلام، سواء أكانوا (الدعاة) من المسلمين أو من النصارى أو اليهود. فاضطر الكثير من هؤلاء الدعاة إلى الهجرة نحو شمالي البلاد أو إلى خارجها. ورغم الظروف التي لم تكن تساعد على العمل بحرية في البحث العلمي فقد ظهر عظماء مفكري الأندلس من الفلاسفة والأطباء أمثال ابن ماجه، وابن طفيل، وأبي مروان بن زهر، وابن ميمون القرطبي وغيرهم. كما استوجبت تبعية مدن الأندلس لدولة المرابطين والموحدين في مراكش أن يكثر العلماء والأطباء التنقل بين الأندلس والمغرب تبعاً لأوامر حكام الدولتين وأن يشاركوا في تطوير المعارف الطبية والفلسفية في البلدين.

من الناحية الجغرافية تعتبر إسبانيا جزءاً من أوروبة، وكان دخول الحضارة الإسلامية المشرقية إليها تماماً كما هو الدخول إلى أوروبة التي كانت في ذلك العهد تتخبط في عتمة الجهل بعيداً عن كل المعارف التي كان العرب ينعمون بها. وقد

بقيت هـذه المعارف تنسـاب إلى الأندلس (إسبـانيا) من المشرق العـربي طيلة وجـود العرب المسلمين فيها. ولم يتوقف تبعاً لذلك دخول علوم الأنـدلس إلى أوروبة منـذ دخـول العرب إلى تلك البـلاد إلى زمن خـروجهم منهـا في أواخـر القـرن التـاسـع الهجري الخامس عشر الميلادي.

وطريقة وصول الطب العربي إلى الأندلس لا تختلف عن الـطريقة التي وصـل بها إلى بغداد وانتشاره في أصقاع الدولة العباسية. فقد كان العرب بعد دخولهم ديار الأندلس، وكذلك الأندلسيون فيها، في أشد الحاجة إلى معرفة صناعة الطب. كـان الحكام العرب في الأندلس لا يقلون عن الحكام العباسيين في تشجيع العلم والتعلّم وتعضيـد العلماء، ولـذلـك أمـروا بـاستقـدام الكتب العـربيـة من المشرق العـربي الإسلامي، وترجمة ما يحصلون عليه من الكتب اليـونانيـة، وتأسيس المكتبـات ودور التعليم، وشجعوا طلاب العلم على الرحلة لدراسة هـذه المعارف في مـواطنها وعـلى علمائها في المشرق[1].

ولا يمكننا القول إن الطبيب أبا إبراهيم المدحجي الذي دخل إلى الأندلس مع عبدالرحمن الداخل هو الذي بدأ أول حركـة في نشر العلوم الطبيـة فيها، وليس من اليسـير تحديـد زمن وصول الـطب إلى إسبانيـا الإسلاميـة. وكل مـا يمكن قولـه إن المـدحجي قد يكـون مارس الـطب بـأسـاليب جـديـدة لم تكن معـروفـة آنـذاك في الأندلس. ويمكن الإشارة إلى أن بعض الملامح الـطبية قـد ظهرت للمـرة الأولى في زمن الأمـير الحكم الأول، أو الأمـير محمـد الأول. ويمكن اعتبـار حمـدين بن أبـان وعبدالملك بـن حبيب السلمي القرطبي من أوائـل الأطباء الـذين برزوا في قـرطبة. ولابن حبيب هذا كتاب «مختصر في الطب» مما يدل على أن الطب قد وصل في ذلك الـوقت المبكر في تـاريخ الأنـدلس إلى مرحلة التـأليف. وقد وصـل إلى الأندلس في ذلك الوقت عالم اسمه أحمد الحراني قادماً من بغـداد، وهو طبيب عـارف بالصيـدلة وتركيب الأشربة والمعاجين والمراهم. وظهر في الوقت نفسه أيضاً طبيبان عرفا باسمهما ولقبهما هما جواد النصراني وابن ملكوكة النصراني[2]، وطبيبان آخـران هما محمـد بن طحلون وعمران بن أبي عمر. ثم ظهر في قرطبة أبو القاسم المرحيطي، فكان فـاتحة ظهور العلماء والأطباء من الطبقة العليا في الأندلـس.

ويمكن اعتبـار زمن حكم الخليفـة النـاصر (٩١٢ ـ ٩٦١ م) زمن تـدفق علوم

---

(١) مختصر تاريخ الطب ج٢ ص١٤٩.

(٢) عيون ص٤٨٥.

المشرق في الطب إلى الأندلس، وظهور أفذاذ الأطباء العلماء والعشابين فيها. ويمكننا القول إن عبدالرحمن الناصر يشابه من هذا الوجه أبا جعفر المنصور الذي يعد أيضاً أول خليفة عباسي دعا إلى ترجمة العلوم اليونانية. وكان قد وصل إلى قرطبة في زمن الخليفة الناصر نسخة من كتاب الحشائش لديوسقريدس بترجمة أصطفن بن باسيل. والكتاب من أفضل كتب النبات والأعشاب، وهو من أقدمها عموماً. ولأن ترجمة أصطفن لم تنج من أخطاء كثيرة في تعريب أسماء النبات من اليونانية فإن المهتمين بهذ العلم لم يرتاحوا إلى ترجمة هذا الكتاب. وكان بين قرطبة والقسطنطينية علاقة طيبة، وكانتا تتبادلان الهدايا، وكان من بين هدايا الملك البيزنطي أرمانيوس إلى الخليفة الناصر كتابان: أحدهما كتاب ديوسقريدس الآنف الذكر مكتوب باللغة اليونانية. فأصبح لدى علماء قرطبة نسختان من هذا الكتاب الجليل، إحداهما عربية والأخرى يونانية. ولما أدرك أرمانيوس أن سكان الأندلس ينطقون باللاتينية وتصعب عليهم القراءة باليونانية أرسل إليهم سنة ٩٥١ م نقولا الراهب الذي كان ملمّاً باللغتين ليساعدهم على ترجمة كتاب ديوسقريدس. وقد شاركه في ترجمة الكتاب كل من حسداي بن شبروط ومحمد الشجار وأبي عثمان الجزار المعروف باليابسة والبسباسي ومحمد بن سعيد الطبيب وأبي عبدالله الصقلي، وكان هذا الأخير عارفاً باليونانية، وربما شارك هذه النخبة في نقل الكتاب ابن جلجل وعبدالرحمن بن إسحاق بن الهيثم.

وكان الكتاب الثاني المهدى إلى الخليفة الناصر هو «أورشيوس» في التاريخ، وكان باللاتينية التي يعرفها الإسبان. وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية في زمن الحكم المستنصر (٩٦١ ـ ٩٧٦ م) وشارك في ترجمته الوليد بن خيزران قاضي النصارى، وقاسم بن أصبغ. وإذا كان كتاب أورشيوس في التاريخ ولا يتصل بالطب، فإنه كان من المراجع المهمة التي اعتمدها ابن جلجل في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء».

وقد ساعد الخليفة الناصر على استجلاب العلم إلى الأندلس من جميع بلاد العالم، وشجّع المرتحلين في طلبه. ولأجل هذا سافر أحمد بن يونس الحراني وأخوه عمر بن يونس إلى المشرق العربي واتصلا بثابت بن سنان بن قرة، وبابن وصيف الكحال الحراني، ثم قفلا إلى قرطبة وبحوزتها ما حصلاه من علوم الفلك والطب. كما قصد العراق وفارس ومصر يحيىٰ بن مالك العابدي الذي بقي متنقلاً بين تلك الأمصار مجتمعاً بعلمائها يحاضرهم ويأخذ عنهم ويناظرهم طيلة اثنين وعشرين عاماً، وقد استفاد الكثير منهم في علوم الطب وممارسته. وكذلك سافر محمد بن عبدون

الجيلي ودخل البصرة والفسطاط، وسافر أبو حفص عمر بن بريق طبيب الناصر إلى القيروان ولازم طبيبها آنذاك ابن الجزار ستة أشهر وتعلم عنه طريقته في التطبيب ثم رجع إلى الأندلس حاملاً معه كتاب معلمه «زاد المسافر». وسافر ابن السمينة إلى المشرق للغاية نفسها. ونشير أيضاً أن لأبي الحكم عمرو بن أحمد الكرماني السرقسطي، الذي تعلم الطب في مدارس حران، فضلاً كبيراً في تطوير إجراء العمليات الجراحية والبط (الشقّ) في ديار الأندلس.

بعد وفاة الناصر خلفه ابنه المستنصر الذي كان محباً للعلم والعلماء مثل أبيه. فقد أنفق المال الوفير لجمع المخطوطات النادرة، وأسّس دار علم على غرار بيت الحكمة في بغداد، ونمت في هذه الدار مكتبة ضمّت مئات الألوف من المخطوطات، وكان قد استحدث فيها ركناً خاصاً بالاستنساخ، ورصد لها أموالاً كثيرة لشراء المزيد من الكتب، وعيّن لها من يجيد اللغات الأعجمية ومن يحسن ترجمة الكتب من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية.

والجدير بالذكر أن معظم مصادر العلوم الطبية التي انتشرت في ربوع الأندلس كانت من مؤلفات علماء بغداد في المشرق وحواضر الدولة العباسية، أي إنها كانت عربية المصدر من أعمال حنين بن إسحاق وأبي بكر الرازي والمجوسي وابن سينا ومن في طبقتهم، أو كانت مترجمة من كتب أبقراط وجالينوس وروفس وديوسقريدس، وهي الترجمات التي وضعت في بيت الحكمة. ولم يعرف أن علماء الأندلس قد عملوا في ترجمة المخطوطات الأصلية إلى العربية عدا ما ذكرنا عن كتاب ديوسقريدس في الأعشاب. ولكن الأطباء الأندلسيين سرعان ما أضافوا إلى هذا التراث الضخم الوارد من المشرق العربي الإسلامي ما استحدثوه من أعمالهم وتجاربهم واكتشافاتهم وخصوصاً في علم النبات والأعشاب وعلم الجراحة والصحة العامة ومفردات الأدوية والأغذية.

لقد أدخل المسلمون العرب إلى الأندلس (إسبانيا) أصناف المعارف والعلوم الفكرية والعلمية والعقائدية، وجلبوا إليها الكتب الوفيرة التي تبحث في هذه المعارف، فتعلم الإسبان منهم تقطيع الشعر، وتركيب الألحان الموسيقية. ومن إسبانيا تسربت بعد ذلك هذه المعارف إلى أوروبة بوساطة التجار وطلاب العلم والسواح ومحبي الاستطلاع الذين وفدوا على مدن الأندلس لرؤية ما يسمعون عنه من روائع الفن والمدنية عند المسلمين. ولعل أعظم ما فعله العرب بعد دخولهم إلى الأندلس هو أن عدداً كثيراً من الإسبان والإيطاليين والصقليين تعلموا اللغة العربية

وتمكنوا من ترجمة كتب العلم والفلسفة إلى اللغة اللاتينية - لغتهم - لتصبح أساس الحضارة الأوروبية التي قامت بعد هذا الوقت. ولا تزال حتى اليوم مئات من المفردات العربية في التعابير الإسبانية بعد أن تغلغلت العربية إلى لغة أهل البلاد الأصليين، ومنها ما نسمعه اليوم: فندق Fonda، القبة Alcuba، القرية Alcaria، طاحونة Tahona، قنطرة Alcantara، جبل Jabal، المعدن Almaden وغيرها من الكلمات التي بقيت في صميم اللغة الإسبانية.

الأطباء الأندلسيون والمغربيون:

إنّ معظم أطباء الديار الأندلسية كانوا شغوفين بدراسة النبات وأزهاره وأثماره وجذوره واستخلاص ما ينفع منه في الاستعمالات الطبية. ولم يعرف فيما إذا كان ولعهم هذا بالنبات هو الذي دفعهم إلى الاهتمام بكتاب ديوسقريدس، أو أن إطلاعهم على الكتاب هذا بعد ترجمته كان وراء شغفهم بحب النبات ودراسة خواصه. وقد ساعدت طبيعة الأندلس واتساع براريها وكثرة نباتها وجبالها الغنية بالأعشاب والأزهار البرية على دراسة خصائص النبات الطبيعية، والوصول إلى ما يمكن استخلاصه لأغراض علاجية في صناعة الطب.

وقد شهر بعض الأطباء في هذا العلم وصاروا من أعلامه النابغين في مشارق ديار الإسلام ومغاربها، وكان منهم أبو عبدالله بن عبدالعزيز البكري صاحب كتاب «أعيان النبات والشجيرات الأندلسية» والغافقي أحمد بن محمد صاحب كتاب «العمدة في الأدوية المفردة» وابن الرومية أبو العباس أحمد النبطي صاحب كتاب «تفسير الأدوية المفردة». ومن الذين كتبوا في موضوع النبات والأعشاب الوزير ابن وافد اللخمي والشريف محمد بن محمد الحسني ويونس بن بكلارش اليهودي وابن سمجون وابن جلجل.

كما برز في الأندلس أطباء أفذاذ كانوا مفلقين في العلوم الطبية، وكانوا في مستوى زملائهم في المشرق، يجمعون إلى معرفتهم بالعلوم الطبية هذه علوماً أخرى كالفلسفة والتنجيم والفقه والشعر الأدب. وقد كانت هذه العلوم من متطلبات من يريد الالتحاق بحاشية القصور والوصول إلى بلاط الخلفاء والرتب الرفيعة، فكان من هؤلاء الأطباء شعراء ومنجمون وفلاسفة وفقهاء، وقد نجحوا في نيل حظوة الخلفاء ورضاهم وثقتهم، فكان الاعتماد عليهم في بعض شؤون الديار. فقد تولى كل من ابن وافد الطبيب عبدالرحمن بن محمد اللخمي، ويحيى بن إسحاق الوزارة

في أيام حكم عبدالرحمن الناصر، ونصب حسداي بن إسحاق في الـوزارة إلى جانب ممارسته الطب لحاجة الناس إلى ممـارسته الحـاذقة. وكـان الطبيب عبـدالملك بن زهر وزيراً للموحدين، وولي القضاء كـل من سليمان أبي بكـر بن باج (ولاّه النـاصر سنة ٩٤٤ م) ومحمد بن تمليخ، وكان منصب القضاء في ذلـك الوقت من أرفـع المناصب في الديار الإسلامية. كـما ولي عبدالملك الثقفي خـزانة السـلاح وكان عـالماً بصنـاعة المساحة وبآراء إقليدس.

وفي الأندلس برز أيضاً أطباء في العلوم الجراحية منهم أبـو الحكم الكرمـاني. وأشهر من عرف منهم أيضاً أبو القـاسم خلف بن عباس الـزهراوي الـذي يعد من أعلام الطب في كـل زمان، وأشهـر جراحي القـرون الوسـطى دون منازع، وأحـد الأطباء القلائـل الذين عـرفتهم أوروبة الـلاتينية واعتمـدت على كتبهم في تـدريس الطب وممارسته ما يزيد على خمسة قرون.

● ابن جلجل:

أبـو داود سليمان بن حسـان المتطبب. من أهـل قرطبـة، يعرف بـابن جلجل ويكنى أبـا أيوب. ولم يـذكر أكـثر من ذلك من أسـماء آبائـه وأجداده أكـثر من هذا القدر، حتى إن بعض الكتب ترجمت لشقيقه محمد بن حسان المعروف بـابن جلجل أيضاً ولم تزد شيئاً عن اسم أبيه. وهذه الشهرة التي عرف بها لم يعـرف أحد تسمّى بها أو نسب إليها من رجـال الأندلس أو المشرق، ويعتقـد أن هذا الاسم، رغم أن له معنى في العربية وهو الجـرس، هو اسم لاتيني (إسبـاني) لأحد أجـداده في صورة عـربية، ومعنى هـذا أن يكون ابن جلجـل من المسلمين الـذين دخل أجـدادهم في الإسـلام بعد افتتـاح الأندلس. وقـد إصطلحت كتب الـتراجم الأنـدلسيـة عـلى أن تـترجم لكثير من العلماء بـأسمائهم العـربية ثم تقـول «ويعـرف بـابن فـلان. . . » وبتقصي تـراجم بعض هؤلاء نرى أن الأسـماء التي يعرفـون بها أسـماء إسبـانيـة مثـل: «ابن بشكـوال، وابن غرسيـه، وابن فيره، وابن البغـونش، وابن قطيـل، وابن قـوشره، وابن فورتش، وابن غوتيل، وابن قزمان».

سمع ابن جلجل الحديث بقرطبـة وهو ابن عشر سنـين من أبي بكر أحمـد بن الفضـل الدينـوري وأبي الحزم وهب بن مسرة بمسجـد أبي علاقـة وبجـامـع قـرطبـة والزهـراء وغيرهما مع أخيـه محمد. ثم تـرعرع وسمـع أحمـد بـن سعيـد الصـدفي المتجالي وأبا عبدالله محمد بن هلال وإسحاق بن إبـراهيم والأسعد بن عبـدالوارث.

وأخذ العربية عن محمد بن يحيى الرباحي، قرأ عليه كتاب سيبويه. وصحب أبا بكر بن القوطية وأبا أيوب سليمان بن محمد الفقيه وغيرهما.

وعني ابن جلجل بطلب الطب فغلب عليه وعرف به وبلغ منه الغاية، وطلبه وهو ابن أربع عشرة سنة وأفتى فيه وهو ابن أربع وعشرين وألف كتاباً حسناً في طبقات الأطباء والحكماء. ورغم أنه عاصر عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر وأسهم في عصرهما بقسط كبير من علمه ومجهوده، إلاّ أنه نبغ واشتهر في ولاية المؤيّد بالله هشام الأولى (٣٦٦ هـ/٣٩٩ هـ) الذي كان طبيبه الخاص ألّف في عهده أكثر كتبه، ومنها كتابه «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقريدس» الذي ألفه بمدينة قرطبة سنة ٣٧٢ هـ.

كان لابن جلجل شغف بدراسة النبات وقد تجمعت لديه مادة غزيرة قيّمة عن أنواعه وفوائده واستعمالاته في الطب. وعكف على دراسة كتاب ديوسقريدس في النبات المدوّن باليونانية التي كان يعرفها ربما، وساعده في هذه الدراسة الراهب نقولا. قال ابن جلجل في الطبقات[1]: «كان لي حرص شديد على تصحيح الكتاب لأنني خفت أن يدرس وتذهب منفعته لأبدان الناس، فالله قد خلق الشفاء وبثّه فيما أنبتته الأرض، واستقرّ عليها من الحيوان المشاء والسابح في الماء المنساب، وما يكون تحت الأرض في جوفها من المعدنية، كل ذلك فيه شفاء ورحمة ورفق».

توفي ابن جلجل بعد سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م. وكان من تلاميذه ابن البغونش.

له من المؤلفات الطبية:

- كتاب طبقات الأطباء والحكماء، وهو أشهر كتبه، وهو أول كتاب تراجم في الأندلس.
- كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسمريدس (أخذ عنه الغافقي وابن البيطار).
- مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديوسقريدس.
- رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين.

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ص كا من المقدمة.

● عريب بن سعيد:

طبيب قرطبي عاش في القرن الرابع الهجري، قيل إنه من أسرة تعرف ببني التركي. لم يعرف عن نشأته الأولى شيء، ولا عن شيوخه الذين أخذ عنهم. وإذا عرفنا أنه خدم في بلاط عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/٩١٢ - ٩٦١ م) وابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٠ هـ/٩٦١ - ٩٧٠ م) فلا شك أنه كان معاصراً لكثير من الأطباء الذين كانوا في قرطبة في تلك الحقبة أمثال عمران بن أبي عمر، ويحيىٰ بن إسحاق الوزير، وأبي بكر بن باج، والأعرف ابن أم البنين، وأبي حفص بن بريق، وأصبغ بن يحيىٰ، ومحمد بن تمليخ، وابن عبدون العدوي وغيرهم. ولا بدّ أن يكون هناك علاقة مهنة أو صداقة بينه وبين البعض ممّن ذكرنا.

قيل عنه إنه كان أديباً شاعراً وأخبارياً ثقة بالتواريخ وذا علم بالنحو واللغة، إضافة إلى كونه طبيباً حاذقاً وممارساً ماهراً في الصنعة. وكان يعتمد على آراء الأولين ويتابع أفكار المعاصرين ويدخلها في مؤلفاته الطبية. أخذ عن أبقراط وجالينوس وديوسقريدس وعن الأطباء الهنود، كما أخذ عن إسحاق الإسرائيلي المعاصر له.

ولعريب من الكتب الطبية:

- كتاب عيون الأدوية.
- كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، ولعله أقدم كتاب في هذا الموضوع. وهو في خمسة عشر باباً:
  - **الباب الأول:** في المني والتلقيح.
  - **الباب الثاني:** في الباه وأعضائه والأدوية المستعملة له.
  - **البابان الثالث والرابع:** في تركيب الأعضاء الأنثوية الداخلية ووظائفها في الحيض والحمل، وعلامات الخصب في المرأة، والأدوية المستعملة في كل هذه الحالات.
  - **الباب الخامس:** في تكوين الجنين والتفريق بين جنس الذكر والأنثى، وتخلق أعضائه وعلاقته بالمشيمة.
  - **الباب السادس:** في فترة الحمل.
  - **الباب السابع:** في الاضطرابات المعدية وعلاجها بالتغذية والأدوية، كما يبحث في سقوط الحبل السري وطرق منعه.
  - **الباب الثامن:** في الولادة واستقبال الجنين وتخليص المشيمة.

- **الباب التاسع**: في اختيار المرضع وتدبير اللبن في الثديين.
- **الباب العاشر**: في نبت أسنان الطفل.
- **الباب الحادي عشر**: في معالجة الأمراض العارضة للطفل كالقروح في الفم، والقيء، والإسهال، والسعال، والبكاء، وورم السرّة ورطوبة الأذن والسعفة.
- **الباب الثاني عشر**: في مصيص اللثة (الحكة) ونبت الأضراس، والحمى بسبب ذلك، وذكر الأدوية المستعملة فيها.
- **الباب الثالث عشر**: في كلام الطفل ومشيه وفطامه، وفي ذكر مرض الربو، وتكون الحصى في المثانة، وعسر البول.
- **الباب الرابع عشر**: في تولد الديدان في الأجواف، وبثور الجلد.
- **الباب الخامس عشر**: في احتلام الغلمان وحيض الجواري، وكبر الثدي، وغزر الشعر، وفساد البشرة.

● أبو القاسم الزهراوي:

خلف بن عباس، ولد بمدينة الزهراء وإليها ينسب كما ينسب إلى الأنصار. نشأ بقرطبة على الأرجح وفيها قضى معظم حياته. وفي خلال هذه الحقبة لم يرد إلّا القليل من أسماء الأطباء الذين خدموا في بلاط الخليفة المستنصر والخليفة المؤيّد، منهم أبو بكر حامد بن سمجون وأبو عبيدالله البكري، اللذان كانا من علماء النبات والعقاقير.

لم يعرف شيء عن الشيوخ الذين درس عليهم، ولعله لم يكن له شيخ أبداً، إلّا أنه يمكن - من خلال كتبه - استخلاص أنه قرأ ما صنّفه الرازي في كتابيه الحاوي والمنصوري، والمجوسي في كتابه الملوكي، وابن سينا في قانونه، وعيسىٰ بن الحكم، وتياذوق، وابن التلميذ، وعلي بن عيسىٰ الكحال. ولما ألمّ بمعلومات هؤلاء، وولع بالطبّ الجراحي صار يلتهم ما كتبه بولس الأجيني وأثيوس الأمدي في هذا الاختصاص حتى مهر فيه. ويحتمل أن يكون شيخاً لأبي بكر الكرماني، وأبي العرب يوسف بن محمد، وأبي بكر أحمد بن الخياط، وابن وافد اللخمي، ويوسف بن أحمد بن حسداي. وروي عنه أنه كان يخاطب تلاميذه بكلمة: يا أولادي. ويذكر عنه أنه كان زاهداً يمارس صناعة الطب دون مقابل.

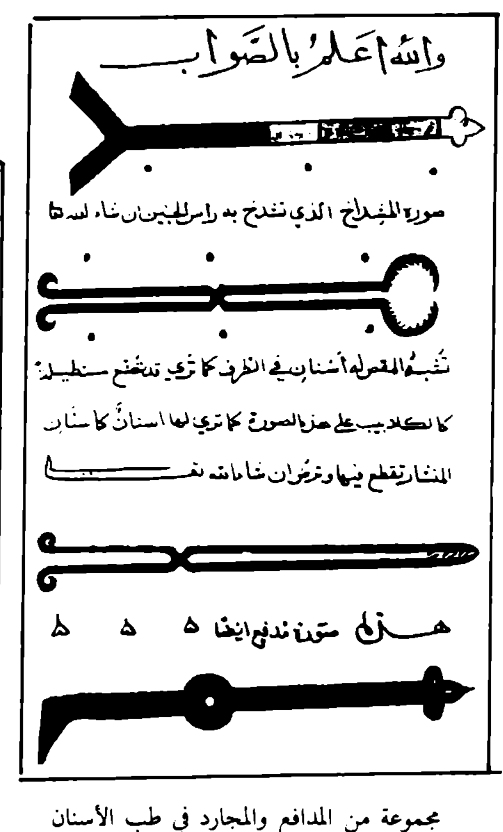


هذه الآلات كلما كثرت أنواعها وكانت معدة عند الصانع كان أسرع لعمله وأرفع عند الناس لقدره ولا تحقرن منها آلة أن يكون عندك معدة فقد تدعو الحاجة إليها

الفصل الثامن والسبعون في إخراج المشيمة

إذا احتبست المشيمة بعد النفاس فينبغي أن تأمر العليلة بأن تمسك نفسها ثم تعطسها بالكندس وتشد يدك على فيها ومنخريها فإن خرجت بهذه الحيلة وإلا فخذ قدراً وانقب في غطائها ثقباً وضع فيها الحشائش المفتحة لفم الرحم مثل الفوذنج والسذاب والشبث والبابونج والسليخة والقنطوريون كل هذه الأدوية أو بعضها واغمرها بالماء واجعلها على النار ثم ضع أنبوب قصبة على ثقب غطاء القدر والطرف الآخر في فم الرحم وتمسك حتى يصل البخار إلى فم الرحم ثم تعطس كما قلنا فإن المشيمة تخرج بسرعة إن شاء الله تعالى فإن بقيت بعد هذا العلاج ولم تخرج فأمر القابلة أن تغمس يدها اليسرى وتدخلها في القبل وتفتش بها المشيمة فإذا وجدتها قبضت عليها ومدتها قليلاً قليلاً حتى تخرجها فإن كانت ملتصقة في عمق الرحم فادخل اليد على ما وصفنا حتى إذا وجدت المشيمة فاجذبها قليلاً قليلاً على الاستقامة لئلا يسقط الرحم عند الجذب الشديد بل ينبغي أن تميل برفق إلى الجوانب يمنة ويسرة ثم يزاد في تحريك الجذب فإنها تجيب حينئذ وتتخلص من الالتصاق فإن كان فم الرحم منضماً فقد وصفنا العلاج بالتعطيس وبعلاج القدر بالحشائش فإن لم تخرج بجميع ما وصفنا فإياك والعنف عليها في إعادة الجذب ولكن ينبغي أن تربط ما خرج منها إلى فم الرحم على فخذ المرأة ثم احقنها بالمرهم الرباعي فإنه يعفنها بعد أيام وتتحلل وتخرج إلا أنها إذا تعفنت كانت ترتقي منها رائحة رديئة إلى المعدة والرأس فتؤذي ذلك العليلة فينبغي أن تستعمل الدخن

من المقالة الثلاثين في كتاب «التصريف» للزهراوي
بعض الآلات الجراحية مما اشتهر استعماله في زمن الزهراوي
وكان له الأثر الكبير في تطور العمليات الجراحية في أوروبة.



مجموعة من المدافع والمجارد في طب الأسنان وأدوات جراحية أخرى قدمها الزهراوي في مقالته الجراحية في كتاب «التصريف»

رسم الزهراوي آلة لدفع الجنين في أثناء الولادة في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»



تعود شهرة الزهراوي إلى كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»، فهو موسوعة في المعارف الطبية، وأبرز ما فيه قسمه المتعلق بالجراحة (وهو المطبوع منه). ويشير الزهراوي في كتابه هذا إلى مصادر كتابه فيذكر بالإضافة إلى أعلام الطب اليونانيين الذين ذكرناهم: ابن ماسويه، حبيش الأعسم، ماسرجويه البصري، ابن ربان الطبري، ابن نوح القمري، علي بن عيسىٰ الكحال، إسحاق بن عمران، أبا الفرج بن الطيب، وابن بطلان، ابن جلجل، والغافقي، وأبا سهل المسيحي، ابن جزلة البغدادي، مما يدل على متابعة الزهراوي لما دوّن من التجارب الطبية وما ظهر فيها من جديد. وقد أفادته هذه النظرة الواسعة الشاملة على اكتشاف فنون جديدة في الجراحة لم يُسبق إليها.

كـان الزهـراوي أول من وصف الناعور (الهيموفليـا)، وأول من رفـع حصـاة المثانة عن طريق المهبل، وأول من كتب في تشوّهات الفم وسقف الحلق، وأول من ربط الأوعية الدموية بخيوط الحريـر، وخاط الجـروح بشعر ذيـل الخيل، وربمـا كان أول من أشـار إلى حالـة الحبل خـارج الـرحم، وإلى المشيمـة المتقـدمـة في الحبـل، وسلس البـول بسبب النواسـير المهبلية المثـانية، وقـال إن بعض هذه الحـالات غـير قابلة للشفاء بأي علاج، كـما كان الـزهراوي أول من شقّ الجيب (جيب الميـاه) في أثنـاء المخاض لتعجيـل الولادة. ولا شـكّ أنـه قـد اكتشف ملقط التـوليـد قبـل أن يكتشفـه جمبرلن بـأكثر من خمسـة قرون. وهـو أول من تحايـل على فحص محتـويات الحوض في المريضات البكور عن طريق المقعد. وبينما كان جالينوس يستعمـل قثطرة لتفريغ المثانة عـلى شكل حـرف S اللاتيني بـانحناءين يسـيرين، فجعلها الـزهراوي منحنية من طرف واحـد، فكان تـطويراً إلى الأفضل. وكان يصف المـنظار المهبلي في سرده لخطوات فحص المريضة أكثر ممّا يذكر اسمه. وصور المنظار كما رسمها مـارش وهنتنكتون غير واضحة ولا تنطبق على وصف الزهراوي لهذه الآلة، ومن الضروري تصحيح الصورة بما يطابق نص وصف الآلة. ويذكـر عنه أيضـاً أنه أول من وصف ضربات القلب الضائعة Missed Beats.

ويبدو من أعمال الزهراوي حسّه العملي في الطب الجراحي وتقنية العمل فيه، ونظرته إلى الأورام، والتحايل على استئصالها، واعتماده عـلى الكـي والبط إذا فشلت الأدويـة في علاجهـا. وقال في ذلـك إن الأورام على نـوعـين: المـرجلية التي تشبـه العقرب الكثيرة الأرجل، والسرطانيـة، والرخـوة. وفي أورام الرحم، قـال: إنها إما سليمة وتعالج بالاستئصال، أو خبيثة لا فائدة من علاجها. ولو أمعنا النظر في قولـه هذا لأمكننا التأكد من صحـة القول عـلى ما فيـه من الإيجاز، فكـذا العلم الحديث أثبت أن الأورام السرطـانية نـوعان، نـوع يعالـج بالاستئصـال، ونوع لا فـائدة في العـلاج منه.

ويتميّـز كتـاب الـزهـراوي بكـثرة مصـورات الآلات الجـراحيـة وتنـوعهـا واختـلاف تصـاميمهـا وذلـك حسب شكـل الأعضـاء ومـواضعهـا في الجسم، ممّـا يؤكد أن الزهراوي لم يكن عالماً في العلوم الجراحية فحسب، بل كان أيضاً يمـارسها بإتقان ودقة، وتفنن. والملفت أن الكتب التي اعتمد عليها الزهراوي في إخراج كتـابه لم تكـن مزينة بالمصورات لـلآلات التي استعملها الأطبـاء البيزنـطيون في عمليـاتهم الجراحية، فالكثير من آلات الزهراوي مستحدثة مبتكرة وليست تقليدية، وتدل هذه

الآلات على أن الزهراوي قد مارس العمليات الجراحية التي فصّلها في كتابه. ومن الآلات التي استعملها أو ابتكرها: المراود، الصنانير، المباضع، المناشير، الملاقط، الكلاليب، أدوات التشمير، لوالب المهبل، المجارد، المباخر، القثاطير، المشارخ، المشارط، المحاجم، المقادح، المقاصيص، المقاطع، المثاقب، والمكاوي.

توفي الزهراوي في حدود سنة ٤٢٧ هـ/١١٠٦ م. عُرف له كتابان:

- كتاب تفسير الأكيال والأوزان.
- كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، ويسمّى كتاب «الزهراوي» اختصاراً، وهو في ثلاثين كتاباً، ويتضمن الكتاب الثلاثون منه الجراحة عامة، ويتكون من ثلاثة أبواب رئيسية هي:

○ **الباب الأول**: في الكي بالنار، والكي بالدواء الحاد، وطرق تطبيقية باختلاف المواضع من الجراحة عامة، ويتكون من ثلاثة أبواب رتبت باختلاف المواضع من الجسم مع ذكر الأمراض التي يستطب بها.

○ **الباب الثاني**: في الشق والفصد والبط، وفي الخراجات ونحوها، ويدخل في ذلك عمليات الأسنان وأورام الفم والحلق، وجلدة الرأس، والثدي، واستخراج الحصاة من المثانة، وعملية الإخصاء، وعلاج الخنثاء واستئصال الخنازير، وإصلاح الرتقة، وعمليات الأمعاء والدوالي وغيرها.

○ **الباب الثالث**: في عمليات الجبر والخلع.

وللزهراوي أيضاً عدا هذين الكتابين:

- رسالة في أمراض النساء.
- مقالة في عمل اليد (ترجمت إلى اللاتينية باسم جراحة أبي القاسم).

● ابن رشد:

أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بابن رشد، أو ابن رشد الحفيد تميزاً له عن ابن رشد الجد. واحد من عظماء حكماء الإسلام والعرب، وأشهرهم في الطب والفلسفة في أوروبة التي تطلق عليه اسم Averos. شهرت عائلة ابن رشد في قرطبة بالعلم والوجاهة. كان جد محمد من القضاة النابهين في

الأندلس، ومن المالكيين البارزين فيها. درس محمد الحفيد الطب على أبي جعفر بن هارون الترجالي الذي كان معتنياً بأفكار أرسطو وفاضلاً في صناعة الطب والكحالة، وأبي مروان البلنسي. ومن المحتمل أن يكون قد عمل بالتشريح، فقد نقل عنه أنه قال: «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله»[1].

كان ابن رشد صديقاً لابن طفيل، وقيل إنه تتلمذ عليه، وهو الذي أثنى عليه وذكره للخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور ليتولى القضاء في إشبيلية، وشغل المنصب نفسه في قرطبة، وأخذ مكان صديقه ابن طفيل عندما تقدم العمر بهذا الأخير في بلاط المنصور فحظي منه بالتقدير والاحترام، وشجعه على المثابرة في التأليف والبحث العلمي.

عندما صنّف ابن رشد كتابه الموسوم بـ «الكليات» في الطب، طلب إلى زميله أبي مروان عبدالملك بن زهر أن يضع كتاباً في الطب ليكمل نقص الكليات، فوضع ابن زهر كتاب «التيسير في المداواة والتدبير»، وأكمل به ما نقص كتاب ابن رشد كما طلب.

يمكن القول إن ابن رشد كان في الفلسفة على قدم المساواة مع ابن سينا في المشرق، مع ما بينهما من الخلاف العقائدي الفكري، ولكنه لم يكن في مستواه الطبي، وإن كان أعلى مرتبة منه بالفقه والقضاء. كان ينمّق أفكاره بلمحات حرّة متجدّدة، نقد الغزالي والفارابي في كتابه «تهافت التهافت». وكان ينتصر لآراء أرسطو، ويشرح آراءه ويدعو إلى فلسفته، وحاول أن يقرب بطريقة أفلاطونية ـ أرسطوية بين العقيدة والطب، فادّعى بتجدّد الكائنات، ورجوع الروح إلى الطبيعة بعد فناء الجسد.

أثارت آراء ابن رشد وفلسفته حفيظة المحافظين المسلمين فاتهموه بالزندقة، فتفرق عنه معظم تلاميذه عدا بعض اليهود والنصارى، وغضب عليه المنصور فطرده من بلاطه وأحرق كتبه الفلسفية بعد أن احتفظ بالكتب الطبية، ونفاه إلى مراكش حيث توفي سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م، ثم حمل جثمانه إلى قرطبة ودفن بها.

ذكر من تلاميذه أبو جعفر أحمد بن سابق الطبيب وابنه أبو محمد عبدالله الطبيب.

---

(١) عيون الأنباء ص٥٣٢.

معظم مؤلفاته صنّفها في الفلسفة وما يتصل بها، أما كتبه الطبية فهي تعليقات وتلخيصات لكتب جالينوس وهي:

- كتاب الكليات.
- شرح كتاب الحيوان لأرسطو.
- تلخيص كتاب المزاج لجالينوس.
- تلخيص كتاب القوى الطبيعية لجالينوس.
- تلخيص كتاب العلل والأعراض لجالينوس.
- تلخيص كتاب التعرف لجالينوس.
- تلخيص النصف الثاني من كتاب حيلة البرء لجالينوس.
- مقالة في حميات العفن.
- مقالة في الترياق.
- تلخيص أول كتاب الأدوية لجالينوس.
- شرح الأرجوزة المنسوبة إلى ابن سينا[1].

● ابن الرومية:

أحمد بن محمد بن مفرج الأموي (بالولاء) أبو العباس ابن الرومية النبطي. أصل أسرته من إشبيلية، ثم نزحت إلى قرطبة لسبب من الأسباب. وفي قرطبة ولد أحمد بن محمد ابن الرومية، وكانت البلاد بيد الموحدين المتعصبين للدين. درس أحمد علوم عصره الدينية، فشهر عنه تديّنه على المذهب الظاهري وعرف بتعصبه لابن حزم.

شغف بدراسة النبات والأعشاب فصار يطوف في ديار الأندلس لمشاهدة أنواع النبات وأزهاره وجذوره ونموه وخصائصه، ثم أبحر إلى شمالي إفريقية ووصل إلى الديار المصرية فاستقبله الملك العادل أبو بكر الأيوبي بالحفاوة والإجلال، وواصل رحلته بعد ذلك فوصل إلى ديار الشام والعراق واتصل بعلماء النباتات في تلك الأنحاء، وجلس إلى رواة الحديث. ثم عاد ودخل إلى آسيا الصغرى، واليونان، واطلع على ما في هذه الديار من الأعشاب الغريبة ودرس خصائصها وما يمكن استعماله منها في تحضير العقاقير في المعالجات الطبية.

---

(١) ابن أبي أصيبعة ٥٣١.

وذكـر لسان الـدين بـن الخطيب المؤرخ أن ابن الـرومية قـد تحقق بنفسه عـما سمعـه وقرأه عن النبـاتات بالمشاهدة والـدراسـة الشخصيـة كـما يفعـل من يتحـرّى الأحاديث الشريفة ممّن يروونها رواية صادقة.

بعد هذه الرحلات الطويلة عاد ابن الرومية إلى إشبيليـة موطن أسرتـه وافتتح له ما يشبه الصيدلية (حانوتاً) لبيع الأدولية النباتية إلى الأطباء والمرضى.

تـوفي سنة ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م، تـاركاً مؤلفـات في الحديث والفقـه، وكتبـاً في الأعشاب ومفردات الأدوية كانت مصدراً مهماً من مصادر ابن البيطار. والكتب هي:

- مقالة في تركيب الأدوية.
- التنبيه على أغلاط الغافقي.
- تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقريدس.
- الرحلة النباتية.
- شرح أدوية جالينوس.

أطباء بني زهر في الأندلس

● عبدالملك بن محمد بن زهر:

أبـو مـروان بن محمـد (مؤسّس الأسرة، كـان فقيهـاً من فقهـاء إشبيليـة) بن مـروان بن زهر. كـان أول طبيب في الأسرة. درس الفقـه عـلى أبيـه، وسـافـر إلى القـيروان حيث درس أسس صناعـة الطب، وتـوجه من ثم إلى القـاهـرة وعمـل في بيمارستانها، ودخل بغداد أيضاً كما ذكر المقري.

عاد عبدالملك إلى دانية في الأندلس ومنها إلى إشبيلية وصار من رؤساء الأطباء فيها. ولكن عبدالملك لم يكن صائباً في أحكامه وآرائه الطبية، فمن آرائه أن الحـمّام يتلف أخلاط البدن ويفسد الأمزجة.

توفي عبدالملك بن زهر في إشبيلية سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م[(١)].

● أبو العلاء زهر بن عبد الملك:

درس الطب على أبيـه عبدالملك وعـلى أبي العيناء المصري فحـذق في الصنعة

(١) عيون ص٥١٧.

واشتهر بها كثيراً. وحدث أن دخل المرابطون إلى إشبيلية سنة ٤٨٣ هـ/١٠٠٩ م فأخذوه معهم وضمّوه إلى حاشيتهم في العاصمة مراكش في المغرب، وهو أول طبيب أندلسي مشهور يدخل المغرب الأقصى.

في مراكش وزّر زهر للأمير يوسف بن تاشفين واختصه هذا الأخير طبيباً لنفسه. وفي هذا الوقت وصل كتاب القانون في الطب لابن سينا مع بعض التجار إلى الأندلس، إلاّ أن هذا الكتاب لم يرق لأبي العلاء فانتقده بمقالة ردّ فيها على بعض ما جاء فيه، وخصوصاً ما يتعلق بالأدوية المفردة منه. وانتقد أيضاً رد ابن رضوان المصري على كتاب المدخل إلى الطب لحنين بن إسحاق.

توفي أبو العلاء سنة ٥٢٦ هـ/١١٣١ م ودفن بإشبيلية. له من المؤلفات:

- كتاب الأدوية المفردة.
- كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح، في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين ابن إسحاق.
- كتاب في النكت الطبية.
- كتاب حل شكوك الرازي على كتب جالينوس.
- كتاب في الرد على ابن سينا.
- مجربات في الطب.
- كتاب التذكرة (مشاهدات سريرية دونها لابنه أبي مروان).
- رسالة في أمراض الكلى.
- جامع أسرار الطب.
- كتاب حول الخواص.
- مقالة في شرح رسالة يعقوب الكندي حول تركيب الأدوية.

● أبو مروان عبدالملك بن زهر:

أبرز أطباء هذه الأسرة وأكثرهم شهرة في أوروبة في العصر الوسيط. عُرف بـ Abomeroan. درس عبدالملك الأدب والفقه والطب على أبيه أبي العلاء زهر، وغلب عليه الطب من بين هذه العلوم التي درسها. كان متعصّباً للفكر الإسلامي الأندلسي، معارضاً للأفكار المتجددة التي لا توافق الشريعة الإسلامية، وفي هذا كان مثل باقي أفراد هذه الأسرة المحافظة، لم يعتمد على القانون في الطب لابن سينا لأنه لم يمل إلى آرائه كما لم يمل أبوه من قبله، وكان اعتماده في النهل من الآراء

والمعلومات الطبية على مؤلفات جالينوس فانكب عليها مطالعة ودرساً، ومال إلى دراسة تركيب الأدوية المفردة وإبدالها وتحضيرها وطرق المعالجة بها، وفي تفسير الأمراض التي تطرأ على البدن اعتمد على المنطق والفحص والتدقيق في بحوثه وتشخيصاته بقدر ما اعتمد على العمل اليدوي.

كانت له ممارسة في الصنعة فدوّن في خلال ممارساته مشاهداته بدقة ومهارة، فوصف في كتاباته التهاب التأمور، وخرّاج الحيزوم الذي قيل إنه هو نفسه كان مصاباً به، كما وصف بإسهاب عملية رفع الحصى من الكلية، وعملية فتح القصبة الهوائية، وكان أول من دعا إلى تغذية المريض عن طريق الشرج، ومص السوائل بوساطة أنبوبة قصدير للمصابين بعسر البلع، كما كان ثاني اثنين - بعد الإسكندر الترالي الطبيب - الذي وصف دويبة الجرب وأسماها «صوابة».

التحق عبدالملك بخدمة الأمراء المرابطين فاستصحبوه معهم إلى مراكش، وهناك حدث ما أسخط عليه الأمير علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٩ م فأمر بسجنه، وكان من تلاميذه في أثناء مدة سجنه أبو الحكم بن غلندو الإشبيلي فقرأ عليه كتاب «الاقتصاد». ولمّا دخل الموحدون إلى إشبيلية سنة ٥٤٠ هـ تغيرت أحوال عبدالملك إلى الأحسن وأصبح الطبيب المختص بأمير الموحدين عبدالمؤمن بن محمد بن تومرت وصحبه إلى مراكش، ثم خدم بعده يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وفي أيام هذا الأمير توفي عبدالملك بالسرطان، وهو سبب وفاة أبيه أيضاً.

عرف من تلاميذه: أبو الحسين بن أسدون الملقب بالمصدوم، وأبو محمد الشذوني، وأبو الحسن الزهري، وأبو الحكم بن غلندو الإشبيلي (الذي درس عليه في سجنه).

ترك لنا عبدالملك من الكتب الطبية العدد الوفير، نذكر من هذه الكتب:

- كتاب الأغذية (وضعه لعبدالمؤمن بن تومرت الموحدي).
- كتاب الزينة.
- كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد (صنّفه لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين).
- كتاب تذكرة في الدواء المسهل وكيفية أخذه (صنّفه لابنه «الحفيد»).
- مقالة في علل الكلى.
- تذكرة في علاج الأمراض.

- رسالة في البرص والبهق.
- كتاب التيسير في المداواة والتدبير، وهو أضخم كتبه (صنّفه لزميله ابن رشد بطلب منه ليكون مكملاً لنقص كتابه الكليات في الطب كما ذكرنا في ترجمة ابن رشد). والكتاب في سفرين وضعهما ابن زهر على الأسلوب السريري العلمي وعلى تجاربه في ممارسة الصنعة، كما أدخل فيه مبتكراته في الطب والجراحة، وفيه ملحق سمّاه الجامع فيه مجموعة من الوصفات الطبية. ورد في هذا الكتاب أن ابن زهر كان لا يرتاح من إجراء العمليات الدموية وأن هذه العمليات تثير في نفسه الغثيان، بينما كان لا يبالي من الأعمال الصيدلانية التي يستعمل فيها يديه لعمل المعاجين والأشربة إلاّ ما يدخل الخمر في تركيبها فإنه يعافها ويكلف غيره لصنعها، كما يكلف غيره أيضاً بإجراء العمليات الجراحية إذا استطبها لمرضاه.
- وله كتاب وجد باللغة العبرية كتبه صموئيل بن تلمون بالاشتراك مع يعقوب ابن طبون، وقد سمّي الكتاب «مصباح الشفاء» كما ذكره المؤرخ سارتون.

ذكر عن ابن زهر أنه كان يتقيد بالسلوك المهني وبما كان يدعو إليه أبقراط في قسمه، ويقول في كتاب «التيسير» إنه أقام هذا القسم أمام أبيه حينما بدأ في أول أمره بتعلم الصنعة عليه، كما كان متعلقاً بأصول الممارسة فلا يرتجل الأدوية قبل أن يفحص المريض ويصل إلى تشخيص مرضه.

● ابن زهر الحفيد:

أبو بكر محمد بن أبي مروان عبدالملك بن زهر، عرف بالحفيد ابن زهر. ولد بإشبيلية ونشأ بها، وحفظ القرآن وسمع الحديث وأقبل على الأدب واللغة العربية فبرع في ذلك كله وعانى الشعر فبلغ الإجادة فيه، وكان يحفظ شعر ذي الرمّة، وانفرد بالإجادة في نظم الموشحات التي فاق بها أهل المغرب على أهل المشرق. لازم عبدالملك الباجي سبع سنين وقرأ عليه المدونة في مذهب مالك. أخذ صناعة الطب عن أبيه أبي مروان عبد الملك وباشر أعمالها ففاق فيها أهل زمانه وخدم بها دولة الملثمين (المرابطين) في آخر عهدهم، ثم خدم بها دولة الموحدين، وتوفي في أول خلافة الناصر محمد.

كان حسن المعالجة جيّد التدبير لا يماثله أحد في ذلك، وكان صحيح البنية قوي الأعضاء، بلغ الكبر ولم يفقد قوة عضو من أعضائه إلاّ ثقل في السمع اعتراه.

قيل إنه ولد سنة ٥٠٧ هـ وتوفي بمراكش سنة ٥٩٥ هـ، وقيل في أول سنة ٥٩٦ هـ ودفن بمقابر الشيوخ وقد ناهز التسعين. وذكر في خبر وفاته أن الأمير

يعقوب بن يوسف المنصور الموحدي استدعى ابن زهر الحفيد إلى بلاطه في مراكش وخلع عليه الهدايا الجزيلة ممّا أثار عليه نقمة الحساد فدسّوا له السم له ولابن أخته (ويروى أن أخت الحفيد كانت طبيبة تمارس القبالة) وتوفي به سنة ٥٩٦ هـ.

من تلاميذه أبو جعفر بن الغزال الذي كان مولعاً بدراسة الأدوية وصار خبيراً باستعمالاتها. ذكر أن له رسالة في طب العيون.

● عبدالله ابن الحفيد ابن زهر:

أبو محمد عبدالله بن زهر الحفيد. درس الطب على أبيه ومارس الصنعة. التحق بحاشية الناصر بن المنصور الموحدي بمراكش سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م. وفي مراكش وفي ظروف غامضة توفي هذا الطبيب عن خمس وعشرين سنة فقط تماماً كما توفي من قبله أبوه. وكان له ولدان كان الصغير فيهما طبيباً اسمه أبو العلاء محمد وهو آخر أبناء هذه الأسرة الأندلسية التي اشتهرت بصناعة الطب.

بيمارستانات المغرب والأندلس

لمّا كانت أغلب مصادر العلوم الطبية في الأندلس والمغرب من مؤلفات علماء وأطباء بغداد وحواضر الخلافة العباسية، وكلها مصادر عربية من أعمال حنين بن إسحاق وأبي بكر الرازي وابن سينا ومن في طبقتهم، أو كانت من مترجمات كتب أبي الطب أبقراط وجالينوس وديوسقريدس وروفس التي وضعت في بيت الحكمة، ولما كان حكام الأندلس، على اختلاف عهودهم، قد أنفقوا الأموال الطائلة لجمع المخطوطات النادرة وتأسيس دار علم على نمط بيت الحكمة في بغداد، وصار في الأندلس أطباء كثر يمارسون الصنعة ويحذقون بها، كان لا بدّ من أن تنتشر في هذه الديار البيمارستانات تماماً كما في عواصم الخلافة العباسية. وإذا كانت المصادر العربية لم تذكر لنا ما يكفي من المعلومات عن بيمارستانات الأندلس أو المغرب، فإن المؤرخين في أوروبة ذكروا بكثير من المبالغة عدد هذه البيمارستانات والتي كانت في قرطبة على وجه الخصوص. وإذا كان حكام الأندلس قد نافسوا حكام بغداد في استجلاب الأطباء والمخطوطات، فإنهم ولا شك أنفقوا عظيم المال على بناء البيمارستانات في ربوعهم لتكون في مستوى بيمارستان الخلافة العباسية إن لم يكن أكثر إتقاناً من حيث هندستها وأثاثها وتأمين ما تحتاج إليه لاستقبال المرضى ومعالجتهم.

وفيما يلي بعض هذه البيمارستانات التي وصل خبرها إلينا:

● بيمارستان مراكش: أسّسه المنصور بن يوسف الأمير الموحدي (١١٨٤ ـ ١١٩٩م) بمراكش واختار له مكاناً واسعاً وأحاطه بالأشجار والأزهار، وزوّده بالأثاث النفيس، وأجرى عليه جراية له مقدارها ثلاثون ديناراً في اليوم للطعام والمنام، وعيّن له أطباء وصيادلة وقيّمين. وكان المنصور يزور هذا البيمارستان بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، ويسأل المرضى عن أحوالهم وما يعمل لهم الأطباء والمقومون. وكان إذا نقه المريض وكان فقيراً يُعطى مالاً يعيش به ريثما يتمكن من استئناف عمله. ومن الأطباء الذين خدموا في بيمارستان مراكش أبو الوليد بن رشد وابن رشد الحفيد وابنه، وأبو إسحاق إبراهيم الداني رئيس البيمارستان الذي توفي في خلافة المستنصر بن الناصر الموحدي، ومحمد بن بكر الملقي.

● **بيمارستان غرناطة**: أسّسه محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج، ثامن ملوك دولة بني نصر بن الأحمر في الأندلس، في حدود سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. ولما انتزعت غرناطة من العرب سنة ١٤٩٢م تحول البيمارستان إلى دار لضرب النقود.

● **بيمارستان قرطبة**: أسّس في صدر الدولة الأموية في الأندلس، وقد كان على قدر من الاكتمال حين خدم فيه عدد كبير من الأطباء في زمن عبدالرحمن الناصر وابنه المستنصر. ورد ذكره في مؤلفات مؤرخي أوروبة.

● **بيمارستان سلا**: أسّسه السلطان العلوي عبدالرحمن ملحقاً بضريح سيدي بن عاشر. عمل فيه أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأنصاري الأندلسي (ت حوالى سنة ٧٦٤هـ/ ١٢٦٥م).

● بيمارستان فاس: أسّسه أبو يوسف يعقوبْ بن عبد الحق (من ملوك بني مرين) سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، وموقعه في سوق الحناء بالقرب من سوق العطارين بفاس. تولّى رئاسة أطبائه في سنة ٧٠٠ هـ طبيب من بني الأحمر هو فرج الخزرجي فاشتهر البيمارستان باسم دار فرج، وقد عمل هذا الطبيب على إدخال الموسيقاريين لمعالجة الحالات النفسية التي يعاني منها بعض المرضى.

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أنه كان في فاس مستشفى للمجانين الخطرين وكان موقعه خارج حدود المدينة.

مميّزات صناعة الطب عند العرب
في العصور الوسطى

الطب صناعة شريفة تعاطاها العرب في القرون الوسطى، ولم يكن يسمح بتعاطيها إلّا لمن حصّل خبرة واسعة في الطب، وأعدّ لهذا العمل إعدادا علمياً وخلقياً يكفل حسن عنايته ورعايته للناس وتطبيبهم والاطلاع على أسرارهم المتعلقة بحاضر صحتهم وماضيها، تلك كانت صناعة الطب في تلك العصور.

لقد عرّف العرب الطبّ بأنه «حفظ الصحة موجودة وردّها مفقودة»، أي الوقاية في حال الصحة والعلاج في حال المرض لاستعادة هذه الصحة، ولا نجد فرقاً بين هذا التعريف وبين ما يدعو إليه الطب الحديث في مراعاة قواعد حفظ البدن والإسراع إلى طلب العلاج في حال الإصابة بعلة ما.

وأشاد نظامي عروضي السمرقندي[1] بأهمية صناعة الطب وعرض الشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب، قال: «الطب صناعة تحفظ الصحة في بدن الإنسان وهي كائنة ونستردها وهي مفقودة، وبوساطتها يزدان البدن بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط، وأما الطبيب فينبغي أن يكون رقيق الخلق حكيم النفس صائب الفكر قوي الاستنتاج، ولا يكون الطبيب رقيق الخلق ما لم يعرف شرف النفس الإنسانية، ولا يكون حكيم النفس ما لم يعرف المنطق. كما أنه لا يكون جيد الحدس ما لم يكن مستمداً العون من الله سبحانه. والطبيب الذي يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة، ذلك أنه يستدل على حالة المريض بالنبض، والنبض حركة الانقباض والانبساط وما بينهما من سكون».

وقد أوصى نظامي بأن يتزود من يريد مزاولة الطب بدراسة مصادره الأصلية، مثل أصول أبقراط ومسائل حنين بن إسحاق، ومرشد محمد بن زكريا الرازي،

---

(١) جهار مقاله، الترجمة العربية ص٧٤ ـ ٧٥، ترجمة عزام والخشاب مع تعليقات ميرزا محمد.

وشرح النيلي أبي سهل سعيد بن عبدالعزيز، وذخيرة ثابت بن قرة، والمنصوري، والحاوي، والهداية لأبي بكر الأجويني، أو الكفاية لأحمد بن فرج، أو الأعراض لسيد بن إسماعيل الجرجاني، ثم يدرس أحد الكتب المفصلة مثل «الست عشرة رسالة» لجالينوس، أو «الحاوي» للرازي، أو «كامل الصناعة» أو «صد باب» ـ مائة باب ـ لأبي سهل المسيحي، أو «القانون» لابن سينا، أو «الذخيرة» للخوارزمي، وأن يقرأ هذا الكتاب المفصّل في وقت الفراغ، فإذا أراد الاستغناء عن هذه الكتب كلها فقد يكتفي بالقانون، فإن سيد الكونين وإمام الثقلين[1] يقول: «كل الصيد في جوف الفرا»، فكل ما ذكرت موجود في «القانون» مع زيادات كثيرة. وكل من يحيط علماً بما في المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شيء من علم الطب وكلياته، ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحقّ لهما أن يسجدا لهذا الكتاب».

بهذه الشروط نوّه عروضي وأوجب توافرها في الطبيب وذكر الكتب التي لا غنى عنها لمزاولة مهنته على أتم وجه، يقول أيضاً: «ذلك أنه لا يجوز الاعتماد على الحافظة التي هي في نهاية مؤخر الدماغ، وأحد هذه الكتب يعينها إذا أبطأت في العمل. وإذاً ينبغي لكل ملك أن يحرص على هذه الشروط التي عددناها في الطبيب الذي يختار، فإنه ليس من اليسير أن يضع روحه وعمره في يد كل جاهل، وأن يجعل تدبر حياته في حجر كل عاقل»[2].

وقد وضع الخلفاء والحكام العرب شروطاً على ممتهني هذه الصناعة، منها أن يكون المتطبب عالماً بالتشريح ملمّاً بعلم وظائف الأعضاء خبيراً بجس النبض والتفسرة (الاستدلال بالبول عن حالة المريض)، محيطاً بجميع المعارف التي تتصل بالطب قريبة كانت أو بعيدة، وخصّوا بالذكر علم التشريح، ويستدل على عنايتهم به ما ورد في بعض المصادر ـ ممّا ذكرنا في فصل سابق ـ من أن يوحنا بن ماسويه كان يشرّح جثث القردة في قاعة خاصة للتشريح. بناها له الخليفة العباسي المعتصم على ضفة نهر دجلة، وأنه كان يختار من أنواع القردة أكثرها شبهاً بالإنسان، وأن الخليفة كان يساعده في الحصول عليها من بلاد النوبة.

جاء في أقوال أبي بكر الرازي ما يدل على اعتبار العرب علم التشريح أساساً لكل عمل طبي، فقد ورد في خبر عنه أن طبيباً تقدم منه ليقدح عينيه ـ وكان الرازي يعاني من الكاتاراكتا ـ فسأله الرازي عن طبقات العين وصفاتها وعددها،

(١) يقصد الإمام علي بن أبي طالب (رض).
(٢) جهار مقاله ص٧٧.

ولّما لم يحسن الإجابة قال له: لا حاجة لي بطبيب يقدح عيني ولا علم له بتشريح طبقات العين. وكان الطبيب أبو القاسم الزهراوي يوصي بتعلم التشريح تعليماً دقيقاً لأنه كما يقول: قاعدة للطب وخاصة الجراحة. وكان يقول أيضاً إن جهل التشريح يجر إلى نتائج وخيمة. وقد اعتنى العرب بترجمة المؤلفات اليونانية في التشريح إلى لغتهم وألفوا فيه كثيراً، ومن الكتب التي صنّفوها كتاب «شرح تشريح القانون» لابن النفيس الطبيب العربي المشهور.

وإلى جانب معرفتهم التشريح كانت عنايتهم بالمعالجة عظيمة الشأن، فقد كانوا يعالجون بالوسائل الطبيعية، فيلجأون إلى الاستشفاء بالحمية والغذاء، فإن لم يتيسر الشفاء لجأوا إلى المعالجة بالأدوية المفردة، فإلى الأدوية المركبة إن استعصى الداء واعتلّ البدن. أما عنايتهم بعلم وظائف الأعضاء فإن المطلع يجد أثر هذا العلم واضحاً في معظم مصنفاتهم الطبية. وقد وضعوا في أنظمتهم تشريعاً ينظم صناعة الطب عرّفوا به ما للأطباء وما عليهم، وجعلوا الإشراف على هذا التنظيم من مسؤوليات «المحتسب» الذي كان ينظر في أمور شتى تتعلق بالصحة والتطبيب، منها ما كان يتعلق بمنع السحرة والكهان من تعاطي الصناعة وزجر الناس عن تصديقهم، ومنع القوابل من إسقاط الأجنة، والإشراف على بيع الأدوية والعقاقير، وعدم بيعها إلاّ بموجب وصفات طبية لمرض معين بدواء مجرب مأمون، وهكذا منح العرب الطب مقاماً رفيعاً وأخضعوا الصناعة لرقابة المحتسب. وكان من واجبات المحتسب أيضاً أن ينظم اختبار الأطباء بفحص معلوماتهم والإشراف على امتحانهم ومعرفة مقدرتهم على تعاطي الطب. يقول الشيزري في كتابه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»: «وللمحتسب أن يمتحن الطبيب ليعرف علمه من جهله، وأن يختبره ليعرف درجة إتقانه للصنعة، وأن يأخذ على الأطباء عهد أبقراط ويحلفهم ألا يعطوا أحداً دواء مضراً، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنبة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، ويُغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار». هذا القسم شبيه بما يقوم به الأطباء في كليات الطب في عصرنا الحاضر. أما القسم الذي كان يستحلف به الأستاذ العربي الطبيب المبتدىء مخاطباً إياه، يقول: «برئت من قابض أنفس الحكماء، وفياض عقول العقلاء، ورافع أوج السماء، مزكي النفوس الكلية، وفاخر الحركات العلوية، إن خبأت نصحاً، أو بذلت ضرّاً، أو تلبست بما يغم النفوس وقعه، أو قدمت ما يقل عمله، إذا عرفت ما يعظم نفعه، وعليك بحسن الخلق بحيث تسمع الناس، واستفرغ لمن ألقى إليك زمامه ما في وسعك، فإن ضيعته

فـأنت ضائـع، وكل منكـما مشتر وبـائع، والله الشـاهد عـلي وعليك في المحسـوس والمعقول، والناظـر إلي وإليك والسـامع لما نقول، فمن نكث عهـده فقد استهـدف لقضائه، إلاّ أن يخـرج عن أرضه وسمائه».

وكان المحتسب يشرف على أطباء العيون «الكحالين» فيقوم بامتحـان معرفتهم المقالات العشر في العين، فمن كان منهم عارفاً بتشريح طبقـات العين السبـع وعدد رطوباتها الثلاث وعدد أمراضها وأنواعها وما يتفرع من ذلك، وكـان خبيراً بـتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير، أذن له بـالتصدي لمـداواة أعين النـاس. وكان لا يسمـح للأطباء المجبّرين بالتصـدي للجبر إلاّ بعـد أن يحكم الواحـد منهم معرفـة الصنعة، وأن يكون عارفاً بعدد عظام الإنسان وصورة كل عظم منها وشكله وقدره، حتى إذا ما انكسر منها عظم أو انخلع ردّه إلى موضعه على هيئته التي كان عليها.

وأمـا أطباء الجـراحة فكـان يجب عليهم معرفـة كتب الجراحـة التي تبحث في الجـراحـات والمراهم، وأن يعـرفوا كتـاب «التصريف» للزهراوي في الجـراحة، وأن يفقهوا علم التشريح ووظائف أعضاء الإنسان، ممّا يحتوي عليه بدنه من العضـلات والشـرايين والعروق والأعصاب، وكان على المحتسب إلى جانب ما تقدم أن يـطلب من الطبيب أن يمتلك جميع آلات الطب وجميع ما تحتاج إليه الصناعة من أدوات وما يتبع ذلك.

ومن جميـع مـا ذكـرنـا وممّـا ورد في فصـول سـابقـة يتبـيّن لنـا مبـدأ تـطبيق الاختصـاص في علم الـطب في تلك العصـور، فهنـاك الـطبيب والمجـبر والكحّـال والجـراح والفصـاد والحجـام، كـل يمـارس الصنعـة في حـدود معـرفتـه لهـا وضمن اختصاصه الذي حذق فيه. فكيف كان الأطباء يداوون ويشفون؟ يقول الشيـزري: «ينبغي إذا دخل الطبيب على مريض أن يسأله عن سبب مرضه، وعمّا يجد من الألم، ويعرف السبب والعلامة والنبض، ثم يرتب له قانوناً من الأشربة وغيرهـا، ثم يكتب نسخة بما ذكره للمريض وبما رتبه له في مقابلة المرض، ويسلم نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض، فإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائـه، وسأل المـريض ورتب له قـانونـاً حسب مقتضى الحال، وكتب له نسخة أيضـاً وسلمها إلى ذويه. وفي اليوم الثالث كذلك ثم في اليوم الـرابع، وهكـذا إلى أن يبرأ المـريض أو يموت، فإن برىء من مرضه، أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أوليـاؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا النسخ التي كتبها لهم الـطبيب، فإن رآهـا على مقتضى الحكمـة وصناعـة الطب من غـير تفريط ولا تقصـير من الطبيب أعلمهم، وإن رأى

الأمر بخلاف ذلك، قال لهم: خذوا دية صاحبكم من الطبيب فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه...».

إن ما كان يقوم به الطبيب العربي قديماً هو نفسه ما يقوم به الطبيب اليوم مع تحمل المسؤولية في حالتي الجهل والتقصير. وكثيراً ما ورد ذكر صفات معلم الطب والطبيب في تواليف الطب العربية، والتي أوجزها الطبيب علي بن رضوان، والتي لا بأس من إعادة سردها، بقوله: يجب أن تجتمع في الطبيب سبع خصال:

١ ـ أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرواية، عاقلاً ذكوراً، خيّر الطبع.
٢ ـ أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.
٣ ـ أن يكون كتوماً لأسرار المرضى، لا يبوح بشيء من أمراضهم.
٤ ـ أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.
٥ ـ أن يكون حريصاً على التعلم والمبالغة في نفع الناس.
٦ ـ أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعلاّء، فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.
٧ ـ أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح، لا يصف دواء قتالاً، ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الجنين، ويعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

فالحكيم المشهور معلم الصناعة هو من اجتمعت فيه هذه الصفات (الخصال السبع) بعد استكماله صناعة الطب وتعمّقه في دراسة نواحيها وحذقه في تطبيقها، وأما المتعلم لها فهو الذي تدل فراسته على أنه ذو طبع خيّر ونفس زكية، حريص على طلب العلوم، ذكي ذكور لما قد درسه، مالك لنفسه عند الغضب، مشفق على العليل، مراع للفقراء.

وقد اهتم الطب العربي اهتماماً بالغاً بضرورة تشخيص المرض قبل إعطاء العلاج، دليلنا على ذلك ما ورد على لسان علي بن رضوان حين قال: إذا دعيت إلى مريض فأعطه ما لا يضرّه إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك.

أتقن الأطباء العرب الصناعة ومارسوها بحذق ودقة فكانوا أول من عرف خطر التمادي في البزل، فمما جاء في سيرة موفق الدين عبدالرحيم بن علي أنه كان

يعالج المرضى في البيمارستان الكبير، وكان من جملة مرضاه رجل به استسقاء زقّي قد استحكم به، فقصد إلى بزله على ما يجب، فجرت مائية صفراء، وموفق الدين يتفقد نبض المريض، فلما رأى أن قوته لا تفي بإخراج أكثر من ذلك، أمر بشد الموضع وأن يستلقي المريض ولا يغير الرباط أصلاً، ووجد المريض خفة وراحة كبيرة، فأصرّ على زوجته بحل الرباط حتى يخرج الماء الذي بقي، فأنكرت زوجته عليه قوله ولم تقبل منه، فكرر ذلك عليها مرات، ولم يعلم أن بقية المائية إنما أجِّل إخراجها إلى وقت آخر مراعاة لحفظ قوته والشفقة عليه، فلما حلّت الرباط وجرت المائية بأسرها خارت قوته وهلك.

ثم إنهم أول من خاط الجروح بخيوط مصنّعة من الأمعاء ـ المعروفة باسم كاتجت ـ وأول من أقرّ سراية الأمراض وأتقن وصفها، فوصفوا الحصبة والجدري، وكانوا أول من أجرى العمليات الجراحية الواسعة على الرقبة والمثانة والصدر أيضاً. وقد زعم الطب الحديث أن أول من عالج بالتخييل هو الطبيب الفرنسي الشهير «شاركو» في القرن التاسع عشر، وساق لنا قصة معالجته لفتاة أصابها بكم نفساني عصي على المعالجة، ولم تفد فيه جميع الأدوية التي وصفها كبار الأخصائيين آنذاك، فلجأ هذا الطبيب إلى معالجتها بالتخييل وشفيت من البكم الذي أصابها. والحقيقية أن مثل هذه القصة جرت لجماعة من الأطباء العرب المتقدمين. ففي الخبر أن الطبيب أبا بكر الرازي استدعي لعلاج أمير بخارى وكان يشكو آلاماً عصت على المعالجة، فعالجها الرازي دون جدوى، وفي النهاية قال للأمير: إنه في غد سيجرب علاجاً جديداً، ولكن على شرط أن يضع الأمير تحت تصرفه أسرع جوادين في اسطبلاته، فوافق الأمير. وفي اليوم التالي قصد الرازي حماماً بظاهر المدينة وربط الجوادين مسرجين خارج الحمام ودخل وحده غرفة الحمام الساخنة مع مريضه الأمير، ثم صبّ عليه الماء الساخن وجرّعه الدواء إلى أن نضجت الأخلاط في مفاصله، ثم تركه وخرج ولبس ملابسه وعاد يحمل سكيناً في يده، ودخل على الأمير وشهرها في وجهه، ووقف يؤنّبه ويهدده ويتّهمه، واشتدّ في تعنيفه، فاستشاط الأمير غيظاً، وبتأثير عامل الغضب والخوف اللذين ألقاهما الرازي في روع الأمير وثب على قدميه ونهض واقفاً، بعد أن كان لا يستطيع الوقوف، وفي الحال هرب الرازي من الحمام إلى حيث كان ينتظره خادمه مع الحصانين فركبا بأقصى سرعة وعاد الرازي إلى بلده، وهناك كتب للأمير كتاباً، قال فيه: «إنه لما عالجه بما أوحاه إليه ضميره قدر استطاعته لم يتيسر شفاؤه، وإنه خشي أن تطول مدة مرضه، لذلك لجأ إلى العلاج النفساني على الطريقة التي ابتدعها له وأتت بالشفاء، وإنه أصبح من عدم اللياقة أن

يعود لمقابلة الأمير بعد ذلك.

وقد اهتم العرب بنشر الثقافة الطبية وتقدمها بترجمة ما خلفه اليونان، وتأسيس البيمارستانات أو الكليات والمدارس الطبية لتخريج الأطباء وعلاج المرضى. ولم تلبث المدارس الطبية أن انتشرت في جميع أرجاء الدولة الإسلامية. وحذق المسلمون صناعة الطب ومرنوا عليها، وبرعوا في تشخيص الأمراض، ووصفوا الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها، واعتمدوا في علاج المرضى على ما كسبوه من تجارب، وما يستتبع ذلك من وضع المؤلفات الطبية في الأدوية والعقاقير وفي أعضاء الجسم ووظائفه.

كما دعا العرب إلى عقد المؤتمرات الطبية التي كان يجتمع فيها الأطباء من جميع البلاد الإسلامية في موسم الحج، حيث يقدمون نتائج أبحاثهم ويعرضون نباتات بلادهم ويصفون خواصها الطبية، وأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية. وقد اعتمدت معاهد الطب العملية أو البيمارستانات على نظام معاهد الطب القديمة، فقد اقتبس العرب المسلمون فكرة المارستان عن السريان في العصر العباسي الأول لتفوقهم في صناعة الطب، وكان يطلق على مدير المارستان إذا كان سرياني الأصل اسم «الساعور» ومعناه متفقد المرضى، أما إذا كان مسلماً أطلق عليه اسم رئيس الأطباء، وهو الذي يشرف عليهم ويأمر بممارسة مهنة الطب[1].

---

(١) راجع تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص١٩، ٢٤.

طبُّنا العربي في الغرب
«الحضارة العربية في البلاد الغربية»

كانت الحضارة العربية عاملاً مؤثراً في الرقي العالمي بناحيته الفكرية والروحية، وقد ازدهرت هذه الحضارة في وقت خملت فيه الثقافتان اليونانية والرومانية وأسدل ستار من الجهل على العالم الأوروبي عموماً، وعادت دول هذا العالم من جديد تتخبط في ساحة الانشقاقات الحزبية والاختلافات الدينية. وبقيت هذه الدول على حالها من النزاع والجهل إلى أن أشرقت عليها شمس الحضارة العربية بوهجها الساطع. وكان من أول ما عني به العرب في ذلك الزمن زرع الإيمان والثقة في الإنسان وإيلاء البدن حقّه من العناية والحفظ ليكون قوياً، على أساس أن العقل السليم في الجسم السليم، وتهذيب النفس بإصلاحها لتعود إلى عالم الخير والمحبة، وأضحت هذه الحضارة منارة العالم الغربي يهتدي بها إلى الفضيلة والخير والصحة. وما إن انبثقت معالم أواخر القرن العاشر على الأوروبيين حتى وجدوا أنفسهم محاطين بأمة عربية حضارية سبقتهم في جميع النواحي الضامنة لخير الإنسان وتقدمه في جسمه ونفسه، فرداً ومجتمعاً، ومن ضمن هذه النواحي عالم الطب العظيم. وقد انساب هذا العلم من خلال احتكاك الغرب بالعرب في ثلاث جهات: المناطق التي جرت عليها الحروب الصليبية في الشرق، ثم صقلية وإيطاليا في جنوبي أوروبة، ثم في الأندلس غرباً حيث كانت قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية مهد الثقافة العربية ومركز العلوم والمعارف.

وإذا كان الغرب قد استطاع دحر العرب في خلال توسعهم بسبب تخاذل ملوك العرب وحكامهم وتفرق وحدتهم، فإن هذا الغرب قد خضع للتيار الفكري العربي لأنه مهد للعالم كله السبيل إلى يقظة علمية سارت به شوطاً بعيداً في الحضارة التي عرفها. ولقد كان لبعض المدارس والجامعات الغربية التي تأثّرت بالثقافة العربية شأن كبير في اليقظة الطبية في أوروبة، ونخصّ بالذكر من هذه المدارس مدرسة سالرنو ومونبلييه وبولونيا الإيطالية وبادوا وغيرها من مراكز الثقافة العالمية.

فإلى أي مدى أثرت هذه المدارس في النهضة الكبيرة التي عرفها العالم الغربي؟

○ مدرسة سالرنو:

أجمعت كتب التواريخ على أنه بينما كان التكهن والتدجيل سائدين في الدول الأوروبية، كانت سالرنو في إيطاليا مركز طب علمياً، وكان فيها مدرسة لتعليم الطب. وأما السبب في نهضتها العلمية فهو قربها من جزيرة صقلية، وهي أحد أطراف العالم العربي في ذلك الوقت، وقربها أيضاً من ريجيو وأوترانتو البيزنطيتين المتمتعتين بالثقافة اليونانية. والجدير بالذكر أن العرب افتتحوا هذه الجزيرة سنة ٨٧٧ م ثم اندفعوا قدماً في الأراضي الإيطالية بما في ذلك رومة، وكانوا حيثما حلّوا نشروا علومهم وثقافتهم وحضارتهم. وقد أحكم العرب الفاتحون أواصر الصلة العلمية مع سكان إيطاليا فتم بذلك التقارب بين الحضارتين العربية واللاتينية، فبعثتا في أوروبة حركة علمية ونشاطاً كبيراً كانت تفتقد إليه في إبان زمن العتمة.

وقد كان لمدرسة سالرنو الطبية هذه أثر كبير في نقل العلوم العربية كلها، ولا سيما الطبية منها، مما جعل هذه المدرسة أساس النهضة العلمية في أوروبة ومنارتها التي تهتدي بها في تقدمها وازدهارها. والملفت أن تاريخ هذه المدرسة الطبية سيقت إلينا في رواية حفظتها كتب الأخبار، تقول: استطاع تاجر من قرطاجنة في إحدى رحلاته التي مرّ فيها بسالرنو أن يتصل بأميرها جيزولفو وأخيه الذي كان طبيباً. وقد ثبت أن هذا التاجر كان عربياً، ولكن اسمه ظلّ مجهولاً، إذ اتخذ لنفسه اسم قسطنطين، فأصبح معروفاً به، ولما كان قادماً من إفريقية فقد لقبوه بالإفريقي. اعتكف قسطنطين في دير «مونتي كاسينو» حيث ترجم ما لديه من نفائس العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية، وقد كانت كتبه عاملاً دفع مدرسة سالرنو إلى البحث عن الطب العربي والاقتباس منه اقتباساً واسع النطاق، حتى عادت بفضل ما اقتبسته رائدة المدارس الطبية في أوروبة.

ولم تكن كتب قسطنطين الإفريقي ترجمة حرفية عن العربية، بل كان يتصرف في النقل تصرفاً واسعاً، ومن غير أن يشير إلى من نقل عنه. ومن الثابت أنه نقل الكثير عن كتاب «الملكي» لعلي بن العباس المسمّى «كامل الصناعة»، وكتاب «المفردات» لابن الجزار، وكتاب «العين» لحنين بن إسحاق، كما نقل كتباً طبية أخرى. والواقع أن قسطنطين المذكور لم يقم بهذا العمل وحيداً بل ساعده في الترجمة يوحنا الفاسي العربي الأصل، وتحاكي سيرة يوحنا سيرة قسطنطين في بعض وجوهها،

فقـد عاش مثله في سـالرنـو ثم ترهّب في ديـر مونتي كـاسينو وربمـا تتلمـذ عـلى قسـطنـطين وسـاعده في الـترجمة، ولا سيـما في ترجمـة القسم الجراحي من كتـاب «كامـل الصنـاعـة». ولا شك أن عدداً آخـر من الرهبـان تتلمذوا عـلى قسطنـطين فساهمـوا معه في نقـل العلوم العربية إلى اللاتينية. وكان من بين الكتب العـربية الأصـل التي وضعت في سالـرنو كتـاب في التشريح يعود تاريخه إلى القـرن الثاني عشر. وقـد كان تـأثير مـدرسة سـالرنـو في أوروبة عظيماً جداً، ولقد اعتنى قسطنطين الإفـريقي بتنظيم دراسـة التشريح فـأحدث فيهـا انقلاباً مميزاً، وبينّ أهمية علم التشريح وضرورة الاعتناء به، وحـوّل دراسة النـظرية إلى تطبيقية عملية. وقد نظمت في سالرنو وغيرها دراسة تشريح الجثث البشرية على أيدي الأطباء العرب. وقدّر عدد الكتب التي ترجمها قسطنطين بنحو أربعين كتاباً منها كتب في الطب وفي الفلسفة. ويرجع الفضل في إيجاد الطب السريري في سالرنو إلى المؤلفـات العربيـة الأصل التي تـرجمها قسـطنطين الإفـريقي، وكان لـترجمته الكتـاب «الملكي» أثر كبير في مؤلف في «القبالة» ظهر في سالـرنو بعنـوان الـ «تروتـولا»، وقد نسب هذا الكتاب إلى قابلة حاذقة تدعى «تروث»، لأن القبالـة كانت مقتصرة عـلى النساء فقط.

ثم تراجع مستوى مدرسة سالرنو، ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة منهـا وقوع مـدينة سـالرنـو في طريق الفـاتحين، واشتهـار معاهـد مونبلييـه وبادوا وبـولونيـا بعد حصادها بزور العلوم الطبية العربية، وما حوته من علماء عرب، وما وصل إليها من كتب عربية ترجمت في طليطلة. ولقد استمرّ معهد سالرنو في حـال السقوط والتـدني إلى أن كانت سنة ١٨١١ حيث أقفل نابوليون أبوابه. كانت سالرنو حلقة وصل بـين الغرب والشرق قبل انبثاق عهد النهضة في أوروبة، وظلّت على مدى قرنين كـاملين عاملة على استمرار نقل الطب العربي إلى أوروبـة اللاتينيـة، ثم ما لبثت أن تـركت زمام الأمانة لتحملها المعاهد التي انتشرت في أثناء النهضة وما بعدها.

كـانت جنسية قسـطنطين مـوضع بحث ومنـاقشـة مـدة طـويلة، إلى أن اتفق مؤخراً على تثبيت عروبته وإسلامه جميع الباحثين والمؤرخين، ومن بينهم «مايرهـوف» الذي يعتبر حجة في هذا الموضوع. ويرى البعض من هؤلاء الباحثين أن السبب في كتـمان أسماء المؤلفين الأصليـين من قبـل قسـطنـطين يعـود إلى أن الـطب النفسـاني الإكليريكي الذي كان شائعاً في أوروبة في ذلك العهـد كان يحـارب الإسلام والعلم العـربي ويحول دون نشرهمـا مما حمـل قسطنـطين الإفـريقي عـلى كتم جنسيتـه ودينـه وإخفـاء مآخـذ تـواليفـه حتى لا يُمنـع من نشر العلم العـربي. والـواقـع أن كتـابـه «الكامل» هو كتاب «كامل الصناعة» وكتابه المؤلـف من مجمـوعة إرشـادات ونصائح

طبية للمسافرين هو كتاب ابن الجزار. وتأكيداً لهذا الرأي يرى «مايرهوف» أن الحضارة العربية اشتدت مناهضتها في أوروبة في أثناء الحروب الصليبية وشملت النواحي العلمية والفكرية، فكان لا بدّ لقسطنطين من أن يكتم دينه الحقيقي وألا يعلن عن مصادر كتبه.

إن المقابلة بين كتاب الفن الكامل وكتاب كامل صناعة الطب ترينا مشابهة كبيرة بين المؤلِّفين، خصوصاً ما يتعلق بموضوعات التشريح والطب الداخلي والحميات والأعراض والإنذار وأمراض جهاز البول والتغذية والتوليد والعمليات الجراحية. وقد اعتمدت مدارس الطب الأوروبية في تدريس الطب على ترجمة كتاب علي بن العباس المسمّى «كامل الصناعة» ثم على ترجمة كتاب «القانون في الطب» لابن سينا. وما إن ظهرت ترجمة كتاب «التيسير» لابن زهر وطبعت حتى فضلت على الكتابين المذكورين، واحتلت ترجمات الطبيب الزهراوي مكانة علمية طبية رفيعة خصوصاً في قسم الجراحة لم يعرفها أي كتاب آخر.

كان القرن الثالث عشر عصر ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية، وبداية عصر ازدهار وتقدم في أوروبة. وقد بلغ عدد الكتب المترجمة عن العربية إلى اللاتينية والتي طبعت خمسة آلاف كتاب. ولهذا السبب عمّت موجة الثقافة العربية عموم الدول الأوروبية حاملة في ثناياها العلوم اليونانية كلها والعلوم الشرقية بأسرها، فكان لها الفضل الكبير والأثر العظيم في أوروبة كلها.

○ مدرسة مونبلييه:

ليس لدينا من المعلومات عن مونبلييه قبل القرن الثامن إلاّ النزر اليسير، وكل ما عرف عنها أنها كانت قرية خاملة ليس لها شأن علمي أو ثقافي. ولكن وقوعها في جنوبي فرنسة على مقربة من شواطىء البحر الأبيض المتوسط، وعلى الطريق الموصل بين إيطاليا وإسبانيا، جعل منها محطاً لقوافل المسافرين بين إيطاليا مهد الثقافة اللاتينية وإسبانيا قاعدة الثقافة العربية. وبعدما اكتسح شارل مارتيل في أثناء غزواته مدناً وقرى كثيرة منها «ماغلون»، اتجه سكان هذه البلدة وغيرها من المدن المكتسحة إلى مونبلييه، وكان هؤلاء الفارون ذوي جنسيات ونحل مختلفة آوتهم مونبلييه فازدادت قيمتها وارتفع شأنها وعظمت مكانتها.

وفي القرن الحادي عشر بدأت شهرة مونبلييه بالازدياد، فقد منحها حكامها من أسرة «غيلهم» الذين عرفوا بالحكمة والتسامح، سمعة تحسد عليها، وذلك

بإطلاقهم الحرية للدين والقومية والتجارة، فصار العلماء يفدون إليها حتى أصبحت بلد الحرية الآمن، ولمّا كان هؤلاء الوافدون من جنسيات وملل ونحل شتى، فقد وضعوا فيها أسساً لمعهد علمي عظيم، وبذلك تحولت هذه القرية من قرية صغيرة خاملة إلى مركز علمي عالمي، ليس للتجارة فقط، بل للعلم والثقافة أيضاً، وهكذا كان أول العهد بمدرسة مونبلييه، فانتقلت إليها علوم العرب التي تمّت ترجمتها في طليلطة بحيث يصحّ القول إن لهذه المدينة الأندلسية طليطلة أثر كبير في بعث اليقظة العلمية والثقافية في أوروبة.

مع نهاية القرن الثاني عشر بدأ عهد الانحطاط في الحضارة العربية الأندلسية والمغربية في العالم الإسلامي بسبب التعصب الشديد الذي اتصف به الملوك الإسبان آنذاك، وأدّى هذا التعصّب إلى هجرة عدد كبير من علماء العرب باتجاه مونبلييه، وإذا كانت هذه الهجرة قد شكلت خسارة لا تعوض لإسبانية فقد أصبحت مصدر ربح عظيم لمونبلييه، حيث استقرّ فيها عدد وفير من العلماء الفارين من الأندلس، وكان لهذه الهجرة أثر كبير في نشوء وظهور مونبلييه كمركز علمي رفيع الشأن ذائع الصيت.

وفي القرن الثاني عشر قام «غيلهم» الذي اشترك في الحملات الصليبية، وتذوّق - على الأرجح - الثقافة العربية ومدنيّتها، فخطا خطوات جريئة واسعة في سبيل إيجاد جوّ علمي ساعد على اجتذاب كثير من علماء الطب بغض النظر عن عقائدهم ومللهم وقومياتهم، وكان البعض منهم عرباً معظمهم متحلّين بثقافة عربية، وقد ساعدت الكنيسة فيما بعد على هذا الجو العلمي في مونبلييه حين أوفد البابا سنة ١٢٢٠ م الكاردينال كونراد ليضع براءة ينظم بها برنامج الدراسة الطبية في مدرسة مونبلييه، وفي سنة ١٢٨٩ م أصدر البابا منشوراً رفع فيه مستوى مدرسة مونبلييه إلى درجة جامعة.

كان منهاج التدريس في هذه الجامعة (المدرسة) في أواسط القرن الرابع عشر مرآة صافية تعكس آثار العرب الواردة من طليطلة وقرطبة من جهة ومن سالرنو من جهة ثانية. فكانت أسماء أعلام العرب النجوم الزاهرة في سماء الطب العربي تعترضك أيان سرت وكيفما ألقيت ببصرك[1]. وكان من الشخصيات التي خدمت أيضاً معهد مونبلييه جيرارد الكريموني والذي يضارع أثره فيها عمل قسطنطين

(١) الطب عند العرب، الشطي ص٤٨.

الإفريقي في مدرسة سالرنو، وهناك عدد من المستعمرين كان لهم احتكاك أكثر مباشرة بهذا العهد، ومن أقدمهم ريموند لولي الـذي تعلم العربيـة لإدخال مسلمي إفـريقية الشمالية إلى النصرانية، ولكنه بدلاً من تحقيق ما جاء من أجله تعلم الكيمياء العربية وعدل عن التبشير إذ وجد أن لا فائدة منه، ومنهم أرنـولد من «فيـلانوفـا» ١٢٣٥ - ١٣١١ م الذي جعلته أعماله العلمية أحد الثـلاثة الـذين ينسب إليهم خدمـة العلم العـربي في مونبلييـه ونشره في أوروبة. درس أرنـولد الكيميـاء العـربيـة وتـرجم من «القانون» لابن سينا الفصل الخـاص بالقلب، ومن كتـاب ابن زهر بحث الغـذاء، وصنّف كتباً عديدة، ولكن آراءه الرئيسية في الأمراض كـانـت مقتبسة عن المؤلفـين العرب. وكان منهم أيضاً «هنري دي موندفيل» الذي كان جراحاً عظيماً، وقد وضع كتاباً على جانب كبير من الأهمية العلمية أسماه «التشريح والجراحة» اقتبس فيه الكثير عن العرب. ثم لمع بعد ذلـك اسم العالم «غي دو شولياك» في سماء مونبلييـه، وقد بقي لكتابه المسمّى «الجراحة الكبرى» المقام الـرفيع في الأوسـاط الطبيـة حتى القرن السابع عشر، وظلّ هذا الكتاب يدرس في الجـامعات الأوروبيـة حتى القرن الثـامن عشر. وفي هذا المؤلف الضخم لم يخف دو شولياك الأثر العربي وقلما تقرأ صفحـة لا نجد فيه ذكراً عن الأطباء العرب.

تمتاز مدرسة مونبلييه عن غيرها من المدارس باعتراف أساتذتها الباحثين بفضل العلم العربي، ويدلنا على ذلك ما أورده الأستـاذ «فورغ» في مـطلع القرن العشرين في خطاب تذكـاري ألقاه في إحدى الجامعات الإسبانيـة: «إن إسبانيـا أرض قائمـة بنفسها يتحلى أهلوها بقوة حيوية قومية غير معهودة في غيرهم، كما أن لهم من سرعة الفكر والاستعداد للنضـال ما يجعـل هذه الأمـة فريـدة في بابهـا، ويرجـع ذلك إلى استيلاء العرب على إسبانيا واختلاطهم بشعبها اختلاطاً دموياً أدّى إلى السير بأوروبة في مضمار التقدم، ممّا دعا «ليـبري» إلى القول: «احـذف العرب من التـاريخ يتـأخر عصر التجدد في أوروبة عدة قرون».

وقد كانت طليـطلة التي عادت إلى الإسبـان سنة ١٠٨٥ م نقـطة الاتصال بين المدنيتين العربية والغربية ومـركز تبـادل البضـائـع العقلية وكتب الـترجمة، يحـج إليها طـلاب العلوم من كل فـج، ثم انكفأ العـرب في القـرنـين الأخـيرين من تـاريخهم الإسباني من إشبيلية وقرطبة إلى غرناطة، فصارت معقـلاً للانكـماش، واجتمع فيهـا فلول العـرب وأصبحت عاصمـة، ولمعت فيها أنـوار شعلة المـدنيـة العـربيـة للمـرة الأخيرة، وفي الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢ م جلا العرب عن غرناطة، فـتركوا كـما

قال الأديب الفرنسي «كلود فرير» من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيه القرون القادمة، كما أن طليطلة بقيت خزانة كتب تغذت بترجمتها الفكرة البشرية أعصراً مديدة، ولا جرم أن هنالك تاريخاً نادر المثال لم ينقصه شيء لا من العظمة ولا من طول المدة. ولنتأمل الآن في هذا التراث ووسائله وآثاره في ترقية المعارف الطبية[1].

كانت الثقافة العلمية في مطلعها يونانية لاتينية اقتبسها العرب سريعاً وطبعوها بطابعهم الخاص فيما بعد، وقد كان أعظم همّهم بعد أن وطدوا هذا الملك العريض أن يضمّوا إلى عظمة الفتح عظمة العلم، فلم ينته القرن التاسع حتى كان العرب، كما قال لوسيان لوكلرك، قد ملكوا جميع علم اليونان، فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في العالم، وتعددت فيها معاهد الترجمة، ثم أصبحت طليطلة في القرن الثاني عشر ما كانت عليه بغداد في القرن التاسع الميلادي.

ذكر أنه كان في بغداد نحو مائة مترجم ينقلون كتب اليونان إلى اللسان العربي والسرياني، ثم بعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في إسبانيا مركز هذه الترجمة، فعادت الثقافة اليونانية إلى أوروبة بوساطة العرب على أيدي مترجمي طليطلة ولا سيما جرارد الكريموني. وكيفية اختراق هذا النفوذ العلمي الأقطار العربية والذي استضاءت به مراكز الحضارة العربية في إسبانيا بالأشعة الآتية من المشرق، فإن الأقرب إلى الحقيقة والعقل في إسبانيا أن هذه الديار كانت متصلة من الهند إلى المحيط الأطلانطيكي: وكان لها نصف سواحل البحر الأبيض المتوسط، فكان الاتصال يجري بين إفريقية وإسبانيا من جهة، وعواصم الدول العربية من جهة ثانية، ولا شك أن موسم الحج كان ذا تأثير قوي في انتقال الأفكار والآثار، ولم تكن الرحلة إلى الحج فقط، بل كانوا يقومون في هذه الرحلة بطلب العلم، وقد أشار «لوكلرك» إلى مثل هذا العمل، يقول: إن محمد بن عبدون ذهب من الأندلس إلى مصر، وكان يمارس التطبيب في بيمارستان الفسطاط، وإن ولدي يونس الحرّاني ذهبا يحصّلان الطب في بغداد، وبقيا عشر سنوات، وعمرو بن حفص ذهب إلى القيروان للتحصيل، وكما كان يذهب أطباء من العرب إلى الشرق كانت الأطباء تأتي من الشرق إلى الغرب، وتقصد سلاطين العرب في إسبانيا، فكانت الكتب نظير الطنافس الحريرية والحلي والجواهر يؤتى بها من الشرق إلى الأندلس، حتى اجتمع في خزانة قرطبة زهاء ستمائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً. وكان القرن العاشر هو القرن الذي بلغت فيه المدنية العربية في الأندلس أوجها، فأقبل

---

(١) المصدر السابق ص١٤٩.

النـاس على العلم في جميـع أنحاء المملكـة العربيـة وتعددت مصادر الأشعـة فلمعت قرطبة.

على أن العرب لم يكتفوا باقتباس علوم اليونان، بل درسوا هذه العلوم بإمعان واكتشفوا طرقاً حديثـة، فازداد عـدد علمائهم، وانتقل العـرب من طور الـترجمة إلى طـور التوليـد والتأليف والتصنيف، ولمع بينهم أفذاذ ذلـك الـزمن مثـل الـطبيب الجـراح أبي القـاسم خلف بن عباس الـزهراوي، الـذي بدأ بـه تـاريـخ الـطب العـربي في إسبانيا، فكان علماً لا مثيل له في الجراحـة العربيـة، وإليه انتهت الـرئاسـة في علم الجراحة في القرون الوسطى. وممّا امتاز به أبـو القاسم أنـه أول من اخترع الجـراحة المصورة، فقد ورد في كتابه نحو مائتي صورة، وفي القرن الثاني عشر الميلادي عندما تـرجم الكريموني كتاب الزهراوي إلى اللاتينية أصبح هذا الكتـاب هو المعتمـد عليه والمتداول في أيدي المتعلمـين، وممّا يـدل على قيمتـه الجليلة أن الباحث الأستـاذ غي دوشلياك ـ من مونبليه ـ استشهد بكتاب الزهراوي أكثر من مائتي مرة، فلا شك إذاً أن الجراحة العربية التي كانت تنتمي إلى أصل يوناني قـد كانت نمت نمـواً عظيـماً في الغرب، والشاهد على رقي علم الجراحة العربية قـول «لانفرانـك» في أواخر القـرن الثالث عشر، وكان قد ذهب إلى إيطاليا واطلع فيها على ترجمـة تواليف أبي القـاسم الزهراوي ورجع إلى باريس فقال عن جراحي باريس: «إنهم جَهَلة ولا يكاد يـوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعته»[1].

ذكـر لوكلرك في مؤلفـه عن تاريـخ الطب العـربي أنه في ذلـك الوقت حصـل حادثان عظيمان في قـطبي العالم العـربي: أحدهمـا الحروب الصليبيـة التي ساقت إلى الشرق نحواً من مليوني أوروبي، والثاني زحف الأفكار العربية على الغرب بـوساطـة الأندلس، فقد كان قصد مكاتب العرب في إسبانيا كثير من طلاب العلم من جميـع أنحاء الغرب عطاشاً إلى تلك المناهل، فـوجدوا في خـزائن العرب في الأنـدلس من التواليف والتراجم العربية ما أحيا بينهم الفلسفة القديمـة التي كانـوا يجهلونها، وكان للفرنسيين يد في نشر هذه المعـارف البشرية، لأن أسقفـاً إفرنسيـاً هو «رايمن داجن» صار سنة ١١٣٠ م رئيساً لأساقفـة طليطلة فحق لـه الفخر بـترجمة «رسـالة الـروح» لابن سينا، إذ بعث في الناس همة الترجمة للكتب العربية فخرج منها ثلاثـمائة تـرجمة من العربي إلى اللاتيني. وهكـذا تعوّض النقص المـظلم الذي كـان واقعاً في الفكـر الغربي في القرون الوسطى، وتقدمت مدارس الغرب إلى الأمام. لقـد ذكر لـوكلرك

---

(١) الطب عند العرب، الشطي ص١٥١.

أن من هذه الترجمات الثلاثمائة كان يوجد تسعون كتاباً مترجماً من العربية إلى اللاتينية في الطب منها أربعة تواليف لأبقراط، وخمسة وعشرون لجالينوس، والباقي لحكماء العرب والإسلام كالرازي والزهراوي وابن سينا وابن زهر. وكان الكريموني - وهو أعظم المترجمين همة ومن أذكى رجال القرون الوسطى - قد أكمل في مدة خمسين سنة ثلاثة وسبعين ترجمة أكثرها لكتب طبية، ومن جملة هذه الكتب قانون ابن سينا وكتب أبي القاسم الزهراوي في الجراحة التي فعلت الفعل الأكبر في مسيرة هذا الفن في أوروبة إلى الأمام. فقد ظلّت طليطلة إذاً مدة قرنين كاملين مركزاً للتأليف والترجمة من اللغة العربية، ومن هذا المركز العلمي توزع مجموع تواليف وأفكار عامة للمعارف البشرية، وكان لعلم الطب منه الحصة الكبرى.

إذاً منذ القرن الحادي عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة، وليس صحيحاً القول إنهم لم يأتوا بجديد ولا أضافوا شيئاً يذكر إلى التراث اليوناني اللاتيني. ولا شك أن عملهم في البداية كان الترجمة من الكتب القديمة، ولكن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا إلاّ وسطاء وأنهم لم يكونوا يعلمون ما يترجمون، وأنه لم يكن لديهم روح التوليد. وعلى مثل هذا أجاب الفيلسوف الألماني هومبولد بقوله: «إن العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعارف الذي عثروا عليه بل أضافوا إليه ووسّعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة». وكان أكثر أطباء العرب من الفلاسفة الكبار، ومما لا شكّ فيه أن أبا القاسم وابن رشد كانا من الدرجة الأولى في رجال العلم وكانا من العلماء المصنفين، والزهراوي هو الذي سبق إلى سدّ الشرايين عند إجراء العمليات، وابتكر طريقة تفتيت الحصى في المثانة، وطريقة استخراج الحصى من مثانات النساء، وأشار بالقطع عند حصول الغنغرينة. وأما ابن رشد القرطبي فقد كان مفسّر فلسفة أرسطو، وفي كتابه «الكليات» في الطب أشار إلى الدورة الدموية، وإنّ الباحث عن تأثير الثقافة العلمية العربية في معاهد الطب الأوروبية يمكنه مراجعة منهاج مدرسة الطب في مونبلييه، فإنه سيجد في نهايات القرن الثالث عشر الميلادي من بين الكتب المعتمدة في التدريس تراجم كتب عربية، وكان في ذلك المنهاج لحكماء اليونان كتب من وضع أبقراط وجالينوس، وحكماء العرب من وضع ابن سينا والرازي وقسطا بن لوقا وإسحاق بن حنين وحنين بن إسحاق. ونذكر أنه في سنة ١٣٤٠ م قرّر المجمع الطبي الأولية لجالينوس وابن سينا. وفي سنة ١٥٠٠ م حكموا بالسبق لابن سينا في خمس محاضرات من بضع عشرة، ولجالينوس في أربع، ولأبقراط في واحدة[1]. وفي سنة

(١) المصدر نفسه ص١٥٤.

١٥٣٤ م كانت تواليف العرب الطبية هي المعوّل عليها في المدارس الفرنسية والأوروبية، وقد بقيت على هذا الحال حتى القرن السادس عشر حيث أخذوا يترجمون أبقراط من اليونانية مباشرة، ولم تحذف تواليف العرب من مناهج التدريس إلّا في أواخر القرن السادس عشر. يقول المؤرخ الكبير «جرمان» ـ من مدرسة مونبلييه ـ: إننا نشهد لكتاب العرب الذين كتبوا في الموضوعات العلمية بمزية الإيضاح التام والطريقة التعليمية، نعم إن هؤلاء العرب الذين يرجعون إلى نصاب قديم من مدنية اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية.

o جامعة بولونيا (إيطاليا):

كانت قائمة في القرن الثالث عشر، وكان فيها مدرسة طبية تأثرت بالعلوم العربية. اشتهرت بتبنّيها آراء ابن زهر، مارس أساتذتها علم التشريح ومن بينهم بارتولوميو ڤارينيانا (المتوفى سنة ١٣١٨ م) ودينودي غارلو (المتوفى سنة ١٣٢٧ م)، وقد اشتهر كل منهما بشرحه كتاب ابن سينا، وبلغ عدد طلاب هذه الجامعة في العام ١٣١٠ م خمسة عشر ألف طالب من جميع الجنسيات، بينهم عدد كبير من ألمانيا.

o جامعة بادوڤا (بادوا):

تأسّست سنة ١٢٢٨ م بناء على طلب مجموعة من طلاب جامعة بولونيا، وكانت هذه الجامعة تعتمد آراء ابن رشد الطبيب الفيلسوف، وقد تحصّلت على عدد وافر من مؤلفات العلماء العرب، فنفخ هذا فيها روحاً علمية وثابة أطاحت بما كان يدرس فيها من علوم باطلة كانت تعتمد على الكهانة والسحر. وقد شهر من أطبائها بياترو آبانو الذي أحرق ضحية تصريحه بآرائه وسعيه إلى التوفيق بين ما تدين به الجامعة التي ينتمي إليها من أفكار، والأفكار التي بعثها العرب في تعاليمهم، فكان تتلمذ عليه طلاب كثيرون عرف منهم: چادوفولينو، وقد شرح القانون في الطب لابن سينا، ومنهم أيضاً «فيزال» الجراح الشهير. وبصورة عامة فإن الجامعات الأوروبية كلها في القرون الوسطى تأثرت بالعلوم العربية وكان طلابها من جميع الملل والجنسيات المختلفة، لم يشذ عنها إلّا جامعة أوكسفورد التي تأسّست سنة ١١٦٧ م، وجامعة كمبردج، وجامعة باريس، والتي كان أساتذتها وطلابها رهباناً. ومن جملة الجامعات التي تأثرت بالعلوم العربية أيضاً جامعة نابولي وتولوز وسلمنكا وغيرها من جامعات القرون الوسطى.

المصادر والمراجع

١ ـ القديمة:

- **الانتصار لواسطة عقد الأمصار ١/٥**: ابن دقماق إبراهيم بن محمد، المطبعة الكبرى الأميرية، طبعة ١٣٠٩ هـ، بولاق ـ مصر.
- **البيان والتبيين ١/٤**: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة ١٩٧٥ م، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة ـ مصر.
- **تاريخ الحكماء**: ابن القفطي جمال الدين علي بن يوسف، طبعة أوفست بلا تاريخ، نشر مكتبة المثنى، بغداد ـ العراق.
- **تأريخ حكماء الإسلام**: البيهقي ظهير الدين، تحقيق محمد كرد علي، طبعة ١٩٤٦ م، دمشق ـ سورية.
- **تذكرة الكحالين**: الكحال علي بن عيسىٰ، طبع حيدرأباد الدكن سنة ١٩٦٤ م، الهند.
- **كتاب تسهيل المنافع في الطب والحكمة**: ابن الأزرق إبراهيم بن عبدالرحمن ابن أبي بكر، وعلى هامشه الطب النبوي للذهبي، طبعة حجرية بالمطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ.
- **كتاب الحاوي في الطب ١/٢٣**: الرازي أبو بكر، تواريخ الأجزاء مختلفة، طبع حيدرأباد الدكن، الهند.

○ **الحيوان ١/٨**: الجاحظ عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، (طبعة ١٩٤٠ م)، البابي الحلبي، القاهرة ـ مصر.

○ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/٤**: ابن العماد الحنبلي عبد الحي، بلا تاريخ، المكتب التجاري، بيروت ـ لبنان.

○ **صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا**: القلقشندي أحمد بن علي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بلا تاريخ، القاهرة ـ مصر.

○ **طبقات الأطباء والحكماء**: ابن جلجل سليمان بن حسان، تحقيق فؤاد سيد، ط١٩٦٥ م، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ـ مصر.

○ **طبقات الأمم**: ابن صاعد الأندلسي صاعد بن أحمد، تحقيق لويس شيخو، طبعة ١٩١٢ م، بيروت ـ لبنان.

○ **الطب من الكتاب والسنّة**: البغدادي موفق الدين عبداللطيف، حقّقه وعلّق عليه د. عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

○ **الطب النبوي**: الذهبي الحافظ محمد بن أحمد، تحقيق وتعليق أحمد البدراوي، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م، دار إحياء العلوم، بيروت ـ لبنان.

○ **الطب النبوي**: ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر، تعليق عادل الأزهري ومحمود فرج العقدة، بلا تاريخ، القاهرة ـ مصر.

○ **العقد الفريد**: ابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ م، تحقيق أحمد أمين وزملائه، القاهرة.

○ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**: ابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم، شرح وتحقيق د. نزار مهنّا، منشورات دار مكتبة الحياة، الطبعة الأولى ١٩٦٥ م، بيروت ـ لبنان.

○ **الفهرست**: ابن النديم محمد بن إسحاق، تحقيق فلوجل، مكتبة خياط، بيروت ـ لبنان.

○ **فوات الوفيات ١/٥**: الكتبي محمد بن شاكر، ت. د. إحسان عباس، طبعة ١٩٧٣ م، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان.

○ **القانون في الطب ١/٣**: ابن سينا أبو علي الحسين بن عبدالله، طبعة أوفست بلا تاريخ، مكتبة المثنى، بغداد ـ العراق.

○ **لطائف المعارف**: الثعالبي أبو منصور عبدالملك بن محمد، ت. إبراهيم الأبياري

وحسن كامل الصيرفي، طبعة ١٩٦٠ م، دار إحياء الكتب العلمية، عيسىٰ البابي الحلبي، القاهرة ـ مصر.

- **المعارف**: ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم، ت. ثروت عكاشة، طبعة ١٩٦٠ م، القاهرة ـ مصر.
- **معجم الأدباء (إرشاد الأريب) ١/٧**: ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي، باعتناء د. س. مرجليوث، طبعة ١٩٢٧/٢م بالمطبعة الهندية بالموسكي بمصر.
- **معجم البلدان ١/٥**: ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي، طبع ١٩٨٠ م، دار بيروت، بيرت ـ لبنان.
- **مقدمة ابن خلدون**: ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد، ت. علي عبد الواحد وافي، طبعة ١٩٥٧ م، القاهرة ـ مصر.
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**: النويري أحمد بن عبدالوهاب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بلا تاريخ، القاهرة ـ مصر.
- **وفيات الأعيان**: ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ١٩٦٨ م، بيروت ـ لبنان.

٢ ـ الحديثة:

- **أعلام النساء ١/٥**: عمر رضا كحالة، المطبعة الهاشمية بدمشق، الطبعة الثانية ١٩٥٩ م، دمشق ـ سورية.
- **تاريخ الأدب العربي**: بروكلمان، كارل، ت. يعقوب بكر وعبد التواب (ج٤)، ط١٩٧٥ م، دار المعارف، القاهرة.
- **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**: الدكتور أحمد عيسىٰ بك، الطبعة الثانية ١٩٨١ م، دار الرائد العربي، بيروت ـ لبنان.
- **تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين**: الدكتور سامي خلف حمارنة، سلسلة منشورات جامعة اليرموك، ط سنة ١٩٨٦ م، عمان.
- **تاريخ الطب والصيدلة عند العرب**: الدكتور سامي خلف حمارنة، طبعة ١٩٦٧ م، القاهرة ـ مصر.
- **تاريخ العرب**: الدكتور فيليب حتي وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور، الطبعة الخامسة ١٩٧٤ م، دار غندور، بيروت ـ لبنان.

- **تأريخ العلم عند العرب**: الدكتور عمر فروخ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ م، بيروت ـ لبنان.
- **الطب عند العرب**: الدكتور أحمد شوكت الشطي، سلسلة مع العرب ٧، مؤسسة المطبوعات الحديثة، بلا تاريخ، القاهرة.
- **الطب عند العرب والمسلمين**: الدكتور محمود الحاج قاسم محمد، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م، الدار السعودية، جدة ـ السعودية.
- **الطب المصري القديم**: الدكتور حسن كمال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، طبعة ١٩٦٤، القاهرة ـ مصر.
- **الطب النبوي في علاج مرضى الجهاز الهضمي والكبد**: الدكتور علي مؤنس، الطبعة الثانية ١٩٩٢ م، منشورات العصر الحديث، بيروت ـ لبنان.
- **الطب والأطباء في مختلف العهود الإسلامية**: الدكتور محمود دياب، طبعة ١٩٧٠ م، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة ـ مصر.
- **العلم عند العرب**: ميلي، ألدو، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف، ط١٩٦٢ م، القاهرة ـ مصر.
- **علم الفلك**: نللينو، كارلو، طبعة ١٩٨١، بروما.
- **قصة الطب**: جارلاند، جوزف، ترجمة سعيد عبده، بلا تاريخ، القاهرة ـ مصر.
- **مختصر تأريخ الطب العربي**: الدكتور كمال السامرائي، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات ٣٥٥، بغداد ـ العراق.
- **معجم الأطباء**: الدكتور أحمد عيسى بك، الطبعة الأولى ١٩٤٢ م، القاهرة ـ مصر.
- **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: جواد علي، طبعة ١٩٦٨ م، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.
- **نشأة العلوم الطبية عند المسلمين في العصر الأموي**: لطف الله قاري، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م، دار الرفاعي، الرياض ـ السعودية.
- **الورقات**: حسن حسني عبد الوهاب، بلا تاريخ، مكتبة المنار، تونس.

٢ ـ الأجنبية:

- **A History of Medecine** Segerist, H. (2v), Oxford University Press 1957.
- **An Introduction to the History of Medecine:** Carrison, F.H. 4Th Ed, Sanders 1929.
- **Arabian Medecine:** Campbell, D. (2v) London 1926.
- **Geschichte des Arabichen:** Sezgin, F. Band III, Leiden, Brill 1970.
- **Histoire de la Médecine Arabe:** Dr. Leclerc, Lucien. Burt Franklin, New York 112, 1971.
- **Ibn An - Nafis and the Theory of the Lesser Circulation:** Meyerhof, Max. Iris, (1935) 65, v23, p100 - 120.
- **La Médecine Arabe:** Browne, Edward, G. annoté par Dr. H.P.J. Renaud, Paris V^2, 1933.

فهرس الكتاب

الموجز في تاريخ الطب عند العرب

لم يكن التقدم الهائل لعلم الطب اليوم من نتائج الحضارة المعاصرة وحدها.. إنما كان حصيلة خبرات وتجارب أجيال من قوافل الأطباء والعلماء على مرّ العصور، والدور الريادي للأطباء العرب والمسلمين في هذه المسيرة التاريخية أثبتته الدراسات المنصفة التي برهنت على أنّ ما قام به هؤلاء الأطباء كان امتداداً وبلورة لعناصر ونظريات أبدعوها.

لقد عرفت العلوم الطبية العربية شأواً رفيعاً، فكانت للطب مكانة لا تنازع وللأطباء درجة لا تطال، وقد وجهت عناية خاصة لجمع أخبار الأطباء، وعندما انتشر الطب العربي في الغرب تداولته أيدي العلماء وعقولهم، حتى إن أسماء أطباء كالزهراوي وابن سينا والرازي اشتهرت في أوروبة كشهرتها في ديار الإسلام، وذلك أن الطب في ذلك العهد كان قائماً على بعض معارف العلماء ويحتل درجة متأخرة في برامج التعليم في الأديرة، على عكس ما كان عليه في البلاد الإسلامية. وقد ارتكز الطب العربي على مؤلفات القدماء التي تشرّبها الأطباء العرب فأثمرت ونمت على أيديهم.

ومن خلال مطالعتنا فصول هذا الكتاب تتبيّن لنا بدايات الطب الأولى في مصر وفارس واليونان إلى حين تلقّف العرب هذا العلم فاعتنوا به دراسة وبحثاً وتجربة وبلغوا به حدّ الكمال، حيث أينعت ثماره في دول العالم قاطبة وخصوصاً في أوروبة التي كانت ما تزال غارقة في عتمة الجهل والانطواء.